د. محمد حناوي

النظام العسكري بالأندلس

في عصري الخلافة والطوائف



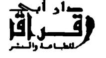
النظام العسكري بالأندلس

في عصري الخلافة والطوائف

د. محمد حناوي

النظام العسكري بالأندلس

في عصري الخلافة والطوائف



الـكتـاب: النظام العسكري بالأندلس في عصري الخلافة والطوائف

المـؤلف: محمد الحناوي

التصفيف والإخراج الفني : دار أبي رقراق للطباعة والنشر

المطبعة : فيديبرانت

الطبعـة الأولى:2003

رقم الإيداع القانوني

2003/1750

ردمك

9954-423-23-0

دار أبي رقراق للطباعة والنشر

10 شارع العلويين رقم 3 حسان الرباط
الهاتف : 83 75 20 037 - الفاكس:89 75 20 037
E- mail : editbourg@aim.net.ma : البريد الإلكتروني

طبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

المقدمة

يعتبر القرنان الرابع والخامس للهجرة (X/ XI م) من الفترات الهامة في تاريخ الغرب الإسلامي عامة وفي التاريخ الأندلسي خاصة، وذلك لاعتبارات عديدة، منها أن القرن الرابع الهجري تميز بقيام سلطة مركزية بقرطبة تمكنت من إرساء بنيات سياسية واقتصادية وعسكرية قوية زادت من إشعاع دورها في مجالات مختلفة داخليا وخارجيا. لقد عملت الخلافة على بناء نظام عسكري مستقر ومتميز كانت الكور المجندة بالأقاليم تشكل نواته الأولى، وكذلك جند الحضرة المركزي بقرطبة، إضافة إلى الأسطول الحربي الذي امتدت قواعده على طول السواحل الأندلسية، وكان أداة فعالة في تثبيت نفوذ الخلافة.

أما القرن الخامس الهجري فشهد، على عكس سابقه، تحولات عميقة في البنيات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي أسستها الخلافة طيلة القرن الرابع. إنه يقدم نموذجا دالا لمعاينة ورصد مختلف التطورات والتحولات في المجال العسكري والحربي بالأندلس. إن البحث في التاريخ العسكري الأندلسي هو في واقع الأمر دراسة في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لأن المجتمع والسلطة والاقتصاد مقولات لها وجه عسكري يعكس بشكل من الأشكال مستوياتها وأهميتها. وقد عبر الحكماء القدامى من العرب والعجم عن هذا المعنى حين قالوا: «المُلك بناء والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل... » [1].

يتضح إذن أن دراسة النظام العسكري لا يعني، كما يتبادر إلى الأذهان، الوقوف عند المعارك وتعدادها وأعداد الجند المشارك فيها والانتصارات التي حققها أو الهزائم التي مُني بها، وغير ذلك من الجوانب "الحدثية" في الموضوع، والتي لا تفيد إذا انتُزعت من السياق أو الإطار السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي أنتجها. نعم إن الحروب وجه من أوجه الأنظمة القائمة في ميادين متعددة، ولذلك قيل:«(...) والحرب في جوهرها (...) أداة عنيفة من أدوات السياسة. والسياسة ذاتها وثيقة الصلة بالاقتصاد الذي يتمحور حول

---

(1) - **الطرطوشي** (أبو بكر محمد بن الوليد الفهري): سراج الملوك. تحقيق: فتحي (محمد أبو بكر)، الدار المصرية اللبنانية، 1994،ج، ص.215، 216.

نشاط الأمم..ومن هذه العلاقة جاءت أهمية الحرب كظاهرة اجتماعية[1]». وقد سبق لابن خلدون[2] في «فصل الحروب ومذاهب الأمم» أن حلل بعمق أهمية الحروب باعتبارها أمرا طبيعيا في البشر مبينا أسبابها المتباينة والمرتبطة بالانتقام أو الغيرة أو المنافسة أو العدوان أو الجهاد. ودون الدخول في التفاصيل ذات الطابع النظري، نقول: إن على التاريخ العسكري أن يتخطى عتبة تمجيد الماضي والوقوف عند بطولاته، إلى الاهتمام بالنظم والبنيات التي تثير قضايا متعددة.

لاشك أن التاريخ العسكري للمشرق الإسلامي قد حظي باهتمام الباحثين منذ مدة؛ في الوقت الذي لم يحظ بالاهتمام ذاته في الغرب الإسلامي. فلم تفرد له، فيما نعلم، دراسة عربية مستقلة[3]. إن ما كتب في موضوع الجند الأندلسي يدخل في إطار دراسات تُعنى بمواضيع أخرى. بل كثيرا ما يتم التركيز على المعارك أو العناصر العرقية أو الإثنية التي يتكون منها الجند، وذلك تبعا للفترات التاريخية المدروسة.

لقد شاع الاعتقاد أن المصادر المتداولة لا تسمح بالكتابة في التاريخ العسكري نظرا إلى العمومية أو الغموض اللذين يطبعان مادتها. وكثيرا ما تَمَّ التذرع بذلك للقول إن التاريخ العسكري، شأنه شأن التاريخ السياسي، لا يعدو أن يكون تاريخا للبلاط والبطولات.

---

(1) - الموسوعة العسكرية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1977، ج 1، المقدمة.

CONTAMINE (Ph); L'Histoire militaire et l'histoire de la guerre dans la France médiévale depuis trente ans. Dans : **Tendances, perspectives et méthodes de l'Histoire médiévale. Actes de 100è congrés national des sociétés savantes,** Paris,1977 T1, p.71-79.

(2) - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): المقدمة، تحقيق: وافي (عبد الواحد)، القاهرة لبنان، 1401 هـ، ج 2، ص. 715.

(3) - نلاحظ أن التأليف الأوربي في مختلف جوانب التاريخ العسكري الفيودالي قد نشط منذ السبعينيات، مما أدى إلى تعدد الأبحاث الجزئية في الموضوع، وساهم في خلق تراكم معرفي تاريخي هام، شكل أرضية صلبة لمدرسة تاريخية تعنى بالبحث العسكري. ومن أهدافها وضع أسس علم تاريخي مستقل يهتم بالحروب ومظاهرها ودلالاتها النفسية والاجتماعية والاقتصادية. إنه علم يعرف "بالبوليملوجيا" (Polémologie)، ويسعى إلى المساهمة الفعالة في بناء ما سماه **F.BRAUDEL** أحد أقطاب مدرسة الحوليات، "بالتاريخ العميق" أو "الطويل المدى"، الذي يتجاوز الأحداث السطحية المتكررة والمتشابهة، ليرصد البنيات والنظم والتحولات العميقة التي تصاحبها عبر حقب تاريخية طويلة.

نعتقد أن دراسة النظام العسكري الأندلسي يطرح مجموعة من القضايا الأساسية، خاصة تلك المرتبطة بالمقولة الثلاثية السالفة الذكر، والتي يتقاطع فيها المُلك (السلطة السياسية)، والجند (أداة السلطة)، والاقتصاد (البنية المادية للسلطة والجند). أي أن دراسة النظام العسكري الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف تمر عبر فهم طبيعة السلطة السياسية القائمة بقرطبة والأقاليم، وكذا الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي يؤثر فيها الجند أو يستفيد منها بشكل من الأشكال. يبدو أن إحدى الخصائص الأساسية التي يتميز بها التاريخ الإسلامي الوسيط، تكمن في طبيعة السلطة السياسية وعلاقتها بالجند[1]. فلاشك أن السلطة أو الدولة سواء كانت قوية ونافذة ــ كما هو الحال في عصر الخلافة، أم ضعيفة كما حدث خلال الطوائف، أثرت بشكل من الأشكال في بنية الجند ونسجت معه علاقات مختلفة حسب طبيعتها.

ومن القضايا الهامة الأخرى التي تثيرها دراسة النظام العسكري الأندلسي ما يفرضه موقع الأندلس كمجال جغرافي وبشري يقع في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام" أي جوار المسيحيين، وما يلزم ذلك الجوار من خصوصيات في الثغور؛ وظاهرة العمران العسكري أو العمارة الحربية وأشكالها ومميزاتها. ناهيك عن طبيعة الأسطول الحربي الذي تطور بالأندلس منذ فجر الخلافة. ونشير في هذا الباب إلى غياب الدراسات العربية التي تهتم ببنية الأسطول خلال عصري الخلافة والطوائف؛ ولذلك عمدنا إلى إثارة العديد من القضايا والتساؤلات المرتبطة بدور الصناعة ومواد الإنشاء وأنواع السفن، ورجال الأسطول. وقد حاولنا تتبع مجموعة من المعطيات والإشارات التي ميزت الأسطول الحربي من التجاري منذ عصر الخلافة، أي قبل القرن الخامس الذي انقلبت فيه الأوضاع لصالح المسيحيين في مجال البحار. إلى جانب ذلك رصدنا قضايا أخرى لا تقل أهمية

---

(1) - لقد حدث العكس في أوربا الفيودالية حيث، لما كانت السلطة السياسية قوية ومركزية خلال العصر الكارلنجي (VIII - IX م)، لم تكن الأوضاع الاقتصادية والعسكرية في مستوى النمو والقوة التي كانت عليها خلال الفترة اللاحقة أي إبان قوة الفيودالية خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (X - XI م)؛ وهي المرحلة المعاصرة للخلافة والطوائف بالأندلس. إنها الفترة التي تجزأت فيها السلطة السياسية على المستوى الإقليمي، في الوقت الذي تألقت فيها فئات الفرسان، وشكلت "نظاما" خاصا أو قوة اجتماعية واقتصادية وعسكرية تصدرت الواجهة واعترف بها الجميع بما في ذلك الكنيسة والسلطة السياسية نفسها.

كالرباطات البحرية وجهاد العلماء والفقهاء والقضاة بالثغور، والطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية والمسافات التي تقطعها في البر والبحر، والأوقات التي تحتاجها وتختارها في ذلك، والأسلحة المستعملة في الحروب؛ أنواعها ووظائفها ومواد وطرق صناعتها واستخدامها إلى غير ذلك من المواضيع التي تنير جوانب متعددة من التاريخ العسكري الأندلسي. ففي مجال الثغور مثلا اعتمدنا منهجية تسعى إلى إبراز خصوصياتها العسكرية وعلاقتها بالسلطة المركزية بقرطبة خلال الخلافة، ثم إبان عصر الطوائف، حيث استقرت بها بعض الأسر والدويلات المعروفة. لقد كانت الخلافة بقرطبة تخضع الثغور، وكانت في الآن نفسه تنهج سياسة خاصة اتجاهها باعتبارها أقاليم أو مناطق حربية دائمة تقف في مواجهة المسيحيين. إنها سياسة مبنية على نوع من الازدواجية، مما جعلها تختلف تماما عن تلك التي كانت تسلكها مع باقي الكور والأقاليم. وتغيرت سياسة الثغور في الميدان العسكري خلال العصر الطائفي. إن السياسة التي اتبعت في الثغور المتاخمة للمسيحيين طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة تفضي إلى إثارة قضايا هامة مثل وظائف الحصون والقصبات أو العمران الحربي بتلك المناطق، وكيفية النظر إلى مقولتي "دار الإسلام" و "دار الحرب"، في إطار علاقات سياسية وعسكرية معقدة، إلى غير ذلك من القضايا. وفيما يتعلق بالعمران الحربي بأندلس الخلافة والطوائف نلاحظ الغياب المطلق للدراسات والأبحاث العربية في الموضوع. إن أغلب ما أنجز من تلك الأبحاث لم يُراوح النظرة، إن لم نقل، "النظرية" السياسية أو العسكرية التقليدية[1] التي تعتقد أن الحصون والقصبات والأبراج والأسوار ما هي إلا مؤسسات حربية ذات طابع دفاعي محض يتحصن فيها الأمراء والزعماء تحسبا أو درءا لأخطار الغزو أو الثورات المحلية. انطلاقا من ذلك حاولنا النظر إلى التحصين الأندلسي خلال الخلافة والطوائف باعتباره بنية عسكرية وعمرانية هامة له علاقة مباشرة بالمجال الطبيعي والبشري والاقتصادي وبالسلطة السياسية. وبناء على ذلك أبرزنا أهمية الحصون أو المعمار العسكري عامة

---

(1) - لقد سادت هذه النظرة السياسية أيضا في الأبحاث الأجنبية المهتمة بالأندلس إلى بداية الثمانينيات حيث انطلقت أبحاث خاصة في الميدان الأثري والطبونيمي ساهمت إلى حد كبير في دراسة ما يُعرف "بالسكن المحصن" وتعدد وظائف التحصينات.

ووظائفه في الأرياف كما في المدن في عهد الخلافة، ثم التحولات الكبرى التي طرأت على تلك الأهمية والوظائف خلال الطوائف. وبتعبير آخر، بعد القيام بعمل توثيقي مصدري يهدف إلى رصد وجرد لوائح لأهم مواقع الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، حاولنا إجراء قراءة متأنية، ما أمكن، في وظائف العمارة الحربية من خلال ربطها بمتغيرات ثلاثية السلطة والمجال والإنسان.

فهل تسعف المادة المصدرية المتوفرة في تحليل ودراسة القضايا السالفة الذكر؟

تجدر الإشارة إلى أن المكتبة الأندلسية تمتاز بثروة مصدرية هامة ومتنوعة على الرغم من أن العديد من مصنفاتها قد أصابه التلف مثل: **كتاب المتين** لابن حيان أو **تاريخ ابن حيان**، وكتاب **ابن عاصم** المتوفى 449 هـ (1058 م) المخصص للمآثر العامرية خاصة غزوات المنصور بن أبي عامر الكثيرة وأوقاتها، وكتاب أحمد بن محمد التاريخي في **مسالك الأندلس ومراسيها ومدنها وأجنادها الستة**، وكتاب الملك الطائفي بن هود المعروف ب: **يقظة الناعس وتدريب المجاهد الفارس**، إلى غير ذلك من المصنفات التي سيؤدي العثور عليها[1] إلى تعميق الكثير من القضايا المرتبطة بالتاريخ العسكري الأندلسي؛ إن لم نقل تغيير بعض التصورات السائدة حوله. إضافة إلى غنى المكتبة الأندلسية، يمتاز التاريخ الأندلسي كذلك بمصادر معاصرة للمرحة التاريخية التي تُعنى بها هذه الدراسة. يكفي الإشارة إلى مصنفات ابن حيان السالف الذكر (ت 469 هـ/ 1076 م)، والبكري (ت 487 هـ/ 1094 م)، وابن بلقين الأمير عبد الله[2] الذي كتب في الأحداث العسكرية من الفترة العامرية إلى آخر أيام الطوائف، وغيرهم.

---

(1) - من حسن الحظ أن بعض المصادر سواء المعاصرة للفترة أم المتأخرة قد احتفظت بنصوص هامة من المصنفات المفقودة كابن بسام مثلا في "**الذخيرة**" أو ابن الخطيب في "**أعمال الأعلام**"، اللذين اعتمدا نصوصا عديدة من كتاب المتين لابن حيان مثلا. وربما من المفيد للغاية إجراء قراءات واسعة في مختلف متون المصادر قصد جمع وترتيب تلك النصوص بهدف إعادة بنائها وفق شكل قريب من الأصل.

(2) - يجمع الباحثون على أن كتاب "**التبيان**" للأمير عبد الله بن بلقين، من المصادر الفريدة في التاريخ الأندلسي، وذلك لاعتبارات متعددة منها: أنه على شكل (سيرة ذاتية) كتبها أحد الزعماء الذين جربوا ومارسوا السلطة السياسية والعسكرية التي عاشها المؤلف بغرناطة خلال الطوائف. إنه وثيقة تكشف بدقة مجموعة من القضايا العسكرية يمكن من خلالها قراءة التحولات التي طرأت على جند الحضرة في دويلة غرناطة القرن الخامس الهجري، وعلى وظائف الحصون والقصبات مع مطلع القرن ذاته.

إن إجراء قراءة واسعة في المصادر المخطوط منها والمطبوع خاصة تلك التي لها صلة مباشرة بالموضوع والاستفادة منها بدرجات متفاوتة حسب مضامينها والمراحل التاريخية التي تناولتها، دون إغفال مظان أخرى تبدو أحيانا ثانوية، من شأنه أن يفيد في إعادة قراءة جوانب متعددة من التاريخ العسكري في الغرب الإسلامي عامة، وفي الأندلس خاصة، كما يؤدي إلى تبديد الاعتقاد أو التصور السائد والقائل بأن المصادر تقف عند التاريخ العسكري ذي الوجه الحدثي السياسي.

انطلاقا مما سبق استفاد هذا البحث من مادة مصدرية متنوعة تمّ بناؤها كالتالي:

1 – المصادر التاريخية.

2 – كتب الطبقات والتراجم والأنساب.

3 – كتب الفقه والنوازل والوثائق والأموال والحسبة.

4 – كتب الجهاد والسلاح والفروسية.

5 – كتب المسالك والممالك والرّحلات والجغرافيا.

6 – كتب الطب والفلاحة والنبات والبيطرة.

7 – كتب السياسة والأحكام أو الأخلاق السلطانية.

8 – المصنفات الأدبية واللغوية والدواوين الشعرية والمعاجم المتخصصة.

9 – الدراسات والأبحاث العربية والأجنبية المعاصرة.

1 – من المصنفات التاريخية الأساسية التي استفاد منها البحث نذكر "**تاريخ افتتاح الأندلس**" لابن القوطية و"**المقتبس**" لابن حيان، و"**ترصيع الأخبار**" للعذري، و"**كتاب التبيان**" لابن بلقين، و"**البيان المغرب**" لابن عذاري، و"**الحلل الموشية**" لمؤلف مجهول، و"**المعجب**" للمراكشي، و"**الإحاطة في أخبار غرناطة**"، و"**أعمال الأعلام**" لابن الخطيب، وموسوعة "**النفح**" للمقري وغيرها كثير. تقدم هذه المصنفات الأندلسية والمغربية معلومات متنوعة ومفيدة يمكن استغلالها في مختلف جوانب الموضوع. فابن القوطية مثلا يفيد في أحداث الفتح الأندلسي، وما يرتبط بأعداد الجند المستقر بالكور المجندة والأقاليم الأندلسية. ويقدم شيخ المؤرخين الأندلسيين ابن حيان مادة ثمينة لا يُستغنى عنها في دراسة النظام العسكري

الأندلسي طيلة عصر الخلافة. إن معلوماته خاصة في القطعة الخامسة من "**المقتبس**" تغطي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. وتتناول بالتفصيل أحياناً مختلف جوانب الحملات العسكرية التي نُظّمت ضد المعارضين لقرطبة أو ضد المسيحيين في الثغور. كما تقدم مادة ثرية في دراسة وفهم خصوصيات هذه الثغور في الميدان العسكري. وتفيد كذلك إلى حد كبير في فهم الخطط الإدارية والعسكرية التي أقرها الخليفة عبد الرحمن الناصر في الأقاليم. أكثر من ذلك كشف ابن حيان عن معلومات غاية في الأهمية تخص السكن المحصن والعمارة الحربية، إذ يمكن رسم خريطة مفصلة من خلال "**المقتبس**" تُبيِّن مواقع الحصون في الأرياف الأندلسية وأهمية القصبات والأسوار في المدن مما يساهم في قراءة دلالات العمارة العسكرية بالأندلس.

ويُكَمِّلُ ابن بلقين الصورة أو التصور باعتباره شاهد عيان حلل ظاهرة التحصين ووصف أهميتها، وكذا التحولات التي طالتها على امتداد القرن الخامس الهجري. وعلى نهج ابن حيان قدم ابن بلقين لائحة مفصلة للحصون والقصبات ومواقعها وأدوارها يمكن مقارنتها بما ورد عند ابن حيان أو عند العذري لإبراز مختلف التطورات أو التغييرات في هذا المجال. أما صاحب "**الحلل الموشية**"، و"**البيان المغرب**" فقد أفادا في مواضيع متعددة مثل العلاقات الأندلسية المغربية في مجال الأسلحة والأساطيل وغيرها. وانفرد ابن الخطيب بذكر نصوص وإشارات هامة، نقل بعضها من كتاب "**المتين**" المفقود لابن حيان تتناول جوانب جزئية ودقيقة أفادت في تعميق وفهم قضايا تهم رواتب وأعطيات الجند الأندلسي منذ فترة استقراره بالكور المجندة، وطرق التموين في الميدان العسكري، وكيفية صناعة الأسلحة وتخزينها وتوزيعها، وخطط الجند وأساليب قتاله إلخ... ولاستكمال المعلومات في بعض جوانب الموضوع اعتمدنا موسوعتين هامتين هما "**الذخيرة**" لابن بسام، و"**نفح الطيب**" للمقري. ولم نتردد في الاستعانة بمصنفات مشرقية لا تقل أهمية أفادتنا، في إطار المنهج المقارن، في إبراز بعض جوانب أنظمة الجيش المشرقي عامة والفاطمي بالخصوص. وقد استفاد البحث من "**صبح الأعشى**" للقلقشندي، ومن "**خطط**" المقريزي، ومؤلفات ابن الأثير والطبري والبلاذري وغيرهم. ولم نَألُ جُهْداً في الاطلاع على بعض المصادر الفاطمية ككتاب "**المجالس والمسايرات**" للقاضي أبي حنيفة النعمان،

و"**سيرة الأستاذ جوذر**" لصاحبه الجوذري، الذي كشف عن معلومات مفيدة تهم الأسطول الحربي الفاطمي والعناصر العرقية أو الإثنية النافذة في الجند. كما أفادنا كتاب "**تبصرة أرباب الألباب**" للطرسوسي في فهم كيفية صناعة السلاح وطرق استخدامه في الأسطول. وعلى غراره أورد مخطوط "**الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية**" لابن منكلي إشارات دقيقة تهم رواتب وأعطيات الجند بالإضافة إلى خصوصيات تهم أوضاع جند الأسطول الحربي، مما أفاد في إجراء مقارنات مهمة.

2 ـ وتقدم كتب الطبقات والأنساب والتراجم الأندلسية معلومات دالة في مختلف مناحي الحياة العسكرية. وتجدر الملاحظة إلى أن الأندلسيين قد برعوا في هذا الصنف من التأليف، وبات من المؤكد أن المتفحص والمتمعن لمتونه يكتشف معلومات وإشارات نادرة، قد لا توجد في المصنفات التاريخية المتداولة، وتفيد في إنارة جوانب متعددة من التاريخ العسكري.

وللدلالة على ما نذهب إليه يكفي القول مثلا إن ما ألفه القاضي عياض وابن الأبار وابن بشكوال، والحميدي، وابن الشباط، والخشني، وأبو حامد الغرناطي وابن عبد الملك المراكشي، وغيرهم، يضم نصوصا دقيقة، قل ما انتبه إليها الدارسون المعاصرون، تهم رباط وجهاد العلماء والفقهاء والقضاة وانقطاعهم إلى الثغر المتاخمة للإفرنج في فترات تاريخية محددة. كما تقدم إشارات دالة في إشراف بعض الفقهاء والعلماء على بناء الحصون والقلاع من أموالهم الخاصة، كي تتخذ للجهاد والرباط، ناهيك عن إشارات تهم العلماء الذين كانوا يزاولون مهمة القضاء في الثغور إلى جانب قيادة الجند، وغير ذلك من القضايا التي يفيد فيها هذا النوع من التأليف.

3 ـ لاشك أن كتب الفقه والنوازل والوثائق والأموال والحسبة تعد من المظان التي تساعد على فهم واستيعاب العديد من القضايا التي تهم النظام العسكري. فكتب الأحكام الفقهية والنوازل، "**كالأحكام الكبرى**" لابن سهل، و"**الفتاوي**" لابن رشد، و"**النوازل**" لابن الحاج و"**المعيار المعرب**" للونشريسي، و"**النوازل**" للبرزلي، وغيرها، تقدم معلومات مفصلة في ميدان التشريع والإفتاء في كيفية افتكاك الأسرى وطرق توزيع الغنائم وأرزاق الجند والعلاقات المختلفة مع المسيحيين في حالات السلم والحروب وغير ذلك. وتزخر كتب

الوثائق والأموال والحسبة كـ"**المقصد المحمود**" للجزيري، وكتاب "**الوثائق والسجلات**" لابن العطار، و"كتاب **الخراج**" لأبي يوسف يعقوب وآخر في الخراج أيضا لابن آدم القرشي، و"**كتاب الأموال**" لأبي جعفر الداودي، و"**كتب الحسبة**" لابن عبدون والسقطي وغيرهم، بفيض من الإشارات التي تكمل المعلومات الواردة في كتب الفقه والنوازل السالفة الذكر في المجال العسكري. إنها تتناول مواضيع متعددة كطرق التحبيس في ميادين مختلفة كالخيل والأموال والأرض لفائدة الثغور أو الجند، وكيفية التعامل مع أموال العدو في السلاح والغنائم. كما تقدم كتب الحسبة إفادات هامة في دور المحتسب أو القاضي في مراقبة الأدوات والمواد التي يستفيد منها الجند، كالسلاح والدّواب، حتى لا تتعرض للغش والتزوير إلى غير ذلك من المعلومات التي لابد من استحضارها لاستكمال التصور حول النظام العسكري الأندلسي.

4 ــ ولا تقل كتب الجهاد والسلاح والفروسية درجة في معالجة جوانب متعددة ودقيقة من التاريخ العسكري بأندلس الخلافة والطوائف وتجدر الإشارة إلى ازدهار التأليف العربي في هذا الصنف من المؤلفات منذ عهد الفتوحات الإسلامية، مما أدى إلى نوع من التراكم المعرفي ساهم في إغناء المكتبة العربية. ورغم ذلك لا تزال العديد من المصنفات لم يُنفض عنها غبار النسيان. ومن أمثلة ذلك نذكر:

"**في الوقف والأمور الجهادية**"، لمؤلف مجهول، وكتاب "**الجهاد والسلاح**" لآخر مجهول، و"**سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد**" للمراكشي؟، وكتاب "**الخيل وما ورد فيها**" للتميمي، و"**مطلع اليُمن والإقبال في استيفاء ما للخيل من الأحوال**، لعبد الله بن رضوان، و"**كامل الصناعة في الفروسية**" لمؤلف مجهول، و"**كتاب الإيضاح في علم الرّمي**" لأبي عبد الله محمد بن يوسف، و"**القول التام في فضل الرّمي بالسهام**" لشمس الدين السخاوي، وغيرها من ذخائر التراث المخطوط الذي يميط اللثام عن مجموعة من القضايا العسكرية الهامة التي يثيرها هذا البحث كالأسلحة وفضلها وما يصنع منها، والمواد التي تدخل في صناعتها، وفضل الخيل وأحوالها وصفاتها وما يختار منها في الحروب إلى غير ذلك. ونعتقد أن الانكباب على تحقيق هذا النوع من المصنفات التي ألفت

كاملة أو جلها في الأنظمة العسكرية كما يتبيّن من عناوينها، سيعمق البحث في التاريخ العسكري ويؤدي إلى تجاوز النظرة القاصرة القائلة بفقر المادة المصدرية في الموضوع.

5 ــ أما كتب المسالك والممالك والرّحلات والجغرافيا، مثل ما صنفه الرازي، وابن خرداذبة، والإصطخري، وابن حوقل، والبكري والمقدسي والحموي، واليعقوبي وابن سعيد المغربي، والحميري وغيرهم كثير، فتقدم معلومات لها صلة مباشرة بالموضوع كالبحث في الكور المجندة والأقاليم وحدودها؛ ورسم المسافات العسكرية التي تقطعها الحملات العسكرية في البر والبحر في أوقات الحروب أو في السلم. كما تصف الأقاليم الستراتيجية كالثغور، وتذكر التفاصيل حول مسالكها وطرقها، وفي أحوالها البشرية والجغرافية والاقتصادية مما يسهل مراقبتها من قبل الجند. ناهيك عن الإشارات الدالة الواردة في كتب الرّحلات، تهم العادات العسكرية والحربية في مناطق متعددة وأقاليم متباينة مما سمح بإجراء بعض المقارنات التي لا تخلو من فائدة.

6 ــ وتزخر المكتبة المغربية والأندلسية بمصادر تراثية هامة تعنى بالطب والفلاحة والنبات والبيطرة استفاد منها البحث بشكل مباشر. وعكس ما يتبادر إلى الأذهان، يقدم هذا النوع من التأليف معلومات دقيقة لم ندّخر جهداً في استغلالها قصد فهم وتوضيح مجموعة من القضايا المرتبطة بالجند. فنصوص الفلاحة مثلا تقدم للباحث إشارات دالة في إنتاج المواد الفلاحية (التموين) المختلفة التي يستفيد منها الجند، وأوقات أو فصول إنتاجها، وكمياتها. كما تفصل ولو بشكل غير مباشر في موضوع الجند وعلاقته بالحياة الاقتصادية بشكل عام. أما كتب الطب والبيطرة، التي لم تستغل، فيما نعتقد، إلى الآن، فتقدم لدارس النظم العسكرية مادة دسمة استفدنا منها في الطب البشري والبيطري حيث أمكن توظيف إشارات ونصوص تكشف عن الوسائل والطرق التي يتخذها الأطباء الذين يرافقون الحملات العسكرية ويلازمون الجند أو البياطرة الذين يعالجون أمراض الدّواب بدقة واهتمام خاصة الخيل التي كانت تشكل الأداة الأساسية في حياة الجند أو الفارس الأندلسي. وقد تم توظيف نصوص هامة انفرد بها الطبيب المشهور أبو القاسم الزهراوي (ت. حوالي 1013م) في كتابه المخصص للطب والتشريح، كشف فيها عن أساليب دقيقة للغاية تهم التشريح والعلاج أو مداواة الجراح الناجمة عن استخدام الجند للأسلحة. لقد قدم نماذج

تطبيقية تدخّل عبرها ليبيّن طرق انتشال أو استئصال أجزاء من الأسلحة كالسهام السامة من أعضاء جسم بعض قادة الجند الذين أصيبوا في المعارك. ولا غرو فقد برع في ذلك حتى أنه أبهر الأوربيين الذين أخذوا منه كما اعترف بعضهم بذلك(1).

7 — ولم تبخل كتب السياسة والأحكام السلطانية في تزويدنا بمعلومات غنية تهم جوانب مختلفة في الموضوع. وكما هو الشأن بالنسبة لكتب الطب والفلاحة والنبات والبيطرة، ألف المغاربة والأندلسيون، على غرار المشارقة في هذا اللون من كتب التراث وقدموا تصوراً إن لم نقل "نظريات" تهم أسس وقواعد الحكم والمُلك التي يعتبر الجند إحداها.

لقد وظفنا معلومات مفيدة واردة في مصنفات مختلفة أندلسية ومغربية ومشرقية كمؤلفات ابن المقفع والماوردي، والمرادي الحضرمي والطرطوشي وابن المناصف، وابن رضوان وابن الأزرق، وابن الخطيب وغيرهم، دون إغفال ما ورد في بعض المخطوط منها، **كالفوائد والقلائد، قلائد السلوك فيما يحتاج إليه الملوك** لأبي الحسن الأهوازي، وكتاب **السياسة** في تدبير الرئاسة ليحيى البطريق، وكتاب **السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة**، لأبي العباس أحمد التدميري، وغيرها من الأدوات المصدرية المفيدة في تبيان طبيعة الجند ووظائفه وأدواره وعلاقاته المختلفة في الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

8 — وتتيح المصنفات الأدبية واللغوية والدواوين الشعرية والمعاجم المتخصصة إمكانيات متعددة لدارس الأنظمة العسكرية لأنها تقف أحياناً عند جزئيات مفيدة في دراسة وفهم قضايا عسكرية كبرى. فلا نبالغ إذا قلنا إن مؤلفات ابن هشام اللخمي مثلاً في "**تقويم اللسان وتعليم البيان**" أو ما صنفه الجاحظ في **الرسائل والحيوان والبيان والتبيين** أو ما كتبه ابن سيدة الأندلسي في "**المخصص**"، أوالزجالي في **أمثال العوام**، لا يمكن الاستغناء عنه في فهم جوانب كثيرة في النظم العسكرية. وتقدم الدواوين الشعرية الأندلسية بدورها مادة طيبة في هذا المجال. ولقد استفدنا من **ديوان ابن دراج القسطلي**، في ذكره للأحداث

---

(1) - SOURNIA (J. Ch); Médecins Arabes Anciens X et XIè siècles, Paris, Conseil international de la langue française, 1986, introduction.
CLOT (A); L'Espagne musulmane, VIII-XV^{e} siècle, Paris, Perrin, 1999, p. 258 et sv.

التي صاحبت المرحلة العامرية، وديوان المعتمد بن عباد الملك الإشبيلي الذي وصف أحداث خلعه من قبل المرابطين، وديوان ابن هانئ الأندلسي الذي وصف الفاطميين، وديوان ابن حمديس، والأعمى التطيلي وغيرهم. لكن وجب التنبيه إلى أنه باستثناء المعاجم اللغوية المتخصصة كالمخصص لابن سيدة، ولسان العرب لابن منظور وتكملة المعاجم العربية لدوزي وغيرها، فإن أغلب المصنفات الأدبية والشعرية المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف يعكس بشكل من الأشكال التحديات والصراعات المختلفة بين قوى متناحرة تبحث عن الغلبة والسيادة والتألق. ولذلك فكثير من النصوص اتسم بالمبالغات والأوصاف الزائدة عن اللزوم، مما يفرض التعامل معها بحيطة وحذر تامّين.

9 ــ ولم يغفل البحث الاستفادة من الدراسات المعاصرة العربية والأجنبية. لقد حاولنا إجراء قراءة في نتائج مجموعة من الأبحاث الأجنبية ذات الطابع الأثري والطبونيمي الشيء الذي ساعد على توطين وفهم أهمية ووظائف العديد من الحصون والقصبات والأسوار. إضافة إلى ذلك نشير إلى أن دراسة النظام العسكري الأندلسي وما يقتضيه الجوار مع المسيحيين دفعنا إلى توسيع مجال القراءة والاستفادة من بعض متون المصادر المسيحية مما مكّن من عقد مقارنات لا تخلو من فائدة بالنظام العسكري الفيودالي. ونبادر إلى القول إن الاطلاع وإمعان النظر في المادة المصدرية العربية على تنوع واختلاف متونها دفعنا إلى إعادة النظر في الكثير من المقولات والنظريات الجاهزة التي تزعم بتفوق أوربا الفيودالية على العالم الإسلامي في العديد من الميادين.

انطلاقا مما توفر من مادة مصدرية متنوعة عالجنا الموضوع في أحد عشر فصلا موزعة على ثلاثة أبواب. خصص الأول للكور المجندة وجند الحضرة ونظام الثغور وخطط الجند وأساليب القتال. وتناول الباب الثاني الحصون والقصبات والأبراج والأسوار والأسلحة. أما الباب الثالث فعالج الأسطول الحربي أي دور الصناعة ومواد الإنشاء والسفن وأنواعها ورجال الأسطول بأعدادهم وأسلحتهم ورواتبهم، دون إغفال الرباطات البحرية التي خصصنا لها فصلا تمهيديا. وتناولت الخاتمة أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

وفيما يتعلق بالمنهج، نكتفي بالقول: إن الدراسة لا تدعي الكمال أو الشمول؛ وإن مـــا يمكن استنباطه واستخلاصه من النص أثناء بنائه، لدليل كافٍ عن ما يتضمنه من طـــرق ومناهج.

ولابد من توجيه الشكر والتقدير لكل الذين ساهموا، من بعيد أو قريب، في إنجاز هذا البحث.

والله ولي التوفيق

الباب الأول

الكور المجندة وجند الحضرة ونظام الثغور وخطط القتال

الفصل الأول : الكور المجندة وجند الحضرة

الفصل الثاني : نظام الثغور

الفصل الثالث : أعطيات وأرزاق الجند

الفصل الرابع : خطط الجند وأساليب القتال

تـقـديـم

قبل تحليل أدوار وطبيعة الأدوات العسكرية الدفاعية في أندلس الخلافة والطوائف، المتمثلة في الحصون والقصبات والأسلحة والأسطول، لابد من فهم واستيعاب نظام الكور المجندة وجند الحضرة وأرزاق الجند وخطط وأساليب قتاله، لأن في ذلك ما يكشف عن طبيعة الجند الأندلسي نفسه من حيث أعداده ومكوّناته الأساسية. فمن خلال الكور المجندة تتضح أصول العناصر البشرية المكونة لهذا الجند منذ الفتوحات باعتبارها النواة الأولى أو القاعدة التي تأسس عليها لتتطور بعدئذ خلال عصر الإمارة مرورا بالخلافة إلى الطوائف.

ودراسة جند الحضرة، هي دراسة إحدى الركائز التي اعتمدت عليها الخلافة في قرطبة طيلة القرن الرابع للهجرة(X م)، سواء لإخضاع المعارضين لسياستها داخليا، أو لردع أعدائها شمالاً في الثغور أو جنوباً في شمال إفريقيا. ولذلك يجب تفكيك مكونات جند الحضرة لإبراز أهم عناصره وفئاته وكذا التحالفات أو التطورات المختلفة التي لحقت به في ظل الخلافة أو إبان عصر الطوائف.

ولن يستقيم فهم بنيات وطبيعة الكور المجندة وجند الحضرة دون دراسة أعطيات وأرزاق الجند الذي ظل يخدم السلطة السّياسية في قرطبة أو في الأقاليم. فكيف كانت تلك السلطة تكافئ الجند؟

إن الحديث عن أرزاق وأعطيات الجند الأندلسي لا يقتصر على تبيان حجم أجوره والمرتبات التي يتلقاها مشاهرة أو في أوقات محددة في السّنة؛ وإنّما يتعدى ذلك إلى محاولة إبراز علاقة الجند نفسه بالحياة الاقتصادية بأندلس الخلافة والطوائف. فلاشك أن كباره كانوا يُكَافؤُون أو يستفيدون بشكل مباشر من استغلال أراضٍ خصبة على شكل مِنح أو "إقطاعات" مختلفة. كما أن ما كانوا يتقاضونه من خزينة الدّولة، ما هو في واقع الأمر إلا جزء من الضرائب المختلفة التي كان يؤديها الفلاحون في العالم القروي، والحرفيون وأمثالهم في عالم المدن.

انطلاقا من ذلك لا يمكن دراسة أرزاق وأعطيات الجند دون فهم جوانب أساسية

من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بأندلس القرنين الرابع والخامس للهجرة (X-XI م).

ولاستكمال التصور عن طبيعة الجند الأندلسي ووظائفه الأساسية لابد من دراسة أنظمة التعبئة وأساليب القتال المتعددة التي كان يعتمدها في معاركه المختلفة. فهل استمر خلال عصري الخلافة والطوائف في نهج خطط وأساليب قتالية سادت من قبل في مناطق أخرى، أم استطاع أن يُطوّرها أو يبتكر أخرى بفعل ما أملته عليه خصوصيات شبه جزيرة الأندلس المتاخمة للعالم المسيحي. وبصدد ذكر مجاورة المسيحيين وخصوصية الأندلس باعتبار موقعها في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام"، لابد من رصد طبيعة الجند المستقر في الثغور وإبراز مميزاته المختلفة مقارنة بجند الحضرة أو بغيره في الأقاليم الداخلية، سواء خلال الخلافة أو إبّان عصر الطوائف.

واعتمادا على المعطيات السالفة الذكر قسمنا هذا الباب إلى الفصول التالية:

1 ـ الكور المجندة وجند الحضرة.

2 ـ نظام الثغور.

3 ـ أعطيات وأرزاق الجند.

4 ـ خطط الجند وأساليب القتال.

الفصل الأول

الكور المجندة وجند الحضرة

الكور المجندة وجند الحضرة

1. الكور المجندة

لفهم مكونات الجند الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف، لابد من العودة إلى مرحلة ما قبل الخلافة حتى يتسنى تبيان أصول العناصر البشرية التي كانت تشكل نواته وبنيته الأساسية. لقد كانت تلك النواة تتكون من العرب والبربر[1]، ثم تطوّرت لما انضمت إليها عناصر أخرى مختلفة حسب تغيُّر الظروف التاريخية[2]. وقد أُطلق اسم "البلديون" على العرب والبربر الذين رافقوا الحملات العسكرية الأولى"..لأنهم أصبحوا يعدون أنفسهم أهل البلد ومالكيها.."[3]. كما التحقت عناصر أخرى شامية مهمة عدديا[4]، قادها بلج بن بشر القشيري عام 125هـ/(742 م)، وتُعرف في المصادر بالشاميين[5]. ويبدو أن قدوم هذه العناصر الشامية الجديدة تسبّب في صراعات مختلفة،حادة أحيانا، بينها وبين

(1) - لاحظ أحد الدّارسين بنبرة لا تخلو من بعض الخلفيات السلبية إن لم نقل العنصرية أن فتح الأندلس كان بقيادة البربر ذوي الأصول الفارسية المشرقية، فموسى بن نصير مثلا كان حفيدا لأحد أسرى الحروب العربية الفارسية ومولاه طارق بن زياد فارسي كذلك من حمدان، ومغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك من أصل مسيحي كما يدل على ذلك اسمه. أما مساعدو هؤلاء في شبه جزيرة الأندلس فمسيحيون أيضا، انظر:
MARTINEZ–GROS (Gab.); L'idéologie Omeyyade. La Construction de la légitimité du Califat de Cordoue, (X - XI^e Siècles). Madrid – Casa de Velàzquez, 1992, p.53-54.

(2) - دون سرد التفاصيل المرتبطة بمكونات الحملات الأولى إلى شبه جزيرة الأندلس وكيفية استقرارها والحروب التي خاضتها، نكتفي بالقول إن الأفواج الأولى كانت من بربر الشمال الإفريقي. ولاشك أن عناصر أخرى بربرية وعربية التحقت بها مع توالي أخبار الفتح والانتصار والإغراءات المختلفة التي ما فتئ يقدمها العالم المفتوح. يلاحظ كذلك أن الفتوحات الأولى لشبه الجزيرة الإيبيرية لم تكن سهلة وهادئة كما اعتقد أحد الدارسين حين أوضح أن القوط في إسبانيا خضعوا لطارق بن زياد دون مقاومة، في حين دافع البربر في شمال إفريقيا بالمتلاح عن الحضارة الإغريقية والرومانية ضد الفتوحات الإسلامية، انظر:
LE TOURNEAU (R), "L'occident musulman de milieu du VII^e siècle à la fin du XV^e siècle". dans: Annales de l'Institut d'Etudes Orientales Alger, 1958, p.147. 176.
تكشف المصادر عكس ما ادعاه "لوتورنو" عن مقاومة القوط للجيوش الإسلامية خاصة في المراحل الأولى:انظر:
ابن عذاري (المراكشي): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق. كولان (ج. س) ليفي بروفنسال (إ)، بيروت، دار الثقافة، 1983، ج 2، 8، 9.

(3) - ذنون طه (عبد الواحد): "تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي"، في: دراسات في التاريخ الأندلسي، بغداد، 1987، ص.88،37.

(4) - تختلف المصادر حول أعداد العناصر الشامية أو البربرية التي استقرت منذ البداية في شبه جزيرة الأندلس، وكذلك حول أعداد القوط الذين واجهوا المسلمين بقيادة طارق بن زياد. انظر:
ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا والأندلس، تحقيق. الطباع أنيس (عبد الله)، بيروت 1964، ص. 20، 71.
ابن الخطيب (لسان الدين الوزير السلماني):الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عنان (محمد عبد الله)، القاهرة، دار المعارف، 1956، المجلد 1، ص. 101، 102.
ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تونس، 1286 هـ، ص. 40.

(5) - ابن الخطيب، الإحاطة...م1، ص.108.

باقي العناصر العربية والبربرية التي سبقتها إلى الأندلس لأنها تعتبر نفسها أحق بالامتيازات الأساسية. ولم تتردد المصادر[1] في نقل تفاصيل الصراعات التي دارت بين الشاميين والبلديين والبربر. لكن الخلافة الأموية التي كانت في حاجة ماسة إلى مجهودات كل العناصر السالفة الذكر من أجل الحفاظ على وجودها ومصالحها في شبه الجزيرة الإيبيرية، سعت بكل الوسائل، إلى خلق توازنات من شأنها أن تحقق التساكن بين كافة العناصر. ولذلك كلفت الوالي أبا الخطارالحُسام بن ضرار الكلبي[2] 125هـ/127هـ (742م/744م) بأن يجد حلولاً مُرضية لمختلف النزاعات القبلية، والنّظر في إمكانة إعادة توزيع القبائل في "كُور الأندلس ليكون "ذلك" أبعد للفتنة.."[3].

كما حاول في الوقت ذاته مراعاة الأصول الشامية والوضع الاقتصادي والجغرافي الجديد في شبه جزيرة الأندلس، دون نسيان التوازن القبلي والاجتماعي الذي لن يضرّه إبعاد العناصر الشامية الجديدة عن قرطبة التي لا تتسع لها[4]. وبإيعاز من القومس أرطباس[5] انزل "أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن بريُّه وأهل فلسطين بشِدونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قِنَّسرين بجيان وأهل مصر بباجة وقطيعاً منهم بتُدمير"[6]. وقد فصّل ابن حيان[7] أكثر حين بيّن أن"(...) جند الأردن وهم أهل كورة ريه وتوصل بوصولهم أهل

---

(1) - **ابن القوطية** (أبو بكر محمد بن عمر)، تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق الأبياري إبراهيم، القاهرة - بيروت، 1982، ص. 42، 43، 44؛ **ابن عذاري**: البيان المغرب... المصدر السابق، ج 2، ص. 33.
ابن الأبار (محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي)، الحلة السيراء، تحقيق مؤنس (حسين)، القاهرة،1963، ج1، ص. 45، 46، 61؛ **ابن الخطيب**: الإحاطة، م 1، ص. 107، 108، 109.

(2) - **ابن القوطية**: نفسه، ص. 42، 43؛ **ابن عذاري**: نفسه، ج 2، ص. 33؛ **ابن الخطيب**: نفسه، م 1، ص.108، 109.

(3) - نفسه، م 1، ص. 108. انظر بعض التفاصيل في:
MANZANO MORENO (Ed) ; El Asentamiento y la Organizacion de los yùnds Serios en Al-Andalus, dans : **AL QANTATA**, Vol. XIV, Fasc. 2, Madrid, 1993, p. 327, 359.

(4) - **ابن القوطية**: تاريخ افتتاح الأندلس، ص.44؛ **ابن الخطيب**:الإحاطة...، م1، ص.109.

(5) - يعتبر أرطباس من زعماء القوط الذين تحالفوا مع المسلمين في شبه جزيرة الأندلس ولذلك أسندت إليه مهمة قومس الأندلس وزعيم عجم الذّمة المكلف باستخلاص الخراج لأمراء المسلمين: الإحاطة...، م1، ص.109.

(6) - **ابن القوطية**: نفسه، ص.44؛ **ابن حيان** (القرطبي): المقتبس من أخبار بلد الأندلس، تحقيق الحجي (عبد الرحمن علي)،بيروت،دار الثقافة،1965،ص. 56؛ **ابن عذاري**: المصدر السابق، ج2،ص.33؛**ابن الأبار**:الحلة السيراء...،المصدر السابق،ج 1، ص.4، 46،61، 63؛ **مجهول**: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، تحقيق **الأبياري** (إبراهيم)، بيروت،1981، ص.78.
اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): كتاب البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف، 1975، ص. 106،105؛ **ابن الخطيب**: الإحاطة...، م1، ص.98، 109،100.
الحميري(محمد بن عبد المنعم):الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت،1975، ص.59، 75، 279، 339.

(1) - **ابن حيان**، الحجي، ص.201.

كورة قبرة وبيانة وبُلاي. ثم جند فلسطين وهم أهل كورة شدونة والجزيرة، ثم جند قِنَّسرين وهم أهل كورة جيان وأبَذَة وبيَّاسة وبسطة، ثم جند مصر وهم أهل تدمير وبلنسية، وتوصل أهل موررور وقرمونة...". وقد تناقلت المصادر هذا التقسيم البشري الجغرافي المعروف "بالكور المجندة"[1]، وهو بناء عسكري قبلي مرتبط بالدفاع عن الأندلس في بداية استقرار المسلمين بها. وقد اعتُبرت كل القبائل أو المجموعات البشرية الأولى أجناداً مجندة لحماية السلطة الجديدة في شبه الجزيرة[2]. لقد ظلت الكور المجندة قائمة إلى عهد الخلافة التي غيَّرت بنياتها عبر إنشاء جند الحضرة المركزي بقرطبة.

يتَبيّن من التقسيم الذي وضعته المصادر اتباع نوع من التّراتبية في تصنيف جند الكور المجندة. فلواء الجند الشّامي يحتل الصدارة بشرياً واقتصادياً، إذ يُخضع مناطق اقتصادية خصبة كما يتّجلى من كلام ابن حيان[3] الذي أوضح أن جند دمشق وجند حمص وجند قنسرين كان يستفيد بالتّتابع من كور إلبيرة وإشبيلية ورَيّة وما يليهما أي جند دمشق بغرناطة وشاط وشبلين وبرجة ودلاية وباغة والقبذاق ولوشة ويحصب، أما جند حمص فيسيطر على إشبيلية ولبلة. في حين يحتل جند قنسرين إقليم ريُّه. وبعد ذلك تأتي الأجناد

---

(2)- إلى جانب الكور المجندة ذات الطابع العسكري عرفت الأندلس تقسيمات ومصطلحات أخرى لها طابع إداري أو اقتصادي أو مالي. فالمصادر خاصة كتب الجغرافيا والمسالك والممالك تناقلت العديد من الألفاظ مثل الإقليم والكورة والفحص والرستاق والعمل والناحية، لكن لم تقف عند معانيها بشكل واضح. وأكثر من ذلك تتشابه معلوماتها إلى حد التطابق في هذا الباب، الشيء الذي دفع ببعض الدارسين إلى القول بأن المسلمين احتفظوا بالتقسيمات التي وجدوها في الأندلس وهي إرث إغريقي أو روماني أو قوطي. انظر مثلاً:

مؤنس(حسين): فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، طبعة 1985، ص.532 وما بعدها.

BOSCH VILA (Y); Algunas consideraciones sobre AL -Tàgr en AL -Andalus y la division politico, administrativa de la Espana, musulmana, dans: **Etudes d' orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi Provençal**, Paris, Maison la Rose, 1962, T I, pp. 23, 33.

VALLVE (J.B) ; La Division territorial de la Espana Musulmana, Madrid, C.S.I.C, 1986, pp. 133, 194 et sv.

(3) - من الملاحظ أن عهد الفتوحات في الأندلس إلى حدود عصر الولاة لم يعرف التّمييز ما بين الجند وغيره باعتبار أن كل القادمين هم جند في خدمة الخلافة الإسلامية. تتضح هذه المسألة من خلال مؤسسة القضاء أوخطة القضاء وتطوراتها. ففي فترة الولاة كان الحديث في المصادر عن قاضي الجند وهو لجميع المسلمين، ومع قيام الدولة الأموية خاصة مع عبد الرحمن الداخل، تشعبت القضايا وظهر قاضي الجماعة، وهكذا استبدل قاضي الجند بقاضي العسكر تمييزاً له عن قاضي الجماعة. انظر:

النباهي (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي): تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.

الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني الأندلسي): قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، تحقيق الحسيني(عزت العطار)، القاهرة - بغداد، 1372 هـ؛ مؤنس (حسين): فجر الأندلس...،المرجع السابق...، ص.645 وما بعدها.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص.201.

الأخرى. يؤكد البكري[1] ما ذهب إليه ابن حيان في السبق الذي يتميّز به الجند الشامي في ميدان القتال أيضاً بقوله: و"إشبيلية من الكور المجندة نزلها جند حمص ولواؤهم في الميمنة بعد لواء جند دمشق...". لاشك أن الولاة والأمراء استفادوا من التشكيلات والتقسيمات التي عكست بشكل من الأشكال الصراعات القبلية أو العرقية المعروفة إبّان أوج وقوة الكور المجندة، كالصراعات بين مختلف بطون القبائل العربية أو ما بين العرب والبربر...[2]إلخ. فالأميرعبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل138هـ(755 م)- 172هـ(765 م)، اعتمد بالدرجة الأولى على القوى اليمنية التي كونت نواة عسكرية هامة بنواحي إشبيلية. ومن هذه المدينة "كتب الكتائب وعبّأ الأجناد"[3] لقتال أعدائه ومنافسيه واتخذ العرب الشاميين واليمنيين فُرساناً، والبربر مشاة في جنده[4].

لقد حافظ الجند الشّامي على تماسكه القبلي بالكور المجندة لفترة طويلة كما يتضح من إشارات مصدرية متعددة تكشف عن استمرار الروح القبلية أو الزعامات العربية القبلية في الكثير من الكور والأقاليم الأندلسية. فابن حيان[5] تحدث عن خاصة "قريش ووجوه الموالي وأهل البيوتات". ووضع ابن القوطية[6] قبله لائحة لأهم زعماء العرب من رجال الأجناد مثل "أضحى بن عبد اللطيف في إلبيرة وابن أبي قريعة، وابن جوشن بريّة، وابن أسيد بشذونة، وحجاج بن عمر بإشبيلية". وذكر العذري[7] أشهر القواد العرب بشرق إشبيلية في عهد الإمام عبد الرحمن ابن الحكم وهم عبد الله بن المنذر، وعيسى بن شهيد، والإسكندراني وعبد الرحمن بن كليب بن ثعلبة. وكان القاضي الفرج بن كنانة من أشهر

---

(1) - البكري (أبو عبيد الله): جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق:الحجي (عبد الرحمن علي)، بيروت، دار الإرشاد، 1968، ص. 115.

(2) - فصل اليعقوبي في أصول القبائل العربية المكونة للكور المجندة في الأندلس مبيّناً أن جند دمشق الذي استقر بإلبيرة مضري وقيسي، وجند الأردن برية من سائر البطون، وجند حمص بشذونة أكثرهم يمن وفيهم من نزار نفر يسير، وغربي شذونة الجزيرة نزلها البربر وأخلاط من العرب قليل... وجند قنسرين من قرطبة شرقاً إلى حيان لأخلاط من العرب من معد واليمن...
كتاب البلدان...، مصدر سابق، ص. 105، 106.

(3) - ابن عذاري: البيان، مصدر سابق، ج 2، ص. 46.

(4) - نفسه: ص. 47.

(5) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 30.

(6) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح...، مصدر سابق، ص. 96.

(7) - العذري (أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي): ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تحقيق: الأهواني (عبد العزيز)، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1965، ص. 99.

الذين عقد لهم على جند شِذونة أيام الحكم بن هشام[1]. واورد ابن الأبار[2] نصّاً هامّاً عن آخر رؤساء الكور الذي وافته المنية بقرطبة عام 455 هـ(1063م)، وهو الشيخ أبو بكر احمد بن ظاهر "المتأمر قديماً ببلدة مُرسية وكان من بقايا رؤساء الكور..". ولعل فيما ذكر ما يُزكي قولة المقري[3] الذي أشار إلى تماسك القبائل العربية إلى عهد المنصور بن أبي عامر إذ أن "عرب الأندلس يتميزون بالقبائل والعمائر والبُطون والأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر".

يبدو أن الكور المجندة قد دامت إلى عصر الخلافة التي اعتمدت بدورها على العناصر الأساسية منها كما هو الحال مع جند إلبيرة وإشبيلية وريّة الذي هو جند دمشق وحمص وقِنّسرين[4]. إن احتفاظ الجند الشامي بامتيازات عديدة جعله يُقدّم الولاء والطاعة للخليفتين عبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر كما حدث عام 301 هـ(913م) لما عقد عبد الرحمن الناصر "لجندي حمص ودمشق ولجندي قِنّسرين ألويتها" [5]. بل كان جند دمشق "أول من استجاب لأمره وصحّح طاعته... فتبادروا بالمجيء إلى سُدّته، وألقوا بمقاليدهم إلى الخليفة، وتخلوا له عن حصونهم ومعاقلهم دون أمان طلبوه..."[6]. وعادة ما يُسند الخلفاء الأمويون أمر الجند الشامي إلى قواد وشخصيات مقربة، تحظى بثقتهم كما حصل عام 309 هـ(921م) حين أعجب الناصر أيّما إعجاب بابن أضحى صاحب حصن الحامة الذي وفد إليه فأكرمه "وأوسع جائزته وعقدله على جند دمشق الشاميين.."[7]. ولم يُخف الخليفة الحكم المستنصر بدوره إعجابه بالجند الشامي الذي يأمر باستعراضه في مناسبات عديدة[8].

2. جند الحضرة

ومع قوة الخلافة وتطوراتها في مجالات مختلفة احتاجت إلى قوة عسكرية مركزية

---

(1) - **النباهي**: تاريخ قضاة الأندلس...، مصدر سابق، ص.53، 54.
(2) - **ابن الأبار**: الحلة السيراء...، مصدر سابق، ج 2، ص. 117.
(3) - **المقرّي** (أحمد بن محمد التلمساني) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، ج 1، ص. 293.
(4) - **ابن حيان**: المقتبس...، الحجي، ص. 56.
(5) - **ابن حيان**: المقتبس: الجزء الخامس، تحقيق: شالميطا (ب) كورينطي (ف) صبح (م)، مدريد - الرباط، 1979، ص. 8.
(6) - **نفسه**: ص. 58.
(7) - **نفسه**: ص. 176،174.
(8) - **ابن عذاري**: البيان...، مصدر سابق،ج 2، ص. 244.

بقرطبة (جند الحضرة) تكون أداة ناجعة وفعّالة تلجأ إليها في مناسـبات عديـدة داخليـا وخارجيا، وذلك قصد الحفاظ على هيبتها ونفوذها. فإلى جانب الجند الشامي تمّ الاعتمـاد على قوى عسكرية أخرى متنوعة قادمة من مناطق جغرافية متباينـة كأوربـا وشـمال إفريقيا[1]. وهكذا شكل الصقالبة والحشم والبربر، إلى جانب العرب، العمود الفقري للجنـد الأندلسي لفترات طويلة. فتارة تكون الغلبة للعرب والصقالبة، وتارة تكون للبربر، وذلـك تبعاً للتحولات السياسية والعسكرية التي ينهجها الزعماء في قرطبة.

أ - الصقالبـة : تتفق المصادر على أن الأمير الحكم بن هشـام(ت 206هـ/821م) كان "أول من جند الأجناد المرتزقين بالأندلس واتخذ المماليك المسـترقين"[2]مكرر الـذين كانوا يستخدمون في الحراسة لأنهم "يرتّبون ويُقيمون بباب قصره نوبا"[3]. وقد بلغ عددهم إبّان عهده "خمسة آلاف مملوك منها ثلاثة آلاف من الفرسان وألفان من الرجالة"[4]. وقـد ازدادت أعدادهم خلال الخلافة واحتلت عناصر منهم مناصب مهمة في الإدارة والجـيش وفي خدمات القصور المختلفة حتى غدت قوية النفوذ تمارسه في عدة مجالات. وعادة ما كان الخلفاء يعملون على إرضاء الصقالبة كي يأمنوا جـانبهم كمـا حـدث مـع الحكـم المستنصر الذي عمد في أول أمره إلى أخذ البيعة من صقالبة القصر المعروفين"بالخلفـاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل والطراز وغيره من عظمائهم..."[5]، أمثال أفلـح وفـائق النّظامي صاحب البُرد والطراز وجؤذر صاحب الصّاغة والبيازرة[6]. وهما المسـؤولان عن الغلمان الفحول بخارج القصر[7] وبداخلها كذلك. يشير ابن الخطيب[8] إلى أنهم "كانوا

---

(1) - لاشك أن الهجرات من المشرق إلى الأندلس لم تنقطع نهائيا بعد عصر الإمارة بل أضحت محدودة، وأحيانا اقتصرت على مجموعات من العلماء والفقهاء الذين يأتون الأندلس لأغراض علمية أو جهادية: انظر نظام الثغور.

(2) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ترجمة وتحقيق مولينا (ل)، مدريد، 1983، ص. 125.
المقري: النفح...، مصدر سابق، ج 1، ص. 242.
النويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب: قسم المغرب، تحقيق: أبو ضيف (أحمد مصطفى)، الدار البيضاء، 1984، ص.193 ابن خلدون: المقدمة،مصدر سابق، ص. 277.

(2) مكرر - يقابل كلمة مسترق أو مملوك مجموعة من المصطلحات والألفاظ الأوربية المشهورة مثل:
Slave, Esclave, Esclavos, Servi, Servus, Esclavage etc.
انظر: ANDERSON (P.); Les Passages de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Maspéro, 1977, p. 19 et sv.
BONNASSIE (P); Les 50 mots clefs de l'Histoire médiévale, Toulouse, Privat, 1981,p. 71 et sv.
LANGELLE (M); L'Esclavage: Que sais-je, N° 667, Paris, P.U.F, 1992, p. 9 et sv.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 125.

(4) - نفسه: ص. 125.

(5) - المقري: النفح... مصدر سابق، ج 1، ص. 387.

(6) - ابن عذاري: البيان..، مصدر سابق، ج 2، ص. 259.

(7) - نفسه: ص. 259.

(8) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق: ل. بروفنسال، بيروت، دار الكشوف، 1956، ص. 60.

يُنيفون الألف فيهم الأكابر المسمّون بالخلفاء زهاء عشرين فتـى يتقـدم الجماعـة فـائق وجوذر". ناهيك عن غالب مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ذاع صيته كقائد الجند في الثغور وفي شمال إفريقيا خلال عهد الخليفتين عبد الرحمن والحكم. إنه شيخ المـوالي الذي وصل أعلى رتبة في الدولة لما لقّب بذي السيفين "صاحب الثغـر الأعلـى وسـيف الدولة الناصرية والحكمية"[(1) مكرر].

لقد قرب الخليفة الحكم المستنصر الصقالبة حتى غدوا خاصته وحفظة بعض أسـرار قصره، فلا غرابة إذا تغاضى أو تجاوز بعض الأمور السلبية التي كانوا يتورطون فيهـا، حتى أنه قال بصددهم "هم أمناؤنا وثقافتنا على الحُرم، فينبغي للرعية أن تلين لهم وترفـق في معاملتهم فتسلم من مَعَرّتهم، إذ ليس يُمكننا في كل وقت الإنكار عليهم..."[(2)]. وربمـا دفع بهم هذا التعاطف إلى حد التّواطؤ مع السلطة إلى الطمع فيها بعد اختفاء الحكم مباشرة لأنهم اعتقدوا "أن لا غالب لهم وأن المُلك بأيديهم..."[(3)]. وأكثر من ذلك مالوا إلى نكـث بيعة الخليفة هشام طمعاً في السلطة[(4)]. لاشك أن المنصور بن أبي عامر أحس بسـطوتهم وتطاولهم على سلطة الخلافة. فلذلك تمكن بذكاء ودهاء مُحكَمَين من الحـد مـن نفـوذهم وشوكتهم بدءاً بغالب شيخهم مروراً بمن تجاسر منهم في الأقاليم "كـدري الفتـى بـإقليم بياسة"[(5)]، الذي أراح الرعية منه. ورغم ذلك لم ينتقص عدد الصقالبة فـي بدايـة العهـد العامري، بل ازدادوا حتى بلغوا بقصور قرطبة "ستة آلاف صـقلبي وسـبعمائة وسـتة وثمانين صقلبياً" [(6)]. وبالزهراء "ثلاثة آلاف خصي وتسعمائة وخمسين خصياً"[(7)]. وكانوا "نيفاً على ألف مجبوب فحسبك بما يتبعهم" [(8)].

يُبيّن إبن حيان[(9)] أهمية الصقالبة في القصور الخلافية وأدوارهم في إعداد وتجهيـز

(1) - نفسه: ص. 61.

(1) مكرر - انظر التفاصيل عن أهم الوظائف التي زاولها غالب خلال الخلافة في:

MEOUAK (Mohamed) ; La Biographie de Galib, haut fonctionnaire andalou de l'époque califale: carrière politique et titres honorifiques, dans: AL QANTARA, Vol. XI, Fasc. 1, Madrid, 1990, pp. 95-112.

(2) - ابن عذاري: البيان...، مصدر سابق، ج 2، ص. 259.

(3) - نفسه: ص.259.

(4) - نفسه: ص.265.

(5) - نفسه: ص.263.

(6) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.34.

(7) - نفسه: ص.34.

(8) - ابن عذاري: نفسه، ص.259.

(9) - ابن حيان: الحجي، ص.48.

الجند حين يقول: "صُفت الرؤوس... ثم انتقلوا بين مراتب الفرسان المدرّعين الذين كلف أهل الخدمة وصقالبة القصر إركابهم في الأسلحة... ثم نهضوا بين ترتيب فرسان الخمسين وعبيد الدرق والعبيد الرماة...". إن الخدمات التي يزاولها مختلف الصقالبة يجعلنا نتصور مدى ما يكلفونه ويستهلكونه من مُؤن ونفقات في القصور وخارجها. يقول ابن عذاري[1] بهذا الصدد: "وكانت جرايتهم من اللحم كل يوم، دون سائر أهل القصر ستة آلاف وثمانمائة رطل سوى الصيد وأصناف الطير والحوت". وفي المعنى ذاته يشير ابن الخطيب[2] إلى أن "الجاري من اللحم على صقالبة ابن أبي عامر على طبقاتهم في الشهر وقسط المياومة سبعة وعشرين ألف رطل. والجاري على نسائه في قصره على طبقاتهن منه تسعة آلاف رطل سوى وظيفة مطبخته الخاصة...".

كيف نشأت وتكونت القوة الصقلبية في الأندلس خلال العصر الأموي؟

سبق القول إن الأمير الحكم بن هشام (ت206هـ/821 م) كان أول من استقدم "المماليك المرتزقة" ليشكلوا حرسه الخاص. جيء بالصقالبة إلى الأندلس في ظرفية تاريخية اتسمت بالحروب والصراعات في أوربا وتخومها. إنهم في واقع الأمر نتائج لتلك الحروب التي اندلعت في مناطق جغرافية مختلفة[3]. وتقدم المصادر[4] معلومات دقيقة عما تحصده

---

(1) - ابن عذاري: المصدر السابق. ص. 34.
(2) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102.
(3) - تزخر المصادر المسيحية الأوربية على تنوعها بمعلومات ونصوص دقيقة للغاية عن ظاهرة "صيد الرقيق"، في الحروب وغيرها منذ العصور القديمة، وكيفية رواجه "كسلعة ناطقة" في المجالات الاقتصادية والتجارية والمنزلية. وأكثر من ذلك تميز فيه ما بين المنتج النشيط وغير المنتج الخامل وتضع بذلك لوائح بأسمائه وصفاته وأثمانه التي غالبا ما تقل عن أثمنة سلع أخرى تعد أكثر أهمية منه كالخيل مثلا. انظر على سبيل المثال:
DOCKES (P); La libération médiévale, Paris, Flammarion, 1979.
ANDERSON (P); Les passages de l'Antiquité...
DUBY (G); Guerriers et paysans : VII - XIIè siècle, premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973.
BOIS (G); La Mutation de l'an mil, Lournand, village mâconnais de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Fayard, 1989.
BONNASSIE (P); Survie et extinction du régime esclavagiste dans l'occident du haut moyen âge (IV-XIè S), dans:Cahiers de Civilisation médiévale XXVIIIè Année, N°4, Oct. décembre, 1985, pp. 307-343.
(4) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص.95.
ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك): تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط: نصان جديدان، تحقيق: العبادي (أحمد مختار)، مدريد: معهد الدراسات الإسلامية، 1979، ص.103.
ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي): صورة الأرض، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت، ص. 100 وما بعدها.
المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، البناء الشامي البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، بريل، 1906، ص، 240 وما بعدها.
الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي):المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: حجي (محمد) وآخرون، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981، ج2، ص.113، 161، 212، 213، ج 10، ص. 157.

الغزوات في مجال الأسرى والسبايا إلى جانب ازدهار تجارة الرقيق التي نالت الأندلس حظاً منها، إذ كثيراً ما يُباع الصقالبة صغاراً بواسطة التجار اليهود الذي يتولون عملية خصيهم قبل تقديمهم إلى الأندلس. يقول ابن حوقل[1]: "سبي إفرنجة وجليقية والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان، عند قربهم من الأندلس يُخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود..". يؤكد المقدسي[2] كلام ابن حوقل في السلعة الصقلبية عبر الأندلس تجاه المشرق لكن يختلف معه بقوله إن الصقالبة يخصون بالأندلس قبل أن يتجهوا إلى المشرق، فهم يأتون من خلف خوازم إلى الأندلس "فيُخصون ثم يخرجون إلى مصر" [3 مكرر]. كما أنهم وصلوا إلى المغرب منذ فترة مبكرة خلال عصر بني صالح وخلال المرابطين على حد تعبير صاحب الحلل الموشية[4] الذي أشار إلى أن يوسف بن تاشفين اشترى عام 464 هـ (1072 م) "جملة من العلوج الصقالبة فأركبهم وانتهى عنده منهم مائتان وخمسون فارسا" [5].

ويبدو أن عملية خصي الصقالبة تُزاول في مراكز معروفة في أوربا[6] قبل أن

---

(1) - ابن حوقل: نفسه، ص. 106.

(2) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، ص. 242.

(3) - نفسه: ص. 242.

(3) مكرر - تجدر الإشارة إلى أن الصقالبة لعبوا أيضا دورا هاما في المشرق العربي خاصة لدى الفاطميين حيث احتلوا مناصب هامة لأنهم كانوا على غرار الأندلس، يشكلون خاصة الخلفاء. وقد اشتغلوا في الدواوين والمهمات السياسية الصعبة، كما قادوا الجنود أحيانا كثيرة. انظر:

الجوذري (أبو علي منصور العزيزي): سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق: كامل (حسين محمد)، شعيرة(عبد الهادي)، القاهرة، دار الفكر العربي، د. ت، ص. 13.

أبو حامد (عبد الرحيم سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي): تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق: العربي (!)، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1993، ص. 151.

(4) - مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: زكار (سهيل) زمامة (عبد القادر)، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979، ص. 25.

(5) - نلاحظ من خلال المعلومات المصدرية المختلفة أن الصقالبة رغم دونيتهم على المستوى الإجتماعي فبإمكانهم أن يتبوأوا المناصب العليا في مجالات مختلفة كالجيش والإدارة والسياسة سواء في الأندلس أو في المشرق أو في دولة بني صالح في نكور أو في الجند المرابطي. وهذا الأمر يكاد يكون منعدما بل مستحيلا في البناء الطبقي الأوربي. انظر مثلا:

DUBY (G); Les Trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.

BLOCH (M); La Société féodale, Paris, Albin Michel, 1968.

GUERREAU (Alain); Le féodalisme: un horizon théorique, Le Sycomore, 1980.

(6) - من هذه المراكز نذكر: حوض الدانوب، والراين، ثم فردان Verdun، وليون وأرل في حوض الرون، وبرشلونة، والبندقية وغيرها. انظر:

DUBY (G); Guerriers et paysans..., op. cit, p. 126.

BONNASSIE (P); Les 50 mots clefs..., op. cit, p. 73.

LEVI-PROVENCAL (E); L'Espagne musulmane au Xè siècle: Institutions et vie sociale, Paris, La Rose, 1932, p. 29.

حناوي (محمد): جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر للميلاد، ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1995، ص. 151، 166.

يُقتادوا بواسطة اليهود إلى مراكز أخرى في الحوض المتوسطي، وذلك عكس ما ذهب إليه المقدسي من أنهم يخصون بالاندلس. لقد دفع ذلك بالكنيسة الكاثونيكية إلى التدخل من أجل إيقاف رواج التجارة في السلعة الآدمية التي تدر أموالا طائلة على الأمراء المسيحيين. وفي هذا الإطار تفهم صيحات الأسقف الشهير لمدينة ليون الفرنسية واسمه أكوبار (AGOBARD) من أهل القرن التاسع الميلادي، والذي استنكر ما يقوم به اليهود من التجارة في الرقيق الخصيان[1]. والأمر ذاته تكشفه المصادر الفقهية وكتب النوازل والأحكام والجهاد والحسبة التي حددت كيفيّة التعامل مع الأسرى الصقالبة[2] وما يجوز في ذلك أو يكره أو يمنع... الخ[3]. لكن نلاحظ أن الحروب والصراعات العسكرية وما يرافقها من الأطماع الاقتصادية أقوى من الصيحات العقائدية والدينية الفقهية. عادة ما يأتي الصقالبة إلى الأندلس صغارا[4] كي يتكيفوا مع الأوضاع الجديدة بسهولة وأول ما يواجههم في الحياة اليومية هي اللغة ولذلك وُصفوا بالخرس؛ أو "الغلمان الخرس"[5] أو "فرسان الخرس المأمورون"[6] أو "المجابيب الخصيان"[7]. مما يسمح بالقول إنهم يجهلون اللغة العربية. وتتفق المصادر[8] على أن المماليك التي اتخذها الحكم بن هشام كان ينعتها بالخرس "لعُجمتهم". أما ل. بروفنسال[9] فيصفهم بالمرتزقة "الصامتين"، في حين يضعهم دوزي[10] في خانة الأجانب الذين يجهلون اللغة العربية.

---

(1) - DUBY (G): Guerriers.... p. 126.

(2) - ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام): منتخب الأحكام، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، د 1730،
ص.235،236.

(3) - ابن زكون (أبو علي حس): اعتماد الحكام في مسائل الأحكام، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ق413، مجموع: 388.

(4) - المقدسي: المصدر السابق، ص.242.

(5) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص.77.

(6) - نفسه: الحجي، ص. 44.

(7) - الزجالي (أبو يحيى): أمثال العوام في الأندلس، تحقيق بنشريفة (محمد)، فاس، 1975، ج 1، ص. 14.
ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص.259.

(8) - المقري: النفح، ج 1، ص.242.
النويري: نهاية الأرب...، مصدر سابق، ص.93.
ابن خلدون: المقدمة...، ج 1، ص.277.

(9)- LÉVI-PROVENÇAL (E), Histoire de l'Espagne musulmane, T.Premier : La conquête et l'émirat Hispano-Umyade, 710. 912, Paris, Leiden, 1950, p.187.T. 2: p. 6, 7, 129. T. 3: p. 71, 72.
لاحظ ل. بروفنسال أن الصقالبة يصلون الأندلس شبابا ويندمجوا بسرعة في المحيط اللغوي والاجتماعي.

(10) - الخرس حسب دوزي أو "أخاريس" وأخرس ومخروس اللسان(Muet) وقد يعني الأجنبي الجاهل للغة العربية:
DOZY (R); Supplément aux dictionnaires arabes, Beyrouth, 1968, T. 1, p. 362.

يتبيّن من التحليل السابق أن الصقالبة شكلوا قوة سيّاسية وعسكرية لا يُستهان بها، لعبت دوراً هاماً في جند الحضرة بقرطبة خلال الخلافة كما ساهمت إلى حد كبير في توجيه الأحداث في ميادين متعددة. انطلاقا من ذلك صعب على الخلافة إبعادهم وعدم تحقيق مصالحهم. وهو ما أقدم عليه المنصور بن أبي عامر بجرأة في إطار إصلاحه العسكري[1]."فأول عروة قصمها من عرى المملكة عروة الصقالبة الخدم بالقصر موضع الخلافة، وكانوا أبهى حلل المملكة" [2].

ب ـ الحشم: على غرار ما فعله الأمير الحكم بن هاشم مع الصقالبة، اهتم أيضا بالحشم كعناصر أساسية في الجند، وتذكر المصادر أنه "استكثر الحشم والحواشي"[3]. نُظّم هؤلاء في خطة إدارية مُحكمة تتولى شؤونهم يرأسها قائد يُدعى "الناظر في الحشم"[4] أو "صاحب الحشم"[5]. أو "كاتب الحشم"[6]، كما حدث أيام الخلافة والطوائف مع محمد بن قاسم[7] وزياد بن أفلح[8]، ومحمد بن أبي عامر نفسه[9]. بل وقد عين أحد النصارى المعروف بابن الربيع[10] كاتبا للحشم بغرناطة أيام حكم الأمير عبد الله بن بلقين.

ويمكن التساؤل عن دور الحشم ومكانته ضمن جند الحضرة. يصعب في الواقع تقصي أصول الحشم في الأندلس نظراً لشح المادة المصدرية وتأرجحها بصددهم مقارنة بالصقالبة. ومما يزيد الأمر تعقيداً أن المصادر لم تتردد في استعمال ألفاظ مختلفة دالة على الجمع "كالأعوان كلها من أحشامه"[11] (الناصر)، و "طبقات الحشم"[12] و "جُمل من الحشم"[13]، و"ضروب من الحشم"[14]، و"حشم السلطان"[15]، و"كثف من الحشم"[16] يمكن

---

(1) - انظر الإصلاح العسكري العامري في فصل: أعطيات وأرزاق الجند.
(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 259.
(3) - المقري: النفح، ج 1، ص. 242؛ ابن خلدون: المقدمة، ج 1، ص.277؛ النويري: نهاية الأرب..، ص. 93.
(4) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 47.
(5) - ابن عذاري: نفسه، ص. 244.
(6) - ابن بلقين (عبد الله الأمير): كتاب التبيان، تحقيق الطيبي (أ. توفيق)، الرباط، منشورات عكاظ، 1995، ص. 94.
(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 244.
(8) - ابن حيان: الحجي، ص. 47، 78.
(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 251.
(10) - ابن بُلقين: نفسه، ص. 94.
(11) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 455.
(12) - نفسه، ص. 456.
(13) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 203.
(14) - نفسه، ص، 210.
(15) - ابن حيان: نفسه، ص. 72.
(16) - ابن عذاري: نفسه، ص. 190.

لهذه الألفاظ أن تكون لها دلالات مرتبطة بكثافة أعدادها وبالطرق التي تستخدم بها في الأغراض العسكرية من جهة، وارتباطها بالخلفاء مباشرة من جهة ثانية. يتبيّن هذا الارتباط حين نعلم أن الخليفة عبد الرحمن النّاصر اتخذ من الحشم قوة عسكرية أساسية بعد انهزامه في الخندق عام (327 هـ/939 م)، كما يوضح ابن حيان[1] بقوله "وفي رجب منه (328 هـ/940 م) نظر الأعوان كلها في أحشامه، بحيث وضعهم في مدن الأندلس وحصونها وقصابها، وفروج ثغورها، فجبر السقط منهم... وزاد في إلحاق العرفاء منهم وطبقات الحشم ووفارة عددهم..". و "صار جميع ثوار الأندلس يرتزقون ويُقتطعون في حشمه". على حد تعبير ابن القوطية[2].

يتضح مما سبق أن الحشم يقومون بالأعمال العسكرية الهامة لأنهم يقومون بضبط المدن[3] والحصون والقصبات أي المراكز الحيوية بالنسبة للخلافة. الشيء الذي دفع بأحد الباحثين[4] إلى اعتبارهم "قوات الإشتباك الأولى أو قوة الجيش الرئيسية". وانطلاقا من ذلك يصعب الاتفاق مع رأي ل. بروفنسال[5] القائل بأن الحشم ضرب من المرتزقة البيض أو السود (أوربيون أو مغاربة) كانوا يجندون من خارج الأندلس على نقيض الأجناد الذين كانوا "وطنيين". إن المبالغة هنا واضحة ما بين ما هو "وطني" وما هو "أجنبي". ونشير في هذا الصدد إلى أن يوسف بن تاشفين لما شرع في تجديد عساكره سنة 470 هـ (1077 م) "ضم من جزولة ولمطة ومصمودة وزناتة جموعا كثيرة سماهم بالحشم.."[(5) مكرر]. وعلى غرار ما ذهب إليه ل. بروفنسال لم يتمكن أحد الدارسين[6] من التمييز الواضح ما بين الحشم

---

(1) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 455، 456.
(2) - **ابن القوطية:** تاريخ افتتاح ...، ص. 124.
(3) - **VIGUERA** (M.j); **Marin** (M);**BENABOUD** (M);Los Reinos de Taifas:AL-Andalus en el siglo XI, Madrid, Espasa Calpe, 1994, p.193, 225.
(3) - **ننون طه** : تنظيمات الجيش...، مرجع سابق، ص.49.
(4) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p.72-73.
(5) - **مجهول:** الحلل الموشية...، مصدر سابق، ص.33.
(5) مكرر - يُعتقد أن الحشم عند المرابطين هم الأتباع والحاشية، ويكونون الجيش من غير المرابطين باستثناء الحرس الخاص الذي يُطلق عليه اسم "التخليين": انظر: حركات (إ): النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، د.ت، ص. 150.
يبدو كذلك أن لفظ الحشم ورد عند المرابطين ثم المرينيين ولم يرد في العهد الموحدي.انظر: **هوبكنز**(ج.ن.ب): النُظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تحقيق **الطيبي** (أ. توفيق)، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1980، ص. 142.
(6) - **الرّاجي** (التهامي الهاشمي):"تظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال المقتبس لابن حيان". مجلة المناهل، عدد29، 1984، ص.64،3.

والعبيد والصقالبة والمماليك.

يمكن القول إن الصقالبة والحشم، مهما اختلف في أصولهم ومهامهم العسكرية فـإنهم شكلوا فئات أساسية من جند الحضرة الذي عولت عليه السلطة في قرطبة لفترة طويلة.

ج - **البربر** : سبقت الإشارة إلى أن البربر من العناصر العسكرية التي دخلت الأندلس إبان الفتوحات الأولى لها. فإلى جانب "البلديين" والشاميين في الكور المجنـدة والصـقالبة والحشم، شكل البربر قوة عسكرية هامة في جند الحضرة خاصة خلال عصـري الحكـم المستنصر والمنصور بن أبي عامر. وقبل ذلك تشير المصـادر إلـى أن توافـدهم إلـى الأندلس كان بطيئا، إذ كان استقدامهم خاضـعا لتوازنـات مختلفـة. يمكـن القـول إن المجموعات الزناتية كانت، في أول الأمر أكثر تواجدا بالأنـدلس، إذا قيسـت بـالبطون البربرية الأخرى مثل صنهاجة. ويعتقد البعض[1] أن الدولة الأموية منذ قيامها أميل إلـى البربر الزناتية منهم إلى الصنهاجيين. ومن مظاهر ذلك "أن أصبحت السياسـة التقليديـة التي كان الزناتيون يدينون بها دائما في الشمال الإفريقي هي موالاة الأمويين، بينما كـان الصنهاجيون عماد الحركات الشيعية" [2]. لكن هذه المعادلة التي تبدو نسبية إن لم نقل غير واقعية ستتغير جذريا خلال العصر العامري والطوائف، حيث سيستقبل الأندلس موجـات كثيرة من مختلف العناصر البربرية. يقول ابن خلدون[3] في سياسة المنصور ابـن أبـي عامر تجاه البربر "(...) تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده.. ولما خلا له الجو من أوليـاء الخلافة رجع إلى الجند فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جنـدا، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن، وبني برزال ومكناسة وغيرهم.". لم يكتف ابن أبي عامر بذلك بل اعتمد العبيد والعلوج من أجل الانتقـام مـن "الصقالبة الخصيان الخدام" [4]؛ وتأخير العرب وإسـقاطهم عـن مـراتبهم[5]. لاشـك أن العنصر الزناتي دخل الأندلس قبل العصر العامري كما يتضح مـن إشـارات مصـدرية

---

(1) - ديوان ابن دراج القسطلي: تحقيق مكي (محمود علي): المكتب الإسلامي، 1389 هـ، المقدمة.
عثمان جلد الرب (عبد القادر): الوضع السياسي والاجتماعي لغرناطة في القرن الخامس الهجري، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، الرباط، 1997، ج 1، ص. 319.

(2) - ديوان ابن دراج القسطلي...، المصدر السابق، المقدمة.

(3) - **ابن خلدون**: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد 4، ص. 319.

(4) - **نفسه**: ص. 319.

(5) - **نفسه**: ص. 320.

مختلفة ويذكر صاحب كتاب المؤنس[1]أن الحسام بن ضرار الكلبي الذي أقام واليـا علـى الأندلس لتسعة أعوام هزم ابن يفرن الزناتي الذي قام بها بواسطة العناصر الشامية التـي جوّزها إليها. ويبدو كذلك أن بني برزال أحد المكونات الأساسية لزناتة، دخلوا الأنـدلس كجند للخليفة الحكم المستنصر، وليس بعده كما ذهب إلى ذلك أحـد البـاحثين[2]. يقـول صاحب مفاخر البربر[3]: "(...) قال أبو مروان الوراق، بنو برزال فخذ من زناتـة مـن بني يفرن كانوا قاطنين بالزاب الأسفل من إفريقية فوُصفوا لأمير المؤمنين الحكم بالشـدة والشجاعة في الحروب فأمر بمكاتبتهم فكانوا جنده يخدمون في عسكره إلى أن توفي ابـن أبي عامر وتفرقت الجماعة وانشقت العصا...". إن اتخاذ أو اصطناع العنصر الزنـاتي في الأندلس منذ وقت مبكر له دلالات سياسية وعسكرية. لقد اشـتهروا بـالقوة والبسـالة والإقدام والفروسية، حتى أن الخليفة الحكم أعجب بهم وبخيولهم ويـردد بصـددهم قـول الشاعر:

"فكأنمـا ولـدت قيامـا تحتهم * وكأنهم ولدوا على صهواتها"[4]

ولا غرو فأحد الأمثال العامية المتواترة بالأندلس يُعبر بوضوح عن تلـك الشـجاعة بالقول "لا حر إلا زناتي، ولا فرس إلا مكلاتي "[5]. وربما أثر الزناتيون في الإسبان في طرق القتال والفروسية[6]. لقد برع هؤلاء البربر في الفروسية والقتال حتى قيل "لا يُقتـل الأعداء إلا بهم ولا تُعمّر الأرض إلا بجوارهم"[7]. كمـا قـد يحـل البـوار بواسـطة حروبهم[8]. إن الدلائل المختلفة السابقة الذكر تنهض حجة ضد ما ذهب إليه ابن حوقـل[9]

---

(1) - **ابن أبي دينار**: كتاب المؤنس في أخبار إفريقية...، مصدر سابق، ص. 40.

(2) - **عثمان جاد الرب**: الوضع السياسي...، مرجع سابق، ج 1، ص. 321.

(3) - **مجهول**: مفاخر البربر، تحقيق ل. بروفنسال، الرباط، 1934، ص. 44.
ثلاثة نصوص عن البربر في الغرب الإسلامي:
- كتاب الأنساب لابن عبد الحليم؛ مفاخر البربر لمؤلف مجهول؛ شواهد الجلة لأبي بكر بن العربي: تحقيق: يعلى (محمد)، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996، ص. 182.

(4) - **ابن حيان**: الحجي، ص. 188، 189.

(5) - **الزجالي**: أمثال العوام...، مصدر سابق، ج 1، ص.207.

(6) - إن تأثر الإسبان بالزناتيين في مجال الفروسية يعكسه استعمالهم واحتفاظهم بكلمة "Jinete" أي الفارس أو (Jinete = الزناتي): انظر بعض التفصيل في: **الزجالي**، ج 1، ص.207.

(7) - **ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني)**: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1975، المجلد الأول، ص. 21.

(8) - **ابن بُلقين**: كتاب التبيان...، مصدر سابق، ص. 45.

(9) - **ابن حوقل**: صورة الأرض...، ص. 108.

الذي زار الأندلس خلال عصر الخلافة (منتصف القرن 4 هـ) وأنكر صفة الفروسية على الأندلسيين بقوله:"(...) وليس لجيوشهم حلاوة في العين لسقوطهم عن أسباب الفروسية وقوانينها".

لاشك أن استمالة الخلافة للبربر ابتداء من عصر الحكم المستنصر على الأقل، أدى إلى تغيير بنيات الجند لفائدة العناصر البربرية التي احتلت الصدارة إلى آخر العصر العامري[1].

د ـ **الطنجيون**: تحدثت المصادر عن مجموعات من البربر، استخدمت في الأندلس منذ عصر الإمارة، عُرفت باسم "**الطنجيين**". لقد واجه بهم الأمير عبد الله ثورة عمر ابن حفصون سنة 283 هـ(896 م). كما أن حركة ابن حفصون نفسها اعتمدت على مجموعة منهم حسب ابن حيان[2] الذي قال: "ونزل إلى العسكر إليهم إثني عشر طنجيا... فانهزم الفاسق وقُتل له طنجي مذكور، وأخذ له فرسان ونزع من أصحابه إلى العسكر ثلاثة عشر طنجيًا". وفي آخر أيام الأمير عبد الله 298 هـ(911 م) حارب أحد القواد وهو عباس بن أحمد بن أبي عبدة سعيد بن هذيل بإقليم المنتلون، وتداعى البربر "الطنجيون الذين كانوا مع عباس بن أحمد..."[3]. ورغم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يحتاط ويحترس من الجند البربري ولا يستكثر منهم[4]، فقد اعتمد عليهم سنة 301 هـ(913 م) في محاصرة أعدائه ومعارضي حُكمه لما "بنى حصن أشبرة... وأدخل فيه جميل بن عقبة البلوي عاملاً وصيَّر معه فيه عدة كثيفة من الفرسان، والبرابر الطنجيين، والرّجالة." [5]. كما عجّل بالخروج إلى أهل ماردة ونواحيها سنة (316هـ/928 م) في جيش يتكون من "ألف من العرفاء ومثلهم من الطنجيين"[6].

برز دور "الطنجيين" أيضا خلال عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان يحب استعراضات الجند. ففي إحداها عام (360هـ/971 م)، شوهدت الصفوف مُرَتَّبَة "بين

---

(1) - انظر بعض التفاصيل عن دور البربر بالأندلس في:
GARCIA GOMEZ (Em): AL-HAKAM II y los Beréberes segun un texto inédito de Ibn Hayyan, dans: AL-ANDALUS, Vol. XIII, R .E. E. A, Madrid, 1948, Fasc. 1, pp. 209, 226.

(2) - ابن حيان: المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: القسم الثالث، تحقيق: أنطونية (ملشور. م)، باريس، المكتبة الشرقية، 1937، ص. 121.

(3) - ابن عذاري: المصدر السابق...، ج 2، ص. 147.

(4) - ابن حيان: الحجي، ص. 190.

(5) - نفسه: ج 5، ص. 88.

(6) - نفسه: ص. 241.

فرسان الطنجيين المدرعين"[1]. وفي السنة الموالية دارت نزاعات وصراعات حادّة بقرطبة بين الطنجيين وطوائف أخرى من الجند مما أفضى إلى تطاول البعض على البعض الآخر والتّعصب ضد الطنجيين الذين نالتهم جراحات فاشية[2]، وقُبض على الكثير منهم وسُجنُوا[3].

يتبين مما سبق أن البربر "الطنجيين"، وإن لوحظ أن ولاءهم للخلافة لم يكن ثابتا خاصة أن مجموعة منهم انضمت إلى حركة ابن حفصون، قد استخدموا كعناصر أساسية في جند الحضرة الخلافي. الشيء الذي يفند ما ذهب إليه أحد الدارسين[4] حين أشار إلى أن الطنجيين كانوا مُخَصّصين للخدمات الدنيا. نعم قد تُكلّف مجموعات منهم بأشقة الخدمة[5] حسب تعبير ابن حيان. وربما يُقصد بذلك العبيد المغاربة أو "السودان المغاربة"[6]، الذين اشتهروا في ميادين أخرى غير الجندية كالأشغال المنزلية أو أعمال البريد المرتبط بإدارة شؤون الدولة أو الجند ولذلك يطلق عليهم اسم: "الرقاصة السودان"[7].

نعتقد أن الهجرات البربرية من شمال إفريقيا عامة ومن العدوة المغربية خاصة نحو الأندلس لم تنقطع في فترة من الفترات: بل يمكن القول إنها ازدادت كثافة ونشاطا مع آخر الخلافة (آخرالقرنIV هـ)، وخلال الفترة العامرية. وربما بعدها، أي خلال المرابطين والموحدين. مع العلم أن ظروف تلك الهجرات اختلفت من فترة لأخرى، وتمّ اعتماد عناصر دون أخرى وذلك تبعاً للأوضاع السياسية والعسكرية القائمة. فإذا كان الخليفة عبد الرحمن النّاصر محتاطا وحذراً تجاه البربر، فإن خلفه الحكم المستنصر، لم يتردد في الإتكاء على العنصر الزناتي المشهود له بالفروسية والشدة في الحروب. أما ابن أبي عامر فإنه فتح باب الأندلس على مصراعيه أمام البربر. بل أكرم الوافدين منهم عليه من كل البطون والقبائل. ولا غرو فقد خبر قتالهم وطبائعهم في مواطنهم لما كان يُرافق جند

(1) - نفسه: الحجي، ص. 48.
(2) - ابن حيان: الحجي، ص. 78.
(3) - نفسه: ص, 78.
(4) - ذنون طه: تنظيمات الجيش، ص. 46.
(5) - ابن حيان: نفسه، ص. 195.
(6) - ابن بسام: الذخيرة...، المصدر السابق، القسم 2، المجلد الأول، ص. 50.
ابن عذاري: المصدر السابق، د 3، ص. 130.
(7) - ابن بلقين: التبيان...، ص. 157؛ ابن بسام: نفسه، القسم 4، المجلد 1، ص. 74؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102. انظر دور الرقاصة في بريد الجند.

الخلافة في حملاته المتكررة على شمال إفريقيا، أي "بلاد البربر الغربية" [1] على حد قول ل. بروفنسال. وهي بمثابة خزان بشري لا ينضب من الرّجال الذين احتضنتهم الأنــدلس خاصة خلال فترة المنصور العامري الذي كان "يستدعيهم ويتضمن الإحسان إليهم إلى أن أسرعوا إلى الأندلس.. وما زالوا يتلاحقون وفرسانهم يتواترون... حتى صاروا أكثر أجناد الأندلس، ولم تزل طائفة البربر خاصة ابن أبي عامر وبطانته، وهم أظهر الجند نِعْمَةَ وأعلاهم منزلة.." [2].لأنه "اختصّهم باصطناعه، واسترقهم بإحسانه." [3]. وهكذا انقلــب إليــه بنــو برزال وصاروا في قيادته[4]. ولم يفلت من اصطناعه قبائل وفرســان زناتــة[5]. وبــذلك "انتظمت له الأندلس بالعدوة واجتمعت له قريش في دار الندوة.."[6]. لاشك أن اســتقدام ابن أبي عامر للبربر بشكل مكثف، كان إيذاناً أو مؤشراً قوياً لخلخلة البنيــات السياســية والعسكرية القائمة في عصر الخلافة. لقد أحدث تحولات بنيوية في تركيبات الجند، ولذلك نُعت ما أقدم عليه بالإصلاح العسكري العامري. وقبل الإقدام على هذا الإصلاح تمكن ابن أبي عامر من تحقيق نجاح كبير في ميادين عديدة بحيث احتل مناصب هامــة فــي قرطبــة وخارجها خلال الخلافة. وبلغ أوج قوته ونفوذه لما مات الخليفة الحكــم المستنصــر، وتكلــف بشؤون القصر وتدبير لأمور الخليفة هشام المؤيد. وتلقب بالحاجب الشيء الذي ســاعده فــي تحقيق طموحاته وتنفيذ خططه السياسية والعسكرية. لقد عمد بنجاح ودهاء إلــى تهمــيش معارضيه وإبعاد منافسيه، بل وقتل أعدائه سواء أكانوا من العــرب أم مــن الصــقالبة أو غيرهم[7]. ولما انفرد بشؤون السلطة عبر ما عُرف "بالدكتاتورية العامرية"، اشتهر علــى المستوى الداخلي والخارجي بقيادته بنفسه للحملات العسكرية والصوائف، وهي كثيرة[8]؛ ضد المسيحيين. وتألق في جل تلك الحروب بفضل الجند البربري الذي بناه وعُرف بولائه

---

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 2, p. 261 .

(2) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 272.

(3) - نفسه: ص. 293.

(4) - نفسه: ص. 263.

(5) - نفسه: ص. 293.

(6) - نفسه: ص. 274.

(7) - انظر نماذج من الحيل التي التجأ إليها المنصور بن أبي عامر قصد التخلص من أعدائه بكل الوسائل الممكنة، كتضلعه في نكبة الحاجب جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفي، أو الدخول في صراع مباشر ومسلح ضد منافسه غالب مولي الناصر.

ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 263، 264، 265.

(8) - انظر الصوائف والشواتي التي أشرف عليها المنصور العامري في فصل أساليب القتال.

الشخصي له.

تميز الإصلاح العسكري العامري بنبذ العصبية القبلية التي سادت من قبل، لفائدة فرق بربرية تنتمي إلى قبائل وبطون شتّى لكنّها تمتاز بالقوة والفعالية. إنه كان يرمي إلى أن تكون "أجناده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة" [1]، حتى إذا "همّ أحد الطوائف بالخروج عن الطاعة، غلبها بسائر الفئات.." [2]. ومن شأن تلك الخطة تفادي ما يمكن أن يَتسبَّبَ فيه جنده من سوء أو إخلال بشؤون الدّولة والسلطان، "إذا كانوا صنفاً واحداً" [3]. يصعب الارتكان إليه كُلِّيَة.

نعتقد في هذا الصدد أن المنصور العامري ربما استوعب وحاول تطبيق الأفكار إن لم نقل "النظرية" المشهورة القائمة على المبدإ المشهور "فرّق تَسُد"، والذي تناقلته كتب الأحكام السلطانية أو الأخلاق السياسية القديمة. ولعل أشهرها تلك التي سطّرها ابن المقفع [4] كدستور للدولة العباسية في كتابه الشهير: "**رسالة الصحابة**". أوضح فيها المبادئ أو الأسس التي ينبغي أن تسود في تنظيم العلاقات بين السلطان وجنده. يُذكَرُ في هذا الباب بأن يكون "(...) القوم أخلاطاً من رأس مُفْرِطٍ غالٍ، وتابع مُتَحَيِّزٍ شاك، ومن كان إنما يَصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة، فهو كراكب الأسد الذي يَوْجَل من رآه.." [5]. وفي المعنى نفسه قال ابن رضوان [6]: " يُستَحب للسلطان أن يكون جنده أجناساً متفرقة، وقبائل شتّى، بحيث لا يتهيأ منهم الاتفاق على رأي واحد في الخلاف، وأن يسوس جنده سياسة تخرج شيوخه ورعيته عن الاتفاق والصداقة وعن الخلاف والعداوة..".

إن المظهر الأساسي الأخر الذي اتسم به الإصلاح العسكري العامري مرتبط بالميدان الاقتصادي. إذ أقدم المنصور بن أبي عامر على إعفاء "الناس من إجبارهم على

---

(1) - **ابن بلقين**: كتاب التبيان، ص. 57.
(2) - **نفسه**: ص، 57.
(3) - **نفسه**: ص. 57.
(4) - **ابن المقفع**: الأدب الكبير والأدب الصغير ورسالة الصحابة، تحقيق: أبو حلقة (يوسف)، بيروت، مكتبة البيان، 1964.
رفع المؤلف الكتاب إلى الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور كي يعتمده كدستور لإصلاح دواليب الدولة.
(5) - **نفسه**: ص. 194.
(6) - **ابن رضوان** (أبو القاسم المالقي): الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: النشار (علي سامي)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984، ص. 379.

الغزو.."[1]، مقابل تأدية أموال أو ضرائب سنوية تشكل أعطيات الجند[2] المتخصص الذي أنشأه ليتكلف بالحروب وحدها.

لاشك أن تغيير بنية جند الحضرة من قبل ابن أبي عامر باعتماد البربر كقوة عسكرية في الصدارة من جهة، وتأمين أعطياتها الشهرية من قبل شرائح اجتماعية أخرى من جهة ثانية؛ أدى إلى تغييرات هامة في البنية السياسية والعسكرية التي أرستها الخلافة على امتداد القرن الرابع الهجري[3](Xم).

لقد تحدث البعض[4] بنوع من المغالاة عن أن العامريين باستقدامهم البربر صادروا النفوذ العسكري أو الوظائف العسكرية التي تتمتع بها الخلافة، وفي الأمر أيضا إقصاء للعربية الأموية الشيء الذي جعلها تحقد على البربر. وأشار دارس آخر[5] إلى أن "رفع البربر إلى رأس الهرم أضرم الفتنة والكُره ضدهم من قبل الأرستقراطية العربية الإقطاعية والصقلبية البيروقراطية".

نعتقد أن اعتماد البربر في الجندية بشكل أوسع خلال الفترة العامرية له ارتباط وثيق بالظرفية السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها الخلافة، أكثر من ارتباطه بتحولات اقتصادية واجتماعية جذرية. نعم يمكن القول إن اصطناع الصقالبة من قبل الخلافة قد ساهم إلى حد بعيد في خلق توازن إن لم نقل ردع الأرستقراطية العربية. واتخاذ البربر خلال العصر العامري كان من ورائه كبح جماح الأرستقراطية العربية من جهة والنخبة العسكرية الصقلبية من جهة أخرى. وهما قوّتان ما فتئتا تتصارعان من أجل الاستحواذ على امتيازات سياسية واقتصادية وعسكرية. وهكذا بات من الواضح أن رفع البربر إلى قمة الهرم العسكري حوّل المعادلة من صراع ثنائي أكثر توازناً ما بين الأرستقراطية العربية النافذة والنُخبة الصقلبية البيروقراطية، إلى صراعات ثلاثية قاتلة وأكثر خطورة[6]

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 168؛ ابن بُلقين: التبيان، ص. 58.

(2) - انظر التفاصيل في فصل ارزاق وأعطيات الجند.

(3) - انظر أيضا حدود الإصلاح العامري في "ارزاق الجند"، والذي اعتبرنا فيه أنه لا يعدو أن يكون إصلاحا مؤقتا محدود الأفق لأنه مرتبط بشخص المنصور بن أبي عامر نفسه والدليل أنه فشل إطلاقا بمجرد موت صاحبه.

(4) -MARTINEZ -GROS (Gab), L'idéologie Omeyyade..., op. cit, p. 158.

(5) - الطاهري (أ): علمة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط منشورات عكاظ 1989، ص. 172.

(6) - انظر التفاصيل في آثار الصراعات بين الأنظمة الفكرية والاجتماعية الثنائية والثلاثية في:

DUBY (G), Les Trois ordres..., op. cit.

BONNASSIE (P); Idéologie tripartite et révolution féodale; dans: le Moyen Age, N° 2, 1980, p. 251-273. Problèmes de Stratification sociale, colloque international, Paris, 1966, Paris, P.U.F, 1968.

Ordres et classes sociales; colloque de St-Cloud, 1967, Paris, La Haye, Mouton, 1967.

تواجهت فيها القوى العربية والصقلبية والبربرية. وسرعان ما تحولت تلك الصراعات بينها إلى أزمة خانقة بل إلى فتنة أو حرب أهلية مباشرة بعد أفول القوة السياسية التي كان يجسدها ابن أبي عامر. ورغم مختلف التحالفات، كانت الفتنة أقوى مما تسبب في اندحار أركان الخلافة الأموية[1].

بعد موت المنصور بن أبي عامر قبيل متم القرن الرابع الهجري، حاول ابناه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن شنجول الاستمرار في نهج سياسته تجاه البربر، فقربا إليهما رؤساء الجند البربري عن طريق إكرامهم بصكوك "الإنزالات والصلات المختلفة"[2]. لكن ضعف أدائهما السياسي حال دون بلوغ مستوى النفوذ والقوة الذي عُرف به المنصور بن أبي عامر الذي قال فيه إبن الخطيب[3]: إن "البربر الذين كانوا يخدمن في الدولة العامرية، لم يكن لهم رياسة ولا نباهة إلا في دولة المنصور، فيها تقدموا واشتهروا وقادوا الجيوش..". أما عصر محمد بن هشام (المهدي)، فصادف الفتنة المعروفة "بالبربرية"[4]. والتي لم يُخف فيها هذا الأخير عطفه وميولاته لجند آخر غير متمرس يتكون من "العامة وأطراف الناس"[5]. بدلا من "العبيد العامرية والطوائف البربرية"[5] مكرر. هكذا تولت الأدبار للبربر الذي قلصت الفتنة من دوره، بل أسقطته حتى أصبح يُنعت "بالبريبري"[6].

إنه لم يعد ذلك الفارس الزناتي الشهم الذي تغنّت الأندلس بشجاعته وإقدامه سابقاً بل تزايدت عملية احتقاره من قبل الأندلسيين كما يؤكد المقري[7] بقوله "لما علم البربر عداوة

---

(1) - انظر التفاصيل في الفتنة ومشاكلها في:
ابن حزم (الأندلسي): رسائل ابن حزم، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1981، ج 2، ص. 19، 197، 203؛ **ابن عذاري**: المصدر السابق، ج 3، ص. 86، 87، 113، 114؛ **مجهول**: ذكر بلاد الأندلس...، المصدر السابق، ص. 20، 201، 208.

(2) - **ابن عذاري**: المصدر السابق، ج 3، ص. 20، 21.

(3) - **ابن الخطيب**: أعمال الأعمال...، ص. 177.

(4) - تنعت جل المصادر الفتنة بالبربرية لأنها تُحمّل المسؤولية كاملة فيها للبربر. لكن من خلال إشارات متعددة يمكن القول إن البربر ساهموا فيها إلى حد كبير لكن لم يكونوا وحدهم السبب في إذكائها وخلق نتائجها. لقد ساهمت ظروف متعددة وأزمات متراكمة في اندلاعها. ومن ثمة يصعب نعتها بصفة البربرية.

(5) - **ابن عذاري**: نفسه، ج 3، ص. 51.

(5) مكرر - للمزيد من التفاصيل حول بعض أدوار العامة في المجالين السياسي والعسكري خلال الخلافة انظر:
الطاهري (أ): عامة قرطبة في عصر الخلافة...، مرجع سابق، ص. 183 وما بعدها.

(6) - **ابن عذاري**: ج 3، ص. 51.

(7) - **الزجالي**: أمثال العوام...، مصدر سابق، ج 1، ص. 207. يدل لفظ "البريبري" وهو تصغير لكلمة البربري على نوع من الاحتقار والاستهزاء وقد اشتهر منذ الأمير الأموي عبد الله بن محمد الذي توجه لوزيره سليمان بن وانسوس قائلا له: "اجلس يا بريبري".

أهل الأندلس ونفضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم فلم نجد أندلسيا إلا مُبغضا بربريا وبالعكس...". وكان حقد وبغض البربر منذ أيام المنصور بن أبي عامر الذي"(...) أخمل بهم (أي البربر) أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا الجمهور وسلبوا منهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا وملأها وحشا وذئابا.."[1]. وازداد حقد البربر والتحامل عليهم مع آخر القرن الرابع الهجري أي مع الفتنة وخاصة على عهد سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين الذي اقتحم قرطبة سنة 400هـ(1010 م) وخرج منها "بعساكر البربر في بلاد الأندلس يفسد وينهب ويفقر المدائن والقرى بالسيف والغارة ولا تُبقي البربر معه على صغير ولا كبير"[2]. ويُقدم قاموس الأمثال العامية الأندلسية نماذج دالة تعكس بامتياز الكراهية والبغض الذي يُكنّه الأندلسيون للبربر كأن تقول بعض تلك الأمثال:

"كل ما يْجي من الغرب مليح إلاّ ابن آدم والرّيح" [3].

"اعطي للبربري شبر وطلب ذراع" [4].

"البربر والفار لا تعلمهم باب الدار" [4 مكرر].

يمكن القول إنه بمجرد أفول نجم الخلافة في مطلع القرن الخامس الهجري(XI م) عادت الصراعات والتحالفات والنعرات المختلفة إلى الواجهة وغلبت الطائفية والإقليمية عبر كل جهات الأندلس[5]. وأحسن من عاين وعاصر تلك الأوضاع وعبر عنها بدقة الأمير عبد الله بن بُلقين[6] حين قال: "ثار كل قائد بمدينته وتحصّن في حصنه بعد تقدم

---

(1) - المقري: النفح، ج 1، ص. 244.

(2) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 274.

(3) - ابن حزم: الرسائل...، ج 1، ص. 197، ج 2، ص. 21.

(4) - الزّجالي: أمثال العوام..، ص. 207.

(4) مكرر - نفسه: ص, 207.

(5) - نفسه: ص. 207.

(6) - نشير إلى أن كراهية البربر لم تقتصر على الأندلس. تذكر المصادر أن الفاطميين في أخر مرحلتهم الإفريقية أبغضوا البربر كما يتجلى من وصيّة المعز لدين الله العبيدي عام 361 هـ لما هَمّ بمغادرة إفريقية، قال فيها للأمير أبو الفتوح بلكين بن زيري بن مناد الحميري "إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر، ولا تول أحدا من إخوتك وبني عمك فإنهم يرون أحق بها..." .
العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، ج 3، ص. 80.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 144.

النظر لنفسه واتخاذه العساكر واذخاره الأموال...". وفي خضم التحولات الجديدة ضعف وانقسم جند الحضرة القوي خلال العهد السابق. وحاولت القبائل البربرية أن تتقوى عسكرياً على المستوى الإقليمي، وتخلق نظاماً يوجه الأندلس على امتداد العصر الطائفي[1]. وأحسن نموذج يُعبر عن هذه الوضعية الجديدة هو دويلة غرناطة التي تَقَوَّت نسبياً ـ مقارنة بالدويلات الأخرى المعاصرة لها ـ على عهد عبد الله بن بلقين، ولعبت فيها العناصر البربرية الصنهاجية والزناتية أدواراً هامة في الجندية. ودويلة المستعين بالله الثانية التي رُفع فيها شأن البربر مؤقتاً لأنه "كان منهم الحاجب والوزير"[2]. الشيء الذي أخاف العبيد العامريين؛ و"هربوا إلى شرق الأندلس فاستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية"[3]. هكذا نلاحظ عودة نوع من "الكور المجندة" البربرية من جديد إلى الصدارة لكن في حُلَّةٍ جديدة وظروف مغايرة. لقد "اقتُسمت البلاد وتَفَرَّقت الأعمال بأيدي جماعة من الرؤساء فصار للبربر منها نصيب..."[4]. وفي خضم أحداث عام (402 هـ/1011 م) عمد سليمان المستعين بالله إلى تقسيم بعض النواحي على "رؤساء قبائل البربر، كانوا ستة قبائل فأعطى صنهاجة إلبيرة فبقيت بيد حبوس وذريته... وأعطى مغراوة الجوف، وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة، وأعطى بنو برزال وبني يفرن جيان وذواتها، وأعطى بني دُمُّر وازداجة شذونة وموررور وغير ذلك من الحصون"[5]. وتغلب بنو برزال من جديد على مدينتي قرمونة واستجة وحصن المدور وذواتها[6]. وأخضع العباديون المجموعات البربرية القليلة التي كانت تستوطن غرب إشبيلية[7]، مع العلم أن أغلب

---

(1) - عكست كل المصادر استفحال ظاهرة الطائفية والتشرذم السياسي والعسكري الذي أصاب الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة. وعبر الشعر بدوره أحسن تعبير عن ذلك في أبيات متواترة ومشهورة:

فيما يُزهدني في أرض أندلس   **أسماءُ معتضد فيها ومُعتمِد**
ألقاب مملكة في غير موضعها   **كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسد**

(2) - **ابن بُلقين:** كتاب التبيان، ص. 58.

(3) - انظر التفاصيل في نموذج بني عباد في:
الطاهري (أ): عامة إشبيلية في عصر بني عباد، أطروحة الدولة في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1995، ج 1، ص. 135 وما بعدها.

(4) - **ابن عذاري:** المصدر السابق، ج 3، ص. 114.

(5) - **نفسه:** ص. 115.

(6) - **العذري:** ترصيع الأخبار...، ص. 93.

(7) - **VIGUERA** (M.j); **MARIN**... Los Reinos..., op. cit, p. 200.

جندهم كان من المرتزقة والعبيد من المغرب وإفريقية[1]. ولم يتردد باديس بن حبوس في امتلاك وإخضاع "كورتي رية وقنّسرين وتعدّدت جيوشـه.."[2]. وهكـذا ارتفـع شـأنه وسلطانه حسب ابن حيان الذي أوضح أنه استخدم الكثير من قبائل زناتة وامتد سلطانه ما بين "مالقة واستجة وما تحت ذلك من إقليم قرطبة.." [3].

يتبين من التحليل السابق أن المجموعات العسكرية البربرية تمزقت وتشـتتت تحـت تأثير الطائفية، مما حال دون بناء تحالفات كافية من شأنها النهوض بجيش أو قوة عسكرية بإمكانها إخضاع كل الأندلس. وفي الوقت ذاته غابت السلطة السياسية المركزية القـادرة على بناء ذلك الجند وجعله أداة فعالة في يدها كما كان الشأن خلال الخلافة أي على عهد الخليفتين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، ثم المنصور بن أبي عامر. وفي تلـك الوضعية قال ابن خلدون[4] بغياب عصبية في الأندلس تستطيع النهوض بقضـايا الحكـم والسلطة أو الملك.

لقد حاول عبد الله بن بُلقين من جهته النهوض بدولة غرناطة خاصة خلال النصـف الثاني من القرن الخامس للهجرة،(XI م) وذلك اعتماداً على جند يتكون بالدرجـة الأولـى من صنهاجة وزناتة إلى جانب ما سماه بنفسه "الوُصفان والعبيـد" [5]. لكـن النزاعـات المختلفة التي كانت دولته فريسة لها داخليا، أو خارجيا أي مع الدويلات الطائفية الأخـرى أو مع المسيحيين، حالت دون تحقيق طموحاته. ولقد سبق القول إن عناصـر صـنهاجية بزعامة حبوس وذريته استقرت بعد الفتنة مباشرة بكورة إلبيرة. وقد أشـاد عبـد الله بـن بُلقين[6] بشجاعة عمه زاوي بن زيري الذي كان منتظما في جند المنصور بن أبي عامر، وذكّر ببعض الصراعات التي كانت تقع بين الصنهاجيين والزناتيين[7]. لكنه حاول، حفاظا على وحدة دولة غرناطة، خلق نوع من التوازن بينهم لأنـه يعتمـد علـى مجهـوداتهم العسكرية كما يتبين من قوله:" لم يكن لنا معقلا قط غير صنهاجة والوُصفان والعبيد، مـا

---

(1) - **بن عبود (امحمد)**: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تطوان، 1987، ص. 105.
(2) - **ابن الخطيب**: أعمال الأعلام...، ص. 230.
(3) - **نفسه** : ص. 230.
(4) - **ابن خلدون**: المقدمة، ج 1، ص. 323، 324؛ **ابن عبود**: جوانب...، مرجع سابق، ص. 64.
(5) - **ابن بُلقين** : التبيان، ص. 145.
(6) - **نفسه** : ص.57.
(7) - **نفسه** : ص.145.
انظر التفاصيل في: **عثمان جاد الرب**: الوضع السياسي...، مرجع سابق، ج 1، ص. 319، 320.

خلا زناتة فإنهم كانوا أجناد الحضرة"[1] مكرر. لكن سرعان ما يضعف ذلك التوازن حين يكشف عبد الله بن بُلقين عن ميولاته الصنهاجية أو الزناتية. فتارة ينحاز لزناتة حين يكلف فرسانها بقيادة حملاتٍ ضد القشتاليين[2]، وتارة أخرى يتقرب من صنهاجة ويحاول إشراكها مع زناتة في الشؤون العسكرية الهامة. وكثيراً ما أفضى ذلك إلى إذكاء التناحرات بين الطرفين كما يشهد بذلك بنفسه بقوله:"وإن زناتة هؤلاء المتأصلين لا ثقةَ فيهم للمدينة الفوقي ولا للحصون...فأنا جدير أن أشرك من ضعف من صنهاجة بهؤلاء الأقوياء...ففعلت ذلك وأشركتهم، وكان في هذا كله تحريك للشر والقتال"[3]. كثيراً ما تدخلت عناصر بشرية أخرى كاليهود الذين قرّبهم الأمير عبد الله إليه باحتلالهم لمناصب هامة في الدولة الغرناطية، كي تزيد في تأجيج الصراعات والفتن ما بين صنهاجة وزناتة. لقد لاحظ الأمير عبد الله ذلك لما كان "الصنف المذكور(يقصد زناتة) قد ضعف واستولى عليه النقصان لمطالبات جرت عليهم من قبل وزراء الدولة كاليهودي وغيره، فإنهم كانوا يرون ألاّ ولاية تتهيأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إياهم وأنفتهم من تولية مثلهم، فكانوا يميلون إلى الصنف البرّاني"[4] مكرر. أي اليهود الذين يحتكرون مناصب أساسية في الدولة خاصة في الميدان الاقتصادي. وقد عبر ابن حزم[5] عن تسلطهم على رقاب المسلمين في هذا المجال حين قال في الفتنة "تسلط اليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة". تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن تحكم اليهود أو بعض المسيحيين في مناصب مهمة كثيراً ما أثار غضب وسُخط فئات عريضة من المجتمع الأندلسي. ولا غرو فقد انعكس ذلك السخط والغضب في الشعر وغيره كما يتبين من هجاء أحد الشعراء لباديس بن

---

(1) - ابن بُلقين: ص. 145.

(1) مكرر- أشار في مكان آخر ص 157، إلى أن " الرقاصة المغاربة كانوا عماد الحضرة وبهم كنا نمسك الحصون".

(2) - ابن بُلقين: المصدر السابق، هامش 404، ص. 253.

(3) - نفسه: ص. 145.

(3) مكرر- يبدو أن تقرب ابن بُلقين من صنهاجة وإشراكهم في الأحداث والقضايا العسكرية له ارتباط بمدارة المرابطين الصنهاجيين، وهو يؤلف "التبيان" في "ضيافتهم" بأغمات مما جعله يُلقي الملامة على اليهود؛ وهم سبب معاناة صنهاجة. انظر: التبيان، هامش 404، ص. 253.

(4) - نفسه، ص.145.

(4) مكرر- شرح محقق التبيان (الطيبي، هامش 402، ص. 252) بما فيه الكفاية مدلول كلمة "البراني" التي مازالت تُستعمل في المغرب بمعنى الغريب أو الأجنبي عن المدينة أو الجماعة أو الأسرة. وتطلق كذلك على الأوربيين، وبذلك تكون مرادفة (للرّومي) أي الأجنبي.

(5) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص.49.

حبوس في غرناطة لما قرّب إليه اليهود:

كــل يوم إلــى ورَا • بُــدِّلَ البُول بــالخــرَا

فزمـــانا تهـــوُّدا • وزمـــانا تــنــصُّــرَا

وسيصبو إلى المجو • س إن الشيخ عُـمِّــرَا[1].

وقال آخر[2]:

تحكمت اليهود على الفــروج

وتــاهــت بالــبغال والسروج

وقامــت دولة الأنذال فيــنا

وصار الحــكــم فــينا للعلوج

فقُل للأعْور الدَّجال هــذا

زمانك إن عزمت على الخروج

---

(1) - **السلفي** (أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم): أخبار وتراجم مستخرجة من معجم السفر، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1963، ص. 84.

(2) - **ابن بسام**: الذخيرة...، القسم الثاني، م 2، ص. 562.

خلاصة

حاولنا، فيما سبق، رصد أصول "الكور المجندة" وإبراز مكوناتها البشرية والعسكرية منذ استقرارها بالأندلس. ويتبين من خلال المادة المصدرية المتوافرة أنها حاولت الاحتفاظ بمميزاتها المشرقية من حيث استفادتها من امتيازات اقتصادية وعسكرية مختلفة. تلك الامتيازات التي نافستها فيها قبائل عربية أخرى، الشيء الذي جعل الخلافة الأموية تعيد النظر في خريطة توزيع القبائل العربية من جديد في الأقاليم والكور الأندلسية، مع مراعاة أهمية الجند الشامي الذي ظل يحتفظ بالمرتبة الأولى في الامتيازات والخدمات العسكرية التي كان يقدمها للخلافة والسلطة في قرطبة.

تبين كذلك من خلال إشارات متعددة -عكس ما يُعتقد عادة- أن ظاهرة الكور المجندة لم تنته مع الإمارة، بل استمرت خلال عصر الخلافة؛ وأن المنصور بن أبي عامر هو الذي أقدم على إلغائها لما استقدم الجند البربري وطبق به إصلاحه العسكري.

أما بصدد جند الحضرة فقد اتضح أن الخلافة بقرطبة التي أخضعت مجالا جغرافيا كبيرا أصبحت في حاجة ماسة إلى أداة عسكرية مركزية قوية وفعالة تكون تحت إمرتها لتستخدمها داخليا وخارجيا وذلك لتأمين أمنها ومجال حدودها ونفوذها. فإلى جانب الجند الشامي تَمَّ الاعتماد على قوى عسكرية أخرى قادمة من مناطق جغرافية متباينة، شكلت النواة الأساسية لجند الحضرة بقرطبة وهكذا استخدم الصقالبة والحشم والبربر.

لاحظنا بصدد الصقالبة والحشم الذين جاءوا الأندلس عبر قنوات مختلفة أن الخلافة استغلتهم في الجندية وفي الأشغال البلاطية أو في خدماتها المتعددة، وتمكن العديد منهم من الوصول إلى أعلى هرم الإدارة والجند، كغالب مولى الناصر وفائق النظامي وغيرهما. واتضح من المعطيات المصدرية أن معرفتهم وخبرتهم بشؤون الخلافة دفعتهم إلى الطمع في السلطة بعد الخليفة الحكم المستنصر. لكن المنصور بن أبي عامر تمكن بدهائه وفي إطار الإصلاح العسكري الذي باشره من تقليم أظافرهم والحد من دورهم. أما الحشم فلم يقل دورهم عن دور الصقالبة فقد استغلتهم الخلافة في الحملات العسكرية خاصة تلك الموجهة لحصار المدن والقصبات والحصون.

وبالنسبة للبربر لاحظنا تطور أعدادهم منذ الفتوحات وقد شكلت المجموعات الزناتية والصنهاجية نواتهم في جند الحضرة خاصة خلال عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان معجباً باستعراض الجند، وبطرق القتال لدى البربر الزناتيين. أما عصر المنصور العامري فتميز برفع البربر إلى قمة الهرم العسكري وقلب التراتبية التي كانت تطبع بنيات الجند قبله. لقد فتح ابن أبي عامر باب الأندلس للجند البربري القادم من شمال إفريقيا ليحقق بواسطته طموحاته السياسية والعسكرية والتي تجلت في إبعاد الأرستقراطية العربية والبيروقراطية الصقلبية من السلطة والإدارة والجيش. وقد تحقق له ذلك لكن بمجرد موته سقط نجم البربر وأصبحوا في نظر جل المصادر مسؤولين عن الفتنة والأزمات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي أصابت الأندلس. وبذلك أصبحوا محط احتقار وازدراء بعدما كان يُتغنى بفروسيتهم. وهكذا ظهر نوع من "الكور المجندة" البربرية هذه المرة خلال العصر الطائفي في العديد من الأقاليم الأندلسية، كما هو الحال في إقليم إلبيرة، إذ تمكن الأمير عبد الله من بناء دولة غرناطة اعتماداً بالدرجة الأولى على البربر خاصة البطون الصنهاجية والزناتية منها، دون إغفال دور اليهود الذين لعبوا دوراً خطيراً في دولته.

الفصل الثاني

نظام الثغور

نـظـام الـثـغـور

قبل الحديث عن خصائص الجند الأندلسي المقيم في الثغور المتاخمة للمسيحيين وأنظمة هذه الأخيرة، تجدر الإشارة إلى أن الخلافة الإسلامية كانت تعتبر الأندلس بمثابة ثغر هام يقع في أقصى غرب ما كان يُعرف "بدار الإسلام". ولذلك كان المسلمون يُولونه اهتماماً خاصاً منذ عهد الرسول ﷺ نفسه والذي رُوي عنه أنه قال« أفضل رباط على وجه الأرض جزيرة الأندلس شرقيها عدو وغربيها عدو وقبلتها عدو وجوفها عدو[1]. وقد تنبأ الرسول أيضا بأن الجهاد والرباط سوف ينقطع « إلا بجزيرة يُقال لها الأندلس بالمغرب الأقصى[2] ». ولهذا السبب « فإن رباط يوم فيها أفضل من رباط عامين في ثغور غيرها[3]..». و«أهل الأندلس هم رؤوس المجاهدين يوم القيامة [4]». ونظراً للاعتبارات السابقة يُوصى كثيراً بالرّباط في ثغور الأندلس من قبل الرجال الذين يُحسنون الفروسية والسياسة وذوي الأنفة والقوة والحيل[5]. ولا غرو فقد طبق بعض الخلفاء هذه التوصيات مثل عبد الرحمن الناصر الذي بعث إلى الثغور سنة (328هـ/940م) من نُخَبِ أجناده «من بَعُد صيته وشهر بأسه من جِلّة القواد ووجوه الرجال»[6]. نلاحظ أنه إذا تأكدت الأقوال السابقة الذكر بصدد الأندلس، أي الحديث عنها وتحديدها في المجال الجغرافي بنوع من الدقة، ربما يُفيد في إعادة النظر في مقولة "المغرب الأقصى"، التي اعتقد العديد من الدارسين أنها غير واردة قبل ظهور الدولة المركزية في الغرب الإسلامي في منتصف القرن الخامس الهجري (XIم)[7].

---

(1) - ابن هذيل (علي عبد الرحمن): في الرباط والجهاد، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1108، 7 ب.
(2) - نفسه: 8 أ.
(3) - نفسه: 8 أ.
(4) - نفسه: 18 أ.
(5) - نفسه: 23 أ؛ ابن المناصف (ابو عبد الله محمد بن عيسى): الإنجاد في أحكام الجهاد، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، رقم 748، ص. 18 وما بعدها.
(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 451.
(7) - القبلي (محمد): الدولة المغربية في العصر الوسيط: في: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل، الرباط، دار توبقال للنشر، 1997، ص. 71 - 83.

خريطة الثغور



نشير إلى أن استقرار السلطة الأموية بقرطبة وتمكنها من مراقبة جـزء هـام مـن جزيرة الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، أدى إلى تقلص مجال الثغور ليقتصر علـى الحدود الشمالية المتاخمة للمسيحيين. ويُعتبر هذا المجال ــ بخـلاف الكـور أو الأقـاليم الداخلية ــ منطقة حربية تتمتع بخصوصيات وامتيازات خاصة.

ترتبط الثغور بالسلطة في قرطبة بواسطة علاقات معقدة يطبعها المد والجزر بحسب الظروف السياسية والعسكرية بقرطبة. كثيرة هي المصادر التي فصّلت الحديث عن الثغور والمناطق التابعة لها على المستويين الإداري والعسكري. ويبدو أنه قبل استكمال الخلافـة لسيطرتها على جزيرة الأندلس كان الحديث عن ثلاثة ثغور وهـي: الثغـر الأعلـى أو الأقصى والثغر الأدنى أو الأوسط والثغر الجوفي في الشمال الغربي.

ويمتد الثغر الأعلى في مناطق تضم مدينة سرقسطة، المركز الرئيسي فـي الثغـر، ولاردة، بربطانية ووشقة، وتطيلة وغيرها من المراكز الهامة المواجهة للمسـيحيين مـن جهة قطلونيا ومملكة نافارا. لقد تحدث ابن حيـان(1)مكرر نفسـه بدقـة عـن الإمتـداد الجغرافـي لهذا الثغر وأهميته القصوى في مواجهة المسيحيين خلال عهد الخليفـة عبـد الرحمن الناصر الذي تمكن من ضبطه سنة (326هــ /938 م)، قائلا: «فتكاملت الفتوح... واستتم خلال ذلك نظره في إصلاح الثغر وجمع كلمة أهله على نكاية من بازائهم من عدو الإسلام... حتى استوسق له ذلك كله، واطّرد نظامه بين لاردة وأنتنسة... ».

أما الثغر الأوسط فكان مقره العسكري طليطلة ثم انتقل إلى مدينة سالم بعد إنشـائها لتكون قاعدة للحملات العسكرية كالصوائف التي توجه ضد المسيحيين خاصة جهة مملكتي ليون وقشتالة(2). يشمل هذا الثغر خطا من الحصون يمتد على نهر التاج بجبال غير بعيدة

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 422.

(1) مكرر - تفصل الخرائط الجغرافية والأركيلوجية في تحديد مناطق ومراكز الثغور. انظر على سبيل المثال:

Frontière et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Actes du colloque d'Erice-Trapani (Italie), 18, 25 septembre 1988.

CASTRUM 4: Ecole fr. de Rome, Casa de Velazquez, Rome-Madrid, 1992.

BOSCH VIIA (y); Algunas consideraciones... op. cit.

Manzano Moreno (Ed); La Fronterra de Al - Andalus en la época de los Omeyyas, Madrid, C.S.I.C, 1991.

VALLVÉ (J.B); La Division terrotorial..., op. cit.

SENAC (Ph); «Les Hùsùn de Tagr Al-Aqsa: A la recherche d'une frontière septentrionale d'Al-Andalus à l'époque Omeyyade », dans: **Frontière et peuplement**... (Castrum 4): op. cit, pp. 75, 84.

(2) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 57.

عن طليطلة. ولاشك أن تلك الحصون تشكل سدّاً منيعاً لمواجهة سلسلة من الحصون الواقعة من الجهة القشتالية كما يتبيّن من اللفظ ذاته[1].

ويمتد الثغر الجوفي[2] في أقصى الشمال الغربي. وكان يضم ما يُعرف الآن بإقليم "استرمادورا" (Extremadura)، وجزءاً من البرتغال[3].

وبعد استقرار الخلافة وتحكمها في المجال الأندلسي خلال القرن الرابع الهجري صار الحديث عن الثغرين الأساسيين الأولين أي الأقصى والأوسط[4]. سبق التذكير بأن الثغور تعتبر بمثابة مناطق حربية، فلذلك تُعهد إلى قواد عسكريين كبار أمثال عمروس وعبدون خلال الإمارة[5]، وغالب مولى الناصر ومطرف، ومحمد بن يعلى وعبد الله بن أحمد بن يعلى، وهذيل بن هاشم وغيرهم خلال الخلافة[6]. كما تُعهد إلى عائلات مشهورة مثل التجيبيين، وبني رزين، وبني هود، وبني ذي النون وبني قسي. لاشك أن أوضاع الثغور إبان الإمارة اختلفت عن أوضاعها خلال الخلافة والطوائف. فقد لعبت العائلات السالفة الذكر أدواراً متباينة تأرجحت بين الولاء السياسي والعسكري لقرطبة، والاستقلال بشؤون الثغور، وذلك تبعاً لطبيعة السلطة السياسية بقرطبة. وتجمع المصادر أن ضعف السلطة المركزية طيلة القرن الثالث الهجري (IXم) أدى إلى العديد من الثورات وحركات الإنتزاء والتجزئة السياسية التي انتشرت في كل الأنحاء الأندلسية. ولم تستثن الثغور من تلك القاعدة خلال تلك الفترة، بل «تفاقمت ظاهرة إقطاع الحصون ومناطق الثغور لفائدة

---

(1) - اسم قشتالة له ارتباط بالتحصين: (Castillos (Castilla).
BAZZANA (A); Guichard (P); SÉNAC(Ph); La Frontière dans l'Espagne médiérale, dans: Frontière et peuplement..., op.it, p. 35, 59.

(2) - الجوف في الاصطلاح المغربي والأندلسي هو الشمال وتختلف أسباب التسمية أحيانا. والجوف في الأصل يقع إلى شمال مكة. وكان الحجازيون يقولون لكل شمال جوفا لأن الجوف يوجد في الشمال من الحجاز، وفي الغرب من العراق وفي الشرق من الشام. وغلب على الناس في الشام قديما أن يقولوا للجنوب قبلة نظرا لموقع الكعبة في الجنوب. (في الحجاز الشمال هو الشام، والجنوب هو اليمن): انظر التفاصيل في: أرسلان (شكيب): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت، منشورات دار الحياة، د.ت، ج 1، ص. 58، 59.

(3) - BOSCH VILA (Y); Algunas..., op. cit, p. 28.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne...,T. 3, p. 57.

(5) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 72.

(6) - نفسه: ص. 219.

قادة العسكر..»[1]. وتمَّ اصطناع علاقات مختلفة مع الجند والأسر النافذة عبر أقاليم الثغور. تذكر المصادر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن هو أوّل من عقد لعائلة التجيبيين بالثغر الأعلى مقابل التّغلب أو إقصاء بني قسي المتغلّبين هناك. إنه أول «من اصطنع التجيبيين الظّاهرين بالثغر الأعلى عندما أشجاه بنو قسي المنتزون به، وبوّأهم مدينة قلعة أيوب من ذلك الثغر وبناها لهم وحصنها وأدخل فيها زعيمهم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الله بن المهاجر التجيبي وعقد له علىٰ قومه وبنى لهم حصن دروقة وتعهدهم بالصلات وأجرى عليهم المصارف عند الغزوات..»[2]. كما« أجرى عليهم الأموال»[3] بمقدار « مائة دينار لكل واحد عند كل غزوة يقومون بها ضد بني قسي..»[4]. ويتبين من الإشارات المصدرية المختلفة أن الصراعات والتحالفات أو التحالفات المضادة هي الغالبة لدى مختلف الأسر التي استقرت بالثغور إبان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. إنها كانت تبحث عن السيادة والنفوذ الإقليمي الذي يوفر لها الامتيازات المتعددة، كما كانت تخاطب وُدَّ ورضَى السلطة في قرطبة. لكن الانقسامات السالفة الذكر كانت تجعلها أقل مناعة وإمكانية لمواجهة المسيحيين، خاصة أن دورها تحول من حراسة الثغور والدفاع عنها، إلى حركة انتزاء واسعة ظهرت بموجبها «إمارات إقطاعية منفصلة عن الحكم المركزي..»[5]. وبذلك نشط ما عُرف "بإقطاع التسجيل" الذي مورس بالثغور مقابل الولاء أو التبعية للحكم في قرطبة، وتوفير مقادير سنوية من الجبايات مع الخدمة العسكرية[6].

لقد تغيرت الوضعية، ولو بشكل نسبي، خلال القرن الرابع الهجري، لأن الخلافة حاولت بقوتها السياسية والعسكرية نهج سياسة جديدة في الثغور. إنها كونت جنداً مركزياً

---

(1) - بوتشيش (ابراهيم القادري): أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي: من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة (250 هـ/ 316 هـ)، الرباط، منشورات عكاظ، 1992، ص. 93.
نفسه: تطور ملكية أراضي الجيش في الأندلس، منذ الفتح العربي حتى مطلع عصر الخلافة في: مجلة البحث العلمي، العدد 38، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1988، ص. 143، 159.

(2) - ابن حيان: المقتبس... أنطونية، ص. 20؛ العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 41.

(3) - نفسه: ص. 41.

(4) - نفسه: ص. 41.

(5) - بوتشيش: المرجع السابق، ص. 87.

(6) - نفسه: ص. 184.

قويا كان الأداة الفعالة التي مكنتها من مراقبة جل الأقاليم والنواحي الأندلسية، بما في ذلك الثغور والشمال الإفريقي. وتتضح الأهمية والعناية التي تحظى بها مناطق الأطراف عامة حين نعلم أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عين موظفا كبيرا وهو الوزير عيسى بن فطيس للنظر في "كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف"[1]. إلى جانب ذلك كانت عملية المراقبة المباشرة للثغور تتم عبر عدة قنوات منها: تعيين قواد عسكريين كبار يُقيمون بها كالقائد المشهور غالب مولى الناصر الذي اتخذ في أول أمره طليطلة كقاعدة عسكرية، ثم انتقل منها إلى مدينة سالم الأكثر ملاءمة لاستقبال وتمركز جند الخلافة الذاهب إلى الثغور. وفُوّضت للقائد غالب شؤون "جند الثغر"[2]، أو "رجال الثغر"[3]. وقد كشفت المصادر عن بلائه البلاء الحسن في المجالين الإداري والعسكري ولذلك كافأته الخلافة بترقيته في أعلى مراتب الدولة بأن قلّدته "سيفين"[4]. وإلى جانبه عُرف القائد يحيى بن محمد التجيبي الذي عُرف "بصاحب الثغر الأعلى"[5]. خلال عصر الحكم المستنصر. ولم يكتف هؤلاء القواد بالاعتماد على جند الثغر وحده في حالة الحملات العسكرية أو الصوائف، بل يستنفرون المطوعة من الأقاليم وجند الحضرة من قرطبة. ذكر عريب بن سعد أن الخليفة النّاصر لما اتصل به خبر المشركين وإنزالهم في الثغور «أمر بالاحتفال في جميع الرجال وإكتاف العُدد واستنفار المطوعة... وفصل الحاجب بالجيوش فتنامت إليه العساكر والمطوعة في أقرب ثغور المسلمين..»[6].

وأكثر من ذلك كان الخلفاء ــ في أوج القوة السياسية والعسكرية ــ يشرفون بأنفسهم على الحملات العسكرية إلى جهات الثغور. ويكفي القول إن الخليفة عبد الرحمن الناصر كان يحرص على قيادة الجند بنفسه إلى حدود هزيمته في موقعة الخندق المشهورة عام(327 هـ/939 م). وعلى غراره سار خلفه الحكم المستنصر ثم المنصور بن أبي عامر

---

(1) - **ابن عذاري**: المصدر السابق، ج 2، ص. 220.
(2) - **نفسه**: ص. 265.
(3) - **نفسه**: ص. 72.
(4) - **مجهول**: مفاخر البربر...، مصدر سابق، (ل. بروفنسال)، ص. 11.
نسخة من تحقيق يعلى (محمد)، ص. 141.
(5) - **نفسه**: (ل. بروفنسال)، ص. 9. يعلى، ص. 143.
(6) - **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص. 146.

الذي اشتهر في المصادر بقيادته لأكثر من خمسين صائفة وشاتية[1] ضد القوى المسيحية في الثغور. ولا غرو فقد أذن الخليفة الناصر عام (306 هـ/918 م)، لما قرر غزوة مطونية إلى دار الحرب «بالإحتفال في الحشد وجمع الرجال والتكثير من الأجناد والفرسان والأبطال... ونفذت كتبه إلى أهل الأطراف والثغور بالخروج إلى أعداء الله..»[2]. وفي السنة الموالية (307هـ/917م) جاءت الأخبار من الثغور بأن الجلالقة بقيادة زعيمهم أردون بن أدفونش ينوون الهجوم على الثغور فرد الخليفة بسرعة بأن أمر الوزير القائد «إسحاق بن محمد المرواني بالخروج في جيش كثيف جرّده معه، وخوطب القواد والعُمال والأمناء وغيرهم باستنفار الناس إلى الثغر الجوفي»[3]. وبعد ذلك، في سنة (328هـ/940م)عمد الناصر إلى تشديد المراقبة على الثغور لما أمعن في «إشحان الأعوان كلها من أحشامه بحيث وضعهم في مدن الأندلس وحصونها وقصابها وفروج ثغورها، فجبر السقط منهم وتمّم نقائصهم..»[4]. ولم يشد الخليفة الحكم عن القاعدة في محاولاته مراقبة الثغور والإشراف عليها كما تبين عام (364هـ/975م) لما أبدى المطوعة من قرطبة والأقاليم الرغبة في الدفاع عن الثغور «فانجلفوا راغبين في الجهاد...وأعجب السلطان ما كان من انبعاث مطوعتهم دون إلزام لهم وأثنى لصالح بلائهم..» [5].

أما المنصور العامري فقد كشفت المصادر تواجده الفعلي والمكثف في الثغور لأنه كان يقود الحملات تلو الأخرى إلى آخر حياته. فكثيراً ما يتوغل من الثغور في أرض النصارى رغبة في غلبتهم وإذلالهم حتى أنه في إحدى حملاته إلى أرض قشتالة قفل ومعه «أعلاج النصارى مُصَفدين بالحديد.. إذلالاً للشرك..»[6]. وقد يلجأ أيضاً إلى تعيين من ينوب عنه للإقامة في الثغور كما حدث مع المنذر بن يحيى«صاحب سرقسطة وذواتها»[7] وهو

---

(1) - انظر تفاصيلها في العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 74، 75، 76، 77، 78، 79، 80.
الحميدي (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي): جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، القاهرة، 1966، ص. 73، 74.
(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 156.
(3) - نفسه : ص 156.
(4) - نفسه: ص. 455.
(5) - نفسه: الحجي، ص. 226.
(6) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 546.
(7) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 175.

من«عرض الجند ترقى إلى القيادة آخر دولة ابن أبي عامر.. وكان لأول ولايته قد ساس عظماء الإفرنج فحفظت أطرافه إلى أن مضى بسبيله والثغر مسدود لا ثغرة فيه»[1].

لكن رغم إظهار الخلافة للحزم والقوة في إدارة شؤون الثغور بشكل مباشر، فإننا نلاحظ أنها كثيراً ما تنشغل بقضايا سياسية وعسكرية أخرى الشيء الذي يُقلل من اهتمامها بشؤون الثغور ولا تُعوز الأمثلة للدلالة على ذلك. فيكفي القول إن انشغال الخليفة الحكم المستنصر بقضايا المغرب ورغبته في إخماد الثورة الشيعية بقيادة حسن بن كنون (قنون) الشيعي دفعته إلى استدعاء القائد غالب من الثغر الأعلى عام (361 هـ/972 م) ليتوجه إلى شمال إفريقيا لإخماد الحركة الشيعية هناك[2]. إن اهتمام الخلافة بقضايا متعددة، وكذلك بُعد الثغور عن قرطبة دفع بالسلطة إلى تشجيع الجند قصد الإقامة فيها بمنحه تسهيلات متعددة أو إعطاء امتيازات أكثر أهمية لعائلات مشهورة تشكلت هناك منذ عصر الإمارة. ففي إطار حث الجند على الإقامة في أقاليم الثغور، تفيد المعلومات المصدرية أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما فتح مدينتي بطليوس وطليطلة عام (318 هـ/930 م)، نزل بمحلته على أبواب طليطلة مُصيرّاً على مضايقة النصارى ونكايتهم، وفي الوقت نفسه أمر «بالبنيان في جبل جركش لمدينة سماها بالفتح وأرتب لبنيانها سعيد بن المنذر الوزير وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها»[3]. وعادة ما يعمد الخلفاء أيضاً إلى التخفيف من الأعباء الضرائبية على سكان جهات الثغور نظراً لقربهم من العدو المسيحي. وحدث ذلك سنة (329 هـ/941 م) لما «شكا أهل طرطوشة القاصية ثقل مغارمهم مع مكانهم من الدنو من العدو الشديد الشوكة، ومقاساة مَعَرَّتهم وسألوه النظر لهم فأسقط الناصر عنهم الزكوات والصدقات»[4].

انفرد ابن عذارى[5] بنص هام ودقيق لأنه يعكس بوضوح نوع الامتيازات التي مُنحت في الثغور ليس لكبار الجند كالعادة وإنما لعامة الجند الذي شارك في إحدى الحملات العسكرية إلى ناحية قطلونيا. ففي عام (393هـ/1093م) وجه الحاجب عبد الملك

---

(1) - نفسه: ج 2، ص. 221.
(2) - نفسه: ج 2، ص. 221؛ مفاخر البربر...، (يعلى محمد)، ص. 135، 141.
(3) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 203.
(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 468.
(5) - ابن عذاري: ج 3، ص. 6، 7.

المظفر العامري الجيش إلى جهة قطلونيا وأمر المسلمين إبان الفتح «ألا يحرقوا منزلا ولا يهدموا بناء لما ذهب إليه من إسكان المسلمين فيه، ومن أراد الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن الحصن فعل وله مع ذلك المنزل والمِحْرَثَ، فرغب في ذلك خلق عظيم». إضافة إلى ذلك استفادت الثغور من عمليات التحبيس لفائدة سكانها كما تعكس ذلك كتب الطبقات والجهاد والنوازل المختلفة. ونعلم أن الخليفة الحكم المستنصر أقدم على «تحبيس ربع جميع ما جرّته إليه الوراثة عن أبيه أمير المسلمين، في جميع كور الأندلس وأقاليمها على ثغور الأندلس كافة. تفرق عليهم غلات هذه الضياع عاما بعد عام على ضعفائهم، وجعل القبض والنظر في هذا الحبس إلى حاجبه وسيف دولته جعفر»[1]. لقد شاعت ظاهرة التحبيس في الأرض والممتلكات والمنتوجات أوالغلال لفائدة الثغور وحصونها، كما يتبين من إشارات مصدرية مختلفة. فهذا ابن رشد[2] يفصل الحديث عن شروط تحبيس أحد الأندلسيين من جزيرة طريفة لفندقين وغلتهما على ثغور المسلمين. وحَدَّدَ أيضا شروط تحبيس «الفندقين والإصطبل والحوانيت على موضع معين من ثغور المسلمين» [3]. وأجاب الونشريسي[4] عن نوازل مرتبطة بأرض حُبّست لفائدة حصن تغير إنتاجها من زراعة الحلفاء إلى زراعة أخرى. وفصّل ابن سهل[5] في التحبيس لفائدة مؤسسات مختلفة. وأكثر من ذلك تكشف المصادر عن مجموعة من المتطوعين خاصة من الفقهاء الذين يتكلفون ببناء مؤسسات دينية أو حصون في الثغور[6].

أما عن الامتيازات الأكثر أهمية في الثغور فقد استفادت منها عائلات مشهورة ونافذة بزعامة قوادها العسكريين الكبار أمثال هذيل بن هاشم التجيبي ومروان بن رزين وعامر بن مطرف بن ذي النون[7] وغيرهم. فعادة ما تسجل الخلافة لزعماء هذه العائلات على مناطق أوإقطاعات كبرى بمناطق الثغور مقابل خدمة السلطة في قرطبة اقتصاديا وسياسيا

---

(1) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 234.

(2) - ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي): الفتاوي، تحقيق: التليلي (المختار بن الطاهر)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987، ج 3، ص. 1341، 1342.

(3) - نفسه: ج 3، ص. 1401.

(4) - الونشريسي: المعيار...، المصدر السابق، ج 7، ص. 37.

(5) - ابن سهل (عيسى بن الأصبغ): الأحكام الكبرى، مخطوط. الخزانة العامة، ق 838، ص. 86، 151، 155.

(6) - ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك): كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: الحسيني (عزت العطار)، القاهرة، 1955، ج 2، ص. 435.

(7) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 219.

وعسكريا. وبذلك أصبح الحديث عن ظاهرة التملك العسكري للأرض خلال الخلافة بالمناطق الثغرية[1]. وهذا التملك هو في الواقع إقطاع تمليك انحصر في عائلات تورثه في الأعقاب كبني ذي النون، وبني قسي وبني رزين والتجيبيين منذ عصر الإمارة[2]. وقد سبق القول إن الأمير محمد بن عبد الرحمن كان أول من اصطنع التجيبيين بالثغر الأعلى[3]. ودأب الخليفتان عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر على متابعة عملية التسجيل للعائلات السالفة الذكر على مناطق الثغور. فهكذا قلد النّاصر «مدن الثغر الأعلى الممانعة الدروب على أكابر ساكنيها ووراثها عن الأجداد والآباء... آل تُجيب وآل ذي النون وآل غزوان وآل الطويل وآل رزين، وجدّد لهم ولأعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام بسجلاتهم تضميناً وترفيهاً»[4]. كما يحدث أن تُبعد عائلة ويُسجل لأخرى مكانها، إذ في سنة 312 هـ استنزل بني قسي وأجلاهم من الثغر الأعلى وقلد الأمر «إلى أبي يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبي وإلى أولاده وصاروا في حشمه وجنده..»[5]. ويسجل أيضاً لبعض القادة محدداً المناطق التي يستفيدون منها كما حدث عام (319هـ/931م) حين سجّل لسعيد بن أبي القاسم على كورة إستجة ولسوادة بن عبد الملك على ثغر طلبيرة، ومحمد بن هاشم التجيبي على ثغر سرقسطة، ولأخيه يحيى بن هاشم على لاردة وحصونها، وأقام محمد بن طملس على كورة أكشونبة[6].

كما سجّل الناصر عام (329 هـ/941 م) لبعض النصارى كغرسية بن شانجة الشكنسي على "بنبلونة وأعمالها"[7] بعد أن تغلب على أمه طوطة. وتابع خلفه الحكم سياسة أبيه كما يتضح سنة (364هـ/975م) لما عقد «السجلات لقواد الثغر الأوسط من أهلها بولاية أوطانهم بالمواقع المذكورة فيها على عادتهم وعلى ما نظر الوزير القائد الأعلى غالب زعيمهم وسمّاهم وسمّى حُصُونهم وقراهم، وسجل لعيسى ومحمد وهاشم وأحمد وعيسى وعبيد الله

---

(1) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص.62.
(2) - بوتشيش: أثر الإقطاع السياسي، ص.87.
نفسه: تطور ملكية أراضي الجيش...، ص.145.
(3) - ابن حيان: المقتبس...، أنطونية، ص.20؛ العذري: ترصيع الأخبار...، ص 41.
(4) - ابن حيان: ج 5، ص.437، 438.
(5) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص.124.
(6) - ابن حيان: المقتبس...،ج 5، ص.315.
(7) - نفسه: ج 5، ص. 336.

وعلى إبراهيم ولب بن يحيى بن هذيل بن رزين على الحصون الواقعة في سجل أبيهم يحيى بن هذيل »[1]. وكذلك فعل عبد الملك المظفر العامري لما استقبل وجوها من النصارى ممّن أرسل بهم شانجة بن غرسية زعيم الجلالقة «فأحسن عبد الملك قبولهم وأوسع إنزالهم»[2].

يتبين من مختلف نصوص المصادر أن التسجيل شمل عناصر مادية أكثر حيوية وأهمية مثل الأرض للاستغلال المباشر والمدن أو القرى الرئيسية والحصون باعتبارها القواعد الدفاعية والستراتيجية في أقاليم الثغور. ونعلم جيّدا أن من تمكن من إخضاعها يسهل عليه السيطرة على الثغور. فلا غرابة أن يشترط الإفرنج على المسلمين حين غلبوهم وتوغلوا في الثغور على تسمية الحصون التي يتوجب عليهم تركها وإفراغها. فهذا سنشكند أحد ملوك الإفرنج الذي راسل المأمون بن يحيى بالثغر يصرح قائلا : «وحق الإنجيل لا نجوت مني حتى تُعطيني الحصن الفلاني والحصن الفلاني، وسمى حصونا من حصون المسلمين بين طليطلة..»[3]. وهذا الأمر هو ما حدث بالفعل خلال العصر الطائفي، أي بعد زوال قوة ونفوذ الخلافة، وعودة الأوضاع إلى نوع من التسيُّب والتجزئة السياسية والإنتزاء الإقليمي الذي ساد قبل القرن الرابع الهجري أي خلال عهد الإمارة. فابتداء من مطلع القرن الخامس الهجري (XI م)، اضطربت الأحوال في الثغور، فبعدما كانت إلى حدود العصر العامري بمثابة "ثغر مسدود لا ثغرة فيه"[4]؛ أصبحت محط الأطماع المباشرة للمسيحيين. ومنها هددوا بالتوغل في المناطق الداخلية كلها. فهذا ابن مناو وأتباعه وجنده دخلوا على الخليفة هشام المؤيد عام (402 هـ/1011 م) وبلّغوه أن الأوضاع في الثغور أضحت مضطربة وخطيرة، وأن الأمر بلغ مُنتهَاه، وعبروا عن ذلك بقولهم:«(...) أجحفنا برعيتنا في المغارم وسعرنا في غاية الغلاء والجند فقراء، والثغر مضطرب والنصارى يريدون الوصول إلينا..»[5]. ورغم المحاولات التي قامت بها الدولة الهودية في شخص سليمان بن محمد بن هود، الذي كان من كبار الجند في إقليم لاردة بالثغر الأعلى، من أجل الحفاظ على نوع من الوحدة ضد المسيحيين؛ فإن الصراعات والتحالفات المختلفة فيما بين

(1) - نفسه: الحجي، ص. 203.
(2) - ابن عذاري: ج 3، ص. 5.
(3) - النويري: نهاية الأرب...، (قسم المغرب)، ص. 147.
(4) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 3، ص. 176.
(5) - نفسه: ص. 108.

الأسر المقيمة في الثغور أو بينها وبين المسيحيين، كانت أقوى وحالت دون الاحتفاظ بـالقوة والهيمنة التي تمتعت بها أقاليم الثغور خلال عصر الخلافة. فعقب الفتنة تولى لبيب الصقلبي شؤون بلنسية لكنه لم يلبث أن ارتمى في أحضان الإفرنج مما أغضب وأغاظ المسلمين الذين «استصرخوا ابن هود فلحق بهم وجرت بينهما حروب خاف الناس وبال عاقبتها على ثغور مثغورة »[1].

هكذا يتبيّن أن الانقسامات الطائفية والحسابات السياسية والعسكرية الضيقة في الثغـور من الجانب الأندلسي أدى إلى الزيادة في إرادة وعزيمة المسيحيين الذين «استطالت أيـديهم في مدة ابن هود على بلاد المسلمين»[2]. وبذلك ولى عهد "إذلال الشرك"[3] وأسـر العلـوج الذي عُرف في أوج الخلافة السابق.

وأصبح المسيحيون «يَشنُّون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمــات، يقتلـون الرّجال ويسلبون النساء والأطفال.. إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمـر ورطل حوت.. ومن لم يُفدِ نفسه قطع لسانه وفُقئت أجفانه»[4].

ويبدو من خلال ما سبق أن المناطق الثغرية كانت خاضعة باستمرار لميزان القـوى بين المسلمين والإفرنج أي للظروف السياسية والعسكرية والاقتصادية سواء في قرطبة أو في الممالك المسيحية المجاورة خاصة في قشتالة وليون أو في قطلونيـا. وبـالنظر إلـى الثغور أو الحدود كمجال جغرافي محدد له خصوصيات متعددة في الجانب الإسلامي كما في الجهة المسيحية، يمكن إبداء ملاحظات منها أن الحدود يسود فيها دائمـا، نـوع مـن الشعور بالخوف وانعدام الأمن نظراً للتناقضات ولو الظاهرية بين المسلمين والإفـرنج[5]. وتعتقد مجموعة من الأبحاث التي تهتم بالثغور من الجانب المسيحي أن طلب الأمن فـي الحدود معناه البحث عن الحماية والاحتماء، لأنه لا يجب تصور الثغور كحدود مرسـومة على شكل خط للجمارك[6] أو خط مستقيم كما قد يتبادر إلى الأذهان. بـل إنهـا نطـاق

---

(1) - نفسه: ص. 163.
(2) - نفسه: ص. 229.
(3) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 546.
(4) - ابن الكرديوس: تاريخ الأندلس...، ص. 103.
(5) - GLICK (Thomas. F); Cristianos y musulmanes en la Espanã médieval:711-1250 Madrid, Alienza Universidad,1991, p. 80 et sv.
(6)- GAUTIER-DALCHÉ (J); Islam et chrétienté: Espagne au XIIè siècle : Contribution l'étude de la notion de Frontière, dans: Hésperis-Tamuda, T. XLVII, 1959, p. 183, 217.

جغرافي يفصل بين عالمين متناقضين بينهما حدود ذهنية[1] أو وهمية، وأكثر من ذلك كثيراً ما ينطبق على بعض أجزائه اللفظ المشهور "الأرض بلا مالك"[2] "No man's Land". ولذلك فكل أنواع الملاجئ التي توفرها أقاليم الثغور كالكهوف والمغارات والحصون وغيرها كانت في الوقت ذاته مراكز أساسية أو محطات أولى حقيقية لظاهرة التعمير والاستقرار الدائم حسب منطوق الوثائق والنصوص المسيحية التي تعود إلى القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين[3].(٤هـ/٥هـ). وتعتبر تلك المراكز على بساطتها أدوات أو لبنات أولى لما عُرف بالاستقرار "الميكرواجتماعي" في الحدود[4]. إنه الاستقرار الذي أدى إلى ديمومة التوسع والتعمير من الجانب المسيحي، باشره الرجال والفلاحون الذين استقروا في أقصى التخوم، وزكته "السلطات العمومية" بلا تردد وذلك تحت إشراف "الكونتات"، لأن الفلاحين في مواقع استقرارهم كانوا يدافعون، ولو بشكل غير مباشرعن المصالح الاقتصادية والسياسية لتلك السلطات[5]. وتجدر الإشارة في هذا الباب إلى أن الفلاحين في الثغور المسيحية يمارسون الحرب على غرار الفرسان في مناطق أخرى، فهم حسب الوثائق مرتبطون بالأوضاع الاقتصادية والعسكرية التي تعرفها الثغور[6]. فالاقتصاد في الثغور يُعَبَّأ لصالح الحرب[7]، كما يشكل الحصن لبنة أو نواة أساسية في المجال العسكري والعمراني[8] في الآن نفسه. وقد عبر الباحث SÉNAC[9] بدقة عن هذا المنحى بقوله «إن الحصن في الحدود من الجانب الإسلامي يحد المجال، والحصن المسيحي يفتحه، فالأول حد والثاني مرحلة». أي خطوة في مجال الاستيطان والتوسع نحو الجنوب. يتبيّن إذن أن أشكال الاستقرار التي أرساها المسلمون في الحدود، كانت ظرفية ومؤقتة، عكس أشكال الاستقرار التي باشرها المسيحيون. ولذلك، فيما نرى،

---

(1)- نفسه: ص. 188.

(2) - BONNASSIE (P); La Catalogne..., op. cit, T. 1, p. 126.
BOSCH VILA (J); Algunas consideraciones..., p.26.

(3) - فصل الباحث "بوناصي" في تحليل النصوص والوثائق المسيحية التي اهتمت بالحدود مع الأندلس من جهة قطلونيا في: La Catalogne..., op. cit, T. 1, p. 120 et sv

(4) - نفسه: ج 1، ص. 126.

(5) - نفسه: ص. 126.

(6) - GAUTIER-DACLHÉ (J); Islam et chrétienté..., op. cit, p. 201 et sv.

(7) - نفسه: ص. 201، 202.

(8) - انظر الحصون وعلاقتها بالمجال في الفصل الأول من الباب الثاني.

(9) - p.80,81.SÉNAC (Ph); Les Hùsùn du Tagr Al-AQSA..., op. cit, p.80,81 .

ارتباط مباشر بطبيعة العلاقة مع السلطة السياسية بقرطبة إضافة إلى أن عامل البُعد من الحاضرة قرطبة كثيراً ما سهّل الجنوح نحو الاستقلال ببعض أقاليم ونواحي الثغور، أو الدخول في صراعات إقليمية بين الأسر والزعامات بحثاً عن الجاه السياسي والعسكري وبعيداً عن الاهتمام بقضايا الحدود وصد الأطماع المسيحية المتربصة. لقد كانت الثغور تقف حاجزاً منيعاً ضد الإفرنج لما كانت خاضعة للرقابة المباشرة من قرطبة طيلة القرن الرابع الهجري. أما خلال القرن الخامس (الطوائف)، فضعفت تلك المراقبة نظراً لغلبة التشرذم والتمزق الإقليمي. في حين اختلف الأمر كما بيّنّا آنفاً من الجانب المسيحي.

هذا عن أوضاع الثغور في المجال العسكري والسياسي. فماذا عن الأحوال الاقتصادية فيها خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة؟

من الصعوبة بمكان قياس درجة أو مستوى العلاقات الاقتصادية والمبادلات بين المسلمين والمسيحيين في الثغور خاصة في الفترة ما قبل القرن الرابع الهجري أي ما قبل عصر الخلافة أو ما يُعرف في التاريخ الأوربي بفترة العصر الوسيط الأعلى نظراً لندرة النصوص المصدرية في الموضوع[1]. وقد دفع هذا الأمر بالعديد من الدارسين[2] إلى القول بغياب علاقات اقتصادية بين أوربا والأندلس خلال تلك الفترة، بل ذهب أحدهم إلى حد القول بأن الإسلام الإيبري والمسيحية القطلانية لا يلتقيان إلا في الحروب[3]. ودون الدخول في التفاصيل يمكن القول إن الصراعات العسكرية نفسها كثيراً ما ساهمت أو كانت سبباً لرواج حركة تجارية محددة كالرقيق والجلود[4] وغيرها. وأكثر من ذلك كانت بعض الحملات العسكرية الأوربية نحو البحر المتوسطي خلال القرن الثالث الهجري (IX م) سبباً أساسياً للنمو الاقتصادي[5].

---

(1) - انظر بعض التفاصيل في:
لرشيبالد (ل): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط: 500/ 1100 م، الترجمة العربية، القاهرة، 1951.
حناوي (محمد): جوانب من العلاقات الإقتصادية...، مرجع سابق، ص. 152، 153.

(2) - أهم هؤلاء هـ. بيرين في كتابه:
PIRENNE (H); Mohamet et charlemagne,Paris,P.U.F, 1970.

(3) - BONNASSIE (P); La Catalogne...,op. cit, T.I, p.340.

(4) - NTAMINE (Ph) et autres; L'économie médiévale, Paris, A. Colin, 1993, p.100 et sv.
LOMBARD (M); Le bois dans la Méditerranée musulmane, VII-XIIè siècles, un problème de cartographie, dans : Espaces et réseaux du Haut Moyen Age, Paris, La Haye-Mouton, 1972, p. 153, 176.

(5) - DUBY (G); Guerriers et paysans..., op. cit, p. 160.
LE GOFF (J); BIRABEN (J.N), « La peste dans le Haut Moyen Age », dans: Annales E.S.C., N° 6, 1969, p.1481, 1510.

وبصدد العلاقات الاقتصادية في الثغور خلال عصر الطوائف، قدّم الباحث بوناصي تصوراً مخالفاً لما راج في الموضوع حين أوضح أن سقوط الخلافة الأموية بقرطبة آخر القرن العاشر الميلادي قد كوّن انطباعاً عاماً بتدهور الأحوال الإقتصادية في الثغور. لكن الأمر عكس ذلك. لقد ضعفت بالفعل الوحدة السياسية في الأندلس بسقوط الخلافة وظهور الكيانات الإقليمية مع مطلع القرن الحادي عشر للميلاد. لكن بعض تلك الدويلات الجديدة لم تنقصها الدينامية الإقتصادية والثقافية كما هو الشأن في دويلات مالقة ودانية وسرقسطة. ولذلك كانت محط أنظار القطلانيين[1]. تذكر المصادر المسيحية أن العلاقات ما بين برشلونة والحموديين في مالقة وسبتة كانت ضعيفة للغاية سياسياً، لكنها كانت قوية اقتصادياً ومالياً كما تدل على ذلك النقود المضروبة بسبتة والمسمّاة "بالمنقوش السبتي" (mancusos de auro Septi) (Mancusos Ceptimos) والتي تمّ تداولها بوفرة في قطلونيا خلال القرن الخامس الهجري[2]. وأكثر من هذا كانت قطع العملة المضروبة ببرشلونة أيام حُكم الزعيم (Raimond Beranger) الأول، مطابقة تماماً للنموذج الأصلي الذي يعود إلى عهد يحيى المعتلي[3]. مما يدل أن القطلانيين حافظوا وراهنوا على نوع من العلاقات السياسية والاقتصادية امتدت حتى تخوم المغرب خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري[4]. لكن متى وكيف ظهر المنقوش المشار إليه في قطلونيا؟ يُجيب الباحث بوناصي عن هذا السؤال اعتماداً على الوثائق المسيحية مؤكداً أن الإشارة الأولى للنقد الأندلسي في قطلونيا ترجع إلى عام 970 م. لكن يصعب التمييز هل الأمر يتعلق بالذهب أم الفضة. أما الإشارات اللاحقة فتعود إلى سنوات 972، 976، 980، 981 وتحمل علامة (Mancusos) أو (Pesas d'or)[5]. هذه الإشارة دفعت بالباحث إلى الاعتقاد أنها قطع ذهبية[6]، تحمل المجموعة الأولى منها إسم "المنقوش الجعفري" (Mancusos Iafaris)

---

(1) - BONNASSIE..., op. cit, T. I, p. 351.

(2) - BONNASSIE..., op. cit, T. I, p. 351.

(3) - نفسه: ج 1، ص. 351. تطابقت القطع النقدية المذكورة حتى في الكتابة إذ احتفظت القطع القطلونية بما هو مضاد للمسيحيين لأنها تحمل إشارة «واحد لا شريك له» (Seul et sans campagnon).

(4) - نفسه: ص. 251 وما بعدها.

(5) - نفسه: ص. 372.

(6) - نفسه: ص. 372.

المنسوب إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر[1]. انطلاقا مما سبق يمكن التساؤل لماذا انتظار القرن الخامس الهجري (XI م)، ليحصل "تدفق" العملة أو النقد الذي ساد في عصر سابق إلى اقتصاد قطلونيا ليُساهم في انتعاشه؟

نتفق مع الباحث كَيشار[2] حين لاحظ صعوبة تبيان أسباب "تدفق" النقد الإسلامي إلى قطلونيا خلال القرن الخامس الهجري (XI م)، لأن الأمر ليس مرتبطا بتطور أنشطة تجارية منتظمة. فهل يتعلق الأمر بالدنانير التي كانت تشكل أرباح المرتزقة القطلانيين الذين اشتغلوا لحساب السلطة في الأندلس؟ تبدو هذه الفرضية مُغرية لكن لا تملك سندا يعزّزها في النصوص المصدرية[3]. لذلك كانت قطلونيا بالتأكيد نموذجا استثنائيا سلكت نهجا أو سياسة مخالفة لما ساد في العلاقات العامة السياسية والاقتصادية مع دويلات الطوائف. لقد اتبعت سياسة ودية يطبعها السلم والمصالح مع الدويلات التي أصبحت ضعيفة في المجال العسكري، أي غير قادرة على الهجوم كما كان الأمر سابقا خلال الخلافة. في حين كان الاتجاه العام السائد لدى المسيحيين خاصة في قشتالة وليون يسير نحو التوسع العسكري والإقتصادي والبشري اتجاه الجنوب.

يتبين مما سبق أن ثغور الأندلس كانت مُرَاقبة وخاضعة سياسيا وعسكريا لقرطبة خلال الخلافة أي طيلة القرن الرابع الهجري، نظرا لنفوذ سلطة الخلافة التي امتدت إلى الثغور والأطراف الإفريقية. أما خلال القرن الخامس الهجري فاختلفت الأوضاع وانعكست الإنقسامات الطائفية وتعدد الكيانات الإقليمية على الثغور. وزادت الأمور تعقيدا لأن كل دويلة أصبحت منشغلة بحدودها إن لم نقل بثغورها تحاول الدفاع عنها أو على الأقل الحفاظ عليها ضد جارتها أو ضد المسيحيين. وبذلك تعدد الارتزاق والارتماء في أحضان المسيحيين الذين تحدوا الثغور وأصبحوا يتدخلون مباشرة في الشؤون الداخلية لجل الدويلات الطائفية. ولا تعوز القرائن والأدلة للكشف عن أطماعهم الاقتصادية في مجال

---

(1) - نفسه: ص.377، 378.

(2)- GUICHARD (P); L'Europe et le Monde Musulman au Moyen Age, dans: Hesperis Tamuda, Vol. XXXV, Fasc. 2, 1997, p. 67, 102.

(3) - لم نعثر على إشارة مصدرية واحدة تشير إلى مآل أرزاق المرتزقة المسيحيين في الأندلس. لاحظ Guichard أن النموذج القطلاني يمكن مقارنته بإيطاليا الجنوبية التي راج فيها الذهب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (X م)، ولمع في الذهب البزنطي. لكن رغم التطور الإيجابي في العلاقات التجارية بين المدن الإيطالية والعالم الإسلامي لم تعرف أسباب وجود الذهب الإسلامي في إيطاليا.

GUICHARD: op.cit, p. 81 et sv.

الجزية مثلاً أو البحث عن امتيازات متعددة[1]. ونشير في هذا الباب إلى أن القرن الخامس الهجري (XI م) قد شهد نوعاً من اليقظة والإقلاع الإقتصادي والعسكري في أوربا الفيودالية[2] التي أصبحت تتوفر فيها عناصر القوة والتوسع في الحروب الصليبية شرقاً وغرباً كذلك، لأن "حركة الاسترداد" المعروفة سبقتها أو مهدت لها تلك الأنشطة الإقتصادية والبشرية (التعميرية) التي سبقت الإشارة إليها في الحدود المسيحية منذ سقوط الخلافة. وحتى في المجال السياسي تفطن المسيحيون وانتبهوا إلى ضرورة خلق نوع من الوحدة. وهنا نتفق مع العروي[3] حين يقول «فبينما كانت الإمارات المسلمة تتحارب فيما بينها وتهدر قدراتها كانت الممالك النصرانية في تألق مستمر». لقد كان الجزء المسيحي يميل نحو الإتفاق والقوة والتكتل في الوقت الذي تميز «الجزء الإسلامي بالتشتت..» [4].

وفي هذا السياق تُفهم مختلف محاولات ثم حملات الملك القشتالي ألفونسو السادس، وبالأخص تلك التي استهدفت العاصمة القوطية القديمة طليطلة، وانتهت باستسلامها عام 478 هـ/ 1085 م. وتلك كانت بداية لمرحلة أخرى اتسمت بغلبة المسيحيين. فرغم التدخل المرابطي الذي لم يكن بدوره إلا مرحلة أخرى من تاريخ الأندلس، فإنهم – أي المرابطون –«تركوا الثغور المواجهة للعدو في حكم الأندلسيين»[5].

- رباط العلماء والفقهاء والقضاة في الثغور:

إن الثغور البعيدة عن قرطبة والتي فشلت السلطة في الدفاع عنها خاصة في أوقات الأزمات السياسية والعسكرية، عادة ما يتطوع للربط فيها رجال لا يُمثلون السلطة السياسية

---

(1) - احسن مصدر عايش واختبر مختلف الأطماع المسيحية في الأندلس خلال الطوائف هو عبد الله بن بلقين في "كتاب التبيان".

(2) - كل الأبحاث والدراسات الأوربية المعاصرة والمنجزة حول الفيودالية تؤكد في نتائجها ذلك الإقلاع الذي شهدته أوربا في مجالات متعددة خاصة الإقتصادي والعسكري. انظر مثلاً :

DUBY (G); Geurries et paysans.., op. cit.

Les Trois Ordres ou l'Imaginaire du féodalisme..., op. cit.

Hommes et structures du Moyen Age. Recueil d'articles, Paris, La Haye-Mouton, 1973.

L'Economie rurale et la vie des campagnes dans l'occident médieval, Essai de synthèse et perspectives de recherche, Paris, Aubier, 1962, 2 vol.

POLY (J. E); **BOURNAZEL** (E); La mutation féodale, X-XIIè siècles, Paris, P.U.F, 1980.

FLORI (J); L'idéologie du Glaive, préhistoire de la chevalerie Génève, Librairie DROZ, 1983.

BONNASSIE (P); La catalogne..., op. cit, 2 vol.

(3) - العروي (عبد الله): مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، بيروت، 1994، ج 2، ص. 122.

(4) - نفسه: ص. 122.

(5) - مجهول: الحلل الموشية، ص. 82.

ولا يُحاربون باسمها كالقادة العسكريين الذين يُعَيَّنون لهذا الغرض. نقصد بهؤلاء ثلّة من الفقهاء والعلماء والقضاة ورجال الفكر الذين ينذرون أنفسهم للجهاد والرباط في الثغور من أجل قتال المسيحيين في أوقات معينة من حياتهم وفي مناسبات عديدة. لكن في الوقت نفسه تكشف المصادر عن شخصيات علمية وفقهية، خاصة القضاة الذين يوفدون من قبل السلطة في قرطبة من أجل الإشراف على الثغور لأنهم يفقهون في أمور الجهاد وما يرتبط به. إن دراسة رباط الفقهاء والعلماء في ثغور الأندلس والوقوف على أصولهم وطبيعة الأعمال الجهادية التي يقومون بها والأوقات التي يتجهون فليها إلى الثغور، قضية غير مسبوقة فيما نعلم[1]. ولذلك من المفيد إبراز أهمية هذه الشريحة الاجتماعية المثقفة، في الميدان الجهادي. تجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الرباط والجهاد في الثغور من قبل الفقهاء لم تقتصر على عصري الخلافة والطوائف، بل امتدت عبر تاريخ الأندلس كله من الفتوحات إلى أيام الدولة النصرية. ولا غرو فقد سبق القول إن جزيرة الأندلس اعتبرت ثغراً أساسياً من ثغور غرب "دار الإسلام"، كانت الخلافة تُعيره اهتماماً خاصاً. ولذلك سعى العديد من الرجال إلى الرباط في ثغورها. تزخر كتب التراجم والأنساب والطبقات والرّحلات وكتب النوازل والجهاد بمعلومات هامة حول أصول وآثار الجهاد لكثير من الشخصيات العلمية والفقهية النافذة في تاريخ الإسلام، والتي آثرت الإنقطاع للثغور والجهاد فيها، أو الرباط والجهاد في إطار تولي مسؤولية من قبل السلطة السياسية في قرطبة. إن هؤلاء العلماء على بيّنة بشؤون و "أحكام الجهاد والمصالحة وأحكام الفيء والخمس والمغانم والأنفال"[2]. وكذلك قضايا الأسرى كشروط افتكاكهم أو التعامل معهم، أو أمور التحبيس لفائدة الثغور إلى غير ذلك مما يهم الثغور.

يمكن رصد نماذج من العلماء والفقهاء والقضاة الذين اشتهروا في الأعمال الجهادية خاصة خلال عهدي الخلافة والطوائف[3]. من أمثال هؤلاء: القاضي محمد بن عبد الله بن

---

(1) - ينطبق الشيء ذاته على موضوع الرباطات البحرية ودورها الجهادي خلال عصري الخلافة والطوائف. انظر: الفصل الأول من باب الأسطول الحربي.

(2) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط، 23 أ.

(3) - من الصعوبة بمكان إعداد أو رصد كل العلماء والفقهاء والقضاة الذين انقطعوا للثغور الأندلسية قصد الرباط والجهاد بها منذ الفتح الإسلامي، نظراً لكثرتهم واختلاف الفترات التاريخية التي انتقلوا خلالها من مناطق جغرافية متباينة من الأندلس وخارجها إلى الثغور. ونحن بصدد بحث مستقل في الموضوع يهتم بقضيتين أساسيتين هما: أولاً: العلماء الذين هاجروا إلى الأندلس من المشرق أو من شمال إفريقيا، أو أندلسيون رحلوا إلى المشرق أو إلى شمال إفريقيا وعادوا إلى الأندلس، في مراحل معينة من حياتهم، قصد الرباط في الثغور. ثانياً: محاولة تصنيف هؤلاء العلماء إلى قضاة أو أئمة محدثين وفقهاء أو نحاة ولغويين أو تجار وطبيعة الأعمال التي زاولوها في الثغور.

أبي عيسى الذي كلّفهُ الحكم بن هشام بتصريف ((...) الأمانات إلى الثغور والأطراف والإشراف عليها والبنيان لحصونها وترتيب مغازيها، وإدخال جيوشها إلى بلد الحرب..))[1]. والقاضي الفرج بن كنانة (قاضي الجماعة بقرطبة) الذي اشتهر بالشجاعة والفروسية والعلم والعبادة. لما استعفى من مهمة القضاء ((أخرجه الأمير (الحكم بن هشام) إلى الثغر الأقصى، فقام مقام صدور الغزاة..)) [2]. والقاضي عبد الله بن حسين المعروف بابن السندي من أهل وشقة (ت 335 هـ)، اتصف بالعلم والوجاهة وكثيرا ما شاوره الخليفة عبد الرحمن الناصر في شؤون الثغر ((لما ولى قضاء نواحي وشقة ولاردة وبربشتر)) [3]. والعالم الفقيه أبو محمد عبد الله بن القاسم بن حزم بن خلف من قلعة أيوب (ت.383). تعبد وغزا وولاه الحكم المستنصر القضاء واستعفى[4]. والفقيه سعيد بن موسى بن يونس بن مهص الغساني العالم الزاهد الذي لزم طليطلة مرابطا بها وبالثغر إلى أن قُتل عام 393هـ[5]. وأبو العباس الشاعر والأديب والمحقق الذي قرّر الانقطاع إلى الثغور و((باع كُتبه عازما على الجهاد راغبا في الشهادة)) [6].

أما العالم عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الخُشني فقد تميز بنشر العلم، والجهاد بطريقته إذ عرف عنه أنه ((اشترى ذات يوم فرسا في السبيل لبعض المجاهدين بثمن كثير)) [7]. وافتك بعض الأسرى[8].

وفي الإتجاه نفسه اشتهر العالم والفقيه أحمد بن يوسف بن مؤذن في جهة وشقة، إذ "فك من أرض العدو من أسرى المسلمين مائة وخمسين سَبِيَّة"[9]. أما الفقيه أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن سليمان بن عثمان بن حامد البلنسي فقد جمع ما بين العلم والقراءة

(1) - **النباهي**: تاريخ قضاة الأندلس...، ص.60.
(2) - **النباهي**: المصدر السابق، ص. 53؛ **عياض** (ابن موسى بن عياض السبتي المعروف بالقاضي عياض): ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972، ج 4،ص.144.
(3) - **نفسه**: ج 6، ص. 166.
(4) - **الحموي** (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي): كتاب المشترك وضعا والمفترق صقعا، د. ت، ص. 88.
(5) - **عياض**: نفسه، ج 7، ص. 208.
(6) - **السّلفي**: معجم السفر...، مصدر سابق، ص. 18.
(7) - **الضبي** (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس،مجريط،1882،ص324.
(8) - **نفسه**: ص. 324.
(9) - **ابن الفرضي** (ابن الوليد عبد الله محمد بن يوسف الأزدي): تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: الأبياري (!)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ج 1، ص. 68.

وفداء الأسرى والتجارة[1]. وعلى عكس ذلك أسِرَ الفقيه والقاضي بتطيلة عمر بن يوسف بن موسى بن فهد بن خصيب المعروف بأبي حفص، وابنه من قبل المسيحيين، وافتدى بخمسة عشر ألف دينار[2]. وفي مجال الأسر أيضا اشتهر الفقيه عقبة بن الحجاج السّلوني الذي كان يرابط ويُجاهد، و«إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حينا ويُرغبه فيه، فيذكر أنه أسلم على يديه ألفا رجل» [3].

لم يكتف بعض الفقهاء بافتكاك الأسرى أو إعانة المجاهدين في الثغور، بل تعدوا ذلك إلى بناء مؤسسات دينية أو عسكرية من أموالهم في الثغور كما هو الحال مع الفقيه العالم فتح ابن إبراهيم الأموي المكنى أبا نصر من أهل طليطلة، الذي التزم الرباط والجهاد وانفرد ببناء مسجدين بطليطلة، وكذا حصن وقش ومكادة أيام المنصور محمد بن أبي عامر[4]. أما الفقهاء الذين لا يملكون أموالا فيلتجئون إلى الزهد والمثابرة على الرباط على غرار العالم أبي عبد الله محمد بن طاهر القيسي التُدميري الذي اكتفى بسكنى ببيت «سقفه من حطب السّدر يأوي إليه واعتمد جنينة بيده يقتات منها، وصار يغزو مع المنصور ابن أبي عامر، ثم تحول إلى الثغر ... يدخل في السرايا من مدينة طلبيرة واستشهد سنة 379 هـ» [5]. أو الفقيهين الزاهدين موسى بن عبد الرحمن المكنى أبا عمران الذي انتمى إلى ثغر طليطلة مجاهدا[6]، واحمد بن عمر الصّدفي المعروف بابن أبي جنادة الذي لازم الثغور[7]. أو العلماء الذين تخلوا عن أموالهم لينقطعوا إلى الثغور كالفقيه العالم سليمان بن إبراهيم بن هلال القيسي المكنى أبا الربيع من أهل طليطلة، الذي «فرق جميع أمواله ولزم الثغور، إلى أن توفي بحصن غرماج..» [8]. وتكشف المصادر عن عيّنة أخرى من الفقهاء الذين جمعوا ما بين الرباط والجهاد والتعليم والتأديب والاستشارة في الفقه المالكي مثلا،

---

(1) - المقري: النفح...، ج 2، ص. 240.
(2) - ابن الفرضي: نفسه، ج 2، ص. 546.
(3) - الخشني: قضاة قرطبة...، المصدر السابق، ص. 21.
(4) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، المصدر السابق، ج 2، ص. 435.
(5) - المقري: نفسه، ج 2، ص. 234، 235.
(6) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 2، ص. 574.
(7) - نفسه: ج 1، ص. 62.
(8) - الداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد): طبقات المفسرين، تحقيق عمر (علي محمد)، القاهرة، 1972، ج 1، ص. 198.

أمثال الفقيه المالكي العالم بالمسائل أحمد بن خلوف المسيلي[1] (ت 393 هـ). وسعيد بن محسن المكنى أبا عثمان من قرطبة[2] (ت 401 هـ). والعالم أحمد بن هشام بن أمية بن بكير الأموي من قرطبة[3] أيضا (ت 398 هـ).

ومن العلماء والفقهاء الذين ترددوا على الثغور الأندلسية قصد الجهاد، من خارج الأندلس، نذكر حباشة بن حسن اليحصبي من القيروان (ت 474 هـ) والذي «لزم العبادة والعلم والجهاد» [4]. وأحمد بن علي بن هشام المقري من المشرق «دخل سرقسطة مجاهدا سنة 420 هـ» [5]. أما الذين رحلوا إلى المشرق قصد التعمق في الفقه، وعادوا إلى الثغور الأندلسية نذكر العالم والفقيه محمد بن الحُسام طاهر بن محمد بن طاهر (ت 378 هـ)، الذي عاد من المشرق «ولزم الثغر فكان يغزو العدو ويدخل في السرايا حتى استشهد»[6]. والعالم فتح ابن إبراهيم الأموي المكنى أبا نصر[7]، وغيرهما.

وتجدر الإشارة إلى أن مجموعة من الفقهاء والعلماء والقضاة كانوا يستدعون للمشاركة في الغزوات والمعارك الرسمية التي تقودها السلطة والجند في قرطبة، وذلك لإشهادهم في تلك الغزوات أو كتابة كتب الانتصار أو عكس ذلك، الاستشهاد في حالة الهزيمة والاندحار. وذلك ما حدث بالفعل في الموقعة الشهيرة المعروفة بالخندق التي انهزم فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر عام 327 هـ. واستشهدت فيها مجموعة من العلماء والفقهاء والقضاة أمثال: جحّاف بن يُمن القاضي المحدث ببلنسية[8]. والفقيه

(1) - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس...، ج 1، ص. 129.
(2) - ابن بشكوال: نفسه، ج 1، ص. 208.
(3) - نفسه: ج 1، ص. 19.
(4) - ابن الفرضي: نفسه، ج 1، ص. 236.
(5) - ابن بشكوال: نفسه، ج 1، ص. 88؛ الباجي (أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي): فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام، تحقيق: الباتول (بن علي)، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1990، ص. 61.
(6) - ابن الفرضي: نفسه، ج ، ص. 766.
(7) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 2، ص. 435.
(8) - الحميدي: جذوة المقتبس...، مصدر سابق، ص. 190.
الرشاطي (أبو محمد) وابن الخراط (الإشبيلي): الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تحقيق: مولينا (ل)، بوش بيلا (ح)، مدريد، المعهد الأعلى للأبحاث العلمية، 1990، ص. 115.

المحدث إبراهيم بن داوود[1]. ومجموعة من فقهاء قرطبة كالعالم معدان بن معاوية، ومحمد بن فيصل بن هذيل[2].

ولعقد مقارنة ربما مفيدة في هذا الصدد نشير إلى الفقهاء ورجال الدين والأديرة يشاركون بدورهم في المعارك والحملات العسكرية التي كانت تنظم من قبل الأنظمة السياسية والعسكرية الفيودالية، ويكفي القول بأن الحملات العسكرية التي كان يقودها المنصور بن أبي عامر في آخر القرن الرابع للهجرة (X م)، كانت تفرض على قساوسة دير كلوني أن يتدربوا على السلاح تحسبا ودرءًا للأخطار التي قد تصلهم من الأندلس[3]. وأكثر من ذلك كان رجال الدين خاصة الصغار منهم يشاركون في مختلف الثورات أو الانتفاضات ذات الطابع العسكري[4].

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 444.

(2) - نفسه: ص. 444.

(3) - **CONTAMINE** (Ph); « Le combattant dans l'occident medieval I », dans: **Le combattant au Moyen Age**, Paris, Sorbonne, 1995, p.15, 23.

(4) - انظر مثلا:

Hérésies et sociétés dans L'Europe pré-industrielle XI-XVIIè siècles:colloque de Royaumont, Mai 1962, Paris, La Haye-Mouton, 1968.

COWDREY (J. E);« The peace and the truce of god in the eleven century », dans: **Past and present**, N° 46, 1970, p.42, 67.

CAZELLES(R);« La Jacquerie fut-elle un mouvement paysan?».dans:**comptes rendus de l'Ac des inscriptions et Belles Lettres**, 1979.

FOURQUIN (G); Les soulèvements populaires au Moyen Age, Paris, P.U.F, 1972.

DOMMANGET (M); La Jacquerie, Paris, Maspero, 1971.

خلاصة

يتبين مما سبق المكانة التي حظيت بها الثغور في جزيرة الأندلس منذ الفتوحات الإسلامية. لقد تم الوقوف عند محاولات الخلافة الأموية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري للدفاع عنها بطرق وأساليب متعددة. يتجلى ذلك في تعيين قواد عسكريين يمثلونها في الثغور باعتبارها "مناطق حربية"، عكس الأقاليم والكور الداخلية. أو تقديم امتيازات مختلفة لعائلات مشهورة كي تنوب عنها في عين المكان كما حدث مع التجيبيين وبني رزين وبني ذي النون وغيرهم. كما شجعت في أول الأمر السكان والجند كي يستقروا في مدن وقرى الثغور مقابل بعض الإغراءات كالإعفاء من الضرائب لمُدَدٍ محددة أو توفير السكن للجند كي تضمن له الاستقرار.

لكن اتضح من المعلومات التي تقدمها المصادر أن الامتيازات الأكثر أهمية انصرفت للعائلات والأسر الكبرى التي استقرت في الثغور، وأهمها على الإطلاق ما كانت تستفيد منه من "الإقطاعات العقارية الكبرى"، إذ غدا التملك العسكري ظاهرة متفشية، بل أصبحت الأرض تورث في الأعقاب. ولعل أهم مظهر لذلك ما أقدمت عليه الخلافة من التسجيل على المدن والقرى والحصون والأراضي لفائدة الزعامات المختلفة المستقرة في نواحي الثغور.

لكن رغم ذلك تبين أن الخلافة تمكنت طيلة القرن الرابع من مراقبة الثغور بشكل مباشر وردع مختلف الأطماع والقوى المسيحية فيها. انقلبت الوضعية لفائدة المسيحيين بعد سقوط الخلافة مباشرة أي مع مطلع القرن الخامس الهجري لما عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه قبيل الخلافة من تمزق وصراعات طائفية متباينة. استغل المسيحيون ذلك وتبين أن نظرتهم إلى الثغور اختلفت عن نظرة المسلمين إليها. لقد اتخذوا من "التعمير" أو "إعمار" مناطق الحدود والثغور والاستقرار بها، والاستيلاء على الحصون الأكثر استراتيجية، أساليب سهلت توغلهم في الأندلس.

وقد سبق القول إن وجودهم في الثغور وطرق "تعميرهم" لها لم يكن إلا محطة أو مرحلة أولى في تاريخ عودتهم إلى عمق الأندلس. في حين كان الوجود الأندلسي في تخوم الثغور يشكل الحدود القصوى والمؤقتة للدولة الإسلامية. لم يكتف المسيحيون بتعمير

مناطق الثغور، بل تجاوزوا إطار التناقض والعداء الظاهري الذي طبع العلاقات مع الخلافة والطوائف إلى "تَصيُّد" فرص إقتصادية ومالية استفادوا منها كما اتضح من النموذج القطلاني وبعض الدويلات الطائفية في الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة. لاحظنا كذلك أن أقاليم الثغور كانت تتأثر بطبيعة العلاقات التي كانت تربط المسيحيين بالمسلمين، كما كانت تخضع في الوقت نفسه لطبيعة السلطة السياسية والعسكرية بقرطبة أو في الدويلات الطائفية الأخرى. لكن تبيّن أن الثغور الأندلسية باعتبارها مناطق احتكاك مباشر مع المسيحيين تميزت بل انفردت بميزة أساسية تكمن في وفود أو قدوم شريحة اجتماعية متفقة إليها من كل مناطق العالم الإسلامي، قصد الرباط والجهاد بها. إنها ثلّة من الفقهاء والعلماء والقضاة الذين كانوا يتوجهون في مراحل وأوقات معينة إلى الثغور ليقوموا بالجهاد وما يرتبط به كافتكاك الأسرى أو بناء مؤسسات دينية أو قتالية كالحصون وغيرها.

الفصل الثالث

أعطيات وأرزاق الجند

أعطيات وأرزاق الجند

سبق الحديث عن الكور المجندة والأجناد خاصة الشاميين الذين استقروا بالأندلس منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، والذين شكلوا الجند الذي اعتمدت عليه الخلافة الأموية. كما تمّ تحليل مكونات جند الحضرة والمتطوعة الذين كانوا بدورهم أداة أساسية في يد سلطة قرطبة طيلة عصر الخلافة. دون إغفال خصوصيات جند الثغور الذي واجه المسيحيين. وإذا أسعفت المعطيات المصدرية المتوفرة في تحليل طبيعة هذا الجند ودوره في المجالين السياسي والعسكري، فإن الصورة تظل ناقصة ما لم يتم تحليل علاقته بالميدان الاقتصادي. نقصد بذلك كيف كانت قرطبة تنظم الأنشطة الاقتصادية وتشرف عليها، وما هو نصيب الجند منها على شكل الأرزاق والأعطيات؟ وما هي أنواع وأشكال تلك الأعطيات وأوقات توزيعها وصرفها. وكيف كان يتم التعامل مع الغنائم في حالات الانتصار على المسيحيين وهي كثيرة. إن هذه الملاحظات تقودنا إلى إثارة أسئلة هامة مرتبطة بأنظمة الإنتاج أو بطبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت في الأندلس منذ ما قبل الخلافة؟

1. وضعية الأرض ونصيب الجند منها

لعل مختلف التساؤلات السالفة الذكر تفيد في إثارة موضوع طبيعة الأرض الأندلسية منذ الفتح الإسلامي لها. إذا كانت الخلافة الإسلامية تعتبر الأندلس ثغراً من ثغور الإسلام، فربما طبق فيها ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب لما أمر الجند باستغلال ثغور الهند والالتزام بالدفاع عن الإسلام فيها[1]. ولذلك اعتبرت أرض الأندلس في أول الأمر مُقطعة للجند ولرؤساء القبائل الذين "يتولون توزيع الحصص على أفرادها"[2]. أما الجند فقد سجلوا "ما وضعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات"[3]. مع ذلك اختلفت الروايات باختلاف الفقهاء حول وضعية

(1) - الغساني (محمد بن عبد الوهاب):رحلة الوزير في افتكاك الأسير، نشر البستاني، طنجة، 1940، ص.113،112.
بوتشيش (القادري): تطور ملكية أراضي الجيش...، مرجع سابق، ص. 145.
(2) - مؤنس (حسين): فجر الإسلام، مرجع سابق، ص. 635.
(3) - نفسه: ص.623.

الأرض بالأندلس إبان فتحها. فهل طبّق فيها ما جاء في الآية الكريمة المشهورة: {واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأنّ لله خُمُسَه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، إن كنتم آمنتم بالله، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان..}[1].

بداية يمكن القول إن الأحكام الفقهية والمذاهب النظرية التي وُضعت في مراحل تاريخية محددة لم تتمكن من مواكبة كل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي عاشتها المجتمعات والحضارات المختلفة التي خضعت للإسلام عبر مناطق متباينة. ولذلك كثيرا ما يتناقض الواقع التاريخي العياني ومضمون الأحكام الفقهية الواردة في مختلف مناحي الحياة الإقتصادية والسياسية والعسكرية. وبمعنى آخر عادة ما يتجاوز الواقع الاقتصادي والسياسي والعسكري منطوق الأحكام والنظريات الفقهية لأسباب متعددة الشيء الذي يؤدي إلى تأويلات بل إلى تطبيقات مختلفة لتلك الأحكام. انطلاقا من ذلك تتأكد صعوبة الخوض في تحليل وضعية الأرض الأندلسية وبناء فرضيات محددة بصددها نظرا لقلة أو غياب نصوص مصدرية كافية للقيام بذلك. تحدثت مجموعة من الفقهاء عن ظروف إخضاع الأرض بالأندلس منذ فترة الولاة، واختلفت آراؤهم باختلاف المراحل التاريخية والظروف التي عاشوها. وفي الوقت نفسه أوردت مصادر أخرى، كالمصنفات التاريخية والجغرافية، وكتب الأنساب والطبقات والحسبة والنوازل وغيرها، معلومات مفيدة للغاية عن الظروف التي صاحبت عمليات إخضاع الأرض بجزيرة الأندلس منذ الفتوحات وخلال الفترات التاريخية اللاحقة. فلم تتوان في إيراد تفاصيل تكشف عمّا لحق الأرض من السطو والسيطرة والمصادرة. فهذا الفقيه ابن نصر الداودي[2] (ت 402 هـ) يُصَرّح أن أرض الأندلس طعن فيها البعض على أنها "أو أكثرها فُتحت عنوة وأنها لا تُخَمَّس ولم تقسم، غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام، ولم تترك لمن يأتي من المسلمين..". وعلى هذا المنوال سار ابن حزم[3] الذي لم يتردد في القول إن:"الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله ﷺ، فيما فتح..."، وهكذا كان "لكل يد ما أخذت"[4]. وعكس ما سبق تحدث ابن مزين عن تطبيق الأحكام الشرعية في

(1) - سورة الأنفال، الآية 41، مصحف المدينة، قراءة ورش عن نافع 1409 هـ.
(2) - الداودي (أبو جعفر أحمد بن نصر): كتاب الأموال، تحقيق شحادة (رضا محمد سالم)، الرباط، 1988، ص. 70.
(3) - ابن حزم: الرسائل...، ج 3، ص. 174، 175.
(4) - مؤنس (ح): فجر الأندلس...، ص. 621.

أرض الأندلس التي وزعت بين أفراد الجند الفاتح سوى بعض المناطق أو المراكز الرئيسية التي عوملت بمبدأ الصلح وتُركت لأصحابها يدفعون عنها الخراج لبيت المال[1]. وذكر ابن الحاج[2] أن "ما كان من عنوة قد واقعه الخمس"، أما ابن القوطية[3] فأكد أن "أهل ماردة صالحوه (طارق بن زياد)، ولم يأخذه عنوة". ويستفاد من كلامه أيضا أن أرض الأندلس لم تخمس بدليل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أوفد "جابرا مولاه يخمس الأندلس فنزل قرطبة.. ثم أتته وفاة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فرفع يده من التخميس.."[4]. وأشار الرازي[5]، حين وصف إقليم لاردة وحصونه، إلى أن المسلمين لما دخلوا شبه جزيرة الأندلس اتفقوا مع سكان هذا الإقليم على أن يبقوا على حصونهم بجوار المسلمين دون نزاعات. ونعلم كذلك أن السمح بن مالك الخولاني لما قدم الأندلس سنة 100هـ "وضع يده في السؤال عن العنوة ليميّزه عن الصُلح"[6 مكرر]. وحاول تخميس الأرض العنوية بإقرار "القرى في أيدي غنامها بعد أن يأخذ الخمس"[7]. يبدو إذن من خلال ما سبق أن أرض الأندلس لم تخضع لنظام

---

(1) - نفسه، ص. 615.
بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 37، 74.
نفسه: "المشكل القانوني للملكية العقارية في الأندلس من الفتح حتى مطلع القرن الرابع الهجري"، مجلة البحث العلمي، عدد 36، الرباط 1986، ص. 242.
ذهب الباحث بعيدا في تفسيره لاختلاف الفقهاء حول طبيعة الأرض الأندلسية حين أشار إلى أن الفقيهين ابن حزم والداودي كانا واقعيين لما أكدا خضوع الأرض بالأندلس لمبدأ الغلبة. أما ابن مزين فيُعتبر من أبناء الأمراء الذين استفادوا من الملكيات العقارية الكبرى (الاقطاعات)، ولا غرابة أن يدافع عن مبدأ تطبيق الأحكام الشرعية في أرض الأندلس. نفسه: ص.243، 244.

(2) - ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن الحاج): النوازل، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم ج 55، ص.150،151.

(3) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص.35.

(4) - نفسه: ص.38.

(5) - الرازي: وصف الأندلس، تحقيق. ل. بروفنسال، مجلة الأندلس، المجلد XVIII، 1953، (51. 108)، ص. 74.

(6) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص.31.

(6) مكرر - تفصل المصادر خاصة كتب الفقه والأموال في الأراضي الصلحية والعنوية وما يطبق فيها سواء في الأندلس أو في المغرب أو في إفريقية مثلا. من أمثلة ذلك أن أرض المغرب لم يُعرف وضعها القانوني إلى حدود عصر الخلافة في الأندلس كما يستشف من خلال كلام أحد عُمّال المنصور بن أبي عامر على مدينة فاس إذ قال "أخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة؟ فقالوا لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه.، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل، فقال ليست بصلح ولا عنوة إنما أسلم عليها أهلها..". عباس بن ابراهيم: الإمتاع بأحكام الإقطاع..، مخطوط، الخزانة العامة، رقم د 4،13 ب.
الونشريشي: المعيار...، ج 6، ص. 133، 134.
وقيل في أرض إفريقية عن ابن أبي زيد عن سحنون في النوادر أنه قال "لم أقف منها على حقيقة من عنوة أو صلح". نفسه: ج 6، ص. 134.
وفي خراج أرضها قيل إن "ما فضل بعد أعطيات الجند وفرائض الناس ينتقل إلى الخلافة" : مجهول : أخبار مجموعة، ص. 30.
للمزيد من التفاصيل بالنسبة للأندلس والمغرب:
الجزيري: المقصد المحمود، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 592، 92 ب.
أبو الوليد (هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي): المفيد للحكام فيما يُعرض لهم من نوازل الأحكام، مخطوط، الخزانة العامة، ق 805، ص. 236 وما بعدها يضم إشارات مفيدة كالقول "إن أهل الأندلس خالفوا مذهب مالك لأنهم أجازوا كراء الأرض بما يخرج منها وهو مذهب الليث بن سعيد". ص. 236؛ الداودي: كتاب الأموال...، ص. 68، 69، 70؛ ابن المناصف: الإنجاد في أحكام الجهاد، مخطوط (ميكروفيلم)، الخزانة العامة، 748، ص. 317 وما بعدها.

(7) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 30،31.

واحد، إذ تمّ التعامل معها حسب المناطق وحسب القبائل التي استقرت بها. لقد سلف القول في "**الكور المجندة**"[1] إن النزاعات حول الأرض بدأت مع استقرار الأجناد الشامية في مطلع عصر الإمارة. أفادت الإشارات المصدرية المتعددة أن عرب الأندلس وبربرها كانوا لا يخفون كراهيتهم للشاميين، ولذلك تعصبوا لعبد الملك بن قطن الفهري الذي كان يُرَدِّد لأهل الشام: "بلدنا يضيق فاخرجوا عنا، فكانت الحرب تدور بينهم"[2]. وتفاديا لتلك النزاعات، ومن أجل إيجاد نوع التوازن الإقتصادي والبشري، أمرت الإمارة الأموية بإعادة توزيع القبائل أو الأجناد الشامية عبر الأقاليم الأندلسية. وفي هذا الإطار تحدثت المصادر عن "**الإنزال**" و"**الإقطاع**" عبر مختلف الأنحاء في الأندلس، بحيث أن إنزال العرب الشاميين كان، "على أموال أهل الذمة من العجم، وبقي البلديون على غنائهم لم يتنقصهم شيئا"[3]. وكان لهم أيضا "أموال أهل الذمة من العجم طعْمة. وبقي البلديون العرب من الجند الأول على ما بأيديهم من أموالهم لم يُعرض لهم.."[4]. واستقروا "على أموال العجم من أرض ونعم"[5]. فصّل ابن الخطيب[6] أكثر في الموضوع حين بيّن أن إبعاد القبائل الشامية عن قرطبة لتَجَنُّب الفتنة كان مقابل إقطاع يشمل "ثلث أهل الذمة الباقين من الروم...".

وأضاف في المعنى ذاته أن للشاميين "ثلث أهل الذمة من العجم طعمة، وبقي العرب والبلديون والبرابر شركاؤهم... نزلوا وسكنوا واغتبطوا وكبروا وتَمَوَّلوا إلا مَن كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على عنائهم موضعا رضيا، فإنه لم يرتحل عنه، وسكن به مع البلديين، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو ولحق بجنده، فهم الذين كانوا سمُّوا الشاذة حينئذ"[7].

يتبيّن من المعطيات السابقة أن الأجناد الشامية كانت تستفيد من ثلث ما كانت تُغِلُّهُ الأرض المسيحية في الكور التي نزلت بها. نقول ثلث الأموال والمحاصيل المستخلصة من الأرض، أي أن الأمر يتعلق بالدّرجة الأولى بامتياز نفعي أو استغلالي مرتبط بالمنتوج الفلاحي قبل

(1) - انظر فصل الكور المجندة وجند الحضرة.
(2) - **ابن القوطية**: المصدر السابق، ص.42.
(3) - **نفسه**: ص.44.
(4) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 1، ص.63.
(5) - **ابن عذاري**: البيان، ج 2، ص.33.
(6) - **ابن الخطيب**: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصدر سابق، م 1، ص. 108.
(7) - **ابن الخطيب**: الإحاطة...، م1، ص. 109.

الأرض نفسها. وقد دفع هذا التمييز الباحث شالميطا[1] إلى الحديث عن "الإنزال" الذي هو استفادة الجند الشامي من ريع أرض محددة أي من مداخيلها وليس من الأرض نفسها. وهو ما عبر عنه ل. بروفنسال[2] "بحق الإيواء" أو "الإنزال". تبنّى الباحث لاكَاردير[3] بدوره هذه الآراء وقال بإقطاع "الإستغلال" بدلاً من إقطاع الأرض، وهو ما يُعَبِّر عنه بالإلتزام أو "الانتفاع" ذي الطابع الرّيعي (Concessions de vente). ويشكل في هذه الحالة ثلث أموال الأراضي المسيحية في أقاليم إلبيرة وَرَيُّة ومالقة وشذونة التي أخضعها الجند الشامي[4].
واكتفى باحثون آخرون[5] بالحديث عن إقطاع عسكري تجلى في "استقرار الجند الشامي في الكور المجندة". ويشمل "الأرض وضريبة المحصول في نفس الوقت"[6]. يمكن القول إن جل النصوص المصدرية قد ركزت في واقع الأمر على إخضاع الأجناد الشامية "لأموال أهل الذمة طُعمة"[7]، مع استثناء لهذه القاعدة انفرد به ابن عذاري[8] حين أشار إلى أن الشاميين استقروا على الأموال العجمية "من أرض ونعم". ومن هنا نتصور أن الجند الشامي، إضافة إلى ما كان يأخذه من الإنتاج الزراعي ــ كان يُقيم في أراضٍ خصبة يستفيد منها بشكل من الأشكال ولو أنها كانت ــ نظرياً ــ تابعة للدولة أو للسلطة السياسية بقرطبة. انطلاقا من ذلك تُثار إشكالية السلطة السياسية وعلاقتها بالمجال الاقتصادي والبشري. إن غياب سلطة سياسية مركزية قوية خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة(IX م) سَهَّل، أو أدى إلى استفحال عمليات الغصب والتّرامي على الأرض، وسيادة قانون الغلبة الذي تعكسه بامتياز ظاهرة "الإنتزاء" و"الإنزال"، و"الإقطاع". وتكشف المعلومات المصدرية المتنوعة انتشار عمليات الاستحواذ على الأرض عبر جل الأقاليم الأندلسية مما في ذلك الثغور إلى أن تَغيَّرت الأوضاع، ولو نسبيا، لما تمكنت الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر من إقرار سلطة مركزية نافذة.

---

(1) - **CHALMETA** (P); Concesiones territoriales en Al-Andalus hasta la llegada de los Almoravides des: cuadernos de Historia: **Anexos de la Revista Hispnica : N° 6, Madrid, 1975, p.1, 87.**

(2) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E), Histoire de l'Espagne…, T.3, p.40.

(3) - **LAGARDERE** (V.); Campagnes et paysans d'Al-Andalus, VIII-XVè siècles, Paris, Maisonneuve et la Rose, 1993, p. 24.

(4) - **LAGARDERE** (V);" Structures étatiques et communautés rurales: les Impositions légales et illégales en Al-Andalus et au Maghreb:XI-XV siècles", dans: Studia Islamica; T. 80, Paris, 1994, p.58.

(5) - **ذنون طه**: تنظيمات الجيش...، مرجع سابق، ص.40.

(6) - **بوتشيش القادري**: أثر الإقطاع...، ص. 89.

(7) - **ابن عذاري**: المصدر السابق، ج 2، ص. 33.

(8) - **نفسه**: ص.33.

لقد كانت الأرض خلال تلك الفترة محوراً لصراعات متعددة تغلب خلالها كبار المنتزين على مناطق خصبة سواء برضى وتزكية السلطة السياسية بقرطبة أو بفرض سياسة الأمر الواقع. ولا تعوز القرائن والأمثلة لتبيان ذلك يكفي القول إن الأمير عبد الله قبل التسجيل على بعض الأراضي الواسعة والخصبة غير البعيدة عن إشبيلية ليحيى ومحمد إبني عبد الله بن عبد الملك بن هاشم، اللذين ابتنيا "حصن شِذْفيلة من أقاليم إشبيلية، واجتمع إليهما قومهما من البربر، وسجّل لهما الإمام عبد الله...واتّخذا الدور والأجِنّة في الرّبض الغربي من قرطبة واكتسبا الضياع"[1]. وكان بنو سعيد بن ناصح المعروفين ببني مستنة يستفيدون من أراضي وحصون بكورة باغة[2]. وعلى غرارهم استغل بنو مهلب حصوناً وأراضي بالموسطة[3].

كانت عملية التسجيل عبر الأقاليم الأندلسية لقادة ولعائلات معروفة ظاهرة متفشية أدت إلى نشاط حركة الانتزاء والاستقلال عن الحكم المركزي. دفع هذا الوضع بأحد الدارسين[4] إلى الحديث عمّا سماهُ "بالتجزئة الإقطاعية" التي عمت الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. لم تسلم أراضي الثغور من هذه الوضعية لأن أراضيها انتقلت أيضاً من "إقطاع استغلال إلى إقطاع تمليك، انحصر في عائلات تورثه في الأعقاب.."[5]. وبهذه الصفة أي صفة الإرث "أصبح شبيهاً بالإقطاع الأوربي"[6]. باعتبار "طبقة العسكر شأنها شأن طبقة المحاربين أو الفرسان الذين أفرزهم الإقطاع الأوربي، لعبت دوراً جوهرياً في صياغة النظام السياسي خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري"[7].

هل ظلت هذه الوضعية قائمة خلال الخلافة والطوائف أي إبان القرنين الرابع والخامس

---

(1) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 106.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 173.

(3) - نفسه : ص.173.

(4) - بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 87. فصل الباحث في "التجزئة الإقطاعية" مُبيّناً أنواع وأصناف "الإقطاع" وخصائصه. فتحدث عن إقطاع الاعتراف بالأمر الواقع بموجبه تضطر الدولة لإقطاع جزء من الأرض لأحد القواد النافذين دون الالتزام بشروط أداء الضرائب أو الخدمة العسكرية. وإقطاع المفارقة الذي يتميز باتفاق بين الدولة والشخص المُقطَعُ على واجبات والتزامات محددة. يستفيد من "الإقطاع" عموما قادة الجند النظامي، كقواد الصوائف، أو أصحاب الخيل، أو قادة الجند المجلوب (المرتزق)، الذين يستحوذون على الأرض ويُسَخّرُون فيها العبيد. كما يستفيد منه الجند المنفصلون عن الحكم المركزي. تميز هذا"الإقطاع" كذلك بظاهرة الولاء أو التبعية أو الاصطناع التي يفرضها "النظام الإقطاعي" في نظر الباحث: المرجع السابق، ص.171، 170، 138، 137، 136، 90، 89، 88،(انظر مناقشة النظام الإقطاعي في مكان آخر من هذا الفصل).

(5) - بوتشيش القادري: تطور ملكية أراضي الجيش، ص. 145.

(6) - نفسه: أثر الإقطاع...، ص. 92.

(7) - نفسه: ص.170: من الصعوبة بمكان إجراء هذا النوع من المقارنة نظراً لغياب معطيات كثيرة من الجانب الأوربي (انظر آخر الفصل).

للهجرة؟ كيف كانت وضعية الأرض في عهد الخلافة التي تمكنت من استعادة القوة والنفوذ اللازمين لإخضاع جل أو كل الأقاليم الأندلسية؟.منذ مطلع القرن الرابع الهجري(Xم) عملت الخلافة على مصادرة الأرض وإرغام الجند المنتزي الذي تجذر خلال الإمارة، على الخضوع. وكان ذلك بداية لتثبيت دعائمها ونفوذها. لقد كشفت المصادر عن مختلف الصراعات والحروب التي خاضها الخليفة عبد الرحمن الناصر من أجل توحيد المجال والقضاء على التجزئة السياسيّة ذات "الطابع الإقطاعي" التي حالت دون نمو حركة اقتصادية قوية وإقامة سلطة مركزية نافذة. لقد حل الارتزاق في ديوان الجند بقرطبة محل إقطاع الأرض الذي ساد خلال الإمارة. أي تَمَّ إدماج المنتزين في بنية جند الحضرة وإلحاق أغلبهم بالديوان[1]. ولعل أبرز مظهر للقضاء على التجزئة "الإقطاعية" هو تلك الحملات المتكررة التي قادها عبد الرحمن الناصر قصد هدم الحصون والمعاقل التي كان يتمسك بها المعارضون لسياسته، والمنتزون بمناطق عديدة عبر الأندلس. فهكذا حارب "واستنزل أهل الموسطة"[2]. وتخلى "أهل كورة إلبيرة (عن أراضيهم وحصونهم، دون أمان طلبوه ولا عهدٍ اعتقدوه"[3]. واستسلم لطاعته وسلطانه أهل حصون قنالش والفهمين[4]. كانت سياسية الخليفة عبد الرحمن الناصر قائمة على توحيد المجال الجغرافي والبشري تحت نفوذ الحاضرة قرطبة. لقد أصر على "إزعاج من وجب إزعاجه إلى قرطبة، ممّن كانت نفسه تائقة إلى الفتنة، ليكون النّاس أمّة واحدة ورعية ساكنة وادعة"[5]. وأكثر من ذلك اتبع سياسة الصرامة لما "ألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب وغيرهم إلى الخضوع والوقوف عند أمره ونهيه"[6]. ولم يتردد في عزل أو تغيير الوزراء أو كبار الموظفين من خطة لأخرى[7]. لكن رغم المجهودات العسكرية الجبارة والوقت غير القصير الذي استغرقه النّاصر في القضاء على المنتزين وعلى "التجزئة الإقطاعية" والمستفيدين بشكل مباشر من الأرض، فإنه واجه عراقيل كثيرة من قبل هؤلاء أهمها أن الهزيمة العسكرية التي مُنِيَ بها في وقعة الخندق عام327 هـ ضد مسيحيي

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 80.
(2) - نفسه: ص. 173.
(3) - نفسه: ص.58.
(4) - نفسه: ص.283.
(5) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص.197.
(6) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص.155.
(7) - ابن حيان: ج 5، ص.110،111، 252، 253، 276، 377، 390،391.
ابن عذاري: ج 2، ص. 158، 220.

جليقية، تُعزى أسبابها الأساسية إلى تخاذل أعيان الجند وتقاعسهم في مواجهة العدو كما يؤكد ابن حيان بقوله: "وبدا من قوم من وجوه الجند في هذا اليوم النفاق، لأضغان احتملوها على السلطان، ففتقوا الصفوف، وشرعوا في الهرب، وجرووا على المسلمين الهزيمة.."[1]. وعبّر ابن الخطيب[2] بدوره عن مسؤولية كبار الجند وتواطئهم ضد الخليفة الناصر في موقعة عام327هـ، التواطؤ الذي وصفه أحد الدارسين[3]"بمحاولة انقلابية كادت تفقد السلطة الأموية توازنها". لاشك أن تلك الهزيمة دفعت بالخليفة عبد الرحمن الناصر إلى تعديل سياسته تجاه أصحاب الإمتيازات الكبرى. فلو أن كبار الموظفين أوبعض العائلات المشهورة ظلوا يستحوذون على أراضٍ خصبة في بعض النواحي خاصة في الثغور، وذلك مقابل خدمة الخلافة في قرطبة إدارياً وعسكرياً واقتصادياً، فقد اختلف الأمر عما كان عليه خلال الإمارة، لأن المستفيدين من الملكيات العقارية الكبرى كانوا تحت نفوذ الدولة أو تابعين لها على الأقل. ومن أمثلة ذلك أن الناصر لما فتح مدينة إستجة واستسلم له أهلها "اوسعهم طوْلاً وإحساناً وألحق فُرسانهم وحُماتهم جُملة الجند بالأرزاق الواسعة والقطائع الفاضلة على أهليهم وعيالهم"[4]. لا غرو فالحكام والخلفاء أنفسهم كانوا يملكون أراضي شاسعة، بحيث تفشى ما كان يُعرف بالأراضي السلطانية طيلة القرن الرابع الهجري. وقد كشفت المصادر عن "خطة الضياع"[5] التي كان المشرف عليها يتكلف بتسيير الأراضي التابعة للحكام وتعرف أيضاً "بالمستخلص"[6]. وتضم الأراضي والممتلكات الفاخرة كالمنيات والقصور، ويعود ريعها إلى خزائن السلاطين[7]. وإلى جانب الملكيات العقارية السلطانية تذكر المصادر أنواعاً أخرى

---

(1) - **ابن حيان:** المقتبس، ج 5، ص.436،437.
(2) - **ابن الخطيب:** أعمال الأعلام...، ص.42.
(3) - **الطاهري:** عامة قرطبة. ص.60.
(4) - **ابن حيان:** المصدر السابق، ص.55.
(5) - **ابن عذاري:** البيان، ج 2، ص.199.
(6) - **ابن بلقين:** كتاب التبيان...،المصدر السابق، ص.144،252.
المقري: النفح...، ج1، ص.211، 379.
(7) - تجدر الإشارة إلى أن الفقهاء اعتبروا أن للسلطان أو الخليفة حق التصرف في الأرض من الوجهة الشرعية. فله أن يوقفها أو يقسمها أو يُعطيها من أراد. وحتى الأراضي الموات البعيدة عن العمران أو حتى القريبة لا يجب إحياؤها في أغلب الأحوال إلا بإذن من الخليفة. ولاشك أن العديد من الحكام قد استغلوا هذه الوضعية من أجل إخضاع أراضي خصبة والتصرف فيها بشكل مباشر. انظر التفاصيل في:
الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق، لأماكن متعددة؛ **الماوردي** (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي الماوردي): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1978؛ **ابن آدم** (يحيى القرشي): كتاب الخراج، تحقيق شاكر (أحمد محمد)، د.ت؛ **عباس ابن إبراهيم:** الإمتاع بأحكام الإقطاع...، مخطوط سابق، ص. 12 وما بعدها.

سادت خلال عصر الخلافة. فمن خلال وجود خُطة لرعاية أراضي الأحباس أو ولاية الأحباس[1] تأكد انتشار الأملاك المحبسة لفائدة الثغور أو لصالح مؤسسات دينية أو اجتماعية أو عسكرية[2]. إضافة إلى ذلك يمكن القول إن قوة الدولة خلال القرن الرابع الهجري، ونجاحها في توفير الأمن وبسط نفوذها عبر أغلب المجال في شبه جزيرة الأندلس، قد ساهم دون شك في الانتعاش النسبي والمحدود لحركة تجارية في ميدان العقار[3]، بيعا وشراء وكراء[4]. وربما بشكل أقل مما تصوره أحد الدارسين[5] حين أوضح بصدد الخلافة "أن قيام سلطة مركزية قادرة على ضمان الأمن للجميع فسح المجال لظهور وانتعاش الملكية الخاصة الحرة الصغيرة" بل إن انتعاش التجارة وتطور المدن[6]، وتحول الريع العيني إلى النقدي كان إحدى مظاهر "تراجع العلاقات الإقطاعية في اتجاه التحول الرأسمالي"[7]. أما سياسة الخلافة تجاه الثغور، فيلاحظ أنها حاولت الإشراف عليها سواء بتعيين قواد عسكريين يباشرون عملهم بها باسمها، أو الاحتفاظ بعملية التسجيل للعائلات المشهورة بنواحي الثغور مقابل التزامات مختلفة خاصة العسكرية منها. وقد ظل ذلك التسجيل يورث في تلك العائلات لمدة طويلة كما أكد ابن حيان[8] لما ذكر أن الخليفة أسند مدن الثغر لأكابر"ساكنيها ووراثها عن الأجداد والآباء... وجدد لهم ولأعقابهم بعدهم". ويظهر أن هذا النوع من التسجيل على "إقطاعات" كبرى قد زكته الخلافة في المغرب كذلك كما يتبيّن من المراسلات التي جرت بين الخليفة عبد الرحمن الناصر وموسى بن أبي العافية. يقول الناصر في إحدى مراسلاته مشجعاً ابن أبي العافية على إخضاع الأرض والتوسع فيها: "فانهض أيدك الله.. وتقدَّم مُتَوَسِّعاً فيما بين يديك، ولا يُقنعك ما أنت فيه... فكل ما توسعت فيه، وفتح الله عليك به، كان لك ولولدك ولعقبك، إقطاعاً من أمير المؤمنين لك، وتَوَسُّعاً عليك ومكافأة لمحبتك.." [9].

---

(1) - المقري: المصدر السابق، ج 2، ص. 234.

(2) - انظر فصل نظام الثغور.

(3) - الجزيري: المقصد والمحمود...، مخطوط سابق، 79 أ.

(4) - نفسه: ص. 92.

(5) - الطاهري: عامة قرطبة، مرجع سابق، ص. 78.

(6) - يبدو أن الانتعاش النسبي لظاهرة التبادل في مجال العقار بيعا وشراء وكراءً واكبه نشاط حركة تأليف مهمة وذلك لمحاولة ضبط وتوثيق ذلك لتفادي النزاعات والفوضى التي يمكن أن تحدث في هذا المجال. وأحسن نموذج في كتب الفقه والسجلات والوثائق والتي خصص بعضها للعقار نذكر:
الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط؛ ابن العطار (محمد بن أحمد الأموي): كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق شالميطا (ب) كورينطي (ف)، مدريد، المعهد الإسباني العربي للثقافة، 1983.

(7) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص. 85، 88.

(8) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 437، 438.

(9) - نفسه: ص. 312.

غيّر المنصور ابن أبي عامر وضعية الأرض خاصة الهياكل العقارية المرتبطة "بالإقطاع العسكري"، حين أقدم على الإستغناء عن الجند الإقليمي أي الكور المجندة التي كان يُعَوّل عليها إلى مستهل عصر الخلافة. لقد جمّد دور العناصر العربية خاصة الشامية، أي

الأرستقراطية العربية التي كانت تستحوذ على الأرض وعلى شؤون البلاط الخلافي، وذلك لفائدة العناصر البربرية التي استقدمها من شمال إفريقيا خاصة من المغرب[1]، وجعلها تحتل مركز الصدارة في الميدان العسكري. لقد اتخذها نواة أساسية لجيش مركزي قوي وخاضع له بشكل مباشر. أقدم المنصور العامري أيضاً على إلغاء ظاهرة القبلية في تشكيلات الجند لما اعتمد قوة ملتحمة ومُدَرَّبَة تفي بشروط الشجاعة والإقدام والطاعة أو الولاء له شخصيا. يؤكد ابن عذاري[2] هذا الاتجاه بقوله "وأخلص الجند له لِمَا رأوا من كثرة جوده وكرم عشرته وسعة مائدته، فأحبوه، والتفوا به، وكثر إحسانه إليهم... إلى أن أدرك بهم سؤلَهُ وبلغ مأموله..". قرر ابن أبي عامر ألا يشتغل جنده إلا بالأمور العسكرية وربما تأثر بما جاء في بعض كتب الأموال والأخلاق السلطانية[3] التي توصي الحاكمين بعدم إشراك الجند في شؤون لا تهمه بشكل مباشر، "كالمستغلات والمتاجر"[4]. والجند إذا اشتغل بالفلاحة "يعطل المعنى المطلوب منهم من الاستعداد للقيام بما أعدوا له من مصالح المسلمين ورد الأعداء عنهم"[5]. ولذلك يجب ــ مقابل ذلك ــ إعطاؤه أرزاقه وأعطياته المستحقة مشاهرة[6]. ولا غرابة أن "جميع الأجناد العامريين من الفرسان خاصة من سائر الطبقات والأحرار وجميعهم مرتزقون في الديوان"[7].

---

(1) - انظر فصل الكور المجندة...

(2) - **ابن عذاري**: البيان، ج 2،ص.264.

(3) - انظر : **ابن هذيل**: تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس، مخطوط الأسكوريال، رقم 1652،21 أ.

الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلِك وسياسة المُلك، تحقيق: السرحان (محيي هلال)، الساعاتي (حسن)، بيروت، دار النهضة العربية، 1981، ص. 173.

نفسه: أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة المُلك، تحقيق: **الهادي** (حسن حسين)، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1984، ص.92 وما بعدها؛ **ابن المقفع**: الأدب الصغير والأدب الكبير، ص.200 وما بعدها.

(4) - **ابن أبي النور** (إبراهيم عبد الواحد): سياسة الأمراء وولاة الجند، مخطوط ، الأسكوريال، رقم 719، 8 أ.

ابن الخطيب:الإشارة إلى أدب الوزارة، تليها مقامة في السياسة، تحقيق: **شبانة** (محمد كمال)،الرباط،1980، ص.126.

(5) - **إبراهيم** (برهان الدين المصري):إجارة الإقطاع، مخطوط الخزانة الحسنية،الرباط،216(مجموع) ص.341،340.

(6) -انظر أعطيات الجند نقدا في مكان آخر من الفصل.

(7) - **ابن الخطيب**: أعمال الأعلام...، ص. 165.

كيف ذلك؟ اختلفت المصادر بصدد الكيفية التي طبق بها المنصور بن أبي عامر إصلاحه العسكري. فابن بلقين المصدر القريب من الفترة العامرية ذكر بوضوح أن ابن أبي عامر كان يَحُضُّ الناس على الجهاد والغزو لكنهم عجزوا عن ذلك "وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ولم يكن القوم أهل حرب فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ويعطوا من أموالهم كل عام ما يُقيم به الأجناد.."[1]. أما ابن الخطيب فذهب إلى القول إن المنصور صدر أمره سنة 388هـ "بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو استغناء بعدد الجيش واستظهاراً بأصيل العز، وعرفهم بأن من تطوع خيراً فهو خير، ومن خف إليه فمبرور ومأجور ومن تثاقل فمعذور"[2]. يبدو من خلال معلومات الأمير عبد الله أن المنصور العامري قد وقع نوعاً من المعاهدة (مع) الفلاحين بإعفائهم من الخدمة العسكرية. مقابل الضرائب السنوية لمساندة الجيش[3]. أي أنه "ضرب عليهم الإقطاع وحصّل في الدواوين جميع أموال الناس وكسَّرها عليهم وفرض بينهم ما لا يرتزق منه الجيش، فبقيت تلك الإقطاع عليهم إلى أن عمّت الأندلس عدة الثوار"[4]. في حين يُفهم من كلام ابن الخطيب أن ابن أبي عامر أقدم من جانبه على إعفاء المتطوعة أو العامة من المشاركة في الحملات العسكرية[5]. إن المتأمل لكلام كلاً من ابن بُلقين وابن الخطيب يُلاحظ نوعاً من التكامل بينهما يُساعد على فهم لماذا استغنى المنصور العامري عن الفلاحين في حملاته وصوائفه العديدة ضد المسيحيين. ذكر ابن بلقين أن القوم لم يكونوا "أهل حرب"، وقال ابن الخطيب "استغناء بعدد الجيش واستظهاراً بأصيل العز". يتضح بالفعل أن المنصور العامري استقدم أعداداً وافرة من الجند البربري الإفريقي المدرب على السّلاح والقتال وأشرف عليها بشكل مباشر، يقول بن الخطيب نفسه مذكراً بذلك التوافر العددي في جند المنصور: إن الفرسان على اختلافهم في الديوان "إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة"[6]. والفرسان في صوائف ابن أبي عامر وصلوا

(1) - ابن بُلقين: كتاب التبيان...، ص.58.
(2) - ابن الخطيب: نفسه، ص.68.
(3) - بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص.27.
(4) - ابن بُلقين: المصدر السابق، ص.58.
(5) - لم يكن ابن أبي عامر الأول في إعفاء العامة والفلاحين من الغزو ضد المسيحيين. لقد سبق الأمير محمد (ت 273) أن قطع عن أهل قرطبة "الحشود التي كانوا يؤخذون بتجديدها في كل سنة للصوائف الغازية لدار الحرب، وأسقطها منهم، ووكلهم إلى اختيار أنفسهم للطواعية من غير بعث فحسن موقع ذلك منهم..". ابن عذاري: البيان، ج2، ص.109.
(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.99.

إلى "ستة وأربعين ألف فارس"[1]. وعدد الرّجالة: "ستة وعشرون ألف راجل"[2]. وإذا كانت كل هذه الأعداد ــ رغم ما يمكن أن يشوبها من مبالغات[3] ــ متخصّصة عسكريا وكانت رهن إشارة المنصور العامري في كل تحركاته العسكرية، فإنها كافية كي يَستغْنِي عن العامة أو المطوعة الذين نعتهم ابن بلقين بأنهم ليسوا "أهل حرب". ولذلك عليهم الاهتمام والعناية بالأرض والفلاحة لإعالة من ينوب عنهم في الحروب. إننا هنا أمام تحديد مهام واختصاصات كل فئة حسب إمكانياتها[4]. أضف إلى ذلك أن استنفار المتطوعة أو العامة قد يؤدي إلى إخلاء الأراضي الفلاحية من جهة، وإلى ارتفاع تكاليف الحرب والحملات من تموين وتنقل وأكل إلى غير ذلك، من جهة أخرى. ناهيك عن انعدام التجربة في السلاح لدى المتطوعة، أو على الأقل ليسوا في مستوى جند الحضرة، الشيء الذي يجر الهزائم والخسائر.

هل نجح الإصلاح العسكري الذي أقدم عليه ابن أبي عامر؟

يبدو للوهلة الأولى أن الإصلاح العسكري العامري قد نجح مؤقتا أي أن نجاحه ارتبط إلى حد كبير بشخص المنصور نفسه لأنه هو الذي وفر شروط نجاحه حين خلق نواة جيش قوي بلا عصبية قبلية، أخضع به كل المجال في الأندلس والأطراف أي الثغور والمغرب كذلك، كما قهر به المسيحيين في عقر دارهم. ويكفي تتبع مختلف الحملات التي قادها بنفسه بنجاح ضدهم. لقد كان هذا الإصلاح العامري مثيراً ومغرياً من الناحية الاقتصادية، لكن وُجهت إليه انتقادات عنيفة من هذه الزاوية نفسها.

---

(1) - نفسه: ص.99.

(2) - نفسه: ص.99.

(3) - ذكر ابن عذاري.. ج2، ص.301، أن عدد الفرسان المرتزقين بحضرة العامري ونواحيها والذين حارب بهم الحروب بلغ: "عشرة آلاف وخمسمائة وأجناد قريبا من ذلك".
وقال ابن بسام: إن المنصور كان يقول"زماني يشتمل على عشرين ألف مرتزق"؟
الذخيرة...،المصدر السابق، القسم1، المجلد الأول، ص.74.

(4) - إن عملية تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات داخل الطبقات الاجتماعية ظاهرة عرفت وتطورت في أوربا الفيودالية. وهي في الواقع نظرية ذات أصول هندأوربية فارسية. اتخذت طابعا دينيا بل إديولوجيا في أوربا لما تُولى كبار رجال الكنيسة الكاثوليكية الدفاع عنها في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد (1024م/1027م)، لأنها تدافع عن مصالحهم الدُنيوية لما ضعفت السلطة السياسية القائمة. إنها نظرية الأنظمة الثلاثة: الذين يُصلُّون (رجال الدين) (Oratores)، الذين يحاربون (الفرسان) (Bellatores)، والذين ينتجُون (الفلاحون) (Laboratores). ولكل نظام من هذه الأنظمة مهام يؤديها دون تغيير.
انظر التفاصيل في:

DUBY (G); Les trois ordres ou l'imaginaire du féodalisme…, op .cit
BONNASSIE (P) ; Idéologie tripartite et révolution féodale…, op.cit.
LEGOFF (J);" Note sur société tripartite, idéologie monarchique et renouveau économique dans la chrétienté du IX au XII siècle", dans :**Annales Economies Sociétés Civilisation**, 1968, p.80,90.

يقول الطرطوشي[1] على لسان أحد كبار الجند[2] الأندلسيين : "ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم وأمر العدو في ضعف.. لما كانت الأرض مقطعة في أيدي الأجناد، فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ويُرَبُّونهم كما يُرَبي التاجر تجارته، وكانت الأرض عامرة، والأموال وافرة والأجناد متوافرين... إلى أن كان الأمر في آخر أيام ابن أبي عامر، فرَدَّ عطايا الجند مشاهرة بقبض الأموال على النَّطع[3]، وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم... فتهاوت الرعايا وضعفوا عن العمارة، فقلت الجبايات المرتفعة إلى السلطان، وضعفت الأجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين... إلى أن دخلها الملثمون فردوا الإقطاعات كما كانت في الزمان القديم". رغم ما يتضمنه النص من شحنة سياسية أو إديولوجية لأنه يحن إلى ماضٍ ازدهر فيه "الإقطاع العسكري"، وأن الفضل يعود إلى المرابطين في إعادة إحيائه، فإنه يعكس حقيقة اقتصادية واضحة أجمعت عليها المصادر وهي تسلط الجباة على الرعايا وابتزازها إلى جانب فرض ضرائب ومغارم ثقيلة وغير شرعية عليها. إذا اشتهر المنصور العامري بالإصلاح العسكري المقرون باسمه، فهو في الواقع لم يكن إصلاحاً شاملاً، بدليل أنه إلى جانبه انتشرت الملكيات "الإقطاعية" الكبرى. يقول ابن عذاري[4] "في سنة 370 هـ انتقل ابن أبي عامر إلى الزاهرة... ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده وحُجَّابه وتنافس الناس في النزول بأكنافها". وأكثر من ذلك سمح ابن أبي عامر، في قمة إصلاحه العسكري، لبعض قواد جنده والمقربين إليه من الاستفادة المطلقة من الأراضي الخصبة. فهذا أحدهم رَدَّ عليه قائلاً: "أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها.. " [5]. ولم يقف العامري عند هذا الحد من منح الأرض

---

(1) - الطرطوشي: سراج الملوك، ج 2، ص. 498 - 499.

(2) - من الطبيعي أن يكون كبار الجند سواء في العصر العامري أو قبله ضد تأدية رواتبهم مشاهرة لأن ذلك يحد من امتيازاتهم الأخرى وهي الأكثر فائدة وأهمية، ونعني بها "الإقطاعات" أو الممتلكات العقارية الكبرى التي تدر عليهم أضعاف أرزاقهم نقداً أو عيناً.

(3) - النطع (النَّطع) جزء من اللقمة، وتعني هنا خفض الأعطيات وإنزالها إلى النصف. انظر:
ابن منظور: لسان العرب المحيط، إعداد: خياط (يوسف)، مرعشلي (نديم)، بيروت، دار لسان العرب، 1970، المجلد 2، مادة نطع..
الطرطوشي: نفسه، ج 2، هامش(9)، ص.498.

(4) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص.276.
المقري: النفح، ج 1، ص.579.

(5) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 417.

و"الإقطاعات" بل تعدى ذلك إلى "المصادرات ومثل ذلك ما لا يرجع إلى قانون"[1]. إن هذا النموذج من التعامل بمكاييل مختلفة مع الملكية العقارية خلال عصر المنصور يعكس بامتياز، فيما نرى، الغموض والتعقيد الذي ما زال يطال وضعية الأرض خلال عصر الخلافة كلها. فرغم المجهودات الكبيرة والناجحة التي بذلتها الخلافة في أول أمرها في شخص الخليفة عبد الرحمن الناصر من أجل القضاء على "التجزئة الإقطاعية" والسياسية التي خلفتها الإمارة، وتوحيد المجال تحت نفوذ السلطة المركزية بقرطبة، فإنها لم تفلح في إقرار سياسة واضحة في مجال الملكية العقارية. ففي الوقت الذي كانت تقضي فيه على "الإقطاع العسكري" القديم والقائم على الإنتزاء والاستقلال بمناطق وأقاليم بعينها شجعت عملية التسجيل و"الإقطاع" لفائدة زعماء وعائلات في مناطق وأقاليم أخرى. إلى جانب ذلك تفشت الإقطاعات السلطانية نفسها، ناهيك عن المصادرات أو على الأقل السكوت عن عمليات الغصب والترامي على أراضي الغير كما تكشف المصادر[2]. إن هذه التناقضات التي تعاملت بها السلطة السياسية بقرطبة مع الملكية العقارية دفعت بأحد الباحثين[3] إلى القول بأن "رغبة السلطة المركزية في القضاء على الإقطاع العسكري من جهة، واضطرارها إلى الاعتماد عليه من جهة ثانية، مؤشر مفيد عن طبيعة الخلافة الأموية المرتكزة على أنماط إنتاجية متنافرة، وهياكل زراعية معقدة".

لم تكن وضعية الأرض خلال عصر الطوائف أحسن مما كانت عليه في ظل الخلافة. بل يمكن القول إنها عادت إلى وضعية أكثر سوءً بفعل التجزئة السياسية التي عادت إلى الصدارة من جديد بعد انتهاء العصر العامري إن لم نقل قبل ذلك، إذ أن عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب "بشنجول" لما حاول فرض سلطته على قرطبة ضد محمد بن هشام بن عبد الجبار لم يتردد في أن "يُحلِّفَ رؤساء الجند وأهل الخدمة عند المنبر بإيمان البيعة أن يقاتلوا مع أهل قرطبة وكتب لهم صكوكا بالإنزال في دورهم وضياعهم"[4]. إن الانقسامات السياسية الطائفية عصفت بالقوة وبالمركزية السياسية التي تمتعت بها الخلافة طيلة القرن الرابع الهجري،

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص. 98.
(2) - إن انتشار ظاهرة الغصب والتشديد على الرعايا في الضرائب يؤدي دون شك إلى هجرة الأرض وفساد الاقتصاد.
(3) - الطاهري: عامة قرطبة...، ص. 62.
(4) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 49.

وانعكس ذلك بشكل مباشر على الأوضاع الاقتصادية والعقارية. وقد عبر بن بُلقين[1] بدقة عن الوضعية الجديدة في ميدان "الإقطاع" العسكري حين قال:"لما تمَّت الدولة العامرية وبقي الناس لا إمام لهم، ثار كل قائد بمدينته وتحصَّن في حصنه بعد تقدمة النَّظر لنفسه واتخاذه العساكر، وادخاره الأموال فتنافسوا على الدنيا، وطمع كل واحد في الآخر" وهي الوضعية نفسها التي وصفها المقري[2] لاحقاً بقوله إن "الضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس من السلطان إذا وجدوا فارساً بارعاً يُسرع الفرسان أو جواداً يسرع الأجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبته". لقد عادت ظاهرة التحصين التي نشطت خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IX م)، وانتعش الانتزاء من جديد كما تعبر عن ذلك إحدى الأمثال العامية الشهيرة في الأندلس بالقول: "حِصْنِي وَلاَ مَنْ يَقِسْنِي"[3]. وقد صاحب هذا الوضع إقطاع الأرض للجند من جديد باعتبار الخدمات العسكرية التي أضحى يقدمها لمن كافأه. وهكذا صار الجند في الواجهة السياسية والاقتصادية، فبعدما كان في عصر الخلافة أداة أساسية في يد سلطة الخلافة بقرطبة تتحكم فيها، أصبحت السلطة في يد هذا الجند يمارسها في العديد من الأقاليم الأندلسية. فهذا ابن بلقين نفسه يُمجِّد "الإقطاع" العسكري بل طبّقه بشكل من الأشكال كما يُستفاد من نصوص التبيان. قال في هذا المعنى لما أقدم على عزل سماجة أحد وزرائه المشهورين:"(...) وألا وزير لدولتي غير نفسي وحددت لكل خادم ما تكون طريقته... ثمّ أمنته في نفسه وأبقيت على جميع أمواله، وسوَّغته إنزالاً ينعاش فيه وأمرته بلزوم مجلسي وأنه مكرم طول حياتي"[4]. كافأ الأمير عبد الله أيضاً القبائل خاصة جند صنهاجة وزناتة الذي كان يدافع عن مصالح دولة غرناطة، بأن مكّنه من إنزالات مختلفة فجند زناتة "قويت أموالهم وإنزالاتهم على أنهم كانوا في الحقيقة خير جند الأندلس"[5]. إضافة إلى ذلك كان على الأمير أن يُشرك في ذلك "من ضعف من صنهاجة لهؤلاء الأقوياء الذين أدركتهم العناية ويُمسك واحد منهم إنزال خمسة فرسان وستة"[6]. إلى جانب ذلك تكشف المصادر عن تسلط كبار الجند على

---

(1) - ابن بُلقين:كتاب التبيان...، ص. 58.
(2) - المقري:النفح، ج 1، ص. 215.
(3) - الزجالي:أمثال العوام...، ج 1، ص. 211.رقم 841/ انظر فصل الحصون والقصبات.
(4) - ابن بلقين:التبيان، ص.111.
(5) - نفسه: ص.145.
(6) - نفسه: ص.141.

الأرض[1] في أقاليم أندلسية مختلفة كما هو الشأن بالنسبة لبني برزال الزناتيين الذين أدت بهم الصراعات والحروب إلى الاستقرار بنواحي قرمونة واستجة وحصن المدور وذواتها وتغلبوا على البلاد على حد تعبير ابن عذاري[2]. وفرض بنو عباد سيطرتهم في إشبيلية وإقليمها[3]؛ اعتماداً على جيش قوي من المرتزقة والعبيد أغلبيتهم من المغرب وإفريقيا[4]. عبر الباحث الطاهري[5] عن التجزئة السياسية في أندلس الطوائف وتسابق كبار الجند نحو ما توفره تلك التجزئة من امتيازات متعددة بقوله "إننا أمام مجتمع مؤسس على قواعد نظام الفرسان الإقطاعي الذي غدا لمكانته وتألق مظاهره حقيقة مسلمة"، أي عودة "نظام القنانة الإقطاعي في أبرز تجلياته للسيادة من جديد في البوادي الأندلسية"[6]. وعكس ذلك أشار الدارس بن عبود[7] إلى أن المجتمع الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري لم يكن إقطاعياً رغم ما يمكن ملاحظته من مظاهر تُبَيِّن ذلك.

هذا عن الأرض والملكيات العقارية وكيفية تعامل كبار الجند معها سواء بإيعاز من السلطة السياسية في حالة قوتها ونفوذها، أو بفرض الأمر الواقع في حالة ضعفها. فماذا عن أعطيات الجند ورواتبه التي تصرف عيناً أو نقداً في أوقات محددة؟

2- الضرائب

لا يمكن الحديث عن رواتب الجند دون الوقوف عند الجبايات والضرائب التي هي عماد تلك الرواتب. لقد عبّر القدامى عن الربط الوثيق ما بين الجباية والسلطة والأجناد حين قالوا "لا سلطان بلا جند ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة"[8]. وكي يستقيم المُلك "لابد له من الجند والمال"[9]. والتوازن يقوم على ثلاثية الجند والرعية والعمارة[10].

---

(1) - ابن رشد: الفتاوى...، مصدر سابق، ج 1، ص. 288، 289..
(2) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 168.
(3) - الطاهري: عامة إشبيلية...، ج1، ص.132، 136، 137، 138، 139.
(4) - بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص.94.
(5) - الطاهري: ج1، ص.136.
(6) - نفسه: ص.206. يمكن - في اعتقادنا نعت المجتمع الأندلسي خلال الطوائف بنظام القنانة لكن مع خصوصية أساسية تكمن في التمييز في مستويات ذلك النظام من حيث طبيعة السلطة السياسية والعلاقات الإجتماعية..إلخ. (انظر مناقشة المصطلحات في لخر الفصل).
(7) - ابن عبود: نفسه، ص.94.
(8) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 1، ص.216.
(9) - ابن الأزرق (أبو عبد الله): بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: النشار (علي سامي)، بغداد، 1977،ج 1، ص.283.
(10) - المرادي (أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي)، كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، تحقيق: النشار (علي سامي)، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1981، ص.93.

والمال تُنتجه وتوفره الرعية أو مكونات المجتمع المهتمة بالاقتصاد بشكل مباشر ولذلك تعتبر "الرعية عنصر المال، ومادة الجباية بها قوام المُلك وعز السلطان ورزق الأجناد الذي يقاتل العدو وينصر الدين ويحمي الحُرم"[1]. لكن جلب الأموال والعمارة قد تخضع بشكل مباشر لعوامل طبيعية كالمجاعات والأوبئة وغيرها أو بشرية كالثورات والحروب. وقد عبّر ابن خلدون[2] عن ذلك حين ذكر أن خراج الأندلس يزداد وفرة مع انتشار الهدوء وينقص أو ينعدم مع الفوضى والأزمات الاجتماعية. هل توفر المال والضرائب في أندلس الخلافة والطوائف. ما هي طبيعة الضرائب وأنواعها خلال تلك الفترة وما هو نصيب الجند منها؟

تُجمع المصادر على غِنى الأندلس في المجال الاقتصادي بحيث أنها "أهوازية في عظيم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"[3مكرر]. لا غرو فقد عرف عصر الخلافة تطوراً مهماً في الجبايات، أما عصر الطوائف فبلغت فيه الجباية أضعافاً كثيرة[4]. ولتجسيد هذه الفكرة بالأرقام ذات الدلالات المتعددة نشير إلى أن مقدار ما كان يحصل عليه ملوك بني أمية من خراج الأندلس قديماً حسب المقري[5] هو "ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة.." . يبدو أن بيوت المال الأندلسية لم تكن فارغة خلال الخلافة، بل على العكس من ذلك كانت ممتلئة خاصة خلال عهد عبد الرحمن الناصر. فإذا صدقت معلومات ابن بشكوال[6] أو ابن عذاري[7] فقد بلغت جباية الناصر "خمسة آلاف ألف دينار وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً. ثم في السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار. وأما أخماس الغنائم فلا يُحصيها ديوان". وذهب ابن الكردبوس[8] إلى القول إن جباية الناصر بلغت في العالم "خمسة آلاف ألف دينار". وقال المقري[9] إن الخليفة الناصر ترك في بيوت أمواله بعد موته "خمسة آلاف ألف

(1) - ابن بسام: الذخيرة...، المصدر السابق، ق 1، م 1، ص. 120.
(2) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 288.
(3) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 70.
(3) مكرر - عن أهمية الأندلس في المجال الاقتصادي انظر التفاصيل في: الطاهري: عامة قرطبة...، ص.57، 59 وما بعدها؛ حناوي (محمد): "الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر: كتب الفلاحة نموذجا". مجلة الاجتهاد، عدد 34، 35 مزدوج، بيروت، 1997، ص. 103 وما بعدها.
(4) - العذري: ترصيع الأخبار، ص. 93.
(5) - المقري: النفح...، ج1، ص. 146.
(6) - نفسه: ص. 379.
(7) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 231، 232.
(8) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص. 59.
(9) - المقري: المصدر السابق، ج 1، ص. 379.

ألف ثلاث مرات". ولم تقل المداخيل أو الجبايات في عهد المنصور بن أبي عامر. لقد بلغت "الأموال الناضة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتاً"[(1) مكرر]. لاشك أن هذه الأرقام قد أذهلت بعض الباحثين المسيحيين المهتمين بالحضارة الإسلامية أمثال ديورانت[(2)] الذي أوضح أن الجبايات والمداخيل في الأندلس كانت تفوق بكثير ما توفره الحكومات المسيحيّة كلها.

كيف تُجبى هذه الأموال الضخمة من الكور والأقاليم الأندلسية، وما هو نصيب أو مساهمة كل إقليم منها. وهل كانت الجبايات الشرعية كافية في ذلك أم أن الأمر يتعدى ذلك إلى إثقال كاهل المنتجين بالمغارم والمكوس والقبالات؟

من الصعوبة بمكان الإجابة عن هذه التساؤلات لأسباب عديدة منها أن المصادر على تنوعها شحيحة إلى حد الصمت حول الكيفيّة التي كانت السلطة في قرطبة أو في الأقاليم تستخلص الجبايات والضرائب، كما أنها لم تقف عند كل إقليم وكورة والمقادير التي يؤديها ناهيك عن الأنواع ثم أوقات استخلاصها. يُعلّل الأستاذ حسين مؤنس[(3)] صمت المصادر بصدد التقسيمات الإدارية والمالية بالأندلس بافتراض مؤدّاه أن الأمر لم يكن يُثير الاهتمام لأن الدولة في الأندلس إلى حدود القرن الخامس الهجري، أي قبل سقوط الخلافة، لم تعرف أزمات مالية[(4)]، حادة كما هو الشأن لدى العباسيين في المشرق. وتبعاً لذلك فإن ما كُتب في موضوع التقسيم المالي الأندلسي بعد الرازي لا يخلو من تشابه بل وتكرار. وللتأكد من ذلك يكفي مقارنة المعلومات الواردة في بعض المصادر رغم اختلاف فترات تأليفها، مثل العذري والبكري وابن غالب وابن سعيد والحميري وغيرهم. يخلص مؤنس إلى القول وبنوع من التحيز المعلن

---

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 120.

(1) مكرر - للمقارنة بما كان يُجبى خلال الإمارة ذكر المقري بصدد عهد عبد الرحمن الأوسط أن الجباية بلغت "ألف ألف دينار في السنة وقبل ذلك لا تزيد على ستمائة ألف".
النفح، ج 1، ص. 146. وأشار النويري إلى أن الجباية أيام الأمير عبد الله كانت "ثلاثمائة ألف دينار كل سنة": نهاية الأرب، مصدر سابق، ص. 113. أما خراج الأندلس قبيل وفاة الأمير المنذر (ت 275) فبلغ حسب ابن خلدون: "ثلاثمائة ألف دينار، مائة ألف منها للحشود ومائة ألف للنفقة في النوائب ومائة ألف ذخيرة ووفر" . كتاب العبر:مصدر سابق، ق 2، م4، ص.288.

(2) - ديورانت (ول): قصة الحضارة، ترجمة بدران (محمد)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج 2، م 4، ص. 293.

(3) - مؤنس (ح): فجر الأندلس، مرجع سابق، ص. 532 وما بعدها.

(4) - لاحظ مؤنس أنه رغم بعض الأزمات السياسية والإقتصادية بالأندلس والتي قد تنجم عن المجاعات أو الحروب، فإن ثروات الحكام تكون مهمة من الإمارة إلى عصر الطوائف نفسه. وتشمل تلك الأملاك: العقارات و الذهب والفضة والنقد المتداول. أكثر من ذلك نقول إن ثروات بعض الحكام حتى إبان الصراعات والحروب الطائفية كانت مهمة وتثير الفضول والانتباه. ونموذج غرناطة غني عن البيان كما يوضح الأمير عبد الله نفسه في التبيان حين أشار إلى أن المرابطين لما دخلوا غرناطة كانوا يقصدون بعض الأماكن التي تشمل أموال عائلته ولاشك أنهم كانوا على علم بوجودها مسبقاً.

للحضارة المشرقية إن المسلمين اكتفوا، أو بالأحرى احتفظوا بالتقسيمات الرومانية والقوطية التي وجدوها في جزيرة الأندلس وربما عدّلوها نسبيا بحسب "ما اقتبسوه من المشرق ومؤثراته"[1].

رغم تشابه معلومات المصادر على اختلافها بصدد التقسيمات الإدارية والمالية بالأندلس فإن بعضها يكشف عن إشارات غاية في الدقة والأهمية حول ما تقدمه بعض الأقاليم من الأموال والضرائب لخزائن قرطبة. بل تحدد بالأرقام نصيب الجند من تلك الضرائب. يذكر العذري[2] أن كور إلبيرة على عهد الأمير الحكم وابنه عبد الرحمن كانت جبايتها "بالوازنة مائة ألف وتسعة آلاف وستمائة دينار وثلاثة دنانير وألفا رطل حرير وألفا رطل عصفر، ومن غلة المعادن اثنان وأربعون ألفا ومن غلة أرحية ألف دينار وألف قسط ومائتا قسط زيت". ولاحظ البكري[3] أن جباية إشبيلية "بلغت أيام الأمير الحكم ابن هشام خمسة وثلاثين ألف دينار ومائة دينار". ونملك معلومات دقيقة وهامة عن جباية قرطبة ونواحيها بفضل العذري وابن غالب وصاحب ذكر بلاد الأندلس. يقول هذا الأخير "وانتهت جباية قرطبة وأحوازها في أيام الخلفاء وأيام المنصور بن أبي عامر ثلاثة آلاف دينار بالحق والعدل، وذلك ثلاثة بيوت مال في السنة"[4]. وأشار ابن غالب[5] إلى أن قرطبة ونواحيها على مسافة سبعين ميلاً في الطول بلغت جبايتها في كل عام أيام الحكم بن هشام "مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار وعشرين ديناراً ومن الشعير سبعة آلاف مدي وستمائة وستة وأربعون مُدياً ومن القمح أربعة آلاف مدي وستمائة والمدي في ثمانية قناطر وهو المدي القرطبي". فصل العذري[6] أكثر فيما تقدمه الأقاليم الخمسة عشر المحيطة بقرطبة من الأموال والمغارم لخزينة الدولة، باعتبارها وحدة مالية هامة. وأكثر من ذلك وضع جدولاً وإحصاءً لعدد القرى المكونة لتلك الأقاليم، وما تقدمه كل قرية على حدة في مجال ما تُنتجه من قمح وشعير أو ضرائب أخرى لها ارتباط مباشر

(1) - **مؤنس:** المرجع السابق، ص. 577.
(2) - **العذري:** ترصيع الأخبار، ص. 93.
(3) - **البكري:** جغرافية الأندلس، ص. 116.
(4) - **مجهول:** ذكر بلاد الأندلس...، ص. 34.
(5) - **ابن غالب** (محمد بن أيوب بن غالب الحافظ الأندلسي): تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، تحقيق: لطفي(عبد البديع)، **مجلة المخطوطات العربية**،الجزء الثاني،المجلد الأول، القاهرة، 1955، ص.306،281، 310.
(6) - **العذري:** ترصيع الأخبار...، ص. 124، 125.

بالجند والاستعداد للحملات العسكرية والصوائف. ونظرا لطول اللائحة التي أوردها العذري[1]، نكتفي بإيراد بعض الأمثلة التي تكشف عن أهمية قرطبة في الميدان المالي والضرائبي. فإقليم المدور مثلا "عدد قراه في المغارم تسعون منها في العشور ثلث، القمح خمسة وثمانون مُدياً وأربعة أقفزة، الشعير مائة وإحدى وخمسون.. وثمانية أقفزة النّاض ثلاثة آلاف مثقال وسبعة وثمانون... الطّبل للعام أربعة آلاف دينار ومائة وأربعون ديناراً.."[2]. أما إقليم القصب فقراه "في الوظائف سبعة وثمانون منها في العشور ستة وخمسون قرية. القمح، مائة مُدي واثنان وأربعون، الشعير مائة مدي وأحد عشر مدياً. الطّبل للعام ألفان وسبعمائة، ومن النّاض للحشد أربعة آلاف.." [3]مكرر. رغم صمت المصادر وغياب معلومـات كافـية من شأنـها أن تساعـد في وضع لوائح تكشف عما تقدمه مختلف الأقاليم والجهات عبر كل الأندلس من ضرائب وجبايات لخزينة قرطبة، يمكن القول إن كل إقليم يُساهم بنصيب من

---

(1) - **نفسه**: ص. 124، 125، 126، 127.

(2) - **نفسه**: ص. 124.

(3) - **العذري**: ترصيع الأخبار، ص. 125.

(3) مكرر - ذكر العذري مجموعة من المغارم تؤخذ من الأندلسيين: "كالناض" أو "الناض للحشد" والطبل والوظائف وغيرها. يبدو أن جل هذه الضرائب يُخصّص لإعداد الحملات والصوائف ضد المسيحيين. فالناض هو ما تحول عيناً بعدما كان متاعا، قيل إن عمر بن الخطاب كان يأخذ الزكاة من ناض المال، وهو ما كان ذهبا أو فضة أو عينا أو ورقا. والناض في الأندلس ضريبة على المنقولات بالنقد والعين مخصصة للجند.

والطبل: (الطبلية): دراهم الخراج. والطبل في الأندلس ضريبة شخصية على شكل معونة مالية مقابل الإعفاء من العمل العسكري.

والوظيفة (الوظائف والوُظف): ما يقدر كل عام من رزق أو طعام أو علف أو شراب يوظف على الشخص أي يُلزمه. وتزخر كتب الفقه والنوازل بمعلومات مفصلة حول أنواع الوظائف، كالوظائف على الأرضين والكسب وغيره في الأندلس انظر:

الونشريشي: المعيار...، مصدر سابق، ج 5، ص.32 وما بعدها.

عن الناض والطبل والوظيفة انظر: **لسان العرب**: المجلد الثاني، ص.571،570 مادة الطبل. المجلد الثالث، ص.658 مادة نضض. نفسه: ص.949، 950 مادة وظف.

نجد أسماء أخرى لضرائب ومغارم لها ارتباط بما تنتجه الأرض أو مناطق محددة خاصة في الأشجار كالنخيل والزيتون. ومن أمثلة ذلك الضامنة والمزابنة والخرص: فالضامنة ما تتضمنه القرى والأمصار من النخل، وكان داخل العمارة وطاف به سور، وسمّيت ضامنة لأن أربابها ضمنوا عمارتها وحفظها. أما المزابنة من الزّبن وهو بيع كل تمر على شجرة، أو بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر وقد نهى نه الحديث لما فيه من الغبن والمجازفة وقال فيه مالك "هو بيع معلوم بمجهول من جنسه". والخرص في الأندلس يشبه إلى حد ما المزابنة لأنه يقع في غلل الأشجار كالزيتون الذي يُخرص في أوقات محددة. انظر التفاصيل في:

محمد علي (نصر الله): تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، بيروت، 1982، ص. 158، 202.

يمكن الحديث عما يشبه الخرص في الأندلس ونعني بذلك القبالة. والمكروه منها أن "يتقبل الرجل النخل والشجر والزرع النابت قبل أن يُستحصد ويُدرك". والمتقبل يكون بمنزلة "الزّنبور الذي خلق للضرر لا للنفع ملعون من الله ومن الناس أجمعين". انظر: **ابن سلام** (أبو عبيد القاسم الأزدي): كتاب الأموال، تحقيق الفقي (محمد حامد)، د.ت، ص.70؛ **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق: ل. بروفنسال، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955، ص.30.

المحاصيل التي ينتجها كالتمار والزيتون أو ما تنتجه الغابات كالأخشاب ومواد أخرى معدنية كالزفت والقطران[1] التي تنتج بكورة جيان ويؤدي سكان هذا الإقليم نصيباً منها لأنها تدخل في صناعة الأساطيل[2]. ونعلم أن العامة أو الفلاحين يؤدون أقساطاً هامة من إنتاجهم كما يُفهم من إشارات مصدرية متعددة كأن يوصي القاضي أو المحتسب المكلفين بخرص أشجار الزيتون أو الزرع في مناطق محددة وأوقات محددة أيضا، ألاّ يشتطّوا في ذلك وأن يأخذوا الرّعية والمنتجين بالرفق[3]. ويبدو أن الضرائب والمغارم قد ازدادت واستفحلت خلال العصر الطائفي بفعل الأزمات السياسية والحروب التي كانت تدور رحاها بين الدويلات الطائفية، إلى جانب الأطماع المسيحية وما يصاحبها من طلب الجزية. وقد أكد ابن بُلقين[4]مكرر ذلك حين أشار إلى أن الرعية تؤدي من كل شيء تقريباً إذ كان الناس يُعطون "زكاة أموالهم في النّاض والطعام والمواشي، يقسمون ذلك على المساكين بكل بلدة". وإلى جانب ذلك قد يؤدون الذهب[5]، والجزية[6] التي تساعد على درء الأخطار المسيحية مؤقتاً.

وقد اعترف ابن بلقين[7] نفسه بتذمر وسخط الفلاحين من "مغارم الإقطاع"، واندفاع يهود مدينة اليسانة نحو الفتنة نظراً لمطالبتهم بتأدية ضريبة "التقوية"[8] مكرر بالذهب وحده. وإلى ذلك تضاف ضريبة الجُعل[9] من أجل الجهاد أو الحشد، إذ بواسطتها "يجعل القاعدون للخارجين

---

(1) - **ابن حيان**: المقتبس...، الحجي، ص.101.
(2) - انظر فصل صناعة السفن ومواد الصناعة في باب الأسطول.
(3) - **ابن عبدون** (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي): كتاب الحسبة، لـ. بروفنسال، 1934، ص. 196؛ **ابن عذاري**: البيان..،ج2، ص.259.
(4) - **ابن بلقين**: كتاب التبيان...، ص.58.
(4) مكرر - قال أحد الدارسين أن المنصور العامري كان يفرض ضريبة استثنائية في كل مركز أو ناحية تؤدي حسب عدد الدور أو الكانون في كل بلدة. انظر:
VALLVÉ (J. B) ; La Division territorial..., op. Ci, p. 209.
(5) - **ابن بلقين**: ص. 58.
(6) - **نفسه**: ص. 58.

(7) - **ابن بلقين**: التبيان...، ص. 127.
(8) - **نفسه**: ص. 144.
(8) مكرر - التقوية ضريبة استثنائية تفرض في حالة الطوارئ كالحروب. لقد سببت في الفتنة التي قادها يهود مدينة اليسانة حين قيل لهم: "جدُّوا معشر بني إسرائيل في حماية أموالكم.." : **ابن بلقين**: ص.144. وقد ظلت التقوية حسب ابن عذاري إلى أن أسقطها القاسم بن حمود لما تولى شؤون قرطبة، وذلك تقربا لأهل المدينة. البيان، ج3، ص.130.
(9) - **ابن المناصف**: الإنجاد في أحكام الجهاد...، مخطوط، ص.25 وما بعدها؛ **الداودي**: كتاب الأموال...، ص.117؛ **هوبكنز**: النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص.61.

مالا على الخروج"[1]. ونشير إلى أن الضرائب والمغارم تزداد ثقلا على العامة أو المنتجين سواء في البوادي أو المدن أو خلال الحروب أو الإعداد للصوائف والشواتي. وقد عبر ابن حيان[2] عن هذا المعنى بوضوح حين ذكر أن الخليفة الناصر لما كان يستعد لمعركة الخندق عام 327هـ "جبى وبالغ في حشد أهل الأندلس". لكن عكس ذلك كثيراً ما عمد الخلفاء والحكام إلى التخفيض من الضرائب أو إلغاء المغارم لأسباب متعددة كالتقرب من الفلاحين والبحث عن شعبية خاصة في أوقات الأزمات، أو الخوف من اندلاع انتفاضات وأزمات اقتصادية واجتماعية يصعب التكهن بنتائجها. كما حدث أن اشترط الفلاحون أو فرضوا على السلطة تخفيض الضرائب في مناسبات عديدة. وتشكل الثغور[3] استثناءً بحيث أن الخلفاء كثيراً ما خفضوا الضرائب على سكان تلك الجهات نظراً لجوارهم للمسيحيين. والأمثلة على ما ذكرناه متعددة منها أن الأمير محمد "تَحَبَّبَ إلى أهل قرطبة والرعايا بأن أسقط عشر العام وما يلزمهم من جميع المغرم"[4]، و "وضع عن أهل قرطبة ضريبة الحشود والبعوث"[5]. وعلى غراره دأب الأمير المنذر بن محمد لما "أسقط عن الناس عشر العام وما يلزمهم من خراج ومعونة"[6]. وذكر الرازي أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما فتح مدينة طليطلة اشترط عليه أهلها "الحرية عن الوظائف والإعفاء من النوائب ومن مكوس القبالات، ومعرة الإنزال في الدور، وأن لا يؤخذ غير الزكاة المفروضة على السنة"[7]. كما شكا أهل طرطوشة بدورهم للناصر "ثقل مغارمهم فأسقط عنهم الزكوات والصدقات وكتب لهم بذلك عهداً"[8]. وعهد الخليفة المستنصر بعده بإسقاط "سدس جميع المغارم على الرعايا بكور الأندلس"[9]. كما أمر أحد قواده بالتوجه إلى كورة جيان لإسقاط ضريبة الخشب والزفت والقطران عن سكانها واحتسابها في نفقاته رفقاً برعيته[10]. وفي عام 364 هـ التزم أن يكون السدس المسقط من

(1) - الداودي: كتاب الأموال، ص. 117.
(2) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 433.
(3) - انظر فصل نظام الثغور.
(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 114.
(5) - نفسه: ص. 109.
(6) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 150.
(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 322.
(8) - نفسه: ص. 468.
(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 249.
(10) - ابن حيان: الحجي، ص. 101.

المغارم، "مكشوفا لجميع الرعايا، شائعا في الناس.. قبل أن يأتي القابض ترفيها لهم و اهتبالا بمصالحهم"[1]. وسار على نهج الحكم الخليفة هشام المؤيد الذي أقدم سنة366 "بإسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة في الزيت بقرطبة، وكانت إلى الناس مستكرهة فسروا بذلك أعظم سرور"[2]. وسار المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر على النهج نفسه. ففي عام 379هـ اشتدت المجاعة بالمغرب وإفريقية والأندلس "فأرفق المنصور بن أبي عامر بالمسلمين وأطعم الضعفاء وأسقط الأعشار"[3]. وفي سنة 392هـ حاول ابنه عبد الملك إظهار العدل والتقرب إلى الناس "بإسقاط سدس الجباية عن جميع البلاد"[4]. وحتى أيام الفتنة حاول بعض الزعماء التقرب من العامة كما فعل يحيى بن علي بن حمود بقرطبة عام 412هـ لما "أسقط عن الناس نصف الخراج...وأجزل العطايا للقواد"[5]. ولم يفت القاسم بن حمود حين تولى شؤون الخلافة بقرطبة أن يُسقط التقوية تقربا لأهل المدينة[6].

لقد سبق القول إن الحالات التي تلجأ فيها السلطة السياسية إلى تخفيض الضرائب لها ارتباط بالمناسبات التي يتم فيها مخاطبة ود العامة أو المنتجين لتحقيق أهداف ومصالح محددة. إن الثابت في الواقع هو استمرار تأدية الضرائب والجبايات لخزينة الدولة. ومن خلال الإشارات المصدرية المتعددة، نميل إلى القول إن الخلافة قد قلّلت نسبياً من الضرائب غير الشرعية التي ازدادت استفحالا خلال العصر الطائفي.

فكيف كانت تُجبى الأموال والضرائب المختلفة؟

أكد لـ. بروفنسال[7] أن العمال في الأقاليم كانوا يشرفون على جمع الضرائب ويَتَوَلَّون النفقات العمومية، ولا يُوجّهون إلى الخزينة المركزية بقرطبة إلا الفائض منها. يتبين من المعلومات التي تقدمها المصادر وجود وظائف وهيئات إدارية تشرف على جمع الضرائب. لقد قدم ابن حيان[8] لائحة بأسماء العمال والقواد ومهامهم في الأقاليم منذ بداية عصر الخلافة.

---

(1) - نفسه: ج 5، ص.207.
(2) - ابن عذاري: نفسه، ص.259.
(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.182.
(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.84.
(5) - مجهول: نفسه، ص.208.
(6) - ابن عذاري: البيان...، ج3، ص.130.
(7) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. Cit, T.3, p.41.
(8) - ابن حيان: المقتبس، ج5، ص.254،253.

و لاشك أن العديد منهم كان يشتغل بمساعدة أو بتنسيق مع أصحاب الخطط المعروفة كخطة القضاء والحسبة والشرطة[1] وغيرها. كما أن السلطة السياسية المركزية بقرطبة قد تلجأ إلى الجند ـــ جند الحضرة ـــ وهو أداة فعالة في يدها، من أجل قمع وردع الرافضين تأدية الجبايات. يقول ابن حيان[2] في هذا المعنى إن الخليفة عبد الرحمن الناصر أخرج عام329هـ القائد عبد الحميد بن بسيل "بقطيع من الحشم إلى لبشكة (؟) عندما امتنعوا (أهلها) عن أداء الجباية وخرجوا إلى المعصية... فلما بلغهم خروج الجيش إليهم أقلعوا عمّا هموا به ولاذوا بالطاعة وسألوا الأمان..." .

لاشك أن الوضعية اختلفت خلال العصر الطائفي الذي تميّز بسقوط هيبة السلطة المركزية التي لم تعد تتحكم في الجند كما كان الأمر خلال العصر السابق. لقد استفحلت الصراعات الطائفيّة وازداد الشطط في المجال الضريبي لمواجهة مشاكل متعددة على المستويين الداخلي والخارجي. وتعدى الأمر الجبايات الشرعية التي هي الزكوات والخراج[3] إلى إثقال كاهل العالم المُنتج في البوادي والمدن كما حدث بالفعل أيام ابن ذي النون بطليطلة ومبارك العامري ببلنسية[4]، والعباديين بإشبيلية[5]. لقد استعمل الابتزاز والضغط الجبائي الذي شمل حتى تلك المواد التي تؤمن الحياة أو المعيشة اليومية للفلاح كالدواب والأغنام والنحل[6] وغيرها. ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تجاوزه إلى تقديم الفلاحين والمزارعين السُخرة والأعمال الجماعية في المواسم الفلاحية وأوقات الحصاد[7]. إن هذا الثقل الضريبي كرّس في الواقع انحراف الرعيّة وزاد من إضعاف السلطة وارتمائها في أحضان المرتزقة أوّلا والقشتاليين ثانيا. وربّما كانت الضرائب أحد الأسباب الرئيسية التي سهلت التدخل

---

(1) - انظر مهام هذه الخطط في:
ابن عبدون: كتاب الحسبة...، مصدر سابق؛ السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالكي الأندلسي): في آداب الحسبة،تحقيق الزين (حسن)،بيروت، 1987؛ ابن حيان: المقتبس، ج5،ص.469، 463، 462، 461، 252.
(2) - نفسه: ص.486.
(3) - حول الضرائب الشرعية وغير الشرعية انظر كتب الأموال مثل:
ابن آدم: كتاب الخراج...، مصدر سابق؛ الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق؛ ابن سلام: كتاب الأموال...، مصدر سابق؛ أبو يوسف (يعقوب بن إبرهيم القاضي) : كتاب الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة، 1346.
(4) - ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 139.
(5) - المقري: النفح...، ج 4، ص.374، 375؛ الطاهري: عامة إشبيلية...، ج1، ص. 123، 216، 208، 206، 124.
(6) - ابن حزم: الرسائل...، مصدر سابق، ج 2، ص. 175، 176.
(7) - أبو الخير (الإشبيلي): كتاب في الفلاحة، نشر القاضي التهامي الناصري، فاس، 1357، ص.10.
الطاهري: نفسه، ص. 206؛ حناوي: الأدوات الفلاحية الأندلسية...، ص.107.

المرابطي في الأندلس كما يتضح من إشارات مصدرية متعددة منها ما أشار إليه ابن بلقين[1] بقوله:"(...) وإنما وجَسَت نفسي من الرعية لطمعهم في حَطّ المغارم وللذي شاع من الزكاة والعشر عن المرابطين". وذكر يوسف ابن تاشفين نفسه أن المعتمد بن عباد لم تكن له سياسة جبائية عادلة لأنه "(...) مضيع لما في يده من المُلك لأن هذه الأموال لابد أن يكون لها أرباب، لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا"[2]. وقد عبر أحد الباحثين[3] عن تدهور الأوضاع وسهولة التدخل المرابطي في الأندلس بقوله إن المرابطين لم يقاتلوا نظرا لثورة الرعية وسخط العلماء، وخيانة القواد والعمّال وتهاون الجند ولا مبالاة الصقالبة. لاشك أن الجزية زادت من نفور الرعية من السلطة. لقد اعتقد العديد من الزعماء خاصة عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد أن الجزية بإمكانها إبعاد الأخطار المسيحية، لكن الأمر كان عكس ذلك فكلما أخذ المسيحيون الجزية إلا وازدادت أطماعهم في البلاد الأندلسية وقالوا "هل من مزيد". ولتأكيد ما نذهب إليه يكفي قراءة الحوار الذي دار بين ابن بلقين ذاته والبرهانش مبعوث القائد القشتالي الذي قال له "(...) لم يأت عن ذلك كله إلا أن تعطيه ما فاته عندك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفا! لا تنقص منها شيئا وإلا فهو مُقبل! والذي تقدر عليه فاصنع.."[4].

لاشك أن الأموال الضخمة المكتنزة في خزائن الحكام الأندلسيين، والناتجة عن الجبايات المختلفة، قد جنّبت في واقع الأمر، الحكومات الأندلسية السقوط في العديد من الأزمات الاقتصادية والمالية. لكنها في الوقت ذاته، سبّبت في أزمات كثيرة وأسالت لعاب المسيحيين لما ضعفت السلطة المركزية وهو ما عبر عنه أحدهم[5] بدقة بقوله "معظم ما أهلك الأندلس وسلط عليها الروم، أن الروم لم يكن لهم بيوت أموال، وكانوا يأخذون الجزية من سلاطين الأندلس، ثم يدخلون الكنيسة فيقسمها سلطانهم على رجاله... وإنما كانوا يصطنعون بها الرجال، وكانت سلاطيننا تحتجب الأموال وتُضيعُ الرّجال، فكان للروم بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال، فبهذه الحيلة قهرونا".

---

(1) - ابن بلقين: نفسه، ص. 135.
(2) - المقري: النفح...، ج 4، ص.375.
(3) - ARTINEZ-GROS (Gab); L'idéologie omeyyade..., op. Cit, p. 254.
(4) - ابن بُلقين: كتاب التبيان، ص.139.
(5) - الطرطوشي: سرج الملوك...، المصدر السابق، ج 2، ص.502.

ما هو نصيب الجند من الأموال والضرائب السابقة؟ وبمعنى آخر كيف تُصرف أعطياته نقداً؟ هل يستفيد كبار الجند من الضرائب أيضاً إلى جانب تصرفهم في ملكيات عقارية كبرى كما سلف القول؛ أم أن جزءاً من هذه الأموال يقدم كرواتب لصغار الجند فحسب؟

تجمع المصادر على أن الجبايات التي تُحَصَّلُ في الأندلس خلال الخلافة كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام: "ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مُدَّخَر"[1]. قال ابن غالب[2] بأن الثلث موقوف على الجند، وثلث مُدَّخر في الخزائن للنوائب، وثلث للنفقة في الزهراء. أما ابن الكردبوس[3] فأوضح أن الثلث في بيت المال والثلث للأجناد، والثلث يفرقه أو يهبه الخليفة للشعراء والخطباء والقُصَّاد؛ أو يُخصَّص للبناء والصلات[4]. ولتجسيد هذا التقسيم أكد المقري[5] أن خراج الأندلس أيام بني أمية "ثلاثمائة ألف دينار دراهم أندلسية كل سنة للجند مائة ألف دينار. وينفقون في أمورهم ونوائبهم ومؤن أهلهم مائة ألف دينار، ويَدَّخِرون لحادث أيامهم مائة ألف دينار".

يتضح مما سبق أن المصادر، وإن اختلفت في بعض المجالات التي تُصرف فيها أموال الجبايات، فإنها تتفق جميعُها، على أن الثلث منها يخصص لأعطيات الجند لكن دون توضيح كيف يُقسَّم ذلك الثلث على الجند، أي ما هو مقدار راتب الجند كبيرهم وصغيرهم. لاشك أن المستفيد من ذلك هم الجند المسجلون في الديوان أي "ديوان الجند" أو "المقاتلة". يبدو أن الأمويين في الأندلس ساروا على نهج الخلافة في المشرق[6]، لما أحدثوا ديواناً لترتيب المقاتلة وأعطياتهم، خاصة مع إحداث جند مركزي أو جند الحضرة الذي تقوى عدداً وعُدَّة. قال ابن الفقيه[7] "والأموي جند وديوان يُعطيهم أرزاقهم من العرب والموالي وغيرهم". لقد دأبت كتب

---

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص.231؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.38؛ المقري: النفح...، ج1، ص.379.
(2) - ابن غالب: تعليق منتقى...، ص.301.
(3) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص.59.
(4) - ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص.53.
(5) - المقري: النفح...، ج 1، ص.146.
(6) - تذكر المصادر أن ديوان المقاتلة وُضع على عهد الخليفة عمر بن الخطاب لما توفر المال واتسعت البلاد وكثر الناس. لقد أمر عمر بن الخطاب بإحداث الديوان لأخذ العطاء، لكن اختُلِف حول كيفية تنظيمه بين بني هاشم وبني تميم وبني عدي، وتدخل الخليفة لحسم الأمر قائلا: "إذا أردتم أن ترضوني، اكتبوا الأقرب فالأقرب إلى رسول الله ﷺ، وضعوا عمر حيث وضعه الله".
ابن تيمية (أحمد الشيخ): الجهاد، تحقيق عميرة (عبد الرحمن)، بيروت، دار الجيل، 1991، ج1، ص.257؛ الداودي: كتاب الأموال...، مصدر سابق، ص.61.
(7) - ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني): كتاب البلدان، ليدن، بريل، 1885، ص. 58.

الأخلاق السلطانية على تقديم النصائح لأهل المُلك بصدد "ديوان الجند" الذي ينظم الأرزاق ويضبط أوقات صرفها، نظراً لما لذلك من أهمية في حياة وشؤون الجند. يذكر التدميري[1] أن نيات الجند "لا تصلح إلا بأدوار أرزاقهم وسير حاجاتهم والمكافآت لهم". وفي هذا المعنى أوصى الكاتب الشهير ابن المقفع[2] بضرورة أن "يُؤَقِّت لهم (الجند) أمير المؤمنين وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له، وأن يعلم عامتهم العذر الذي في ذلك من إقامة ديوانهم وَجَمْل أسمائهم[3]، ويعلموا الوقت الذي يأخذون فيه، فينقطع الإستبطاء والشكوى...".

إذا ترك ابن المقفع أمر اختيار وقت العطاء لتقدير السلطان؛ فإن الماوردي[4] ربطه بأوقات استيفاء حقوق بيت المال خلال السنة. ومن المستحب أن تكون مضبوطة ومحددة: "فإن كانت تُستوفى في وقت واحد جعل العطاء في رأس كل سنة، وإن كانت تُستوفى في كل وقتين جعل العطاء في كل سنة مرتين، وإن كانت تُستوفى في كل شهر جعل العطاء رأس كل شهر". ومنهم[5] من أكد أن حاجة المُلك إلى العسكر يُوَلّد ضرورة جعل أرزاقه كل شهر. وللمقارنة مع أوقات استفادة الجند الموحدي من أرزاقه يقول العمري[6]: "وأما أرزاقهم (بركاتهم)، تفرق أربع مرات في كل سنة. في عيد الفطر تفرقة، وفي رجب تفرقة، وفي ربيع الأول تفرقة، وفي عيد الأضحى تفرقة..".من الأفضل إذن أن يكون وقت العطاء مضبوطاً ومعلوماً يعرفه الجند[7]،لأن عكس ذلك قد يفضي إلى تسلطه على أموال الرّعية أو الانشغال بمكاسب أخرى[8]

---

(1) - التدميري(أبو العباس أحمد وليد بن محمد): كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة، مخطوط.خ.ع.ميكروفلم 1033، ص.27.

(2) - ابن المقفع: الأدب الصغير...، مصدر سابق، ص.202.

(3) - تحدث المقريزي عن أهمية ديوان الجيش لدى الفاطميين من حيث تنظيم الرواتب بناء على إعداد لوائح الجند ومتابعة ما يطرأ عليها من تغييرات بسبب تسجيل أسماء جديدة أو موت البعض إلخ.
المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي): الخطط المقريزية، بيروت، دار إحياء العلوم، د. ت، ص.241.

(4) - الماوردي: الأحكام السلطانية...، ص.205.

(5) - ابن أبي حجة (يوسف): رعاية الرعيّة، مخطوط، خ. ح، 6795،96 أ.

(6) - العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق فؤاد سيد (أيمن)، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985، ص.18.

(7) - الغزالي (أبو حامد الإمام): التبر المسبوك في نصيحة الملوك أو (نصيحة الملوك والوزراء والولاة)، مخطوط، خ ع، الرباط، د 1193،42 أ. ب؛ أبو الحسن (محمد بن الحسين الأهوازي):الفوائد والقلائد: قلائد السلوك فيما يحتاج إليه الملوك، مخطوط، خ. ح، 6481، 34 أ، 34 ب؛ ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك، ص.283.

(8) - كان يلتفت إلى العدو أو يميل نحو من يغريه. وتذكر المصادر طرائف في هذا الباب من أشهرها قولة الخليفة العباسي المنصور في قواده: "صدق الأعرابي حيث يقول أجعْ كلبكَ يَتْبَعك، فقال أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين، ألا تخشى أن يَلوّحَ له غيرك برغيف ويدعك": الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص. 493؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، ص. 374.
ولذلك عادة ما يوصي في عطاء الجند بالحزم أحيانا وبالليونة أحياناً أخرى قال أحدهم لابنه "لا تُوَسّعن على جندك سعة يستغنون بها عنك، ولا تُضيّقن عليهم ضيقاً يَضجُون به منك. ولكن اعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً".
ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي):العقد الفريد،تحقيق أمين(أحمد)،الزين(أحمد)الأبياري(!)،القاهرة،1965،ج1، ص.26.

غير الخدمة العسكرية كالمستغلات والمتاجر[1]، ممّا يؤدي إلى وهنهم وضعفهم[2]. لكن من الممكن أن تُخصّص للجند مكافآت أخرى خاصة إبان المناسبات كالأعياد أو الانتصارات في المعارك[3]، إلى جانب الغنائم التي يستفيد منها مباشرة. يقول ابن أبي النور[4]، إن الجند يكسب رزقه من الجهاد والإغارة على الأعداء (المغانم) "وهم كالجوارح التي يُضيرُ بها ويفسدها أن تطعم ممّا لا تتَصيَّده.." .

وتفيد المعلومات المصدرية المتوافرة أن الخلفاء والحكام الأندلسيين حاولوا تنظيم ديوان الجند بشكل يؤدي إلى العناية به باعتباره الأداة الأولى التي يُعوّل عليها. "تردد ذكر ديوان الجند منذ عصر الإمارة، يقول صاحب أخبار مجموعة[5] بأن الأمير هشام بن عبد الرحمن كان إذا قُتل أحد من جنده "ألحق ولده في ديوان أرزاقه". كما ذكر الديوان في المصادر بكثرة إبان الحملات العسكرية التي شنها الخليفة عبد الرحمن الناصر ضد خصومه من أجل إخضاعهم وإلحاقهم بالديوان بقرطبة. فمنذ غزوته الأولى إلى نواحي جيان أمر بالقبض على ابن الشالية و"حمل عياله إلى قرطبة فصار في الديوان بها في أعلى الملاحق"[6 مكرر]. وكذلك كان مآل الزعيم ابن عيسى صاحب حصن أم جعفر في نواحي ماردة الذي نزل إلى الحضرة مؤكداً تبعيته للناصر وصار في الديوان برزق واسع[7]. ونُقل صاحبا حِصني قنالش والفهين من أعمال طليطلة إلى قرطبة وأُلحقا في الديوان[8].

لا نعرف بالتدقيق الأعداد المسجلة في الديوان من الجند النظامي أوجند الحضرة منذ بداية الخلافة إلى آخر العصر الطائفي. وأكثر من ذلك، يصعب جداً إعطاء أرقام تقديرية حول

---

(1) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، الإسكوريال، 8 أ؛ ابن هذيل: تحفة الأنفس...، مخطوط، الاسكوريال، 21 أ؛ ابن الخطيب: الإشارة إلى أدب الوزارة تليها مقامة السياسة...، ص. 126.

(2) - الماوردي: تسهيل النظر وتعجيل الظفر...، مصدر سابق، ص. 173.

(3) - الطرطوشي: كتاب السياسة في تدبير الرئاسة، مخطوط خ ح، الرباط ج 94 (مجموع)، ص. 227.

(4) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، 8 أ.

(5) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 109.

(6) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 1، ص. 231.

(6) مكرر - لا ندري بالضبط ما المقصود بملحق أو بملاحق الديوان. قال محقق ابن الأبار أن الملحق هو المقيد في ديوان العطاء ليُصرف له راتب شهري..، ج 1، ص. 231. لكن ما الفرق هنا بين الملحق وبين المسجل في الديوان، إذا لم يكن الملحق هو الذي خضع لعملية التسجيل في الديوان بعد المسجلين الرسميين أي بعد جند الحضرة الموجود بشكل رسمي بقرطبة، وبه التحق الذين أعجب الناصر بشجاعتهم وإقدامهم. إلى جانب ملاحق الديوان تذكر ألفاظ وأسماء أخرى لها علاقة بالديوان مثل: "الملاحق السُنية" أو العطاء في "ديوان قريش".

انظر، ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 202؛ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس...، ج 1، ص. 222.

(7) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 239.

(8) - نفسه: ص. 283.

المتطوعة لأنهم لا يسجلون في الديوان وأنهم لا يستنفرون إلا في أوقات محددة ولا يأخذون الأرزاق إلا من المغانم في حالات الانتصار. تتضارب المصادر في ذكر أعداد الجند، فإما تقتصر على ذكر بعض الأعداد المشاركة في الحملات العسكرية[1]، أو تقلل من حجم الأعداد لأسباب متعددة، أو تكتفي بإشارات مقتضبة تدل على الكثرة أو القلة. ومن أمثلة ذلك: قول ابن القوطية[2] بأن "جميع ثوار الأندلس يرتزقون ويقتطعون في حشمه". وذكر ابن الخطيب[3] أن الأجناد العامرية من الفرسان المرتزقين في الديوان بلغت "إثني عشر ألف فارس ومائة زيادة". وفي المعنى ذاته قال ابن عذاري[4] إن المنصور ابن أبي عامر لما توفي عام 392 هـ كان "عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها... عشرة آلاف وخمسمائة، وأجناد الثغور قريباً من ذلك". أما ابن حوقل[5] الذي قلل دائماً من فعالية وأهمية الفرسان في الأندلس فصرح أن جريدة الخليفة عبد الرحمن الناصر "ما أطبقت قط على خمسة آلاف فارس ممن يقبض رزقه ويختم عليه ديوانه لأنه مُكَفَّى المؤونة بأهل الثغور من أهل جزيرته..".

يصعب في اعتقادنا الحسم في مناقشة أعداد الجند الأندلسي سواء المسجلون في الديوان أو المتطوعة لأسباب عديدة منها غياب دراسات وأبحاث مُخصّصة للبنيات السكانية والعمرانية في العالمين الريفي والحضري، والجند فيما نرى، جزء أساسي من تلك البنيات. إن دراسة السكن والسكان والعمران في الأندلس من القضايا الشائكة؛ لكنها في غاية الأهمية لأنها تكشف عن معطيات دقيقة تفيد في فهم موقع الجند في البنيات البشرية الأندلسية[6].

---

(1) - انظر فصل خطط وأساليب القتال.
(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص.124.
(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.99.
(4) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص.301.
(5) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص.109.
(6) - للمقارنة مع أوربا نشير إلى أن الأبحاث المخصصة للبنيات البشرية الفيودالية قد حققت تراكما معرفيا مهما منذ أوائل الستينات، الشيء الذي أدى إلى ظهور مدرسة تاريخية أو اتجاه تاريخي شبه مستقل داخل مدرسة الحوليات المشهورة (Les Annales)، يُعنى بعلم الديموغرافيا في الفترة الفيودالية. إنه علم يهتم بالأعداد والهجرات وتجاهاتها وآثارها في المجال الطبيعي والاقتصادي مثلا. لكن تطور علم الديموغرافيا المرتبط بالفيودالية مرتبط بوفرة الوثائق والأرشيفات المتنوعة والمصنفة. ورغم تقدم الأبحاث في البنيات البشرية والعمرانية الفيودالية نلاحظ أن ضبط أعداد الفرسان أو المحاربين ونسبتهم مقارنة بأعداد السكان في الأرياف والمدن الأوربية، ما زال تعترضه صعوبات لأسباب منها أن عالم المحاربين أي (السلاح) كان يُشكل نظاما مغلقا يصعب اختراقه نظرا لطبيعة عاداته وتقاليده وثقافته.
انظر التفاصيل في:

CHAUNU (P) ; Histoire quantitative, Histoire sérielle, Paris, A. Colin, 1978.
LEGOFF (J) ; **NORA** (P) ; Faire l'Histoire, Paris, Gallimard, 1974, 3 Vol.
LEGOFF (J) ; **CHARTIER** (R) ; **REVEL** (J) ; La Nouvelle Histoire, Paris, RETZ, 1978.
BLOCH (M) ; La Société féodale..., op. Cit.
DUBY (G) ; Le Chevalier, la femme et le prêtre, Paris, Hachette, 1981.
FLORI (J) ; L'idéologie du Glaive..., op. Cit.
CONTAMINE (Ph) ; " Le combattant dans l'occident médiéval "..., op. cit.

إن من شأن علم الآثار والدراسات الطبونيمية[1] أن تساعد البحث التاريخي المصدري من أجل إنارة القضايا السالفة الذكر. لقد دشّن الباحث الإسباني الكبير L.Torres Balbas[2] البحث المعماري والأثري لما اعتمد نماذج ميدانية وأنجز أبحاثا هامة حول بعض المدن الأندلسية. انطلق منها باحثون آخرون لمثال VALLÉ J. B[3] الذي اقترح بعض الإحصائيات عن السكان والمجال المعماري في بعض الحواضر يمكن صياغتها كالتالي:

المدينة	المساحة خارج الأسوار (Extra-muros)	عدد السكان	الفترة
ألمرية	79هكتارا	27.000 نسمة	بداية قV هـ/ XI
بطليوس	75 هـ	26.000 ن	ق هـ 6/ XII م
إستجة	56 هـ	18.000 ن	ق 6 هـ/ XII l
غرناطة	75 هـ	26.000 ن	ق 5 هـ/ XI م
شريش	46 هـ	1.600 ن	ق 6 هـ/ XII م
إشبيلية	187 هـ	83.000 ن	بداية ق 6 هـ/ XIIم
طليطلة	106 هـ	37.000 ن	آخر ق 5 هـ/ XI م
سرقسطة	47 هـ	17.000 ن	آخر ق 5 هـ/ XI م

انطلاقا من المعطيات الواردة في الجدول اكتفى VALLV بإيراد بعض التقديرات التي تهم الكثافة السكانية دون تحليل ذلك، إذ قال بـ 58 ساكن في الهكتار الواحد و348 نسمة في الكلم^2 أي بمعدل ستة أشخاص للعائلة الواحدة[4]. وقال بصدد مدينة قرطبة الحاضرة الأندلسية بأن ساكنتها لم تتعد مائة ألف (100.000) نسمة خلال القرن الرابع الهجري (X م) أي عصر الخلافة[5]. يبدو من خلال ما سبق أن المعطيات التي أوردها VALLVÉ لا تعدو أن تكون عامة وتقريبية ولا تخص إلا بعض المدن المعروفة. وأكثر من ذلك لا تستند إلى معطيات

(1) - انظر باب الحصون والقصبات والأسوار.

(2)-TORRES - BALBAS (L); Ciudades Hispano-musulmanas, Madrid, 2è édition, Direccin générale de relaciones culturales instituto Hispano-Arabe de culture, 1985.

(3) -VALLVÉ (J. B): La Division territorial.., op.cit, p.174.

(4) -VALLVÉ (J.B); op. Cit, p. 174.

(5) - قدم باحثون آخرون أرقاما مرتفعة عن سكان قرطبة خلال الخلافة إذ يمكن إدراجها في لائحة "المدن المليونية" في العالم الإسلامي الوسيط. انظر مثلا الطاهري:عامة قرطبة...، مرجع سابق، ص. 25،26،27،28.

مصدرية واضحة. فكيف يمكن الحديث عن سكان الأرياف أو البوادي أو حتى سكان مدن أخرى لم ترد عند VALLVÉ وغيره. انطلاقا من ذلك يصعب الحديث عن أعداد الجند والنسب التي يمثلونها بالنسبة لعدد سكان الأندلس خلال الخلافة والطوائف. لكن رغم ذلك يمكن تقديم صورة ولو تقريبية عن أعداد الجند من خلال بعض الحملات العسكرية، مع العلم أنه لا يُعَوَّل على الأعداد في الحروب نظرا للمبالغات الكثيرة التي تشوبها[1]. قدم ابن حيان[2] معلومات دقيقة عن أعداد الفرسان الذين كانوا يُشاركون في الحملات العسكرية التي كان الأمير محمد يوجهها ضد المسيحيين خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/IX م. وتهمنا حملة سنة 249هـ/863 م لأنها تكشف عن طبيعة المجهودات العسكرية البشرية التي تساهم بها بعض الكور والأقاليم لفائدة السلطة المركزية، بدلا من المساهمة بالجبايات والضرائب. تقدم الكور والأقاليم الآتية من الفرسان ما يلي:

إلبيرة	2900 فارسا
جيان	2200
قبرة	1800
باغه	900
تاكُرُنّا	299
الجزيرة	290
استجة	1200
قرمونة	185
شذونة	6790
ريــه	2600
فحص البلوط	400
مورور	1400
تدمير	156
ريّينة	106
قلعة رباح وأوريط	387
قرطبة	؟

المجمــوع = 21.613

(1) - انظر مناقشة حدود الأعداد في المعارك في فصل خطط وأساليب القتال.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 109.

يلاحظ أن مجموع ما قدمته الكورو الأقاليم المذكورة من الفرسان في حملة 249هـ(863م) بلغ 21613 فارسا. لكن بتفاوت واختلاف كبيرين، علق لـ.بروفنسال[1] وغيره[2] على هذه الأرقام بالقول إنها قريبة من الدقة، والموضوعية، والتفاوت فيما بينها يُفسَّر بعدد السكان في كل كورة أو إقليم وبأوضاعها الجغرافية والأمنية. لكن دون ذكر عدد السكان في تلك الكور والنواحي. نضيف إلى ذلك غياب كورة إشبيلية وعدد فرسانها، مع ذكر قرطبة دون الإشارة إلى نصيبها من المجهود العسكري المشار إليه. نلاحظ كذلك أن شذونة وبعدها إلبيرة، ثم ريُّه وجيان، ثم قبرة ومورور، أي ستة كور من مجموع ستة عشر تقدم لوحدها 17690 فارسا من مجموع 21613 (أكثر من النصف). إنها تشكل لوحدها النواة الأساسية للجند الأموي الأندلسي باعتبارها تساهم بالعدد الأوفر منه. لا غرو فالكور المجندة على رأسها شذونة تقدم أضعاف ما تساهم به الأقاليم الأخرى لأنها تقدم الرّجال بدلاً من الجبايات والضرائب[3].

كم يتقاضى هؤلاء الجند من الديوان؟

سبق القول إن الجند الذي استقر بالكور المجندة، كانوا يتمتعون بحقوق استغلال الأرض وأموال "أهل الذمة من العجم طُعمة"[4]. نملك إشارات غاية في الأهمية انفرد بذكرها ابن الخطيب[5] نقلا عن الرازي حول ما يتقاضاه الأجناد من الديوان في حالة الغزو. يقول:"(...) كان الخليفة يعقد لواءين لواء غازيا ولواء مقيما، وكان رزق الغازي بلوائه مائتي دينار. ويبقى المقيم بلا رزق ثلاثة أشهر، ثم يُدال بنظيره في أهله أو غيرهم.. وكان الغزاة من الشاميين يرزقون عند انقضاء غزاته عشرة دنانير... ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو. ولم يكن يعطي أحد من البلديين شيئا غير المعقود له. وكان البلديون أيضا يعقد لهم لواءان (لواءان)، لواء غازي ولواء مقيم، وكان يرتزق الغازي مائة دينار وازنة... ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة". إضافة إلى ذلك كان الشاميون لا يؤدون العشر عكس العرب البلديين وأهل البلد الأصليين الخاضعين

---

(1) - LI-PROVENAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T.3, p. 69.

(2) - ذنون طه: تنظيمات الجيش...، ص.53.

(3) - تنظر فصل الكور المجندة وجند الحضرة.

مؤنس: فجر الأندلس...، مرجع سابق، ص.555،557.

(4) - تنظر: ص. 80 من هذا الفصل.

(5) - ابن الخطيب: الإحاطة...، ج 1، ص.110.

لهذه الضريبة. وأكثر من هذا "كان أهل بيوتات منهم (البلديون) يغزون كما يغزو الشاميون، بلا عطاء"[1].

ويتضح من المعطيات السابقة مدى الامتيازات التي كانت الخلافة الأموية تخص بها الشاميين الذين كانوا يُشَكّلون العمود الفقري للجند. فإلى جانب إعفائهم من الضرائب خاصة العشر، استفادوا من استغلال الأرض ومحاصيلها. وفي حالة مشاركتهم في الحملات العسكرية لفائدة سلطات قرطبة، فإنهم يتقاضون رواتب نقدية أعلى بكثير مما يحصل عليه البلديون الذين وضعوا في مرتبة دنيا.

لاشك أن نظام الغزو الذي وصفه ابن الخطيب ظل قائما في جهات أندلسية أخرى كأقاليم الثغور كما أوضح العذري[2] حين أشار إلى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن (ت273هـ) "عقد لبني تجيب وبني قلعة أيوب وألزمهم بمحاربة بني قسي المنتزين بالثغر الأعلى وأجرى عليهم الأموال عند كل حملة مائة دينار".

إذا أكدنا سابقاً أن الجند الخلافي خاصة جند الحضرة المسجل في ديوان المقاتلة كان يستهلك ثلث الضرائب، فمن الصعوبة بمكان الحديث عن حجم رواتبه ومقاديرها والأوقات المنتظمة لصرفها. أكثر من ذلك لا نملك معلومات نستطيع من خلالها التمييز ما بين رواتب كبار الجند وصغاره. فسكوت المصادر في هذا الباب يكاد يكون تاماً. فإذا توفرت بعض الإشارات، فتَهُمُّ رواتب بعض كبار الجند وقواده، أو رواتب الحُجَّاب والوزراء أو بعض الشخصيات النافذة التي ما فتئت تقدم خدمات مختلفة للسلطة. فالأمير عبد الرحمن مثلا كافأ بعض المروانيين الذين قدِمُوا الأندلس أمثال أبو القاسم بكار وابن أخيه أبي سعيد مسلمة بن عبد الملك، بأن وزع عليهم الأرض و"الإقطاع"، إضافة إلى الأموال بحيث "أجرى لكل واحد الرزق بالمشاهرة ثلاثين دينارا"[3]. يقول صاحب البيان[4] إن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما تولى شؤون الخلافة "ولى أحمد بن محمد بن حدير الوزارة والقيادة وأجرى الرزق على عبد الرحمن وعبد الله إبني بدر الحاجب، وذلك لكل واحد منهما ثلاثون دينارا وازنة". وأضاف

---

(1) - نفسه: ص.101.
(2) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 41.
(3) - ابن حيان: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق مكي (محمد علي)، القاهرة، 1971، ص. 229.
(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 159.

أن المنصور بن أبي عامر، في إحدى غزواته ضد المسيحيين، قرّب إليه غالب أعلى قواد الخلافة المشهورين ورفع راتبه ليتساوى مع راتبه هو الذي وصل "ثمانين ديناراً في الشهر وهو راتب الحجابة"[1]. ونشير إلى أن راتب المنصور العامري، لما كان في خدمة الخليفة الحكم المستنصر لا يتعدى "خمسة عشر ديناراً في الشهر مُرَتّبا في الوزارة"[2]. وللمقارنة مع الراتب في إحدى خطط الدولة الأخرى مثل خطة القضاء أو الشرطة نذكر مثلا أن علي بن محمد بن أبي الحيسن الذي تولى مسؤولية الشرطة الصغرى وقضاء الثغر في الآن نفسه، للخليفة الحكم المستنصر، كان رزقه لا يتجاوز "ثلاثين ديناراً"[3]. وقد لا تفصح المعلومات المصدرية المتوافرة عن حجم الرواتب بصراحة، لكن تعبر ضمنياً عن أهميتها مما يساعد على تكوين صورة عامة عنها كأن يقول أحد كبار الجند وهو معاوية بن صالح: "رزقني الأمير رزقاً واسعاً... استمر كل شهر حتى عزلني عند رأس العام، فاستقبلت العام الثاني الذي كنت فيه معزولاً بالفضول مما رزق العام الأول.."[4]. وقد سبق التعبير عن الفكرة ذاتها بصدد ما تُدِرّه الأرض و"الإقطاعات" لأصحابها من أموال دون حساب. وهو ما عبر عنه، بمبالغة، أحد قواد البربر البرزاليين لابن أبي عامر قائلا "أعطيتني من الضياع ما انصب علي منها من الأطعمة ما ملأ بيوتي وأخرجني عنها.."[5].

وأحيانا تكشف المصادر عن إشارات دالة تهم رواتب بعض قواد الجند المشهورين، لكن لا يمكن القياس عليها واتخاذها قاعدة للقول بأن الجند عامة يستفيد من رواتب هامة، لأنها استثنائية للغاية. وللدلالة على ذلك نورد رواية متواترة في المصادر تبيّن شهرة وراتب أحد قواد جند المستعين بن هود بسرقسطة، يُدعى ابن فتحون، الذي يتلقى كل مرة خمسمائة دينار[6]. وهو خمس مرات راتب الوزير أو الحاجب. وسبب ذلك أن الرواية تصف هذا القائد بنوع من المبالغة الممزوجة بالأسطورة حين يتصدى للمسيحيين الذين يخافونه بشدة، بدليل "أن

---

(1) - نفسه: ص. 267.
(2) - نفسه: ص. 251.
(3) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 81.
(4) - الخشني: قضاة قرطبة...، ص. 38.
(5) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 417. انظر، ص، 92 من هذا الفصل.
(6) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص. 701.

أحد النصارى إذا سقى فرسه، فلم يشرب يقول له: أشَرِبْتَ أم رأيتَ ابن فتحون في الماء"[1].
لا يمنع هذا الاستثناء من المقارنة مع راتب صغار الجند الذي لا يتعدى بضعة دنانير إذا قبل الاستقرار في مناطق معينة تحددها السلطة في قرطبة. نملك في هذا الصدد إشارة واحدة ـــ فيما نعلم ـــ انفرد بها ابن عذاري لما وصف حملة عبد الملك المظفر عام393هـ/1003م، إلى نواحي قطلونيا إذ، شجع الغازين معه على الاستقرار بجهة حصن مُمَقصَرٌ "(...) من أراد الإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث فرغب في ذلك خلق عظيم.."[2]. لاشك أن مبلغ دينارين في الشهر من الديوان قليل لأنه مقرون بامتيازات أخرى تهم السّكنى وقليل من الأرض؛ ومن ثمة نتصور أن راتب الجند العادي نقداً دون الامتيازات قد يكون أكثر مما ذكر. لكن نعتقد أن هناك فرقاً كبيراً بين ما يتقاضاه كبار الجند وصغارهم. ولتكوين صورة عامة مُقارنة لرواتب الجند في العالم الإسلامي نشير إلى أن رواتب الجند الأندلسي قد تكون قليلة مقارنة بما يتقاضاه كبار الجند الفاطمي. يذكر صاحب الخطط[3] أن مرتب الوزير في الشهر "خمسة آلاف دينار ومن يليه من ولد وأخ من ثلثمائة دينار إلى مائتي دينار..". ويتقاضى الجند الأغلبي رواتبه يومياً بحيث كان الأمير عبد الله الأول "يدفع للفارس أربعة دراهم في اليوم وللراجل درهمين.."[4].
وكانت رواتب كبار الأشياخ المرابطين بالأندلس ضعيفة مقارنة بما ذكر آنفا. يعلل صاحب الحلل الموشية[5] ذلك بكون المرابطين تشبعوا بتقاليد الصحراء التي علمتهم التقشف والكفاف. ولما استقروا بالأندلس "لم يزيدوا فارساً على خمسة دنانير للشهر شيئاً مع نفقته وعلف فرسه، فمن ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده..". أما الموحدون بعدهم فكانوا يوزعون أرزاق جندهم على شكل بركات أو إحسانات أو مواسات. يقول صاحب مسالك الأبصار[6]: "ولا يُصيب كل واحد من الموحدين في كل تفرقة...إلا أربعين ديناراً مُسَمَّاة، فتكون بثلاثمائة درهم عتيقة، ولأكابر هؤلاء من هذه البركات أراضي مطلقة.." . أما الإحسان

---

(1) - نفسه: ص. 701؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، المصدر السابق، ص. 409.
(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 6، 7.
(3) - المقريزي: الخطط...، مصدر سابق، ص. 241.
(4) - هوبكنز: النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص. 138.
(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 82.
(6) - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار...، مصدر سابق، ص. 18.

"فمبلغ يُصرف عليهم وهو من السنة إلى السنة، على قدر ما يروق للسلطان"[1]. وقد يستفيد الموحدون من "الجامكية"[2] ثلاث مرات في السنة، أما جامكية الغُزّ فمُستَمِرّةٌ في كل شهر لا تَختل[3].

سبق القول بصدد الإصلاح العسكري العامري إن المنصور بن أبي عامر أعفى العامة من الغزو مقابل الانكباب على عمارة الأرض وتقديم ضرائب سنوية تكون بمثابة عطاء الجند مشاهرة لأنه ينقطع للغزوات. لكن لا نعلم بالتحديد حجم ومقادير تلك الرواتب. وعلى العكس من ذلك تماماً تكشف المصادر بنوع من الدقة ما يُنفقه المنصور العامري على الجند الذي يُستنفر للحملات والصوائف العديدة ضد المسيحيين يذكر ابن الخطيب[4] أن الإنفاق كان:"ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائتين وخمسين ألفا، إلى أن يدخل شهر يونيو العجمي ويتضاعف فيه الإنفاق من أجل الاستعداد لغزو الصائفة، فينتهي إلى خمسمائة ألف دينار". لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل يدفع المنصور بن أبي عامر إبّان الحملات "لأهل الحُملان وللموالي فرس ومَطِيّة وسرج ولجام، ولكل واحد نفقة شهرية من الطعام والعلوفة وتعيين الدور لهم للسكنى"[5]. وربما تأثر المنصور بن أبي عامر بالتقليد الفاطمي في هذا المجال، إذ كان الإحسان عندهم "في رأس كل سنة هو حصان بسرجه ولجامه وسيف ورُمح مُحلّيان، وسَبْنِيَّة، وهي بقجة قماش فيها ثوب طرد وحش مذهب.."[6]. تكشف النصوص السالفة الذكر، بما لا يدع مجالاً للتأويل أن العطاء في الأندلس قد يكون استثنائياً في حالة الطوارئ الحربية ليشمل الضروريات اللازمة للجند بما في ذلك "الإنزال" في دور العامة التي تُعَيِّنها السلطة لكونها قريبة من الثغور أي من مواقع الحروب، أو تقع في الطرق التي تسلكها الحملات وتتخذها محلات لها. ونعتقد أن السلطة السيّاسية كانت تستغل ظروف الحروب والإعداد للحملات العسكرية خاصة الصوائف والشواتي، إلى جانب ما يمكن أن تفرضه أوضاع الثغور

---

(1) - نفسه: ص.18.
(2) - "الجامكية"، "جلمكي"، "جماكي"، "جولمك"، والجامكية معناها الأجر مقابل مزاولة عمل.
DOZY (R) ; Supplément..., op. cit, T. I, p. 168.
(3) - العمري: نفسه، ص.19.
(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.98.
(5) - نفسه: ص.101.
(6) -القلقشندي أبو العباس أحمد):صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،القاهرة،دار الكتب الخديوية،1914،ج5 ص.204، 205.

المتاخمة للمسيحيين، لتخلق حالات من الطوارئ تسمح لها بفرض الضرائب غير الشرعية كالمكوس " (...) والقبالات ومَعَرَّة الإنزال في الدور "[1]. ولا غرابة إذن أن تكشف كتب الجهاد والفقه والنوازل عن إشارات دالة تعكس شكاوي متعددة ترد من العامة تطلب الإفتاء والنظر فيما يمكن أن يُصيب الدور من الأضرار والعيوب التي يسببها إنزال الجند بها إبان الحروب[2]. وما دمنا بصدد ما ينفق على الجند نشير إلى أن بعض أرزاقه قد يُصرف على شكل أطعمة في مناسبات عديدة، بدلاً من صرفها نقداً. يورد الفقيه ابن رشد[3] نازلة هامة تطرح إمكانية بيع الجندي الأندلسي لراتبه المؤدى له بالطعام قبل قبضه واستيفائه. وأجاب في ذلك، "لا يجوز للجند.. بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم إلا إذا أخرجت لهم به البراءات...، إلاّ بعد أن يقبضوه ويستوفوه"[4]. وقد ذكرت قضايا مُشابهة تهم إمكانية الجندي إجارة ما أقطعه الإمام من المزارع والعقارات والقرى[5].

لاشك أن أعطيات الجند المرتبطة بشكل مباشر بالجبايات كما سلف القول، تتأثر بالأوضاع الاقتصادية والأمنية السائدة، وذلك ما حدث بالتأكيد أيام الفتنة أواخر عصر الخلافة، وإبّان عهد الطوائف. لقد دفعت الأزمات والصراعات الإقليمية والمحلية، وكذا تكالب الأطماع المسيحية، إلى الزيادة في الجبايات غير الشرعية نظراً لارتفاع تكاليف الحفاظ على الأمن وتأمين حدود الدويلات الجديدة. وصار الاهتمام أكثر بأعطيات الجند خاصة المرتزق منهم. فهذا ابن عبد الجبار يكلف أحد أقاربه للاستعداد لطوارئ الحرب وأمره "بإثبات الناس رجالا وفُرساناً في ملاحق ديوان الجند ووزعت عليهم الأسلحة"[6]. وأكثر من ذلك ولّى إحدى قريباته

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 322.

(2) - الونشريسي: المعيار المعرب...، ج 5، ص. 47، 48.

(3) - ابن رشد: الفتاوى...، مصدر سابق، ج 3، ص. 1453، 1454.

(4) - ابن رشد: نفسه، ج 3، ص. 1454، 1455.

لقد كان العطاء في المشرق يُصرف أيضاً على شكل طعام للاستهلاك الشخصي. لكن من أهم مساونه إمكانية تعرضه للتلف أو النقص مما يُسبّب في متاعب مستحقيه وشكا ويهم المتعددة. ويظهر أن ذلك تكرر كثيرا حتى قيل فيه:

يا وَيْلَنا قد عُزل الوليد　　　وجاءنا مُجَوِّعاً سعيد

ينقص في الصاع ولا يزيد　　　فجَوَّع الإمَاءَ والعبيد

الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)،البيان والتبيين، تحقيق **هارون** (محمد عبد السلام)،القاهرة،بغداد،1960،ج1، ص.251.

محمد علي (نصر الله): تطور نظام ملكية الأراضي...، مرجع سابق، ص. 136.

(5) - اختلف الفقهاء في ذلك فمنهم من رفضها ومنهم من أجازها كالمذهب الحنفي. انظر:

مجهول: إجارة الإقطاع... مخطوط، الخزانة العامة، 216 (مجموع) ص.339، 340، 341.

(6) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 62.

على المدينة "وأمرها بإثبات كل من جاءها في الديوان فلم يبق أحد حتى أثبت نفسه حتّى الزهاد والعباد وأئمة المساجد وغيرهم، وقبضوا العطاء، وكذلك التجار والأغنياء"[1].

وعلى غراره دأب الوزير أبو حزم جهور بن محمد لما "رَتَّب البوابين والحشم على أبواب القصور... وصَيَّر أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم يأخذون ريعها خاصة ورؤوس الأموال باقية"[2]. أما المعتضد ابن عباد صاحب إشبيلية "فاتخذ الرجال الذادة وانتقاهم من كل فرقة يتعهد طبقاتهم بإدرار الأعطية وضمان الزيادة"[3]. وبالفعل كانت الزيادة في رواتب الجند الأندلسي تتحقق كذلك في مناسبات عديدة كالانتصار على العدو المسيحي. وهنا تطرح قضية الجند والغنائم ومدى تطبيق مضمون الآية الكريمة: ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأنَّ لله خُمسَه وللرسول ولذي القُربَى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾[4]. سبق القول باختلاف الفقهاء حول وضعية الأرض الأندلسية وتأكدت صعوبة القول بتطبيق مضمون هذه الآية الكريمة، والشيء ذاته يصدق في ميدان الغنائم. والاختلاف حولها يعود إلى بداية الفتوحات الإسلامية نفسها، بحيث كان الخمس في عهد الرسول ﷺ على خمسة أسهم: لله والرسول سهم، ولذي القربى سهم، ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم. وبعد موته ظهر الخلاف حول السهمين الأولين قال البعض:"سهم الرسول للخليفة بعده، وقال آخرون سهم ذوي القربى لقرابة الرسول ﷺ.. فأجمعوا على أن جعلوا هذين السهمين في الكراع والسّلاح"[5].

تزخر كتب الأموال والفقه والجهاد والنوازل، وكتب الأخلاق السلطانية بفيض من المعلومات حول أهمية الغنائم وعلاقة كل مشارك في المعارك بها. وكذا أنواع المواد التي يجوز الاستفادة منها في دار الحرب[6]. فإذا كان المتعارف عليه في كتب الفقه والحديث هو

(1) - النويري: نهاية الأرب...، مصدر سابق، ص. 130.
(2) - الحميدي: جذوة المقتبس...، مصدر سابق، ص. 28؛ النويري: نهاية الأرب...، ص. 91.
(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 155، 156.
(4) - سورة الأنفال، الآية: 41.
(5) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 24.
(6) - تذكر المصادر بنوع من المبالغة المفرطة أحيانا أن الأندلس بلاد غنية بالمواد النفيسة والسبايا التي تُسيل لعاب الجند المقاتل. يقول ابن أبي دينار أن المسلمين لما دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد أصابوا مالا حدّ له من السّبي "حتى إن الرّجل منهم إذا ضلعت دابته وجد في حافرها مسمارا من ذهب أو فضة".
كتاب المؤنس: المصدر السابق، ص. 34.

تخصيص سهمين للفارس وسهم للراجل[1]، فإن بعض الفقهاء كأبي حنيفة خالف القاعدة وقال بالمساواة بين الفارس والراجل، أي سهم لكل منهما[2]. كما اتفق الفقهاء بألا يُسهم لأكثر من فرس[3]. لكن هل يستوي الجند النّظامي أي جند الحضرة الذي يتقاضى راتبه من الديوان بالمتطوعة الذين يُراهنون على الغنائم بالدرجة الأولى لأنهم غير مسجلين في ديوان الجند؟. ذهب أحدهم[4] إلى القول "إن المتطوع لا يأخذ راتبا وهو أفضل من الجندي الذي يتقاضى الراتب...". وقال آخر[5] "والمتطوع وصاحب الديوان سواء". أكثر من ذلك قد يتدخل السلطان أو الإمام لِيُسْهم لبعض الذين لم يحضروا المعارك، لكنهم قاموا بمهمات تفيد مصالح الجند المقاتل كالسرايا التي تغامر لتستطلع أخبار العدو، أو الذين يُقيمون الأسواق للجند[6] إلى غير ذلك. بل يمكن للجندي وهو في دار الحرب أن يستفيد من مواد وأدوات ولا تحتسب في الغنائم خاصة تلك التي باشر صُنعها بيده "كالسّرج أو السّهام أو القداح (خشب النبل) أو نشاب من خشبهم المباحة... أو ما باعه من عمل يده"[7]. في حين لا يجوز لأي من الجند الذي شهد المعارك أن "يبيع سهمه من المغنم"[8]. ويُحَرَّم عليه تمكين العدو مما يتقوى به على المسلمين "كآلة الحرب من كراع أو سلاح أو سروج أو غيرها.." [9]. ولمحاولة تفادي السقوط في النزاعات والصراعات المختلفة أجمع الفقهاء في باب الغنائم على أن "من دخل دار الحرب فارساً فهو فارس، ومن دخل راجلا فهو راجل، ومن مات من فرس أو رجل قبل الغنيمة فلا سهم له"[10]. و "لا يورث العطاء"[11]، ومن ثمَّة يحرص الإمام على إحصاء من حضر الغزاة

---

(1) - انظر مثلا:
ابن المناصف: الإنجاد في أحكام الجهاد.. مخطوط، 74أ.74ب؛ ابن آدم: كتاب الخراج...،ص.17وما بعدها؛ الماوردي: الأحكام السلطانية..، ص. 30، 205، 206؛ ابن سلام: كتاب الأموال...، ص. 307.

(2) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 22.

(3) - مجهول: كتاب الجهاد، مخطوط، خ. ع، مجموع 2125.25 ب.

(4) - اختصار فتاوى البرزلي (مسائل الجهاد)، جمع ابن أبي زيد (الأندلسي)، مخطوط خ. ع، ك 826، ص. 38.

(5) - أبو يوسف: كتاب الخراج...، ص. 22.

(6) - مجهول: كتاب الجهاد، مخطوط، 78 أ.

(7) - ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام): قدوة الغازي، تحقيق السليماني (عائشة)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989، ص. 206، 207.

(8) - إبن آدم: كتاب الخراج...، ص. 18.

(9) - ابن زكون: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام...، مخطوط...، ص. 389. (انظر فصل الأسلحة).

(10) - مجهول: كتاب الجهاد...، 74 أ.

(11) - مجهول: إجارة الإقطاع، مخطوط...، ص. 369.

"على التَّحَرّي بأن يجمع أعيان أصحابه وشيوخ عسكره ويقول لهم: كم تقدرون الجيش الذي كان في غزاة كذا... فإن اتفقوا على عدد ما قسم أربعة أخماسه على ذلك، وإن اختلفوا أخذ بالمتفق عليه..." [1].

تفيد المعلومات المصدرية المتوفرة أن الخلفاء والحكام في الأندلس كانوا يكرمون المتطوعة بالصلات والعطاء والغنائم وهي وافرة خاصة أيام الخلافة والعامري. يقول المقري[2]: "وأما أخماس الغنائم العظيمة فلا يُحصيها ديوان"؛ حتى أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما "كثرت الأنفال وتوالت الغنائم وجَمَّ عدد السّبي، قدّم الحاجب بدر بن أحمد على النَّظر في السّبي والقسم للغنائم محمد بن محمد بن أبي زيد صاحب الشرطة العليا.." [3]. ولم يتردد المنصور بن أبي عامر في أن "يُفيض العطاء في المتطوعة التي تعبر البحر للجهاد"[4]. وبذلك تمكن من استمالة واصطناع القبائل البربرية المحاربة التي نفذ بواسطتها إصلاحه العسكري. وفي أيام العامريين أيضا اتسعت أموال السبي والمغانم[5]. ففي إحدى الحملات العسكرية التي قادها عبد الملك المظفر ضد القشتاليين، قام "بتوزيع سبيهم على أهل الرباط وفرسان الوفود"[6].

---

(1) - اختصار فتاوي البرزلي، مخطوط...، ص. 41.
(2) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 379.
(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 146.
(4) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 87.
(5) - نفسه: ص. 98.
(6) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 23.

خــلاصــة

تبين من خلال استعراض وتحليل المعطيات المصدرية المرتبطة بأعطيات وأرزاق الجند الأندلسي مدى العلاقة المباشرة ما بين هذا الجند، باعتباره دعامة سياسية وعسكرية للدولة أو السلطة السياسية بقرطبة، والمجال الاقتصادي. لقد استفاد بشكل مباشر من الأرض والضرائب إلى جانب الغنائم. إن إخضاع الجند للأرض وتوسع كباره في ملكيات عقارية كبرى حدث خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IX م)، الذي عرف التجزئة السياسية و "الإقطاعية" التي سهّلت عملية مصادرة الأرض وانتشار قانون الغصب والغلبة.

ومع مطلع القرن الرابع الهجري (X م) أي بمجرد قيام الخلافة الأموية بقرطبة وإقرار سياسة مركزية قوية، تغيّرت الأوضاع في مجال الملكيات العقارية والأرض، وفي ميدان تنظيم الجند نفسه. لقد تمَّ التحكم في المجال وضبطه عبر القيام بعمليات واسعة من المصادرات. كما تمت إعادة هيكلة بنيات الجند، إذ تخلت السلطة بقرطبة عن الكور المجندة التي كانت النواة الرئيسية للجند، لفائدة خلق جند مركزي وهو جند الحضرة الذي تَنَظَّم بواسطة الديوان وأصبح أداة قوية طبّقت بها الخلافة سياستها في مجالات متعددة. لكن إقدام الخلافة على سياسة مصادرة الأرض وإلحاق المعارضين في الديوان، وإن تحقق بذلك إخضاع المجال، لا يعني القضاء على الملكيات العقارية الكبرى التي استفاد منها كبار الجند. لقد ظل امتياز استفادة كبار الجند أو عائلات معروفة من أقاليم بعينها قائماً خاصة في جهات الثغور نظراً لخصوصياتها. إلى جانب ذلك ساهمت سياسة الخلافة في انتشار ملكيات عقارية أخرى كالأراض السّلطانسة وأراض الأحباس والملكيات الحرة المختلفة الأحجام.

اتّضح أن المنصور بن أبي عامر ذهب بعيداً في تغيير البنيات العقارية والجند في الآن نفسه حتى أن عهده اقترن بإصلاح عسكري له علاقة مباشرة بالملكيات العقارية التي استغلها الفلاحون بالدرجة الأولى. لقد استقبل القبائل البربرية من شمال إفريقيا وجعلها قاعدة أساسية لجنده معتمداً على إخلاصها وولائها له وشجاعتها. وبذلك جعل حداً لصراعات قبلية دائمة طغت على السلطة الأموية قادتها الأرستقراطية العربية من جهة والبيروقراطية الصقلبية من جهة ثانية. لاحظنا أن التغيير أو التحول الكبير الذي أحدثه المنصور بن أبي عامر تجلى في

جعل القوات العسكرية الجديدة لا تهتم إلا بالشؤون العسكرية وحدها، مقابل أعطيات تدفع لها مشاهرة. ولتحقيق هذا الهدف عمل على إعفاء الفلاحين والعامة من الغزو حتى ينكبوا على عمارة الأرض وتأدية الضرائب والجبايات التي يخصص جزء منها لأرزاق الجند. لكن رغم ذلك التحول لم تتمكن المصادر من إفادتنا حول المقادير التي كانت تشكل رواتب الجند ناهيك عن الكميات وطبيعة الجبايات التي التزم الفلاحون بتأديتها من أجل العناية بالجند. وبالمقابل يُستفاد من إشارات متعددة أن الجباية كانت ثقيلة والجباة كانوا قساة متسلطين مما سبَّب في آثار سلبية للغاية على الاقتصاد والجند معاً. وتلك إحدى أسباب فشل الإصلاح العسكري العامري الذي نعتقد أنه كان مؤقتاً وشخصياً ومن ثمة لم يكن، البتة، شاملاً أو بنيوياً. فرغم كون الجيش العامري جديداً من حيث التنظيم وطريقةُ هيكلته، فإنه كان ينشغل، في معظم الأوقات، بقضايا الثغور والمسيحيين. إنه جيش لم يخرج عن نطاق الولاء الشخصي لصانعه.

فبمجرد غياب صاحب المشروع، انهار مشروعه بسرعة لافتة. يضاف إلى ذلك أن المنصور العامري لما أسس جنداً وخصص له أرزاقاً بالمشاهرة عبر إعادة النّظر في الأراضي التي يستغلها الفلاحون، سَمح في الوقت ذاته بتفشي "الإقطاعات" والملكيات العقارية الكبرى لفائدة مؤيديه وأعوانه. وتلك تناقضات أخرى عصفت بإصلاحه.

لقد ازدادت الأوضاع تعقيداً خلال الطوائف، إذ عادت تلك التجزئة السياسية و"الإقطاعية" والتشرذم الإقليمي ــ كما كان الأمر خلال النصف الثاني من عصر الإمارة ــ إلى الواجهة، وعاد معها قانون القوة والغلبة والغصب ومصادرة الأرض، وضعف الجيش المركزي. وصار الاحتماء بالحصون من جديد والبحث عن توفير الأمن هاجساً حاضراً لدى كل دويلات الطوائف. مما أدى إلى التسابق نحو البحث عن جند قوي قادر على توفير الأمن ولو كان مرتزقاً تتطلب العناية به أموالاً كثيرة يمكن الحصول عليها بواسطة الزيادة في الضرائب الشرعية وغير الشرعية كالمكوس والقبالات و"التقوية"، ناهيك عن الجزية التي تُدفع لمداراة المسيحيين مؤقتاً. إنها أوضاع اقتصادية واجتماعية وعسكرية أكثر تَرَدِّياً حاول التدخل المرابطي التخفيف منها.

الفصل الرابع

خطط الجند وأساليب القتال

خطط الجند وأساليب القتال

تزخر المصادر العربية خاصة كتب الجهاد والغزوات، وكتب الأخلاق السلطانية بمعلومات دقيقة حول الطرق والأساليب، إن لم نقل المبادئ أو "النظريات" الحربية التي كان المسلمون يتبعونها في قتال أعدائهم في أطراف الإمبراطورية الإسلامية. لقد شاع تطبيق الأساليب القتالية كالتعبئة ونظام الكراديس، والزحف بالصفوف، والكر والفر، وما يصاحب ذلك من الكمائن والخدع والحيل والجاسوسية والبريد، أو ما يرتبط بآداب الحرب كالشجاعة والفروسية والإقدام والخيل، أو الجُبن والفرار إلى غير ذلك من الأساليب المشهورة والمتواترة عبر التاريخ العسكري منذ الحضارات القديمة الإغريقية أو الرومانية أو البزنطية وغيرها.

هل طبق الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف الأساليب القتالية السالفة الذكر في معاركه ضد المسيحيين أو اقتبس منها أم طوَّرها بشكل يتلاءم وخصوصيات شبه جزيرة إيبيريا، أو مزج بينها وبين أساليب القتال لدى المسيحيين؟

قبل تحليل خطط قتال الجند الأندلسي لابد من الحديث عن القيادة والمراتب والمناصب وكذا التشكيلات العسكرية الأساسية إلى جانب بعض الخطط المرتبطة بتنظيم الجند كخطة الخيل والعرض اللتين ساهمتا إلى حد بعيد، في ضبط مكونات الجند خاصة في حالات التعبئة والحملات العسكرية.

1 ـ مراتب الجند

سبق الحديث في الفصل الأول من هذا الباب[1] عن أهم مكونات الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. لقد تمَّ التفصيل في الجند النظامي أو جند الحضرة المسجل في ديوان المقاتلة، وكذا المتطوعة الذين كانوا يُستنفرون من الأقاليم في حالة الجهاد أو إبان الصوائف والشواتي التي كانت توجّه ضد المسيحيين في الثغور. تذكر المصادر، بمناسبة الاستعراضات العسكرية، مجموعة من التشكيلات العسكرية المكونة لجند الحضرة بقرطبة خلال عهد الخلافة، دون تقديم تفاصيل عن مهامها الأساسية في الحملات والحروب. ومن أمثلة ذلك الحديث عن "بياض الجند

(1) ـ الكور المجندة وجند الحضرة.

على طبقاتهم"[1]، و "فرسان الرياضة"[2]، وأعداد من الخمسـيين"[3] مكرر و"فرسان الخـرس المأمورون"[4]. والمحارس والعرفاء المدرعين"[5]. و"المقانب"[6] مكرر. و"رجـال الأربـاض الشاكين في الأسلحة"[7]. من يتكلف بقيادة وتنظيم هذه الفئات من الجند؟

أ. القيـادة: تجدر الإشارة إلى أن العارض[8] أو المسؤول عن خطة العـرض[9]، هو الذي يتكلف باستعراض التشكيلات العسكرية السالفة الذكر، أمام الخلفاء، وذلـك فـي مناسبات عديدة خاصة أوقات الاستعداد للحملات العسكرية كالصوائف إلى الثغور، أو أمام سفراء ومبعوثي الدول الأجنبية التي كانت تخطب ود قرطبة.

عادة ما يقوم الخلفاء أنفسهم بقيادة الحملات العسكرية المهمة سواء ضد المعارضـين داخلياً أو للجهاد وقتال المسيحيين في جهات الثغور. وهكذا فقـد حـرص الخليفـة عبـد الرحمن الناصر على قيادة الحملات بنفسه إلى حدود سنة327 هـ التي انهزم فيهـا فـي معركة الخندق، وتخلى عن القيادة[10] لفائدة ابنه الحكم أو قواد عسكريين مشهورين ينوبون عنه. وبعده سار على نهجه الحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور بن أبي عـامر الـذي اشتهر في المصادر بالقائد الذي نظم وقاد بنفسه أكبر عدد من الحملات والصوائف ضـد المسيحيين. وبعد الخلفاء أنفسهم تسند مهمة قيادة الجند في الحملات والمعارك إلـى قواد

---

(1) - **ابن حيان:** المقتبس، الحجي، ص. 30.
(2) - **نفسه:** ص. 40.
(3) - **نفسه:** ص. 40.
(3) مكرر - قدم الباحث ذنون طه تفسيراً "للخمسيين" معتمداً على ابن مزين الذي ربطه بالأخماس أو حصة الخُمس التي كانت للدولة الأموية تستخلصها من الغنائم والأخماس (Quintcros) وأبناؤهم يسمون "بنو الأخماس". لكن يظل هذا التفسير غامضاً نظراً لانعدام الإشارات المصدرية التي تُدَعِّمُه.
انظر: تنظيمات الجيش، مرجع سابق، ص. 51؛ انظر كذلك عن أراضي الخمس: **بوتشيش القادري:** تطور ملكية أراضي الجيش...، ص.147.
(4) - **ابن حيان:** نفسه، ص.44. انظر فئات الحُرس في فصل الكور المجندة وجند الحضرة.
(5) - **نفسه:** ص.45.
(6) - **نفسه:** ص.ج 5، ص. 192، الحجي، ص.47.
(6) مكرر- المقانب، مقنب: جماعة من الخيل والفرسان دون المائة تجتمع للغارة، أو ما بين الثلاثين والأربعين وقيل زهاء ثلاثة مائة: لسان العرب، المجلد 3، ص. 168 (قنب)؛ المعجم الوسيط: ج 2، ص. 761 مادة قنب.
(7) - **ابن حيان:** الحجي، ص. 45.
(8) - **نفسه:** ص. 22، 68؛ **ابن عذاري:** البيان، ج 2، ص. 194.
(9) - **نفسه:** ص. 202.
(10) - **ابن حيان:** ج 5، ص. 437.

مشهورين أمثال غالب[1] مولى الخليفة الناصر الذي عاصر عهد الخلافة كله، أو أحمد ابن إسحاق القرشي[2]، وابن أبي عبده[3]، والحاجب بدر بن أحمد[4]، والزبير بن السليم[5]. والوزير أحمد بن محمد بن إلياس[6]، ومحمد بن قاسم بن طملس[7]، وزياد بن أفلح[8]، ومحمد بن يعلى[9] وغيرهم. يتكلف هؤلاء القواد بالإعداد والإشراف على الجند من البداي أي من فترة الاستعداد للحملات إلى انتهاء المعارك والعودة إلى قرطبة. ولذلك نعتت المصادر بعضهم "بأصحاب العسكر"[10]. يذكر ابن حيان[11] في أحداث 322 هـ أن الخليفة الناصر أعد لغزو جليقية وعهد إلى «نجدة ابن حسين مولاه صاحب العسكر، بالتقدم في جمهور الخيل... للتعبئة للحرب..».

1 ـ العرفاء

يساعد قواد الجند في مهامهم العسكرية رجال آخرون يُسَمُّون في المصادر بالعرفاء. لقد اتسع استعمال لفظ العريف حتى انتقل إلى اللغة الإسبانية (Alarife)، ليدل على رؤساء فرق صغيرة من الجند أو هو النقيب على القوم ومُقدّمهم[12]. تحدثت المصادر عن أعداد العرفاء[13] ومهامهم في الأندلس منذ عصر الإمارة. يُفيدنا ابن عذاري[14] وغيره[15] بأن الحكم الرَّبضي، كان يرابض بباب قصره عشرة من العرفاء تكلفوا بألف فرس أي «تحت

---

(1) - MEOUAK (M): La Biographie de Galib, haut fonctionnaire andalou..., op. cit.

(2) - ابن حيان: أنطونية، ص. 22.

(3) - نفسه: ج 5، ص. 53؛ ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 147.

(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 55، 136، 146؛ ابن عذاري: ج 2، ص. 172.

(5) - ابن حيان: ج 5، ص. 321.

(6) - نفسه: ص. 451.

(7) - ابن حيان: الحجي، ص. 25.

(8) - نفسه: ص. 78.

(9) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 219.

(10) - ابن حيان: ج 5، ص. 321.

(11) - نفسه: ص. 340.

(12) - الجاحظ: الرسائل، تحقيق هارون (محمد عبد السلام)، القاهرة، 1964، ص. 14؛ ابن العريف (أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى)، محاسن المجالس، ضبط وتعليق أثين بلاثيوس، باريس، المكتبة الشرقية، 1933، ص. 12؛ ابن منظور: لسان العرب، المجلد 2، ص. 746.

(13) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 119.

(14) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 79.

(15) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص.118.
ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج 4، ص. 492.

يد كل عريف مائة فرس». يقود العريف أيضا عددا مضبوطا من الجند خلال المعارك ويحمل شارة يُطلق عليها الحزام[1] تميزه عن فرق أخرى من المقاتلة. كما يمكن أن تسند له إدارة مناطق محددة كما حدث لما انتزع الخليفة عبد الرحمن الناصر مدينة أبذة سنة 304 هـ من يد سليمان بن عمر بن حفصون وأقام عليها "عريفا من العجم يدعى ابن بزنت"[2]. وقد تتعدد اختصاصات أو مهام العريف حسب حاجيات الجند. ولذلك نلاحظ ذكر المصادر "للعرفاء أصحاب الرسائل"[3]، و"العرفاء المدرعون"[4] و"عرفاء الخياطين"[5] الذين تستدعيهم السلطة أيام البروز والخروج للحملات العسكرية قصد عقد أعلام الجند، و"عرفاء البحريين"[6]. أكثر من هذا قد يتجاوز العريف المجال العسكري ليشمل ميادين أخرى وهكذا أمكن الحديث عن "البنائين والنّقابين مع عرفائهم"[7].

2. خطة الخيل

رغم العناية الكبرى التي توليها السلطة السياسية والعسكرية للبهائم خاصة الخيول والبغال لكونها تشكل ــ فيما نرى ــ النصف على الأقل[8] من المجهود الحربي سواء في

---

(1) - تورد المصادر معلومات مفصلة عن الأسماء والألفاظ التي تطلق على أعداد محددة من الجند مثل: الجريدة والسّرية والكتيبة، والجيش والخميس والجحفل والفيلق إلخ. فالسّرية مثلا تضم من خمسين إلى أربعمائة جندي، والكتيبة من خمسمائة إلى ألف، والجيش أكثر من ذلك. وتميز تلك الأعداد خلال الاستعراض أو البروز أو خلال المعارك بعلامات منها أن 5000 جندي يحمل الراية التي تميزه، وألف (1000) يحمل العلم، ومائتين (200) تحمل اللواء ...

انظر: البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط، ص.225؛ التدميري: كتاب السياسة...، مخطوط (ميكروفلم)، ص.27 وما بعدها؛ ابن حوقل: صورة الأرض...، ص.109؛ الراجي: نظم وإدارة بني أمية...، مرجع سابق، ص.56،5.

LEVÉ-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 78.

لسان العرب، المجلد 1، ص. 383، 462.

(2) - ابن حيان: ج 5، ص. 131.

(3) - نفسه: الحجي، ص. 91.

(4) - نفسه: ص. 45.

(5) - نفسه: ص. 25.

(6) - نفسه: ج 5، ص. 87.

(7) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 21.

(8) - نلاحظ أن الأدب الفيودالي الأوربي المرتبط بحياة النبلاء والفرسان كان يخصص قسما لسلاح الفارس وركوبه أي خيله. فعادة ما يضع الفارس السلاح والخيل الذي يحارب به في المرتبة الأولى من اهتماماته، وذلك قبل زوجته وأسرته لأن السلاح يُمَيّزه اقتصاديا واجتماعيا وعسكريا عن غيره من الفئات الاجتماعية الدنيا أي أن السلاح أداة حاسمة في الترقية الاجتماعية والاقتصادية في أوربا الفيودالية.

انظر:

BLOCH (M); La Société féodale...,op. cit, p. 183 et sv.

DUBY(G); La Société chevaleresque: Hommes et structures du Moyen Age, Paris, Flammarion, 1988, p.20 et sv.

المعارك مباشرة (الفرسان)، أو في الخدمات المرتبطة بالجند والحياة العسكرية كالنقل والتموين وغير ذلك، فإنها لم تحظ باهتمام الدارسين المعاصرين.

تسجل المصادر غنى الأندلس وأهميتها في إنتاج الخيول المخصصة للنقل والأنشطة الاقتصادية والحروب. تتضح أهمية الخيل في الحملات العسكرية حين نعلم أن السلطة في قرطبة كانت تُفردُ خطة للخيل وهي من أرفع خطط الدولة باعتبارها لا تقل مستوى عن خطط القضاء أو الحسبة أو الشرطة أو المدينة. يكفي القول إن صاحب خطة الخيل ينال مرتبة عليا في مجلس السلطان بالزهراء بحيث يجلس مباشرة بعد صاحب المدينة في اليمين وصاحب الحشم في اليسار[1].

تعهد خطة الخيل إلى قواد وشخصيات نافذة تتكلف بإدارة وتدبير شؤون الخيل في السلم كما في الحروب. لا غرو فالخلفاء والحكام أنفسهم يراقبون أحيانا أمور الخيل كما كان يحدث أيام المنصور بن أبي عامر الذي كان بعد قفوله من كل غزوة «لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخيل فيُعلمُه ما مات منها وما عاش» [2]. صُرفت خطة الخيل في عهد الأمير عبد الرحمن إلى القائد عيسى بن شهيد[3]، وأسندها الأمير محمد عام 239 هـ إلى القائد ابن أبي العطاف[4]. وفي الخلافة أُسنِدت لقواد معروفين أمثال أفلح الذي أُبعد عنها سنة 310 هـ لفائدة محمد بن أبي زيد الله الخروبي صاحب المدينة[5]. ذكر ابن حيان[6] أن الخليفة عبد الرحمن الناصر عزل سنة 316 هـ أفلح ودرى مولاه عن الخيل والشرطة. وفي سنة 328 هـ عادت إلى سعيد بن أبي القاسم بدلا من نجدة بن حسين[7]. ورجع إليها زياد بن أفلح[8] لاحقا. كما تولاها للخليفة الحكم سنة363هـ شاطر الجعفري[9]. وانتهت أيام الخليفة هشام المؤيد إلى ابن أخيه هشام بن محمد بن عثمان[10].

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 28.
(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 298.
(3) - ابن حيان: المقتبس، مكي، ص. 144.
(4) - نفسه: ص. 94.
(5) - نفسه: ص. 183.
(6) - المقتبس،ج 5، ص. 242.
(7) - نفسه: ص. 461.
(8) - نفسه: الحجي، ص. 47، 78.
(9) - نفسه: ص. 143.
(10) - ابن الأبار: الحلة السيراء...،ج 1،ص.256. يورد ابن الأبار، أحيانا، كلمة "قائد الأعنة". ويبدو أنه كان يتكلف بقيادة الفرسان خلال المعارك، ومن هنا قد يكون مخالفا "لصاحب الخيل"، المكلف بخطة الخيل كلها.وهنا نخالف رأي ذنون طه الذي أشار إلى أن صاحب الخيل هو قائد الفرسان أو الخيالة... تنظيمات الجيش، ص. 58.

3- الخيل والبغال والجمال بالأندلس

أ- الخيل: إن إحداث خطة للخيل والعناية بها يُبَيِّن أن أغلبها يُنتج في الأندلس. لكن قد تستقدم عند الحاجة من مناطق قريبة كالعدوة المغربية وإفريقية. يؤكد صحة هذه الملاحظة ما أورده عريب بن سعد[1] من إشارات دقيقة للغاية حول كيفية تربية الخيول في بعض الأقاليم الأندلسية والأوقات الصالحة لذلك. فإذا كان شهر يناير مناسبا لإطعام الخيل ورعيها في الزرع[2]. فإنه خلال الشهر الموالي (فبراير) «تخرج الخيل عن الرّعي وتطعم القصيل على مداوتها في أعمّ السنين» [3] مكرر أما الفترة الممتدة ما بين مارس ونصف أبريل فيحدث فيها «إنتاج الخيل في المدائن»[4]. وفي تلك الحقبة تأمر السلطة المركزية بقرطبة جميع العمال في الأقاليم بأن يقوموا «بابتياع الخيل للأملاك»[5]. ويصف ابن عريب بن سعد بدقة متناهية أوقات الإنتاج حين يذكر أن شهر مارس مناسب لإطلاق «فحول الخيل على الرّمك في المدائن لتعلق بعد تمام الوضع، ومدة حملها من يوم علوقها إلى يوم وضعها أحد عشر شهرا»[6]. أما شهر يونيو فيصلح لعزل «فحول الخيل عن الرّمك وتبقى منفردة بعد تمام علوقها عن الفحول إلى وقت وضعها وذلك في نصف أبريل..»[7].

---

(1) - عريب (بن سعد): تقويم قرطبة

Le Calendrier de Cordoue.
Pub, DOZY (R); Leiden - Brill, 1961, P. 37 et sv.

(2) - نفسه: ص. 37.
(3) - عريب (بن سعد)، تقويم...، ص.45.
(3) مكرر - القصيل، القصل، قصُل، قصلان، القصّال، المقاصيل: قصل الزرع قطعه. القصيل ما اقتصل من الزرع أخضر. قصيل الدواب، أو قصل الدابة وقصل عليها/ علفها القصيل. والقصالة من البُرّ ما عُزل منه ونُقِيَ. وهو أيضا الزرع قبل نضجه.
لسان العرب، المجلد 3، ص.105. (مادة قصل).

DOZY (R); Supplements aux dictionnaires..., T.2, p. 368.

(4) - عريب (بن سعد): تقويم...، ص.57.
(5) - نفسه: ص. 71.
(6) - نفسه: ص. 71.
(7) - نفسه: ص.97. ظل إنتاج الخيل قائما في الأندلس بعد الخلافة والطوائف وتستعمل لأغراض مختلفة اقتصادية وعسكرية كما جاء في:
ابن العوام الإشبيلي (ابن زكريا يحيى ابن محمد بن أحمد بن العوام الإشبيلي): كتاب الفلاحة، ترجمة وتحقيق: بنكيري (أ. ي)، مدريد، 1992، ج 2، ص. 500 وما بعدها والقسم البيطري من الكتاب بعنوان:

Le Livre d'Agriculture d'Ibn AL-Awam : L'Etable, l'Ecuric la Basse-cour.tra. Clément-Mullet (J.J); Tunis, éd. Bouslama, 1977, p. 25 et sv.

لاشك أن الطرق التي وصفها عريب بن سعد في إنتاج الخيل في الأندلس قد وفـرت أعداداً هامة منها. يؤكد ابن الخطيب ذلك حين تحدث عما يُنتجُ منها في جزائـر إشـبيلية على عهد المنصور بن أبي عامر، يقول: «كان له من الرّماك المستنتجة بجزائر إشـبيلية المعروفة بالمدائن على أجناسها ثلاثة آلاف فرس يعد لها من فحول الخيـل للضّـراب أو الاستنتاج مائة رأس تعزل عن العلوق»[1]. يذكر المؤرخون أيضاً أعداداً هامة من خيول الأندلس حين يصفون الاستعداد للصوائف والشواتي ضد المسيحيين. إن الإعداد للحـروب يدفع سلطة قرطبة إلى الاهتمام بإسطبلات الخيول خاصة في قرطبة والزهراء، وكذلك في الأقاليم عبر تكليف العمال بإعداد ما يلزم منها. وقد انفرد ابن الخطيب بالوقوف عند أعداد ضخمة من الخيول التي يستنفرها المنصور بن أبي عامر في صوائفه ضد المسيحيين. ففي صائفة 392 هـ «أنفذ الكتب أن يلحق ببابه جميع طبقات المترجلين من فرسـان الجنـد بسائر النواحي ليُشرف عن حسه بنفسه فغمرهم جميعاً بالإركاب لكثرة ما تكامل من الخيل يومئذ»[2]. وهكذا اصطحب معه "سبعمائة رأس من الخيل أعراء"[3]. و"خمسون فرساً من العتاق بركابه"[4]. ومع ذلك كله ترك في الإسطبلات بقرطبة "مقدار ألف فـرس عدويـة كانت طرية العبور"[5]. أكثر من ذلك عمد إلى شراء العديد من الخيول وهو في طريقـه نحو الغزو، إذ لم يكد يصل إلى مدينة سالم حتى كان لديه من "الأعراء نحو ألف فرس"[6]. وبلغ ما ابتاعه من "الخيل في أعم السنين ثمانية آلاف فرس سوى ما يُبتـاع مـن البغـال بأرض الأندلس.."[7]. تأتي الخيول أيضاً من مناطق خارج الأندلس كالمغرب، ففي عهـد الخليفة الحكم المستنصر "وصلت إلى قرطبة الخيل التي بعث بها صاحب عدوة القـرويين من فاس وعدتها خمسة وثلاثون فرساً"[8]. كما وصلت إلى الأندلس"خيول من العدوة بعثوا بها إلى أهل الثغور"[9]. وعلى ذكر أهل الثغور نشير إلى أن عدداً لا يُستهان به من الخيل

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص. 100.
(2) - نفسه: ص. 99، 100.
(3) - نفسه: ص. 100.
(4) - نفسه: ص. 100.
(5) - نفسه: ص. 100.
(6) - نفسه: ص. 100.
(7) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 102.
(8) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 148.
(9) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 82.

كان يحبس لفائدة الجهاد ضد المسيحيين. هذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه سلفا بأن الخيل كانت تشكل أداة أساسية وفعّالة بالنسبة للمحاربين خاصة في الثغور المواجهة للمسيحيين. في الواقع كان الإسلام منذ بداية الفتوحات يرفع من شأن الخيل باعتبارها وسيلة حربية قوية بدليل أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أوصيا بالعناية بالخيل كما يتبين من الآية: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم}[1]. وفي الحديث عن الصّحاح عن الرسول ﷺ أنه قال: «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[2]. تتأكد أهمية الخيول في الجهاد حين نعلم أن المذاهب الفقهية تُجمع على تخصيص سهمين للفارس وسهم للراجل في الغنائم، أي أن الفرس يتساوى مع صاحبه في المعارك. قال سحنون في الفرس المحبس للجهاد: يكون سهمه للغازي عليه سواء إكتراه أو استعاره[3]. وتقدم كتب الفقه والجهاد[4] معلومات دقيقة في كيفية تحبيس الخيل للجهاد بها في الثغور. وأكثر من ذلك تشجع الفرسان وغيرهم على ذلك التحبيس مبيّنة فوائده. فهذا ابن أبي الخصال مثلا يكتب رسالة مُطوّلة يتوسط فيها عند أحد الفرسان المجاهدين كي يساهم بفرس من «الخيل الموقوفة لأهل الخير...»[5]. وتفصل كتب العقود والوثائق[6] في شروط تحبيس الخيل للجهاد حتى لا تُستغل في أمور أخرى كالأشغال الفلاحية أو النقل أو غير ذلك. ومن ذلك مثلا: «وقف فلان فرسه للجهاد في سبيل الله ووسمه في فخذه بسيماء الحبس، ودَفعه إلى فلان ابن فلان ليغزو عليه... وشرط عليه ألا يصرفه في غير الجهاد»[7].كما يُمنع أيضاً بيع «الفرس لمن يُمكّنه من المحارب»[8]، أي من العدو.

---

(1) - سورة الأنفال، الآية: 61.

(2) - التميمي (أبو عبيدة معمر المثنى): كتاب في الخيل وما ورد فيها، مخطوط خ. ع. د 1312، 3 أ، 4 ب، 16 أ؛ ابن رضوان (أبو عبد الله محمد): مطلع اليُمن والإقبال في استيفاء ما للخيل من الأحوال، مخطوط، خ. ع، د 3640، 24 أ؛ ابن هذيل: في الرباط والجهاد، مخطوط، ص.10 وما بعدها؛ مجهول: آثار في الرماية، مخطوط، خ. ع، د 1314 (مجموع) ورقة 10؛ ابن أبي زمنين: قدوة الغازي...، ص. 158، 159.

(3) - ابن المناصف: كتاب الإنجاد...، مخطوط (ميكروفلم)، ص. 297؛ مجهول: في الوقت والأمور الجهادية، مخطوط، خ. ع، ك 2125، 23 ب 24 أ.

(4) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط...، 100 ب؛ ابن رشد: الفتاوى...، ج 1، ص. 313، 314؛ الونشريسي: المعيار...، ج7، ص.58، 104.

(5) - ابن أبي الخصال (أبو عبد الله الغافقي الأندلسي): الرسائل (رسائل ابن أبي الخصال)، تحقيق: الداية (رضوان محمد)، دمشق، دار الفكر، 1987، ص. 115.

(6) - الجزيري: المقصد المحمود...، 100 ب 110 أ؛ ابن العطار: كتاب الوثائق والسجلات...، ص. 206 وما بعدها.

(7) - الجزيري: 100 أ.

(8) - الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 182.

ب ـ البغـال: على غرار الخيل عرفت الأندلس البغال الجيّدة بكل المقاييس. يقـول ابن حوقل الذي زار الأندلس خلال عصر الخلافة إن الأندلسيين يتباهون بالبغال الفـره و «لهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من أرمينيـة والران وباب الأبواب، لأنها تبدن وتصنع وتنجب، ويجلب إليهم منها شيء حسـن الشـية عظيم الخلق، كثير الثمن، من جزيرة ميرقة..»[1]. ويُضيف أن بغال الأندلس تمتاز عـن غيرها ب«سرعة المشي، واختلاف الألوان الصافية والصحة على مرّ الأيام مع الصّبر على الكد والعسف»[2]. في حين يرى صاحب كتاب في الفروسية[3] أن «خيار ما يحتاج إليه من البغال للسرايا والمراكب والركض مع الخيل، بغال الجزيـرة وإفريقيـة ». أمـا صاحب كتاب السياسة في تدبير الرياسة[4]مكرر فيعتقد أن الدواب الخراسانية ملجـأ عنـد الأزمات و«حصناً من حملها الأقوات والمياه». وأكد المقري[5] ما ذهب إليه ابن حوقـل حين أشار إلى أن« بغال الأندلس فارهة وخيلها ضخمة الأجسام حصون للقتال لحملهـا الدروع وثقال السّلاح». يبدو أن البغال تصلح، بالدرجة الأولى، لحمل الأثقال ومسـاعدة الخيل في القتال وهو ما أكده ابن الخطيب[6]، واصفاً غزوات المنصور بن أبـي عـامر، بالقول« كان له من البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف فرس سوى الزوامل الخادمـة للخيل ومطايا الوكلاء..». وفي غزوه مُنْتِمَيُوْر المعروفة،«احتاج إلـى الاسـتكثار مـن البغال، وأمر باستحضار ما يصلح منها، وقعد لما يُقاد بين يديه منها. فابتاع في سبعة أيام متتالية ثلاثة آلاف رأس»[7].

---

(1) - **ابن حوقل:** صورة الأرض...، ص.109.
(2) - **نفسه:** ص.110.
(3) - **مجهول:** كتاب في الفروسية والمعرفة بالدواب وأحوالها، مخطوط، خ. ح، 6101، ص.33.
(4) - **البطريق:** كتاب السياسة...، مخطوط، ص. 228.
(4) مكرر - انظر الخصائص والصفات المختلفة للدواب خاصة البغال والبرازين في العديد من البلدان في: السيوطي (جلال الدين)، جر الذيل في علم الخيل، مخطوط، خ. ع، د 1775، 35 أ.
مجهول: كتاب في الفروسية،...، ص. 33؛ **ابن هذيل** (علي بن عبد الرحمن الأندلسي): حلية الفرسان وشعار الشجعان، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997، ص. 13 وما بعدها.
(5) - **المقري:** النفح...، ج 1، ص. 199.
(6) - **ابن الخطيب:** أعمال الأعلام...، ص.100.

تُستخدم البغال الأندلسية كذلك في ميادين أخرى كالتجارة والنقل والركوب. ومما يؤكد هذا القول ورود نوازل دقيقة حول الشروط الأساسية التي ينبغي توفرها في دواب النقل كالبغال وفي أصحابها خاصة أن كبار الأندلسيين يرغبون فيها "وإياها يستوطئون ويؤثرون فيما يركبون"[1]. فهذا ابن سهل[2] يحدد بعض الشروط التي يجب أن تتوفر في بغلة خُصّصت للنقل والركوب ما بين طليطلة وبلنسية وأشهد لذلك البياطرة العارفين بشؤون الدّواب. وبيّن غيره[3] السّبل التي تسلك كي تُتَجنَّب النزاعات المرتبطة بعمليات البيع والشراء في الدّواب. وبصدد الأثمنة تذكر المصادر أن البغال في الأندلس تباع بأثمنة عالية فابن حوقل[4] الذي عاين بعضها خلال عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قال: «رأيت منها غير بغل بيع بخمسمائة دينار.. فأما ما يبلغ منها المائة والمائتين دينار فأكثر من أن تُحصى..». ووافقه القزويني[5] حين أشار إلى أنه «يُجلب من قرطبة بغال قيمة واحد منها يبلغ خمسمائة دينار لحسن شكلها وألوانها وعلوها وصحة قوائمها». وهو ما أكده المقري[6] لاحقاً بالقول إن بغال الأندلس فارهة تباع «بخمسمائة دينار من حسنها وعلوها الزايد».

إن الحرص على الجودة في الخيل والبغال تجارتها وأكريتها لأغراض مختلفة عبر تراب الأندلس دفع بسلطات المراقبة كالمحتسب وأصحاب المدينة والسوق والقضاة، إلى التدخل لمحاولة ردع ما يمكن أن يلحقها من غش وتدليس وتلاعبات. وقد أفادت كتب الحسبة والنوازل وكتب البيطرة في هذا الباب لأنها كشفت عن تفاصيل بالغة الدقة والأهمية تهم أصحاب الدّواب والمستفيدين منها. ومن أمثلة ذلك الكشف عن العيوب التي

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 102.
(2) - ابن حوقل: صورة الأرض، ص. 110.
(3) - ابن سهيل: الأحكام الكبرى...، مخطوط، ص. 168.
(4) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط، ص. 110 وما بعدها.
ابن العطار: كتاب الوثائق...، ص. 205 وما بعدها.
(5) - ابن حوقل: نفسه، ص. 110.
(6) - القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، دار صادر، 1969، ص. 552.
(7) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 119، 520.

يمكن أن تلحق الدابة قبل أو بعد بيعها وكيفيّة علاجها وفق الأحكام[1]. ويكفي إيراد نازلتين تاريخيتين وموثقتين لأننا نعرف أنهما صدرتا بأمكنة محددة بالأندلس تتعلق الأولى برجل من الأشبونة اشترى فرساً من رجل آخر شراء السلامة والصحة... وثبت بعد مدة أن الفرس كان مريضاً وقت الإبتياع ولذلك يجوز فيه حكم الرّد بالعيب[2]. وسئل الفقيه المشهور ابن عتاب في النازلة الثانية عن «رجل اشترى بغلة بطليطلة وسار بها إلى بلنسية وأطلع فيها على عيوب بعد شهر» [3]. على منوال محاربة العيوب دأبت كتب الحسبة على مراقبة المتعاملين مع الدواب خاصة البياطرة والحدادين. ففي باب الموازين والأكيال والغش فيها ذكّر السّقطي[4] المحتسب بأن عليه أن يُراقب الحدادين الذين يصنعون الصفائح والمسامير للدّواب. إذ يجب عليه الانتباه إلى كميات الحديد التي تدخل في صناعة الصفائح والنضوات[5]. يقول: «ويصدق ربع الحديد من الصفائح الخيلية خمسة وأربعين زوجاً والبغلية ستين زوجاً والحمارية مائة زوج.. وعلى ذلك يكون في الرطل من البغلية زوجان وفردة... ويكون في مائة أقليال طيبة سبع أواق»[6]. يحصل الغش بسهولة في الصفائح والمسامير لأن من أصحاب الموازين والأكيال «من يجعل نصف الصفيحة من الرّصاص ونصفها من الشمع ويغشيها بالجلد..»[7]. ومن الحدادين «من يطرق المسامير البوالي ويبيعها برسم الجدد» [8].

تجدر الملاحظة إلى أن انتشار الصفائح أو ظاهرة تصفيح الدواب بالأندلس عملية تقنية عالية، لم ينتبه التأليف العربي المعاصر إلى أهميتها وإلى "الثورة" التي أحدثتها ــ فيما نعتقد ــ في عالم الدواب وما يرتبط به.

---

(1) - الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 181، 188، 203، 204، 247، 259.
(2) - نفسه: ج 6، ص. 203، 204.
(3) - ابن سهيل: الأحكام الكبرى...، ص. 168.
(4) - السقطي: في آداب الحسبة...، ص. 30 وما بعدها.
(5) - الصفيحة أو النضوة، صفائح - نضوات.
(6) - السقطي: في آداب الحسبة...، ص. 86. أقليال هو المسمار المخصص لتثبيت الصفيحة أو النضوة للحصان.
(7) - نفسه: ص. 30.
(8) - نفسه: ص. 80.

إذا سكتت المصادر عن تاريخ بدايتها، فيبدو أنه كان في مستهل القرن الثالث الهجري (IX م) على الأقل بالنسبة للبلدان المتوسطية[1]؛ إن لم يكن قبل ذلك بالنسبة للأندلس كما تدل على ذلك الإشارات المصدرية السالفة الذكر التي بيّنت ــ بما لا يدع مجالا للشك ــ انتشار الحديد وتفنُّن الأندلسيين في صناعته واستعماله في مجالات متعددة. حتى أن الأمثال العامية المشهورة بالأندلس عبّرت عن أهمية الدواب المصفحة بالأندلس حين قالت إحداها «البغل المسَمَّر والعبد المشَمَّر» [2]. أكثر من ذلك توصي السلطة المختصة البيطار كي يكون على بيّنة من المسامير التي لا تُضيرُ الدّابة قال أحدهم[3] « ينبغي للبيطار أن يعتبر حافر الفرس قبل تقليمه... وإن كانت يد الدّابة قائمة جعل المسامير المؤخرة صغارا والمقدمة كبارا، فلا يبالغ في نسف الحافر فتعمش، ولا ترخي المسامير فيتحرك النّعل ويدمل تحته الحصى وترهص الدابة..». لاشك أن عملية تصفيح الدّواب مكنت هذه الأخيرة من مواجهة ظروف طبيعية أكثر صعوبة ووعورة، وزادت في تحَمُّل المسافات الطوال[4]مكرر. وقد نبّه البياطرة الأندلسيون إلى أن مشي الدابة بالحفا على أرض صلبة يؤدي إلى فساد حافرها وإصابته بمرض الصدّع[5].

ج -الجمال: لم تذكر المصادر إلا إشارات نادرة عن الجمال بالأندلس خلال الخلافة والطوائف، مقارنة بما ذكر في الخيل والبغال، مما يدفع إلى التساؤل حول فترة وجودها بالفعل بالأندلس وهل لذلك علاقة بالمناخ، وما هي الأدوار الأساسية التي أُنيطت بها في ميدان الحروب؟اعتقد بعض الدارسين أمثال Lagardère[6] أن الجمال عُرفت بالأندلس إبان

---

(9) - لا شك أن ظاهرة تصفيح الدواب ساهمت في انتشار الصناعات التعدينيّة في البلاد المتوسطية. انظر بعض التفاصيل في:
LOMBARD (M); Le bois dans la Méditerranée, op. cit, p.153,175.

(1) - **الزجالي:** أمثال العوام...،ج 1، ص.218. قد يعني ذلك أن من يملك بغلا يصفحه وعبدا يُسخّرُه فهو من النخبة الاجتماعية.

(2) - **ابن الأخوة** (محمد بن محمد بن احمد القرشي): معالم القربة في احكام الحسبة، تحقيق فائد (عبد الحميد)، بيروت، دار الحداثة، 1990، ج 1، ص. 205.

(3) - تبدو اهمية الصفائح لدى الدّواب التي تواجه ظروفا مناخية أكثر برودة وصعوبة خاصة في بعض البلدان الأوربية الفيودالية شمال البحر المتوسط. انظر:
ROSS(D.Y.A);« L'Originalité de TUROLDUS: Le maniement de la lance », dans : Cahiers de civilisation médiévale, VI, Anné 2, Avril-Juin, Poitiers, 1963, p.127, 138.

(4) مكرر - قارن ما أحدثته عملية تصفيح الدّواب من تطور تقني هام بما أحدثه السّرج والرّكاب من انقلاب في أساليب القتال لدى الفرسان (فصل الأسلحة).

(5) - **ابن العوام:** كتاب الفلاحة...القسم الفرنسي...، مصدر سابق، ص.183، 171.

(6) - **LAGARDÈRE** (V); Le vendredi de Zellaqa, 23 Octobre, 1086, Paris, L'Harmattan.1989, p.25 et sv.

المرابطين، الذين أدخلوها بكثافة بمناسبة معركة الزلاقة عام479هـ/1086م. وأوضح ل. بروفنسال[1] من جهته أنها عُرفت في شبه جزيرة إيبيريا قبل المرابطين لأن المنصور بن أبي عامر أدخلها الأندلس لتواكب حملاته العسكرية وصوائفه العديدة ضد الإفرنج. وفي حالة السّلم فإنه يحتفظ بها في سهوب نواحي مرسية. يبدو من الإشارات السابقة أن الباحث Lagardère انطلق من نَصٍّ مصدري مشرقي واردٍ عند ابن خلكان[2] يشير إلى أن الجمال أُدخلت لأول مرة إلى الأندلس بفضل يوسف بن تاشفين لهدف مرتبط بخطة قتالية في الزلاقة، إذ أمر «بعبور ما أغَصَّ الجزيرة وارتفع رُغاؤها إلى عنان السّماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا قط جَمَلاً، ولا كانت خليهم قد رأت صُوَرَها، ولا سمعت أصواتها... فكانت خيل الإفرنج تحجم منها». أما ل. بروفنسال فاعتمد ابن الخطيب[3] الذي أوضح أن المنصور العامري كان له «من الجمال المتصرفة في حمل الأثقال أربعة آلاف إلا مائة بمسارح كورة تُدمير». يبدو أن الجمال قد عُرفت بالأندلس قبل ابن أبي عامر نفسه. لقد أشار ابن حيان[4] في أحداث سنة 363 هـ (عهد الحكم المستنصر) إلى وجودها، قادمة من المغرب، بمدينة الزهراء وعددها مائة وثلاثون جملا بعث بها بنو خزر من العدوة.

نلاحظ من خلال الإشارات السابقة أن الجمال وجدت بشبه جزيرة إيبيريا منذ عصر الخلافة، وليس منذ المرابطين، ولكن بأعدادٍ محدودة، وربما لعب المناخ دوراً في تحديد أعدادها.

4. البيطرة

إن وفرة الدّواب في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف واعتمادها بشكل أساسي في المجالين الاقتصادي والعسكري يدفعنا إلى إثارة قضايا مرتبطة بأمراضها وعلاجها خاصة أثناء الحملات العسكرية وخلال فترات السّلم كذلك. لاشك أن اعتماد

---

(1) - LÈVI-PROVENÇAL (E): Histoire de l'Espagne... op. cit, T. 3, p. 286.

(2) - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971، ج 7، ص. 116.

(3) - ابن الخطيب: أعال الأعلام...، ص. 10.

(4) - ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 150.

الدّواب في أنشطة يومية مختلفة أدى إلى ازدهار علم البيطرة. لكن نلاحظ أن التأليف المعاصر لم يُعر اهتماما كبيرا للموضوع بدليل غياب دراسات وأبحاث تُعنى بالبيطرة، وقد سبق القول إن الدّواب خاصة الخيول والبغال كانت تشكل نصف المجهود الحربي فيما نعتقد. وأكثر من ذلك كان التأليف في البيطرة مزدهراً خلال العصر الوسيط ضمن ما يُعرف بكتب الطب والفلاحة والنبات التي انتشرت على امتداد رقعة العالم الإسلامي وخاصة في جزئه الغربي. نلاحظ أن أغلب المصنفات العلمية[1] المخطوطة منها والمطبوعة في البيطرة فصّلت الحديث أكثر في الجوانب النّظرية أي في أصول الخيل ونسبها وصفاتها وألوانها. إلى جانب أنشطتها في ميادين مختلفة كالرّهان والسباق والرياضة والرّماية. في حين احتل القسم الطبي في متون تلك المصنفات حَيِّزاً محدوداً باستثناء بعضها[2]. رغم ذلك لابد من الإشارة إلى أن نشاط التأليف في الدّواب على امتداد العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط ــ عكس ما حدث في أوربا الفيودالية ــ ساهم إلى حد بعيد في خلق تراكم معرفي كبير من شأنه تطوير البحث في مجال الطب والفلاحة والبيطرة والنبات[3]. تبيّن مختلف النصوص المصدرية التي خصصت للخيل، تضلع بعض الفقهاء والعلماء والبياطرة في شؤون الدّواب. يتجلى ذلك من خلال حوار دال جرى بين أبي سعيد الأصمعي الفقيه اللغوي الشهير، وأبي عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع الذي قال للأصمعي«كم كتابك في الخيل؟ فقلت مجلد واحد، فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال

---

(1) - انظر على سبيل المثال لا الحصر:
مجهول: كتاب في الخيل والرياضة والفروسية والحث على الجهاد، مخطوط، خ. ح، 4438.
مجهول: كتاب في العناية بالخيل وسائر دواب الركوب كالشهاري والبراذين والبغال والحمير، مخطوط، خ. ح، الرباط، 2126؛ التميمي: كتاب الخيل وما ورد فيها...، مخطوط سابق؛ ابن رضوان: مطلع اليُمن والإقبال...، مخطوط؛ ابن جُزي (عبد الله بن محمد بن جزي الكلبي): كتاب الخيل، مطلع اليُمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال، تحقيق: الخطابي (محمد العربي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986؛ ابن هذيل: حلية الفرسان وشعار الشجعان، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997؛ الخطابي (محمد العربي): فهارس الخزانة الحسنية، المجلد الثاني: الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، الرباط، 1982.

(2) - مجهول: سيرة أجواد الإنجاد في مراتب الجهاد، خ, ع، مجموع، ج 94.
ابن العوام الإشبيلي: كتاب الفلاحة... مصدر سابق، ج 2تحقيق بنكيري، القسم الفرنسي ترجمة Clément Mullet .j..

(3) - لا يمكن القول، في الوقت نفسه، إن المصنفات العربية الإسلامية في البيطرة والطب والفلاحة والنبات قد انطلقت من الصفر أي من لا شيء. إنها اعتمدت على معلومات القدامى من الإغريق والرومان والهند والفرس. يتجلى ذلك من خلال ما تواتر لدى ابن العوام من ذكر "الطبيب الإغريقي..."... الخ.
كتاب الفلاحة، مصدر سابق، ص.109،108. لكن يجب القول إن العرب اجتهدوا في ترجمة المعلومات العلمية القديمة وجعلوها ملائمة لأوضاعهم الجديدة وبذلك تكون لاجتهاداتهم ومجهوداتهم حلقة أساسية في الحضارة العلمية عامة.

خمسون مجلدا، فقال له قم إلى هذا الفرس وامسك عضوا عضوا منه، وسمّه فقال لست بيطارا وإنما هذا شيء أخذته عن العرب، فقال، قم يا أصمعي وافعل ذلك فقمت وأمسكت ناصيته وجعلت أذكر عضوا عضوا وأضع يدي عليه، وأنشد ما قالته العرب إلى أن بلغت حافره فقال خذه..» [1]. اشتهر أيضا بعض الأندلسيين في الطب والبيطرة أمثال عمر بن عبد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي الأندلسي الذي برع في علوم الهندسة وله كذلك «عناية بالطب وتجارب فاضلة فيه ونفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبط..» [2]. ويبدو أنه زاول هذا العلم في الثغور الأندلسية لأنه توفي بسرقسطة عام 458هـ. واشتهر ابن العوام في علم الفلاحة[3] والبيطرة، ويعد من أهم الأندلسيين الذين كتبوا بتفصيل في البيطرة. لقد خصص القسم الثاني من كتاب الفلاحة لهذا العلم. وكعادة البياطرة بدأ بوصف العديد من الأمراض التي تصيب الدواب خاصة الخيول والبغال وانتهى باقتراح علاجاتها والطرق المتبعة في ذلك. من أمثلة تلك الأمراض ما يصيب أعضاء الرأس كالكوكب والبياض والكمنة والرماد والظفرة[4] في العيون. والسلاق[5] في الفم. والنملة والصّدع والنقرس[6] في الحافر. اقترح ابن العوام علاجات مختلفة لمداواة تلك الأمراض سواء بالأدوية المهيأة طبيعيا، أو بواسطة البتر والجراحة. ففي حالة السلاق مثلاً يتم العلاج بواسطة قشور جافة من فاكهة الرّمان، تُدَقُّ وتوضع على لسان الدابة[7]. أما الصّدع الذي يُصيب الحوافر التي لا تحمل الصفائح فيعالج بأوراق نبات الدّفلى والثومة والخردل[8]. وفي حالة استحالة العلاج بالأدوية، يُعمد إلى العملية الجراحية أو ما

---

(1) - الداودي: طبقات المفسرين...، مصدر سابق، ص.355.
(2) - القفطي(جمال الدين أبو الحسن علي ابن القاضي):كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة،1326هـ، ص.162.
(3) - ابن العوام: كتاب الفلاحة...، مصدرسابق.
(4) - نفسه: (القسم الفرنسي)، ص. 110، 118، 119.
(5) - نفسه: ص.117، 125، 126. من علامات السلاق الزّبد ورائحة كريهة تنبعث من فم الدابة دلالة على كبره وتقدُمِه في السن.
(6) - نفسه: ص.168.
(7) - نفسه: ص.125، 126.
(8)- نفسه: ص.171، 178.

يُعرف بالوداج (فتح العروق). إنها عملية أكثر صعوبة ودقة، على البيطـري أن يتخذ الاحتياطات اللازمة فيها، كالتأكد من العرق المراد فتحه أو العضو المراد بتره[1]. كما عليه اتخاذ الآلة الحادة المناسبة لذلك كالة المبضع أو المبزغ[2] المناسبة لإزالة الظفرة من عين الدّابة. تجدر الإشارة إلى أن جل المعلومات الواردة عند ابن العوام في أمراض الدّواب وعلاجاتها المختلفة نجده في كتب بيطرية أخرى، وأحيانا بشكل متطابق للغاية. وللتأكد من ذلك يمكن العودة مثلا إلى كتاب "سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد"، الذي يشبه إلى حد التطابق في قسمه البيطري ما جاء عند ابن العوام سواء في طريقة وصف الأمراض أو العمليات الجراحية نفسها. وإن التشابه الكبير أو النقول التي تتميز بها كتب البيطرة ــ ككب الفلاحة والنبات ــ يدفع إلى القول بضرورة إعادة قراءة وتحقيق متون هذا النوع من المصادر[3] العلمية الهامة، لما تزخر به من معلومات علمية دقيقة تفيد في إبراز جوانب أساسية من التراث والتي ما تزال في حاجة ماسة إلى العناية والاهتمام.

5. الحملات العسكرية

أ. الصوائف والشواتي

تعد الصوائف والشواتي من أهم الخطط والأساليب الحربية التي مارسها المسلمون منذ بداية الفتوحات في الثغور المشرقية ضد البزنطيين. نقل الأمويون هذا الأسلوب الحربي الناجح إلى الأندلس ليباشروه بدورهم في الثغور ضد المسيحيين. لقد كثرت الصوائف والشواتي خاصة خلال الخلافة وفترة الحجابة العامرية، إذ كان الخلفاء، كما سلف القول، يحرصون على قيادة الحملات بأنفسهم. وإذا تعذر عليهم ذلك، أي في حالة الطوارئ التي تلزمهم البقاء في قرطبة، أو إذا طالت مدة الصائفة بصمود العدو، فإنهم

---

(1) - ابن العوام: كتاب الفلاحة...، ص. 119، 211، 212.
(2) - المبزغ أو المبضع آلة حادة للقطع والبتر، المعجم الوسيط، ص. 60، 63.
(3) - نحن بصدد تحقيق كتاب "سيرة أجواد الإنجاد في مراتب الجهاد"، نظراً لأهمية قسمه البيطري. فيه نسختان مخطوطة واحدة في الخزانة العامة، ج 94 ضمن مجموع، والأخرى في الخزانة الحسنية رقمها 5917.

يُنيبون عنهم بعض القواد المشهورين في قيادة الصوائف، أمثال الحاجب بدر بن أحمد[1]، أو القائد الوزير إسحاق بن محمد المرواني[2] أو زياد بن أفلح[3]وغيـرهم. إن الاسـتعداد للحملات خاصة الصوائف يبدأ منذ وقت مبكر، أي مع آخر فصل الربيع لتنطلق بعد إتمام إعداد الغلال والمؤونة والنقل إلى غير ذلك من مستلزمات القتال والمعارك والحصار. وقد يحدث أن تطول مدد الصوائف كما سبق الذكر لأسباب متعددة مما يؤدي بالقيادة إلى تغيير خططها وأساليبها، بل يمكن أن تتحول الصائفة إلى خريفيّة أو شاتية، إذا اسـتمرت فـي حصار الأعداء لوقت طويل. وبالفعل كثرت الحملات العسكرية خاصة خلال عصر ابـن أبي عامر حتى صار الحديث عن الصوائف والشواتي بل الحملات الربيعية والخريفيـة. يصف صاحب ترصيع الأخبار[4] حملات إبن أبي عامر التي تدوم طيلـة السنة تقريبـا. ودون رسم جدول لتلك الحملات نكتفي بذكر صائفة الغابرة[5] التي بـدأ بهـا المنصـور العامري فترة حجابته، ثم شاتية الحمّة[6] عام 366 هـ. وشاتية شلمنتقة في السنة الموالية[7] (367 هـ). وغزوة المعافرين الربيعية[8] سنة 370هـ. وغـزوة سـمورة الخريفيـة[9] سنة(372) هـ. واللائحة طويلة. لقد استمرت هذه الحملات بعد المنصور العامري، لكـن بوتيرة أقل[10] إلى أن انعدمت خلال العصر الطائفي. ويبدو الأمر طبيعيـا إذا علمنـا أن عصر الخلافة تميّز بقوة ونفوذ السلطة المركزية بقرطبة والتي نجحت في بسـط قوتهـا وسيطرتها على المسيحيين. إن الإنطلاق في حملات الصـوائف والشـواتي يبـدأ عـادة

---

(1) - ابن حيان: المقتبس، ج 5، ص. 85، 143.
(2) - نفسه: ص. 156.
(3) - نفسه: الحجي، ص. 78.
(4) - العذري: ترصيع الأخبار، ص. 74، 80.
(5) - نفسه: ص. 75.
(6) - نفسه: ص. 74.
(7) - نفسه: ص. 74.
(8) - نفسه: ص. 75.
(9) - نفسه: ص. 75.
(10) - انظر بعض الصوائف والشواتي عهد الحاجب المظفر ابن المنصور العامري في:
ابن عذاري: ج 3، ص. 21 وما بعدها.

باستظهار واستعراض الجند وطبقاته عبر ما يُعرف بالبروز[1]، الذي يتم عادة بحضور الخليفة بمكان يعرف بفحص السُرادق وهو إحدى المحلات أو المنتزهات الكبرى شرق قرطبة[2]. يقوم العارض بترتيب أصناف الجند أمام الخليفة[3]. يعتبر هذا الاستعراض في الواقع، كما يدل على ذلك لفظ "البروز" نفسه، نوعاً من إبراز وتضخيم القوة العسكرية التي تعد بمثابة الأداة الفعّالة التي تُلوّح بها السلطة السياسية بقرطبة من أجل الحفاظ على نفوذها وقوتها، وردع معارضيها في الداخل كما في الأطراف أي في الثغور وفي شمال إفريقيا.. يؤكد ابن حيان[4] هذا المعنى حين وصف إحدى غزوات الخليفة عبد الرحمن الناصر عام 322 هـ، إلى جهة الثغور بالقول "قد حقّتهُ قواده وكتائبه... مُظاهِرَةً الحديد والقوة، وقد احتفل فيما أبرزه لتفخيم بروزه وعده من صنوف العدة وتماثيل الأعلام والرايات الفخمة البديعة.."؟ . إن استعراض أعداد الجند وطبقاته قبيل انطلاق الحملات العسكرية يقتضي النظر في قضايا تهم مصيره في المعارك كالطرق التي يسلكها أثناء الحملات أو التموين الذي يلعب دوراً حاسماً في بقائه وصموده لمدة محددة، ثم الجواسيس والعيون والاتصالات أو البريد. إنها أمور تساهم في الانتصار كما يمكن أن تسبب الهزائم والاندحار.

---

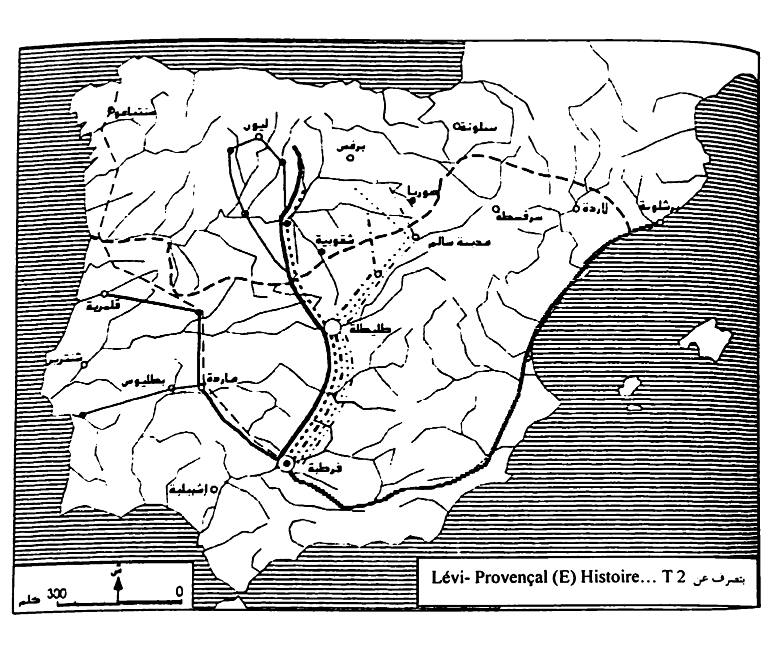
(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 65، 334، 157، 66.

(2) - نفسه: ص. 28، 66، 102.

(3) - انظر أصناف وطبقات الجند ورتبه في استعراضات الخليفة الحكم المستنصر خلال مناسبات عديدة كالأعياد مثلا: ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص.28، 30، 40، 45؛ نفسه: ج 5، ص. 334.

(4) - نفسه: ص. 334.

بعض حملات المنصور العامري ضد المسحيين



Lévi- Provençal (E) Histoire... T 2 بتصرف عن

ب - الطرق والمسافات العسكرية

لاشك أن الحملات العسكرية تسلك طرقا معينة وتقطع مسافاتٍ مُحَدَّدَةً للذهاب إلى الثغور، ليست بالضرورة مطابقة للطرق والمسافات المُعِدَّة للأنشطة الاقتصادية والتجارية، أو ما يمكن تسميته ــ إن صح القول ــ بالمسافات المدنيّة. لكن نشير إلى أن المصادر، وإن ذكرت مجموعة من الطرق التي كانت تسلكها الحملات العسكرية لم تُفصّل القول في طبيعة تلك الطرق. يكفي القول إن كتب الرّحلات والجغرافيا والمسالك والممالك قد وصفت بنوع من الدقة الطرق في الأندلس والمدن الرئيسية والمسافات فيما بينها، وذلك انطلاقا من الحاضرة قرطبة التي هي« قاعدة الأندلس وأم المدائن وقرارالخلافة ودار الملك» [1]. أو قصبة المسافات على حد تعبير الاصطخري[2].

من قرطبة إذن تفرعت الطرق وامتدت المسافات إلى جهات مختلفة من البلاد. بل تذكر المصادر طريقا رومانيا هاما يقع وسط الأندلس ويقطعها طولا، إذ «يبدأ من باب قادس إلى باب ناربون ألف ميل» [3]. ويمكن للمسافر «من قرمونة إلى ناربون... إذا شاء ألا يزيغ عن الطريق الروماني العريض والمبني بحيث يظل مستعملاً في الشتاء»[4]. ومن الطرق والمسافات المشهورة نذكر أن كورة موررور مثلا تبعد عن قرطبة بستين ميل[5]. وتبعد قلعة رباح عن أريلة بيومين[6]. ومن ماردة إلى حصن مدلين مرحلتان[7]. ومن مُلينة إلى حصن شنت بيطر أربعون ميلا[8]. ومن قرطبة إلى إشبيلية ثلاثة مراحل[9]. و«من قرطبة إلى سرقسطة عشرة أيام، وإلى تطيلة ثلاثة عشر يوما، ومن

---

(1) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 293.
(2) - الاصطخري (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي): المسالك والممالك، تحقيق: الحيني (محمد جابر عبد العال) غربال (محمد)، القاهرة، 1961، ص. 38.
(3) - الرازي: وصف الأندلس...، مصدر سابق، ص. 65.
(4) - نفسه: ص. 65.
(5) - ابن غالب: نفسه، ص. 290.
(6) - الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن أحمد عبد الله بن ادريس الحسني): نزهة المشتاق، نابولي، 1975، ج 5، ص. 550.
(7) - نفسه: ص. 550.
(8) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 10.
(9) - الاصطخري: المسالك والممالك...، ص. 38.

تطيلة إلى لاردة أربعة مراحل، ومن قرطبة إلى طليطلة ستة أيام، ومن طليطلة إلى وادي الحجارة يومان...»[(1)مكرر].

يتضح مما سبق أن الطرق والمسافات إلى الثغور بعيدة، لكنها تكتسي أهمية قصوى بالنسبة للجند الذي يسلكها كل عام. تقدم المصادر بعض الإشارات يمكن من خلالها التمييز ما بين المسافات العسكرية و"المدنية". إن الفارس الجاد أو القاصد، الذي "يغد السير ويطوي المراحل" حسب ابن حيان[(2)]، يقطع مسافة طويلة في ظرف وجيز مقارنة بالمسافة التي تقطعها المحلات العسكرية التي تتوقف في محطات رئيسية للاستراحة أو التموين. يذكر الرازي[(3)] أن المسافة بين قرطبة وتدمير سبعة أيام من المشي للفارس الراكب وأربعة عشر يوما، أي الضعف، لمحلة عسكرية. وهي المسافة ذاتها ما بين طليطلة وقرطبة، فهي "للفارس القاصد سبعة أيام ولمحلات العساكر أربع عشرة مرحلة"[(4)]. والمسافة ما بين ماردة وقرطبة "للراكب القاصد خمسة أيام ولمحلات العساكر عشرة أيام"[(5)].

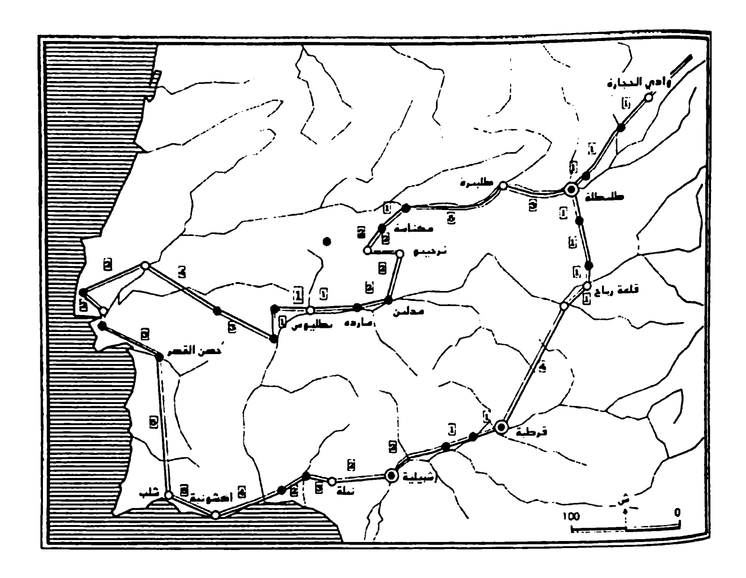
يقطع الجند عادة المسافات نحو الثغور عبر محطات أو محلات ضرورية. وذلك ما فعله الخليفة عبد الرحمن الناصر في غزوة مونش سنة 308 هـ، إذ نهض بجيوش كبيرة من وادي الحجارة إلى مدينة سالم، إلى طريق ألبة والقلاع. وتابع السير حتى بلغ وادي دويره. وبعد ذلك نزل إقليم طليطلة؛ "وقطع ذلك في خمس محلات"[(6)]. إن الحديث عن المسافات والطرق، باعتبارها جزءاً مهماً من البنيات التحتية، وذكر المصادر للطرق الرومانية القديمة بالأندلس يدفعنا إلى التساؤل حول دور قرطبة أي الخلافة، أو السلطة السياسية في توسيع تلك الطرق أو تشييد أخرى تبعاً لقوتها ونفوذها في المجالين الاقتصادي والعسكري. يمكن القول إن الخلافة الأموية في الأندلس قد اعتمدت، بالفعل،

---

(10)- نفسه: ص. 38.
(10) مكرر - تستعمل المصادر ألفاظا مختلفة لقياس المسافات كاليوم والمرحلة والفرسخ والميل إلخ... (انظر المسافات في باب الأسطول).
(1)- ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص.65.
(2)- الرازي: وصف الأندلس...، ص.71.
(3)- الرشاطي وابن الخراط...الأندلس في اقتباس الأنوار...، ص.151.
(4)- ابن غالب: تعليق منتقى...ص.288.
(5)- ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص.163، 165.

المسافات حسب ابن حوقل الذي زار الأندلس في منتصف القرن IV هـــ

الأرقام بين المدن تدل على عدد الأيام مشيا



الطرق والمسالك الرومانية الموجودة في شبه الجزيرة. لكن لم تقتصر عليها، بل عمـدت إلى بناء وتشييد أخرى، وذلك بشكل يتماشى والتطورات الإقتصادية والتجارية والعمرانية التي عرفتها الأندلس طيلة القرن الرابع الهجري (X م) على الأقل. فالخلافة، في شـخص عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، شيدت مجموعة من المدن وأخضعت أخرى كانت تلعب أدوارا هامة في مواجهة أعدائها سواء في الداخل أو في الخارج، وكان لابـد أن تشق إليها المسالك والطرق، لتسهيل الاتصال والتواصل معها كما هو الشأن لما بنـى الخليفة الناصر مدينة الفتح[1] سنة 318 هـ على مقربة من طليطلة وأمر بتعميرها، كما اخضع مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى و"قوّم إليها الطرق من البلاد البعيدة"[2]. وعلى غراره دأب المنصور بن أبي عامر الذي كان يشق الطرق حتى إبان الحملات العسكرية. ففي إحداها على مدينة شنت ياقب، واجه جبلا شديد الوعورة "لا مسلك فيه ولا طريق.. فقدّم الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه وتسهيل مسالكه"[3].

انطلاقا من هذه المعطيات لا نشاطر رأي كل مـن ل. بروفنسـال[4] و Manzano-Moreno[5] القائل باعتماد الخلافة الأموية بالدرجـة الأولـى علـى المسـالك والطـرق الرومانية، التي أنشئت حول المراكز السكنية الرئيسية خاصة في جهات الثغـور. ربمـا يمكن القول إنه بعد سقوط الخلافة آخر القرن الرابع الهجري توقفت أو بالأحرى نقصـت المشاريع الكبرى بما في ذلك تشييد الطرق، واعتمدت السلطة خلال القرن الخامس للهجرة (XI م) على إرث الخلافة في مجال الطرق وغيرها[6].

---

(1) - نفسه: ص. 283.
(2) - نفسه: ص. 360.
(3) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 295.
(4) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E); Histoire de l'Espagne... op. cit, T. 3, p. 57.
(5) - **MANZANO MORENO** (Ed); La Frontera de AL-Andalus..., op. cit, p. 107, 150.
(6) - انظر رسم بعض الطرق التي تسلكها الحملات العسكرية على المستوى المحلي أو الإقليمي في:
PUNAL FERNANDEZ (Tomas);« Las rutas militares del Henares Jarama en la Edad Media »,dans:**Revista de las Armas y Servicios, Ejercito N° 621, Octubre, 1991, p.66, 73.**

ج - التموين والنقل العسكري

إن الإعداد للحملات العسكرية في حجم الصوائف والشواتي والأوقات التي تستغرقها، يتطلب توفير المؤن المختلفة ونقلها بشكل موازي لتحرك الحملات. يقول ابن هذيل[1] «على الأمير إعداد ما يحتاج إليه الجيش من زاد وعلوفة يفرق ذلك بينهم في وقت الحاجة، وإذا نفذ زادهم لتسكن نفوسهم إليه...». يمكن النظر إلى ما يرافق الجند من زاويتين، تتعلق الأولى بما يُنتجُ من المواد المتنوعة والمخصصة للجند والدّواب إبان الحملات، أو ما يؤخذ من أراضي العدو من الممتلكات لينتفع بها الجند المحارب. لاشك أن الجندي المحارب يصحب معه، بعد سلاحه، ما خف من المؤونة وما يُمكن أن يصمد لمدة طويلة أمام تقلبات التنقل وأحوال الطبيعة. ولذلك يتم عادة إعداد الأقوات والأعلاف[2]، "كالقمح والإدام والملح والحطب"[3]، أو "التين والخبز والزبيب"[4]. ويوصي أحدهم[5] الجندي المحارب بالقول «أول ما تحمله معك خبزاً ثم خبزاً ثم خبزاً». وللمقارنة كانت الروم تحمل في الحرب مواد مختلفة كالكعك والزيت والخمر والجبن[6]. يحمل الأندلسيون أيضاً مواد وأدوات تدخل في إعداد الأقوات للجند كالأرحاء. يقول ابن الخطيب[7] في هذا الصدد بأن المنصور بن أبي عامر كان يخصص دواباً تحمل الأرحاء "لطحن الأزواد". وأكثر من ذلك كانت ترافقه أدوات أخرى ضرورية للجند أو لحاشية السلطان، كآلات المطبخ والوضوء ودار الصناعة والمال وأرحل النساء وأخبيّة الفتيان[8] أو الغطاء وتوابيت الكسى[9] وغيرها. ناهيك عما كان يُزرع لدواب السلطان من الشعير. فالمنصور

---

(1) - ابن هذيل: تحفة الأنفس...، مخطوط، الإسكوريال..21 ب.

(2) – ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 211، 401، 456؛ ابن بلقين: المصدر السابق، ص. 128، 135؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 102؛ ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 297.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 456.

(4) - فيكيرا (م. خ): التأثير الحربي العربي في إسبانيا، 1975، ص. 159.

(5) - ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة النافعة...، ص. 405.

(6) - ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، ليدن - بريل، 1885، ص. 112.

(7) - ابن الخطيب: أعمال...، ص. 100.

(8) - نفسه: ص. 101.

(9) - نفسه: ص. 101.

العامري كان« يزرع في كل سنة ألف ألف مدي من الشعير قصيلا لدوابه»[1]. وقيل كان يزرع لدواب ابن أبي عامر « من شعير القصيل لقضيم خيل الحملان وغيرها مفتتح الزريعة من كل شتوة، بالأحقال السلطانية في أعم السنين خمسمائة مدي من الشعير»[2].

من يتكلف أو كيف تنقل المؤن الضرورية للجند؟ لاشك أن عملية نقل السّلاح والمؤونة تتم بواسطة بهائم مُخَصّصة لذلك كالبغال والجمال إضافة إلى آلات العَجَل[3]. تشير المصادر إلى « دواب الأكرياء المستأجرة للحمل» [4]، أي لخدمة الحملات العسكرية كما حدث بالفعل خلال غزوات المنصور بن أبي عامر المتعددة. لقد كان له من «البغال المستخدمة في الأسفار نحو ألف رأس سوى الزوامل الخادمة للخيل ومطايا الوكلاء...»[5]. ناهيك عن الجمال «المتصرفة في حمل الأثقال» [6]. وبصدد الجمال ترد إشارات مصدرية متعددة تفيد أنها كانت ترافق الحملات العسكرية الإسلامية الأولى في المشرق، ولا تكتفي بحمل أثقال الجند المقاتل، بل تتعدى ذلك لتلعب أكثر من دور. فهي تحمل الأثقال والزاد، وأحياناً يَستخدم بعضها "كصهاريج" تحمل المياه في بطوهها بعد كم مشافرها، وتُنحَر عند الضرورة لأكل لحمها والزاد الذي تحمله، وشرب الماء الذي تحمله في بطونها من قبل باقي الدواب المرافقة للحملة العسكرية[7]. يبدو أن آلات العَجَل قد استخدمت في الأندلس لنقل المؤن العسكرية منذ الفتوحات وظلت تُستعمل طيلة الخلافة والطوائف على الأقل كما يتبيّن من المعلومات المصدرية. يقول ابن عذاري[8] بأن موسى بن نصير لما قفل من الأندلس بعد مكوثه فيها «أمر بالعَجل فحملت الذهب». وأحصى ابن

---

(1) - **ابن عذاري:** البيان، ج 2، ص. 298.
(2) - **ابن الخطيب:** أعمال الأعلام...، ص. 102.
(3) - العجلة، عَجَلَ وأعجال وعِجال، محركة الآلة التي يجرها الثور وتحمل الأثقال.
البستاني (عبد الله البستاني): فاكهة البستان: معجم لغوي، بيروت، 1990، ص. 910.
(4) - **ابن الخطيب:** أعمال...، ص.101.
(5) - **نفسه:** ص.100.
(6) - **نفسه:** ص.100.
(7) - الموسوعة العسكرية، مرجع سابق، ج 2، ص.30.
(8) - **ابن عذاري:** البيان، ج 2، ص.17.

أبي دينار[1] العجلات مشيرا إلى أن موسى بن نصير «أقبل بمائة عجلة وثلاثين عجلـــة».
وقد كان لذريق يحارب طارق بن زياد و«معه العَجل تحمل الأموال والمتاع» [2].

أي أنها تحمل الغنائم[3]. وتستعمل العجل أيضا في أشغال البناء كما يتضح حين أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة 340هـ ببناء صومعة كبيرة «وبُنيت بصخرة الحجـارة المنقولة إليها على العَجل» [4]. كما استخدمت خلال العصر الطائفي لنقل مؤن الجند فـي جهات أندلسية متعددة. ففي إحدى معارك منذر ابن يحيى التجيبي (ت430هـ)، استعملت العجل لحمل أزواد عسكره [5]. لا غرو فالمعلومات المصدرية تؤكد انتشار العجـل فـي أنحاء أخرى غير الأندلس وربما بأشكال مختلفة وتستعمل في أغراض محددة خاصة مـن لدن فئات اجتماعية ميسورة. يقول البكري[6] بأن ملوك الصقالبة كانوا يسافرون «بالعجل العالية الجارية على أربعة أفلاك وقوائم، في زوايا أعمدة وثيقة وعلق منها هودج بسلاسل حصينة، وكسي بالديباج فلا يتقلقل الجالس فيه.. يعدُّونه للمرضى والجرحى».

رغم توفير وسائل وأدوات عديدة لمساعدة الجند في النقل والتموين، ومهمـا بلغـت مجهودات قواد الجند في إعداد الأقوات والأعلاف الضرورية للجند والدّواب، فقد يحـدث النقص في تلك المواد خاصة، إذا طالت الصائفة أو الشاتية. ولهذا كثيرا مـا يُلجـأ إلـى "الإكتراء من النّاس من بلد لآخر"[7]. أوالاستعانة بما يقدمه السكان فـي القـرى والمـدن والأقاليم التي تمر عبرها الحملات العسكرية. وفي حالة التغلب على العدو أو التوغل في أراضيه، فإن الأمر يختلف لأن الجند يستفيد مباشرة من ممتلكاته أو يعمل على نهبهـا أو إحراقها كي يتم إرهابه وإخضاعه. ولكن هل للجند الحق في الاستفادة من كل ما تقع عليه يده في دار الحرب؟ تجدر الإشارة إلى أن كتب الجهاد والنوازل تحدد بدقة أنواع المـواد التي يمكن التعامل معها في الأرض المسيحية وما يجوز نهبه وتحريقه لتسهيل التغلب على

---

(1) - ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص.35.
(2) - المقري: النفح...،ج 1، ص.240.
(3) - نفسه: ج 1، ص.272.
(4) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص.228.
(5) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 1، م 1، ص.184.
(6) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 191.
(7) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 100.

العدو. يقول ابن هذيل[1] :« يجوز تحريق أرض العدو وزرعهم وعقر دوابهم، إن لم يمكن أن يتملكها المسلمون. وكذلك قطع شجرهم وتخريب بلادهم، إذا رأى الإمام في ذلك صلاحا... فقد قطع النبي ﷺ كرم الطائف فكان سبب إسلامهم ». وحدد الفقيه الماوردي[2] المواد التي يمكن الاستفادة منها أو استهلاكها بأرض العدو حين قال: «لا يُمنع الجيوش في دار الحرب من أكل طعامهم وعلوفة دوابهم غير محتسب به عليهم. ولا يتعدوا القوت والعلوفة إلى ما سواهما من ملبوس ومركوب. فإن دعتهم الضرورة لذلك، كان ما لبسوه أو ركبوه أو استعملوه مسترجعاً منهم في المغنم، إذا كان باقياً، ومحتسباً عليهم من سهمهم إذا كان مستهلكاً». لكن يمكن القول إن مضمون النصوص الفقهية في الغنائم والتعامل مع المسيحيين في المعارك كثيراً ما ظل نظرياً، أي بعيداً عما تقوم به الحملات العسكرية على أرض الواقع المعيش. لاغرو فقد عكست أغلب النصوص المصدرية حقائق تاريخية قائمة على نسف ونهب زروع وممتلكات الأعداء سواء في الجهة المسيحية أو ضد المعارضين داخلياً. قال ابن خلدون[3] :«العلوفة للعساكر كثيرة، فإذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا انتهاب الزرع والنّعم وانتهاب البلاد ممّا يمرون عليه..». ولذلك ما فتئ قواد الجند يأمرون بكل ما من شأنه أن يُخضع العدو. حدث ذلك سنة 312 هـ لما واجه عبد الرحمن الناصر العلج شانجه، إذ بات المسلمون في محلّتهم «وانبسطت العلافة في قرى الناحية فانتسفت ما فيها...»[4]. وفي إحدى الحملات ضد سرقسطة عام 325 هـ، أمر الخليفة الناصر قواده بالخروج إلى كل جهة في «أعداد من الخيول للتدمير وجلب العلافة... وانفرد عبد الله ابن بدر منهم بقطع الشجر المُثمر.. وأتوا على دنيا عريضة، واحترق العسكر ما مرَّ به من أرض بنبلونه، على هذا التدمير المحكم... ينسف الآثار ويُخَرِّبُ الدّيار ويحرق القرى..» [5]. ولم يتردد جند الناصر في غزوة أخرى في:«الهدم والحرق حتى لقد اتصل الحريق في بلاد المشركين عشرة أميال واجتمع عند النّاس من الأطعمة والخيرات ما عجزوا عن حمله ولم يجدوا له ثمناً تباع به،

---

(1) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط،31 ب.
(2) - الماوردي: الأحكام السلطانية...، ص.54.
(3) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 297.
(4) - ابن حيان المقتبس...، ج 5، ص. 195.
(5) - نفسه: ص. 401.

وكان القمح في العسكر تبدل ستة أقفزة بدرهم، فلا يوجد من يشتريه فجُمِعَت الأطعمة وأدخلت النار »[1].

د - الجواسيس والبريد ولغة التواصل بين الجند

1 - الجاسوسية : إن التاريخ للحروب التي تخوضها الدّول ضد أعدائها والإمكانيات التي تستنفرها من أجل مراقبة أطرافها داخليا وخارجيا، هو في الوقت ذاته تأريخ للجاسوسية والمراقبة واستخبار الأوضاع في مجالات متعددة. وقد يزداد نشاط الجاسوسية وكل وسائل المراقبة إذا كانت الدولة تجاور أعداءً كثيرين، أو كانت لها ثغور هامة كما هو الحال في شبه جزيرة الأندلس. لكن يمكن للثغور كذلك أن تساعد على ديناميةِ وحركةِ الجاسوسية المضادة كما حدث من الجهة المسيحية. لقد أطنبت كتب الأخلاق السلطانية في أهمية الاستخبار والاستعلام وإذكاء العيون والجواسيس في صفوف العدو خاصةً إبّان الأزمات السياسية والعسكرية. وأوصت باتخاذ الإدلاء والبريد والرجال العارفين بشؤون العدو: قوته وضعفه وأسراره. يقول ابن أبي النور[2] في هذا المعنى موجهاً الكلام لأحد أمراء الجند، بضرورة بث الجواسيس في عسكر العدو« وإظهار الكتب على ألسنة خواصه، بطلب الأمان منك وتضمينها ما صحّ عندك من أسراره ليحمل هذا جواسيسه إليه، فيضطرب أمره ويرتاب ممّن كان يثق به ».

لاشك أن القرن الرابع الهجري (X م) الذي شهد قوة ونفوذ السلطة السياسية بقرطبة، وامتداد الرقعة الجغرافية التي تحكمت فيها الدولة، إلى جانب امتلاكها لجند قوي يستعمل بحزم في الداخل وفي الثغور وفي مناطق أخرى بالمغرب، قد واكبه نشاط «العيون الراصدة والجواسيس الكامنة»[3].

عكست المصادر هذا الأمر إذا علمنا أن الخليفة عبد الرحمن الناصر نشطت جواسيسه واستخباراته في كل الميادين، بحيث جعل عيونه «على ما قرب وبعد وصَغُرَ

---

(1) - **نفسه**: ص. 167؛ **ابن عذاري**: البيان...، ج 2، ص. 179.
(2) - **ابن أبي النور**: سياسة الأمراء...، مخطوط...47 أ، 48 ب.
(3) - **ابن أبي حجة**: رعاية الرّعية...، مخطوط...60 أ.

وكَبُرَ» [1]. وكانت للخليفة الحَكَم بدوره العيون المراقبة في كل صفوف الجند. قال في شأن المنصور بن أبي عامر:«وجعلناه عينا على العسكر»[2]. لقد خبر هذا الأخير كل أنواع التجسس والمراقبة في الإدارة والقضاء إذ تكلف بهما لمدة ليست قصيرة، وكذلك في الميدان العسكري الذي نظمه وأشرف على كافة خططه سواء داخل الأندلس أو خارجها أو في الثغور. كان المنصور بن أبي عامر يراقب الشاذة والفاذة في المجتمع الأندلسي خاصة لما تولى الحجابة وأبان عن نفوذه وسيطرته، كما يتبيّن من إحدى الروايات الطريفة التي كشفت عن تواطؤ المسيحيين في مدينة الزاهرة ضده مستعملين أحد الشيوخ المسنين الذي يكون آخر من يشك في أمره، مما دفع المنصور العامري إلى قتل الجميع[3].

إذا كان عصر الخلافة، كما سبق القول، قد عرف نشاط الجاسوسية، فإن القرن الخامس الهجري(XI م) شهد بدوره حركة الاستخبار سواء فيما بين الدويلات الطائفية أو ضد المسيحيين، أو عكس ذلك نشاط التجسس المسيحي ضد الطوائف وذلك بشكل موازي لزيادة أطماعهم الاقتصادية والعسكرية في الأندلس. لقد استخدم ابن بُلقين في دولة غرناطة ما كان يُعرف بالرقاصة السودان[4]، أو الرقاصة المغاربة[5]، الذين كانوا بحضرته. كما كان يدس[6] إلى الرعية من يستقي أخبارها وتفاصيل حياتها اليومية. والشيء نفسه سلكه المعتمد بن عباد في إشبيلية مع جيشه ورعيته، وكذا مع المرابطين في موقعة الزلاقة

---

(1) - ابن سعيد (المغربي): المغرب في حلى المغرب، تحقيق ضيف (شوقي)، القاهرة، دار المعارف، 1978،ج 1، ص. 180.

(2) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 253.

(3) - تقول الرواية باختصار أن المنصور بن أبي اعامر أمر في إحدى الليالي الممطرة أحد فرسانه بحراسة ممر جبلي وإحضار أول شخص يصادفه. فحدث أن كان شيخا هرما يحطب على دابته فساقه إلى المنصور. وفي الطريق سأله الشيخ : « "ما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلي..". ولما وصل أمر بتفتيشه فلم يعثروا عنده على شيء، وأمر بتفتيش بردعة دابته، "فوجدوا داخلها كتاباً من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده، إلى أصحابهم من النصارى ليقبلوا ويحضروا في إحدى النواحي.. وأخرج المنصور أولئك النصارى من الزاهرة فضربت أعناقهم وكذلك رقبة الشيخ معهم ».

(4) - ابن بلقين: البيان...، ص.157. تدل كلمة الرقاص على الرسول الذي يحمل الأخبار والرسائل في المغرب والأندلس. اعتقد الباحث ذنون طه أن اختيار الرقاصة من السود مرتبط بحركة أجسامهم أثناء مشيهم، وبطول قامتهم لكن قد تنطبق هذه الصفات على عناصر أخرى ليست بالضرورة من السودان المغاربة. ـ ذنون طه: تنظيمات الجيش، مرجع سابق، ص. 45،، 48.

(5) - ابن بُلقين: نفسه، ص. 157؛ ابن بسام: الذخيرة، ق 2، م 1، ص. 50. ق 4، م 1، ص. 74.

(6) - ابن بلقين: نفسه، ص. 111.

الشهيرة، لما أذكى «عيونه في محلات الصّحراويين خوفا عليهم من مكايد الأدفونش» الذي امتدت جواسيسه وعيونه إلى أوساط جند المستعين بن هود بالثغر[2].

2 ـ البريد والدليل والحمام الزاجل

يعتبر البريد، كالجاسوسية، وسيلة أساسية للاتصال. استخدم بطرق مختلفة عند الحضارات القديمة الإغريقية أو الفارسية. واختُلف في مفهومه ودلالته. قيل إنه «بالبادية إثنى عشر ميلاً، وبالشام وخراسان ستة أميال، وقيل البريد عشرون ميلا، وقال أبو المنصور البريد الرسول، وإيراده إرساله..»[3]. لا تقف مهمة البريد عند التكليف بنقل الأخبار من إقليم لآخر أو من مركز إلى آخر، بل الأمر يتعدى ذلك، إذ يتحمل البريد مسؤولية لا تقل خطورة ودقة، إن لم نقل أكثر من مهمة الجاسوس نفسه. عليه أن يكون مُلِمّا بمعارف ومعلومات، بل بعلوم مختلفة كمعرفة "الطرق والفراسخ والسكك والقناطر والجسور واتصالات الطرق..."[4]. أي يكون ممّن لا يحتاج في الرجوع معه إلى غيره في المسافات والفراسخ والخرائط[5]. إضافة إلى ذلك يكون من "أهل الدلالة في الطريق والبصير بالقبائل"[6]. بناء على ذلك يستفيد البريد ورجاله من امتيازات متعددة في كل المناطق والأقاليم التي يمرون بها، كاستضافتهم دون تقصير، أو تقديم العلف لدوابهم[7]مكرر، إلى غير ذلك. كما أن البريد يستفيد من علامات يحملها تُسَهّل مروره وعدم مراقبته، لأن من شأن تلك المراقبة أن تؤدي إلى بُطئه وعدم وصول معلوماته في الوقت المحدد لها خاصة وأن مهمته تكمن في "الركض بالأخبار"[8]. ولذلك كان بريد الروم

---

(1) ـ المقري: النفح...، ج 4، ص. 364.

(2) ـ الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص. 685.

(3) ـ الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1955، ج 1، ص. 35.

(4) ـ ابن منكلي (محمد بن محمود المصري): الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية، مخطوط 35، القاهرة، دار الكتب المصرية، نسخة خاصة، ص. 8.

(5) ـ ابن خرداذبة: المسالك والممالك...، ص. 134، 184.

(6) ـ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، ص. 329.

(7) ـ نفسه: ص. 329.

(7) مكرر ـ كان البريد الحفصي الذي يقوم به عبيد السلطان يجهز بغلاً يكون ملكية أو مستعاراً ويسافر عليه فإذا "عيي في مكان تركه عند الوالي.. وأخذ منه بغلاً عوضه بعده الوالي أو بسخرة من الرعايا".
العمري: كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وصف إفريقية، تحقيق: حسن حسني (عبد الوهاب)، تونس، ص.27.

(8) ـ ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 136.

يستعمل "براذين لطاف محذفة الأذناب خفاف"[1]. وقرر الفرس أن« تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمُرُون بها»[2 مكرر].

نشط البريد[3] والأدلاء[4]، والإتصال بواسطة الحمام الزاجل[5] بالأندلس خلال الخلافة والطوائف. ذكر ابن حيان أن الخليفة المستنصر عَبَّأ "أصحاب الرسائل الخصيان"[6]. و"كتاب الفرانقيين"[7 مكرر]. و"الفرانق من السلطان"[8].

استخدم الحمام الزاجل (المسافر) بدوره في الاتصال المستعجل منذ القديم. وقد أطلق عليه الحمام الرسائلي نظراً لإعداده وتربيته في حمل المراسلات. يقول صاحب المخصص[9] : « زجل الحمام يزجلها زجلا، أرسلها على بعد ». ومن خصائص هذا الحمام « حسن الاهتداء وجودة الاستدلال وثبات الحفظ والألف لوطنه »[10]. وهو "أشد طيراً من جميع سباع الطير"[11]. يقطع الجيد منه أي المدرب أحسن تدريب ما بين 500 إلى1000 كلم بمعدل 60 كلم في الساعة[12]. تكتب الرسائل التي يحملها على ورق رقيق يُعرف بورق الطير[13]، وبخَطٌ يُعرف بالغبار نظراً لدقته وَشَبَهِه لذرات الغبار[14]. يبدو

---

(1) - ابن خرداذبة: المسالك والممالك...، ص. 112.
(2) - الحموي: معجم البلدان...، ج 1، ص. 35.
(2) مكرر- يورد الحموي تفاصيل حول أسباب إلصاق علامات بخيل بريد الفرس: منها أن أصحاب البريد اشتكوا إحدى المرات من الولاة الذين لم يسهلوا مرورهم في أقاليمهم. ولما استدعاهم السلطان لاستفسارهم أجابوا بأنهم لم يميزوا خيل البريد عن غيرها.
(3) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 1، م 1، ص. 160.
RADHI BASHIR (Hassan); EL ejercito en la Epoca del califato de Al Andalus, Tésis Universidad complutense, Madrid, 1989, 1990,T.1, p.570.
(4) – ابن حيان:المقتبس...،ج 5، ص.120، 420؛ ابن عذاري: البيان...،ج 2، ص.295؛ أبوحامد الغرناطي: تحفة الألباب...، ص.67،65.
(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 63؛ المقري: النفح...، ج 4، ص. 246.
(6) - ابن حيان: الحجي، ص. 91.
(7) - نفسه: ص. 136.
(7) مكرر - الفرانق/ فرنق: دليل الجيش. لسان العرب، المجلد 2، ص. 1090.
(8) - ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 1، ص. 34.
(9) - ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي): المخصص، بيروت، دار الكتب العلمية، ج 8، ص. 170.
(10) - الجاحظ: الحيوان، تحقيق هارون (عبد السلام)، بيروت، دار الفكر العربي، 1969، ج 3، ص. 214.
(11) - نفسه: ص. 220، 221.
(12) - Dictionnaire encyclopédique.Quillet,Paris,A.Quillet,1975,T.10,p.5237. (Pigeongramme).
(13) – الطيبي (أمين التوفيق): "حمام الزاجل: عرض تاريخي حول استعماله في المراسلات السريعة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى". في: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا تونس، الدار العربية للكتاب،1984 ، ج 1،ص.106، 119.
(14) - نفسه: ص. 117. يضيف المؤلف تفاصيل تتعلق بالكيفية التي يحمل بها الحمام الزاجل الرسالة التي تعلق بجناحه أو ذنبه بشكل لا يعيق طيرانه، وتكتب بدون عنوان ومن صورتين مع حمامتين، وذلك للتلف أو الهلاك. وفي حالة الأخبار السارة تلطخ الرسالة بالعطر وفي العكس أي في حالة الأخبار السيئة يسوّد ريش الطير...

أن الحمام الزاجل قد استعمل بشكل أوسع خلال الطوائف والمرابطين بالأنـدلس. يقـول المقري[1] لما قدِم المرابطون إلى الأندلس طيَّر ابن المعتمد بن عباد الحمام إلى أبيه الـذي أمره بإخلاء مدينة الجزيرة الخضراء. ولما تحقق النصر للمـرابطين والأندلسـيين فـي الزلاقة «تناول المعتمد بن عباد إضبارة كاغد على عرض الأصبع وكتب فيها سـطرين إلى ابنه الرشيد.. وعلق الإضبارة في جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال فقرئت على الناس بمسجد إشبيلية فعم السرور» [2].

3 - لغة التواصل بين الجنـد

إن الحديث عن البريد والاتصال والتنقل وكثرة الحملات العسكرية، وتعدد فئات الجند الأندلسي واختلافاتها يفرض الحديث عن قضايا تهم لغة التواصل بين كل مكونـات ذلـك الجند. تجدر الملاحظة إلى أن الأبحاث المعاصرة وإن حَلَّلَ بعضها القضايا اللغوية التـي لها علاقة بتعدد العناصر العرقية والفئات المكونة للمجتمع الأندلسي، لم تُعر لغة التواصل بين أفراد الجند أي اهتمام، مع العلم أن الجند الأندلسي يتكون بدوره مـن فئـات عرقيـة مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة كما بيَّنّا في الفصول السابقة. فهل كانت لغة التواصـل اليومي بين صفوف الجند في السلم كما في الحرب، هي اللغة العربيـة؟ أم ظلـت اللغـة البربرية تستعمل إلى جانب لغات أخرى؟

دأبت مجموعة من الأبحاث[3] بعد ل. بروفنسال[4] على تأكيد مقولة التّعريب السريع والشامل الذي عم الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها. ولذلك سادت اللغة العربية وانتشـرت بشكل واسع إلى جانب اللغة العجمية المعروفة "بالرومانس" (Romance). وفـي المقابـل تحدث بعض الدارسين ذوي الاتجاه الإثنلوجي أو الأنثربلوجي[5] عـن تشـابك العلاقـات الإثنية والثقافية في الأندلس نتيجة التحولات المختلفة التي أصابت المجتمع منذ الفتح. ولا

---

(1) - المقري: النفح...، ج 4، ص. 246.

(2) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 63.

(3) - ARD (P); Structures sociales «Orientales et "Occidentales" dans l'Espagne musulmane», Paris, La Haye Mouton, 1977, p.250 et sv.

مؤنس: فجر الأندلس،... مرجع سابق، ص. 394، 395، 396.

(4) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., T. 3, p. 169 et sv.

(5) - GLICK THOMAS (F) ; Cristianos y musulmanes..., op. Cit, p. 217, 219.

غرو فالاختلاف الإثني نتج عنه اختلاف لغوي. لكن دون أن يشكل ذلك عائقا أمام التطورات التي مست العديد من الميادين[1].

ومن الدارسين[2] من مال إلى الاعتقاد بأن اللغة العربية إلى جانب لغة "الرومانس" ظلت تستعمل في الأوساط العليا، في حين سادت "الرومانس" في الأوساط الشعبية. لكن دون الحديث عن اللغة البربرية[3]. إذا صعب تكوين تصور واضح عن التطورات اللغوية التي عرفها المجتمع الأندلسي عامة، نظرا لتطوراته المختلفة، فإن فهم لغة التواصل بين أفراد الجند لا يقل صعوبة نظرا لشح المادة المصدرية في هذا الباب. يمكن القول إن العناصر العسكرية البربرية الأولى، أي تلك التي استقرت في الأندلس إلى عصر الامارة ظلت تستعمل اللغة البربرية أثناء الحروب والقتال، كما يشهد على ذلك كلام ابن القوطية[4] الذي أشار إلى أن عبد الرحمن بن معاوية (ت 192 هـ) لما نفر في عسكره في إحدى المناسبات «سمع كلام البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية. فدعا مواليه من البربر... فقال لهم خاطبوا بني عمكم وعِظوهم...». وعلى غرار ابن القوطية أورد ابن الخطيب[5] إشارة تفيد أن اللغة البربرية كانت تستخدم بين البربر إذ قال: «وجعل يُراطن أخاه بالبربرية». يبدو أن عصر الخلافة خاصة عهد الخليفتين عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر، قد طبع بسيادة اللغة العربية في صفوف الجند نظرا لمكانة الأرستقراطية العربية في قيادة الجند، وفي دواليب الإدارة. ومع مجيء المنصور بن أبي عامر واستقدامه للعنصر البربري من شمال إفريقيا بكثافة لاعتماده في الجندية ضدًا على الأرستقراطية العربية والبيروقراطية الصقلبية، أعطيت الأهمية، في اعتقادنا، للغة البربرية في أوساط الجند. وبعد فترة المنصور العامري اشتعلت النزاعات والصراعات العرقية العربية البربرية، الصقلبية، ولاشك أنها انعكست بشكل مباشر على اللغة والتواصل اليومي بين كل مكونات المجتمع الأندلسي. فلا غرابة إذا تَعَصَّبَ كل جنس للغته نظرا لسيادة

---

(1) - نفسه: ص. 218، 219.

(2) - (Gab) ; L'idéologie omeyyade…, op. Cit, p. 45, 46. **MARTINEZG-GROS .**

(3) - انظر التفاصيل عن البربر عموما في:
حقي (محمد): البربر في الأندلس: دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية، 29 هـ/416 هـ (711-1031 م)، رسالة السلك الثالث، الرباط، 1996، (مرقونة).

(4) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 53.

(5) - ابن الخطيب: الإحاطة...، ج 1، ص. 262.

النّعرات العرقية من جديد. فالجند العربي تعصب للعربية، وتمسك البربـــري ببربريتـــه، وعاد الصقلبي لِعُجْمَتِه[1]. ومع ذلك نلاحظ أن عالم الجند يخضع لخصوصيات واستثناءات تفرضها أوضاعه وضوابطه الأمنية. إذ يمكن مثلا في معركة من المعارف اللجوء، إلـــى كل الوسائل بما في ذلك اللغة أو اللغات من أجل البحث عن النصر والغلبـــة أو تســـهيل الاتصال والتواصل.

ج - التعبئة وأساليب القتال خلال المعارك: الكمائن والكر والفر والزحف:

تعتبر التّعبئة خلال المعارك مسألة حاسمة في مصير وحياة الجند المحارب. عليهـــا يتوقف الانتصار أو الاندحار. ولذلك ينتقي من الجند لخوض غمار الحـــرب والمعـــارك "خيارهم وذوي النباهة فيهم "[2]، أو"أهل المسألة والنجدة والجدالة والسُّدة"[3]، علـــى حـــد تعبير ابن هود الأندلسي. يعمل الجند على تطبيق كل الأساليب التّعبوية التي من شأنها أن توفر شروط التّغلب على الأعداء. يجب التذكير أن كتـــب الأخـــلاق الســـلطانية، وكتـــب الفروسية وآداب الحرب، قد فصلت الكلام في مختلف خطط وأساليب التّعبئة التي يمكـــن تطبيقها في المعارك، كالحيل والمكايد[4]، والكمائن والخديعة[5]، وتقنية تنظيم الصفوف[6]، كالملاصقة والمفارقة والمخارجة والمضايقة[7]. والقتال بالكر والفر والزحف بالصفوف[8]، والحصار[9]. وأكثر من ذلك تناولت كيفية قتال العدو في المعركة بحسب أنواع ســـلاحه، والمسافة التي ينبغي اختيارها ليسهل التّغلب عليه[10]، إلى غيـــر ذلـــك مـــن الأســـاليب العسكرية التي طُبّقت في تاريخ الحروب والمعارك منذ الأمم القديمة.

---

(1) - انظر: الصقالبة الخُرس في الفصل الأو من هذا الباب.

(2) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، الأسكوريال، 7 ب.

(3) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 13. تحدث ابن منكلي عن كتاب ابن هود ناقلا منه تفاصيل حول آداب القتال وهو بعنوان: يقظة الناعس وتدريب المجاهد الفارس. لعل العثور على هذا المصدر الهام من شأنه أن يكشف عن جوانب هامة من النظام العسكري الأندلسي خاصة في عصر الطوائف نظراً لأهمية صاحبه في الميدان السياسي والعسكري.

(4) - البطريق: كتاب السياسة...، مخطوط، ص. 225.

(5) - ابن المناصف: كتاب الإنجاد... ميكروفلم، 65 أ، 66 ب.

(6) - نفسه: 30 أ.

(7) - مجهول: كامل الصناعة في الفروسية. مخطوط خ. ع ميكروفلم 666، ص. 51، 53.

(8) - نفسه: ص. 376؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار...، ج 1، ص. 113؛ ابن خلدون: المقدمة، ج 2، ص. 715، 716، 717، 720.

(9) - ابن أبي النور: سياسة الأمراء...، مخطوط، 48 أ.

(10) - مجهول: كاملة الصناعة...، ص. 53، 58.

فصل ابن خلدون[1] في أنواع الحروب وصفاتها وما يطبق فيها من أساليب التعبئة مُبيّناً أن نظام الزحف بالصفوف، وهو الأشدُّ والأقوى، من اختصاص العجم، أما العرب والبربر من أهل المغرب فقد تفنّنوا في القتال بأسلوب الكر والفر. إن الأمم القديمة من الفرس والروم ذات الجيوش الكثيرة الأعداد برأي ابن خلدون كانت تقسم عساكرها إلى مجموعات تسوى فيها الصفوف على شكل نظام خاص. فبين يدي الملك يرتب عسكر يُعرف **بالمقدمة**، وعن يمينه فرق تدعى **الميمنة**، وإلى شماله الميسرة، ووراءه الساقة، وفي وسط هذه المجموعات يقف الملك ليُشكّل ما يسمى ب**القلب**[2]. هل عرفت هذه الأنظمة بأندلس الخلافة والطوائف؟ لاشك أن المسلمين قد تأثروا منذ الفتوحات الأولى بالتقاليد الحربية الفارسية. يشير ابن خلدون[3] إلى أن أول من ألغى نظام الصفوف في الحروب، هو مروان بن الحكم حين كان بصدد قتال الخوارج. ولإلغاء هذا النظام علاقة بمضمون الآية الكريمة{إن الله لا يحب الذين يُقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بُنيان مرصوص}[4]. وقيل كذلك إن خالد بن الوليد كان أول قائد عسكري عربي استخدم نظام الكراديس[5]. يتبين أن الأساليب القتالية السالفة الذكر قد انتقلت إلى الأندلس لتتطور فيها منذ وقت مبكر نظراً لطبيعتها وظروفها. وقد انتقل النظام الخماسي الذي ذكره ابن خلدون آنفاً إلى الأندلس منذ فترة الكور المجندة على حد تعبير البكري[6] الذي أوضح أن لواء جند حمص الذي نزل إشبيلية كان في الميمنة. وتذكر المصادر أن عبد الرحمن الناصر استخدم هذا النظام الخماسي القائم على المقدمة والميمنة والميسرة والساقة والقلب في غزواته ضد الإفرنج. ففي غزوته عام 312 هـ إلى حصن بقيرة «أمر بإتقان التعبئة.. وضبط الأطراف (...) وتظاهر أعداء الله لأهل الساقة» [7]. وحاول المسيحيون من جهتهم عام

---

(1) - ابن خلدون: المقدمة...،ج 2، ص. 715 وما بعدها.
(2) - ابن خلدون: نفسه، ج 2، ص.717. أشار ابن خلدون إلى أن الروم وملوك القوط بالأندلس كانوا يتخذون أسرّة في الحروب، ينصبون للملك سريراً وسط الخدم والحاشية والجنود، نفسه، ص.720.
(3) - نفسه: ص. 720.
(4) - السورة 61، الآية: 4.
(5) - الموسوعة العسكرية...، مرجع سابق، ج 2، ص. 31.
(6) - جغرافية الأندلس وأوربا...، ص. 115.
(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 194.

308 هـ النيل من جيش الناصر "باعتراض المقدمة أو انتهاز فرصة في الساقة"[1]. استعمل المنصور ابن أبي عامر بدوره هذا الأسلوب. فخلال إحدى المعارك «كان في القلب وجعفر بن علي في الميمنة والحسن بن عبد الودود في الميسرة» [2]. وظل الأسلوب نفسه قائماً خلال الطوائف. ففي أخبار منذر بن يحي (ت 430 هـ) أنَّهُ كان يخرج إلى الحروب في «تعبئة محكمة وكراديس منتظمة» [3]. إن أحسن نموذج لما استعمله الأندلسيون من أساليب قتالية هامة تحدث عنها الطرطوشي[4]، مؤكداً أن «أحسن ترتيب رأيناه في بلادنا.. في لقاء عدونا هو أن تقدم الرجالة بالدرق الكاملة والرماح الطوال والمزاريف المسنونة النافذة، فيُصفُّوا صفوفهم، ويركزوا مراكزهم ورماحهم خلف ظهورهم في الأرض، وصدورهم شارعة إلى عدوهم وهم جاثمون في الأرض، وكل رجل منهم قد ألقم الأرض رُكبته اليُسرى وتُرسه قائم بين يديه، وخلفهم الرماة المختارون الذين تمرق سهامهم من الدروع والخيل خلف الرماة. فإذا حملت الروم على المسلمين لم يتزحزح الرجالة من هيآتهم ولا يقوم رجل منهم على قدميه، فإذا قرب العدو رشقهم الرماة بالنشاب، والزجالة بالمزاريف، وصدور الرماح تلقاهم فأخذوا يُمنة ويُسرة، فتخرج خيل المسلمين بين الرماة والرجالة فتنال منهم ما شاء الله ». ونهج المرابطون والأندلسيون في الزلاقة النظام الخماسي السالف الذكر مع اعتماد أهل الأندلس في قلب المعركة مباشرة، واتباع المرابطين أسلوب الكمائن المتفرقة وربما يعود ذلك إلى خبرة الأندلسيين في قتال المسيحيين في الأندلس نفسها، وكون المرابطين حديثي العهد بطبيعة شبه جزيرة الأندلس. يقول صاحب الحلل الموشية[5] بصدد الزلاقة: "كان المعتمد في قلب المقدمة، والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل مشرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس في الساقة، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء". وربما استفاد

---

(1) - ابن عذاري: البيان، ج 2 ، ص. 178.
(2) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 94.
(3) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 1، م 1، ص. 184.
(4) - الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص. 698، 699.
(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 59.

يوسف بن تاشفين من نصائح صاحب كتاب السياسة في تدبير الرئاسة[1] الذي أوصى الأمير قائلا: «اجعل ميمنتك أهل الضرب وميسرتك أهل الطعن، والقلب أهل المزارقة والرمي بالسهام». وقد فصل أحدهم[2] أكثر في القتال الناجح مشيرا إلى أن الأفيد هو الوقوف على بعد مائة وخمسين ذراعا من الخصم والنظر إليه لتمييز جلوسه وركوبه في السّرج حتى يمكن ضربه بصدر الرمح.. وإن كان ماهرا سريعا «اجعل رمحك فوق رمحه اكبسه إلى أسفل واعصف على يمينك ولا تفارقه حتى تطعنه »[3]. تجدر الملاحظة إلى أن المسلمين الذين استفادوا من الأمم القديمة في تطبيق أساليب قتالية متعددة، قد برعوا بدورهم في تلك الأساليب، بل ألفوا مصنفات في آداب الحروب منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، وخلال العصر الوسيط. كما طوّروا الجوانب النظرية والتطبيقية في ذلك حتى أن تآليفهم شكلت قاعدة اعتمد عليها خلال فترات تاريخية لاحقة. للتأكد من ذلك يكفي الإطلاع على بعض المصنفات الحديثة في مجال الحروب خاصة تلك التي ألفت خلال الأزمات الحربية المختلفة. إنها تستنبط خطط وأساليب قتالية وجدت من قبل[4]. فالناصري[5] مثلا تحدث عن حرب الإسبان (الإصبنيول) في المغرب عام 1276 هـ/ 1859/ 1860 م، مُذكّرا اعتمادهم على أسلوب الزحف بالصفوف بينما التجأ المغاربة إلى المطاردة بالكر والفر.

لم يقتصر الأندلسيون على ما وصفناه من الأساليب القتالية بل تعدوا ذلك إلى استخدام أخرى لقتال المسيحيين كالكمائن والحصار للمدن والحصون. لقد برعوا في "كمن الكمائن" خلال الصوائف[6]، وفي اعتماد المفاجآت لحسم القتال. ولتحقيق شروط النجاح في ذلك اتخذوا

---

(1) - **البطريق:** كتاب السياسة...، مخطوط 228.

(2) - **مجهول:** كامل الصناعة...، مخطوط، ص. 53، 58.

(3) - **نفسه:** ص. 58.

(4) - انظر نماذج من ذلك في:

مجهول: الجهاد والسلاح، مخطوط، خ. ع، الرباط، د 1184؛ **الكردودي** (محمد بن عبد القادر): سياسة حربية، مخطوط، خ. ع، مجموع 2071؛ **السملالي** (علي السوسي): غلية الاستعلة بحكم لتوظيف ولمعونة، مخطوط خ. ع، د 480.

(5) - **الناصري** (أبو العباس أحمد بن خالد): الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق الناصري (جعفر)، الناصري (محمد)، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، ج 9، ص. 85، 86. ص. 58.

(6) - **ابن عذاري:** البيان، ج 2، ص. 84.

الكمائن من الجند "أهل جرأة وشجاعة وتيقظ وصرامة، وليس بهم أنين ولا سعال، ولا عطاس، ويختار لهم من الدواب ما لا يصهل ولا ينهق"[1]. كما التجأوا إلى حصار المدن والحصون التي يعتصم بها الأعداء. ومن أمثلة ذلك أن الخليفة الناصر في إحدى غزواته سنة 310هـ ناهض الأعداء«في حصنهم من جميع جهاته...وأمر بالبُنيان عليه والشدّ لمحاصرته... فأقام عليه خمسة وثلاثين يوما، مُحاصِرا مُضيِّقا حتى أباد كثيرا منهم.. فجُهدوا وعيل صبرهم »[2]. طور الأندلسيون كذلك تقنية عالية لحصار الأسوار والحصون كما فعل الحاجب المظفر عام 398هـ لما احتل شنت مرتين «وأرسل البنّائين والنّقابين لحفر السور المحدث وحل حجار... ودأبوا في ذلك حتى أوسعوا الثّلم ثم حشوه حطبا مُضَرَّجا بالقطران وأطلقوا فيه النار »[3]. ولم يتردد المقتدر ابن هود سنة 457 هـ إذا واجه سور مدينة بربشتر "وأمر الرماة أن يتقفوا السّور لِئلاً يمنع الكفرة النقابة من النقب... فنقبوا شقة كبيرة ودعّموا السّور وأطلقوا النار في الدعائم.. وافتتح عليهم المسلمون البلد"[4].

1. الأعداد في المعارك

إن المواجهة في المعارك الحاسمة كالزلاقة مع المسيحيين واستخدام كل أساليب التعبئة الممكنة من أجل النيل من العدو، ومن معنوياته، يؤدي إلى إثارة قضية أساسية مرتبطة بأعداد الجند التي تشارك مباشرة في المعارك وكذا أعداد القتلى بعد المعركة. تجدر الإشارة إلى أن موضوع الأعداد على العموم يطرح قضايا شائكة يصعب الحسم فيها، لأنها لها علاقة مباشرة بمصداقية المصادر وموضوعيتها. لاشك أن المعلومات المتوفرة تعمد التضخيم والمغالاة سواء في إحصاء جند الأعداء أو عدد قتلاه في المعارك. وفي المقابل تقلل من عدد الجند والقتلى في الجانب الآخر. ويصعب التأكد من المعلومات الواردة في هذا الباب نظرا لغياب معطيات عديدة، سبقت الإشارة إليها، تهم أعداد السكان وأعداد الجند نفسه. ولذلك عادة ما يختلط الواقع التاريخي المعيش بالأساطير. ولا غرو

---

(1)- ابن قتيبة: عيون الأخبار...، ج 1، ص. 113.
(2)- ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. ص. 180.
(3)- ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 21.
(4)- نفسه: ص. 227.

فالأمر يصدق في المصادر المسيحية نفسها[1]. ونشير إلى أن بعض الأبحاث المعاصرة[2] تكتفي بإيراد المعلومات المصدرية المرتبطة بأعداد الجند. ومن أمثلة المبالغات الحادة التي تقع فيها المصادر:في عام 240 هـ قاد محمد بن عبد الحمن بن المنذر جنداً في معركة وادي سليط « وقتل فيها من الروم ثلاثون ألفا، وصعد المؤذنون على رؤوسهم فاذنوا»...[3]. وفي سنة 244 هـ غزا الأمير الحكم إلى دار الحرب «وقُتل من المشركين ما لا يُحصى واجتمع من رؤوسهم أكداس كالجبال حتى كان الفارس يقف من ناحية فلا يرى صاحبه من ناحية أخرى..»[4]. أما في الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ/ 1086م فقتل:«نحو ثلاثمائة ألف... قُطع رؤوس النصارى وكدس منها أكداس كالصوامع المنيفة.. عدد الرؤوس أربعة وعشرون ألف رأس »... [5].

خلاصة

تمَّ في هذا الفصل رصد المعلومات المصدرية المختلفة والمرتبطة بخطوط وأساليب القتال لدى الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. والحديث عن أساليب القتال يعني كذلك مناقشة القضايا التي تهم القيادة في صفوف الجند والوسائل الأساسية التي تدخل في إعداده كالدّواب والطرق والمسافات والحملات العسكرية (الصوائف والشواتي)، والجاسوسية والبريد ولغة التواصل أو الاتصال والأعداد التي تشارك في المعارك إلى غير ذلك من القضايا التي لها صلة مباشرة بأساليب قتال الجند الأندلسي.

تبين من خلال الجرد الواسع للمعلومات المصدرية أن الخلفاء أنفسهم في الأندلس كانوا يحرصون على قيادة الحملات العسكرية، ولا يتخلون عن ذلك إلا في ظروف معينة، يتم خلالها تكليف من ينوب عنهم من قواد مشهورين يحظون بثقة كاملة. ويُساعد هؤلاء القواد مجموعة أخرى من مراتب الجند كالعرفاء وغيرهم. إلى جانب ذلك يتم الاعتماد

---

(1) - FLORI (J); «Un problème de méthodologie la valeur des nombres chez les chroniqueurs du Moyen Age », dans : Le Moyen Age, N°, 3, 4, 1993, p.400,422.

(2) – انظر على سبيل المثال الدراسة الجيدة التي أنجزها "Lagardère" حول الزلاقة، إنها من أهم الدراسات السيولوجية للحرب في الغرب الإسلامي، لكنها اكتفت في جانب الأعداد بسرد ما ورد في المصادر. انظر التحليل الذي خصصه محمد بن عبود لدراسة Larardère بعنوان "ملاحظات حول كتاب جمعة الزلاقة". مجلة: البحث العلمي. LAGARDÈRE (V) ; Le vendredi de Zellaqa.., op. Cit, p.30,43.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.148.

(4) - ابن عذاري: البيان، ج 2، ص. 85.

(5) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 62.

على وسائل مادية مختلفة من بينها الدّواب خاصة الخيول والبغال والتي أغفلها البحث المعاصر رغم أنها تشكل، كما بيّنا، نصف المجهود الحربي في الأندلس. إن إحداث "خطة للخيل" من قبل السلطة بقرطبة إضافة إلى تخصيص كتب الحسبة والنوازل والجهاد والفروسية لحيز كبير منها لتحبيس الخيل من أجل القتال عليها في الثغور، لدليل كاف على المجهودات العسكرية التي تساهم بها. وإلى جانب الخيول تحدثت المصادر عن تربية البغال في الأندلس. وتبيّن كذلك أنها لم تستعمل في الأنشطة الاقتصادية والتجارية والركوب فحسب، بل ساهمت بدورها في المجهودات الحربية خاصة في مجال نقل المؤونة والسلاح خلال الحملات العسكرية. وإليها تضاف الجمال التي بيّنا أنها وُجدت بالأندلس منذ بداية عصر الخلافة وليس خلال المرابطين كما ذهبت إلى ذلك بعض المصادر المشرقية. لاحظنا أن وفرة الدّواب واستخدامها بشكل واسع في مجالات متعددة أدى إلى نشاط علم البيطرة الذي برع فيه بعض الأندلسيين أمثال ابن العوام الإشبيلي وغيره. إنه علم لم يقتصر على معرفة شؤون الدّواب وعللها بل يقترح علاجاتها بطرق متعددة خاصة الجراحة. ورغم ازدهار الطب البيطري في الأندلس وأهميته في المجال العسكري لاحظنا أن البحث المعاصر لم يُعره الاهتمام الكافي.

إن الحديث عن الدّواب ونقل مؤونة الجند وسلاحه له ارتباط مباشر بطرق المواصلات وبالمسافات العسكرية بالأندلس. لقد اتضح عكس ما أدعاه البعض – أن الطرق التي استخدمت من قبل الحملات العسكرية وإن كانت أصولها رومانية قوطية، قد اتسعت شبكتها – بل تم تشييد أخرى خلال الخلافة والطوائف أدت إلى سهولة تنقل الحملات العسكرية على شكل الصوائف والشواتي من قرطبة نحو الثغور. وبذكر الصوائف والشواتي والثغور تبين من خلال المعلومات المصدرية أن الحملات قد تطول وتتحول إلى الحملات الربيعية أو الخريفية عكس ما هو معروف. وبشكل موازي للجهاد والحملات العسكرية المتعددة نشطت الجاسوسية والمراقبة ونقل المعلومات المختلفة بالبريد العسكري أو بالحمام الزاجل وهي أمور كشفت المصادر إتقان الأندلسيين لها. كما برعوا في أساليب التعبئة والقتال في المعارك وجربوا الزحف والكر والفر والحصار إلى غير ذلك. اتضح في الأخير أن المعلومات المصدرية على اختلافها وتنوعها تتسم بنوع من

التضخيم والمبالغة بصدد أعداد الجند المشاركة في الحملات والمعارك المشهورة وذلك لأسباب متعددة. ولذلك يجب التنبيه والتحلّي بالحذر الضروري في التعامل مع أرقام المصادر في هذا المجال.

خاتمة

تقودنا التحاليل التي سبقت في الكور المجندة وجند الحضرة، ونظام الثغور وأرزاق الجند إلى إثارة مجموعة من الأسئلة والقضايا التي لها علاقة مباشرة بالأرض والضرائب سواء في الكور المجنّدة أو باقي الأقاليم عبر الأندلس وكذا في الثغور التي كانت تخضع لأنظمة خاصة. وحاولنا في الوقت نفسه تبيان علاقة الجند بكل مكوناته بما سبق دون إغفال طبيعة السلطة السياسية وأدوارها والعلاقات التي نسجتها سواء مع الجند أو في المجالات الأخرى الاقتصادية وغيرها. انطلاقا من ذلك يمكن مناقشة مجموعة من الألفاظ والمصطلحات الواردة في ثنايا الاسطغرافيا المعاصرة والتي تقف عند طبيعة النظام أو الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت في الأندلس خلال الخلافة والطوائف. من تلك المصطلحات نذكر على سبيل المثال "النظام الإقطاعي"، "نظام القنانة"، "النظام القبلي" "النظام البيروقراطي"، "النظام الأرستـقراطي العقاري"، أو "تعايش أنظمة مختلفة". من الباحثين من دافع عن خصوصيات الأندلس ضمن التاريخ الإسلامي عموما، ومنهم من سَجّل إمكانية مقارنة الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية الأندلسية بمثيلاتها في مناطق أخرى كأوربا. تزعم الباحث الإسباني شالميطا[1]منذ أواسط السبعينات الرأي المدافع عن الخصوصية الأندلسية. بعد طرح سؤال أساسي حول إمكانية القول "بفيودالية" إسبانية إسلامية، استعرض مجموعة من المعطيات والمصطلحات المرتبطة بالاقتصاد الأندلسي، مشيراً إلى غلبة الأنشطة الزراعية فيه منذ البداية أي من القرن الثاني الهجري إلى نهاية الإسلام بالأندلس. إن علاقة الدولة بالفلاحين كانت قائمة على مجموعة من الواجبات والرسوم والزكوات والجزية إلخ. والدولة أيضاً كانت حاضرة في مراقبة أغلب الأنشطة السالفة الذكر، كما كانت تراقب الجند الذي يستهلك ثلث المداخيل الضرائبية كما كشفت المصادر عن ذلك بوضوح. إن هذا الجند الأندلسي لا يفكر في نظر شالميطا إلا في جمع الغنائم ويسير وفق أنظمة معقدة ولذلك تُعوزه الدينامية كما هو الحال لدى الفرسان

---

(1) - **CHALMETA** (P); Concesiones territoriales...,op. cit, p.5 et sv.« Al Andalus : Société féodale?» dans : **Etudes d'Ethonographic Historique du Proche-Orient** : Hommage à M. Rodinson, Paris, Maisonneuve -La Rose, 1982, p. 179,190.

في الفيودالية الأوربية. وفي السياق ذاته حاول الباحث V.Lagardère[1] مناقشة طبيعة العلاقة التي كانت تربط السلطة بالسياسة أو الدولة بالأرياف والمدن. وعلى غرار شالميطا لاحظ أن الدولة أو السلطة كانت تتحكم في الأرض والنقد والضرائب الشرعية وغير الشرعية. أي أن العلاقة بين الطرفين كانت مبنية على الضرائب. إن هذا التأويل في نظر Lagardère لا يترك المجال لمناقشة استقلال الأرستقراطية العقارية أو العسكرية على النحو المعروف في "السنيورية" الأوربية. ومن ثمّة يمكن الحديث عن طبيعة "إقطاع الاستغلال" الذي عُرف بالأندلس منذ استقرار الجند الشامي بالكور المجندة.

ولاحظ الباحث بن عبود[2] من جهته بصدد حقبة الطوائف أن المجتمع لم يكن إقطاعيا رغم ما اتسم به من مظاهر توحي بذلك. انطلق دارسون آخرون من مجموعة من المعطيات للقول إن الأنماط الإنتاجية في الأندلس خلال مراحل تاريخية محددة يمكن أن تقدم نوعا من التشابه مع النظام "الإقطاعي" الأوربي في نواحي متعددة. لم يتردد القادري بوتشيش[3] في القول إن المجتمع الأندلسي خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (IXم)، أي عصر الإمارة «شبيه بالإقطاع الأوربي» لأن« طبقة العسكر شأنها شأن طبقة المحاربين أوالفرسان الذين أفرزهم الإقطاع الأوربي»[4]. وحلل أحمد الطاهري[5] من جهته مظاهر المجتمع الأندلسي خلال الخلافة والطوائف مبيّنا أن عصر الخلافة عرف أنماطا إنتاجية متنافرة. فالإقطاع العسكري المزدهر في الثغور تراجع في مناطق وأقاليم أخرى لفائدة «التحول الرأسمالي». وأضاف بالنسبة لحقبة الطوائف(القرن الخامس الهجري) «أننا أمام مجتمع مؤسس على قواعد نظام الفرسان الإقطاعي الذي غدا لمكانته وتألق مظاهره حقيقة مسلمة» [6]، أي أنه « نظام القنانة الإقطاعي في أبرز جلياته» [7].

لاشك أن الباحثين السابقين، اعتمدو معطيات مصدرية متعددة في بناء تصوراتهم حول الأنماط الإنتاجية التي سادت في الأندلس خلال مراحل تاريخية مختلفة. نعم يمكن

---

(1) - LAGARDÈRE (V); Campagnes et paysans d'A-l Andalus..., op. cit, p. 25, 29, 32, 38.« Structures étatiques et communautés réales..., op.cit, p.et sv.

(2) - بن عبود (امحمد)، جوانب من الواقع الأندلسي...، ص.94.

(3) - بوتشيش القادري: أثر الإقطاع...، ص. 92.

(4) - نفسه: ص.170.

(5) - الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، ص.62، 85، 88، 118.

(6) - نفسه: عامة إشبيلية في عهد بني عباد...، ج 1، ص. 136.

(7) - نفسه: ص. 206.

الاتفاق حول الخصائص والمميزات العامة التي طبعت كل فترة من فترات التاريخ الأندلسي، لكن وإن كانت تلك الخصائص أساسية فهي فيما نرى، غير كافية لأن هناك جزئيات ومعطيات كثيرة وأحيانا دقيقة يلزم استحضارها قبل عقد مقارنات أو بناء تصور أو رأي من الآراء. إن القول بالشبه ما بين النظام الإقطاعي الأندلسي ونظيره الأوربي قد يكون صحيحا من حيث المظهر أو الشكل فحسب. والأمر يحتاج في اعتقادنا إلى نوع من التدقيق. من ذلك مثلا، أن الفرسان في الفيودالية الأوربية ليسوا عادة هم الأرستقراطية العقارية الكبرى. إن هذه الأخيرة تسخر أولئك الفرسان، نظرا لاختصاصهم في استعمال السلاح، من أجل ضبط العالم القروي في المجال الأمني والاقتصادي أي الإشراف على الفلاحين كي يؤدوا واجبات مختلفة للأرستقراطيين. والفرسان ليسوا إلا شريحة دنيا من الأرستقراطية، ولا يسمح لهم بالاندماج اجتماعيا واقتصاديا في صفوف الأرستقراطية العليا إلا بعد اجتياز مجموعة من المراحل واكتساب خبرات متعددة[1]. إن ما يؤديه الفلاح الأوربي للأرستقراطي من واجبات مختلفة وضرائب عبر ما يُعرف بحقوق "الإلزام"[2] كان على العموم محددا ومعروفا حسب الوثائق والنصوص المخصصة لذلك. وقد يؤدي جزءا من الضرائب نقدا أو عينا أو يشتغل على شكل سخرة في الأرض الأرستقراطية يوما أو يومين في الأسبوع أو في مناسبات سنوية معروفة كالحصاد والأعمال الغابوية الخ. وفي المقابل يحظى الفلاح بنوع من الحماية من قبل الأرستقراطية. إلى جانب ذلك اتسمت الأرستقراطية العسكرية في الفيودالية الأوربية بنوع من الحركة والحيوية والدينامية كما عبر شالميطا عن ذلك، لأنها تشارك في تطوير وتنظيم الاقتصاد على المستوى المحلي، وذلك في غياب السلطة السياسية المركزية القادرة على ذلك. إن هذه السلطة وإن كانت ضعيفة في أندلس الإمارة والطوائف لم تكن غائبة تماما، بل كانت حاضرة بشكل من الأشكال. في حين كانت قوية ونافذة إلى حدود الإشراف على كل شيء

---

(1) - انظر ذلك بتفصيل في:

BLOCH (M); La Société féodale..., op. cit, p.183 et sv.
BOUTRUCHE (R); Seigneurie et féodalité, Paris, Aubier, 1970, T.2, p.158 et sv.
DUBY (G); La Société chevaleresque..., op. cit, p.9 et sv.
FOSSIER (R); Enfance de l'Europe: Aspects économiques et sociaux, Paris, P.U.F, 1982,T. 2, p. 951 et sv.
POLY (J.P); **BOURNAZEL** (E); La Mutation féodale..., op. cit, p. 155 et sv.

(2) - **حناوي** (محمد): «الأرستقراطية والفلاحون في الفيودالية الأوربية »، في: **جوانب من التاريخ الإجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط**، سلسلة ندوات2، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، 1991، ص.84، 96.

خلال الخلافة أي طيلة القرن الرابع (Xم) تقريبا. ومن هنا لا نتفق مع شالميطا أو لاكاردير(Lagardère) حين ركز على ثنائية الدولة والعالم القروي، أوالقول بسيادة الأنشطة الزراعية في الأندلس من الفتوحات إلى آخر الدولة النصرية، بحيث يمكن التمييز في الفترات التاريخية وطبيعتها كالقول مثلا إن عصر الخلافة تميز بقوة الدولة وسيطرتها في أغلب المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والإدارية وغيرها إلى جانب تطور أنشطة أخرى غير الزراعية في ظل الخلافة خاصة في المجال الاقتصادي والتجاري. أكثر من ذلك إذا أشرنا إلى أن الأرستقراطية العسكرية والعقارية في أوربا الفيودالية كانت نشطة لأنها تشارك في تنظيم الاقتصاد وتطويره، فقد حدث العكس بالنسبة للأندلس لأن الدولة هي التي تصرف ثلث المداخيل الضرائبية على شكل رواتب الجند المسجل في الديوان حسب المصادر. إنه يستهلك ثلث الضرائب دون أن نعرف بدقة كيف تصرف له. فحتى بالنسبة لعصر المنصور بن أبي عامر الذي تميز بالإصلاح العسكري لا تكشف المصادر عن حجم الضرائب التي تؤدي سنويا ومقادير رواتب الجند منها مشاهرة. وهو ما عبرعنه Barceló[1] بالقول إن الغائب في النظام الاقتصادي الأندلسي هو طبيعة العلاقات التي كانت تربط القرويين بالأرستقراطية العسكرية والإدارية. انطلاقا من هذه الملاحظات نعتقد أن التاريخ الأندلسي لا يزال في حاجة إلى دراسات جزئية تهم ميادين أو مجالات مختلفة، اقتصادية وبشرية وعمرانية وغيرها. إن من شأن تراكم تلك الدراسات الجزئية أن يقدم أرضية خصبة تسهل نتائجها القيام بمقارنات متعددة الجوانب.

---

(1)- BARCELÓ (C): «Toponymie tribale ou familiale et organisation de l'espace dans l'aire valencienne à l'époque musulmane», dans: **Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée**. (R.O.M.M) N°40, 1986, p.29, 38.

الـبـاب الـثـانــي

الحصون والقصبات والأسوار والأسلحة

الفصـل الأول : الحصون في الأرياف:

العمران والوظائف.

الفصل الثاني : القصبات والأسوار في المدن.

الفصل الثالث : الأسلحة والألبسة الحربية:

الأنواع والوظائف.

تقديـــــم

إن دراسة النظام العسكري في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، يقتضـــي الاهتمـــام أيضا بالوسائل المادية، أي بالبنيات والأدوات المختلفة التي اعتمدها الجند الأندلسي أثنـــاء تحركاته. فإذا كانت الأسلحة القتالية على تنوعها تحتل حيزا هاما في حياة الجنـــد، وقـــد كانت محط اهتمام واضح من لدن البحث المعاصر، فإن الحصون والقـــلاع والقصـــبات والأسوار وما إلى ذلك أنظمة مادية وأدوات دفاعية لا تقل أهمية عن السلاح نفســـه. لـــم تحظ التحصينات أو ظاهرة العمران العسكري في تاريخ الإسلام عمومـــا، وفـــي تـــاريخ الغرب الإسلامي بالخصوص ـــ بعناية واهتمام الدارسين إلا في السنوات الأخيـــرة. وقـــد عبّر L. Torres Balbas [1] رائد البحث في المجال المعماري عن ذلك حين أشار إلـــى أن البحث التاريخي المعاصر لم يهتم بالعمران العسكري. وقال مورينو جوميث مانويل[2] بأن الحصون من الموضوعات التي لم يُستوف بحثها خاصة في مجال العمارة الحربية. وقـــد اتضح هذا النقص خاصة في البحث العربي المعاصر الذي اعتمد بالدرجة الأولـــى علـــى وصف مواقع بعض الحصون والقصبات والأسوار المشهورة تبعا لما ورد في المصـــادر. إنها أوصاف لا تتعدى في الغالب الأعم، الجوانب المعمارية والهندسية أو ذكر الحصـــون والقصبات والأسوار في علاقتها بالسلطة الإقليمية أو المركزية وأدوارها في الثـــورات أو الحملات العسكرية.

لقد سادت هذه النّظرة، إن لم نقل البعد السياسي في النظريـــة المعماريـــة المتعلقـــة بالتحصين في الأبحاث الأجنبية ذاتها إلى أواسط السبعينات. وعبر الباحـــث Jean Gautier-Dalché[3] عن هذه النظرية بامتياز حين قال: « إن الحصون والقصور الأندلسية لا تعدو أن تكـــون مجرد بنايات أو مؤسسات تُقدّم للباحث وللسائح أيضا نماذج عسكرية ومعمارية، تعكـــس

---

(1) - TORRES-BALBAS (L) ; Ciudades Hispano musulmanas..., op. cit, p. 437.

(2)ـ مورينو جوميث (مانويل)، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي حتى نهاية المرابطين، ترجمة: لطفي (عبد البديع) سالم (عبد العزيز)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1995، ص. 205.

(3) GAUTIER-DALCHE (J); « Châteaux et peuplements dans la péninsule ibérique (X-XIIIè siècles): **Flaran 1 Châteaux et peuplements en Europe occidentale du Xè au XVIIè siècle, Premières journées internationales du centre culturel de l'abbaye de Flaran** (Gers), Auch, 1979, p.93, 107.

بشكل من الأشكال حضارة بانيها». وأردف قائلا: «إن الأمراء والحكام يختبئون في حصونهم وقصورهم خوفا من الثورات الداخلية... وخلقوا أنظمة دفاعية في المدن والأرياف، وتحصّنوا وانعزلوا فيها..» [1]. قدّم L. Torres Balbás، بأبحاثه المتعددة، أرضية خصبة في مجال توطين الحصون والقصبات ووصفها الهندسي والمعماري ومواد بنائها إلخ، كان ذلك بداية لتطوير البحث في التّحصين الأندلسي وتجاوز النّظرة السياسية الكلاسيكية التي تقدم الحصون والقصبات والأسوار باعتبارها مؤسسات منعزلة عما يجري في المجال من تطورات اقتصادية وبشرية. ولاشك أن الالتفات إلى دراسة التحصين في الأندلس من زوايا متعددة يعود إلى أسباب منها التأثير المنهجي الذي مارسه البحث في التاريخ الفيودالي الأوربي والذي يعتبر الحصن والحياة حوله إحدى القواعد الأساسية التي قامت عليها الفيودالية في أوربا. إنه النواة التي وجّهت الحياة العسكرية والاقتصادية والسياسية برمّتها. لم يكن الحصن الفيودالي وما ارتبط به من ألفاظ تدل على التحصين في مواقع محددة[2] وسيلة عسكرية محضة، بل أداة هامة ساهمت إلى حد كبير في تأطير المجال الجغرافي والاقتصادي والبشري، إلى جانب كونه مقرا للسلطة الفيودالية على المستوى الإقليمي[3].

إن موقع الأندلس المجاور لما كان يُعرف "بدار الحرب" ساهم في انتشار ظاهرة التحصين التي خضعت لتطورات مختلفة منذ عصر الإمارة إلى حدود العصر الموحدي على الأقل – كما تشهد بذلك المصادر. وتعدد الحصون والأسوار والقصبات يدفع إلى تساؤلات حول أهميتها وأدوارها ووظائفها خاصة خلال الخلافة والطوائف. إن من

---

(1) - نفسه، ص. 95.

(2) - من المصطلحات والألفاظ المرتبطة بالتحصين والعمران العسكري في أوربا المتوسطية نذكر (Incastellamento - Castri - Castrum)، ومن الباحثين الأوائل الذين درسوا الدّلالات المتعددة لتلك الألفاظ:

TOUBERT (P) ; Les Structures du Latium médiéval, Ecole-fr. de Rome, Rome, 1973.

نشير إلى أن دراسة الحصون الفيودالية في جانبها الميداني أي الأركيولوجي والطبونيمي قد تطور بشكل كبير ولافت حتى أمكن الحديث عن علم مستقل بذاته في مجال التحصينات يعرف ب "الكستلوجيا" (Castellologie)، وأول الأبحاث في هذا الباب ظهر بجامعة CAEN، 1983 تحت عنوان:

Château Gaillard: Etude de Castellologie médiévale, XI. Actes du Colloque international tenu au DANEMARK du 30 Août au 4 Sep,1982, Publ. Centre de Recherches archéologiques médiévales, Université de CAEN, 1983.

(3) - انظر مثلا:

FOURNIER (G), Le Château dans la France médievale, essai de sociologie monumentale, Paris, Aubier, 1978.
BONNASSIE (P); La Catalogne..., op. cit, T. 2, p. 575 et sv.

المنصف القول إن ثلة من الباحثين الفرنسيين[1] والإسبان[2]، انكبت منذ عدة سنوات على تنشيط البحث الأثري والطبونيمي المرتبط بالتحصينات في الأندلس معتمدين على بعض المصادر العربية المترجمة وكذا المصادر المسيحية. ولاشك أن لهذه العملية فوائد عملية وعلمية مؤكدة، لعل أهمها تحقيق وتوطين العديد من المواقع الإسلامية في جزيرة الأندلس والتي ذكرت في مصادر مختلفة لكنها طمست بفعل عوامل متعددة[3].

إذا كانت "النظرية" السياسية والمعمارية في التحصين الأندلسي، والتي سادت إلى وقت قريب، تقتصر على تقديم مجموعة من الأشكال الهندسية التي تغيب فيها الحياة الاجتماعية أي الحركة والتطور[4]، فمن المفيد الاهتمام بدراسة تاريخ وجغرافية وأركيولوجية التحصين عبر الأندلس. ونعني بذلك دراسة التحصين والعمران العسكري من خلال زوايا متعددة، وذلك في إطار ربط الحصون والقصبات والأبراج والأسوار وغيرها بمحيطها الريفي والحضري أي بالمجال، دون إغفال دور السكن والسكان

---

(1) - نقصد الباحثين الذين اهتموا بالتاريخ الأندلسي واشتغلوا في إطار معهد "velazquez Casa de" منذ بداية الثمانينات على الأقل من هؤلاء نذكر: BAZZANA (A); GUICHARD (P) ; CRESSIER (P) ; PH. SÉNAC.

من آخر أعمال هؤلاء: Le Châteaux ruraux d'Al-Andalus Histoire et archéologie des Husun du Sud-Est de l'Espagne, Madrid, CASA de Velazquez, 1988.

(2) - ومن الباحثين الإسبان نذكر على سبيل المثال لا الحصر:
AZUAR RUIZ, ACIÉN ALMANSA, CARLOS ESCO, JUAN A. SOUTO, MIKEL DE EPALZA, M. J. VIGUERA, P. MAGDALENA VALOR, ANTONIO MALPICA CUELLO.

(3) - إلى جانب الطمس والتغييرات التي طرأت على المواقع الإسلامية بفعل تقلبات الزمن وهي طبيعية نلاحظ طمسا من نوع آخر، عادة ما يكون مقصوداً ونعني به أن عملية الاسترداد أو إعادة التعمير المسيحي (repoblacion) التي بوشرت من الشمال منذ وقت مبكر نتج عنها إتلاف أو على الأقل تغيير معالم الكثير من المآثر التاريخية المادية والمنشآت الإسلامية التي أقيمت على امتداد شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتح الإسلامي. ناهيك أن هذا الطمس زكته المدرسة التاريخية الإسبانية التقليدية بزعامة المؤرخ Claudio SANCHEZ ALBORNOZ والتي اعتقدت أن الحضارة الإسلامية في شبه جزيرة الأندلس كانت عابرة لم تترك بصماتها في المنطقة. ولذلك أمكن الحديث في نظر المتعصبين منها عن حضارة إغريقية رومانية قوطية ثم مسيحية دون ذكر الحضارة الإسلامية. وحتى بعض المعاجم المعاصرة التي تدعي العلمية في سردها لتاريخ الأندلس لا تذكر ولا إشارات عن الماضي الإسلامي انظر مثلا:
BURGUIERE (A) ; Dictionnaire des sciences Historiques, Paris, P. U. F, 1986, Espagne, p. 259 et sv.
للمزيد من التفاصيل عن التصورات المختلفة للتاريخ الإسباني والماضي الأندلسي انظر مثلا:
GUICHARD(P);Les Musulmans de Valence et la Reconquête, XI-XIIIè siècles, Damas,1990, T.1, p.75 et sv.
بن عبود (امحمد): "التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا"، مجلة دعوة الحق، عدد 34، الرباط 1984، ص.33،58.
لعل فائدة البحث الأركيولوجي الجاري في إسبانيا سواء في بعض أريافها أو مدنها، بفضل الباحثين المشار إليهم أعلاه أو بمبادرة من بعض البلديات نفسها، أن يكشف عن بعض خصائص المؤسسات أو المواقع الإسلامية التي ما تزال قائمة إلى الآن.

(4) - انظر الملاحظات الواردة في:
MAZZOLI-GUINTARD (Ch) ; Villes d'al-Andalus, l'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane, VII-XVè siècles, Paris, P.U.R, 1996, p. 13.

والسلطة السياسية فيها. ناهيك عن أشكال البناء ومواده إلى غير ذلك مما يساعد على التدقيق في بعض جوانب التحصين التي ما يزال يشوبها الغموض. لكن لن يأتي ذلك إلا بالانطلاق أوّلا من الأساس، أي من العملية التاريخية نفسها، والقائمة على جمع ورصد ما أمكن من المادة المصدرية المتنوعة الواردة في التحصين ومحاولة تصنيفها بشكل يخدم القضايا المشار إليها.

نبادر إلى القول بأن المصادر العربية بكل أصنافها تزخر بألفاظ ومصطلحات كثيرة مرتبطة بالتحصين في الأندلس. ورغم صعوبة تتبع كل تلك الألفاظ والمصطلحات، فإن العديد منها كالحصن والقلعة والصخرة والمعقل والقصبة. إلخ...، وإن اختلف في الحقل الدلالي واللغوي، فإنه ينطبق أحيانا كثيرة على مُسَمَّى واحد يتميز بخصائص محددة. لكن في الوقت نفسه تذكر المصادر مصطلحات أخرى تتسم بالعمومية، إن لم نقل بنوع من الغموض كإطلاق لفظ الحصن على قرية أو مدينة أو ما شابه ذلك مما يصعب معه ضبط مضمون المصطلح نفسه. ونشير في هذا الصدد إلى أنه رغم التغييرات المختلفة التي تعرض لها العديد من المواقع الإسلامية في شبه جزيرة إيبريا إبان نشاط حركة الاسترداد، فإن اللغة القشتالية نفسها احتفظت بألفاظ كثيرة ودالّة ذات الأصل العربي مثل القصبة (Alcazaba)، والسور (Azore) والبرانية (Albarrana) [1]، إلخ.

وانطلاقا مما سبق يمكن استغلال المادة المصدرية المتنوعة لمحاولة رصد لائحة بأسماء الحصون والقصبات والأسوار وغيرها مع تبيان وظائفها وأدوارها في الريف والحواضر الأندلسية خلال عصري الخلافة والطوائف.

وحتى تكتمل الصورة عن الوسائل والأنظمة الدفاعية في الأندلس لابد من تحليل وظائف الأسلحة القتالية وطرق استعمالها من قبل الجند الأندلسي في حصار الحصون والقصبات والمدن، أو في المواجهات المباشرة مع الأعداء. إن الأسلحة، كالحصون والأسوار والقصبات، وسائل مادية لعبت أدوارا هامة في تاريخ الجند الأندلسي.

وبناء على ما سبق يمكن النظر إلى موضوع العمران العسكري في الأندلس من الجوانب الآتية.

---

(2) -**LÉVI-PROVENÇAL** (E); L'Espagne musulmane au Xè siècle..., op. cit, p. 150.

1 ـ الحصون في الأرياف: العمران والوظائف.

2 ـ القصبات والأبراج والأسوار في المدن.

3 ـ الأسلحة والألبسة الحربية: الأنواع والوظائف.

الفصل الأول

الحصون في الأرياف، العمران والوظائف

كيف انتشرت الحصون في الأرياف الأندلسية وما هي طبيعتها ووظائفها؟

إذا كان الغموض ولا يزال يكتنف أصول الحصون الإسلامية وتاريخ انتشارها في شبه جزيرة إيبيريا لأسباب متعددة منها الخلط القائم أحيانا في الكثير من المواقع ما بين الأصل الروماني والقوطي والأصل الإسلامي فلاشك أن المسلمين أعادوا استغلال واستعمال مختلف المواقع القديمة التي وجدوها في البلاد[1]. وأكثر من ذلك وسعوا نطاق البناء والتحصين ليشمل أقاليم واسعة، وبذلك أضافوا وأسسوا حتى أمكن الحديث عن حصون وقصبات وأسوار إسلامية محضة. ويعتقد أحد الدارسين[2] في تتبع ظاهرة التحصين في شبه جزيرة إيبيريا منذ الفتوحات الإسلامية اعتمادا على فرضية تقول، إن الكثير من السكان المحليين (الأهالي) استغلوا مجيء المسلمين في إطار الفتوحات، وهربوا من السيطرة القوطية إلى الجبال والمناطق الوعرة. وقال آخرون[3] بانتشار التحصين عبر الأندلس منذ مطلع القرن الثالث الهجري (IX م)، وتطوّر خلال المراحل اللاحقة. ودون الخوض في تفاصيل الأصول يمكن القول إن المصادر على تنوعها وخاصة تلك المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف تتفق على أن التحصين عمّ الأندلس خلال عهد الإمارة ـ أي منذ ما قبل إعلان الخلافة بوقت طويل، بدليل واضح يتجلى في كون السلطة الأموية بقرطبة انشغلت في البداية بإخضاع كل الثائرين المحتمين أو المنتزين في حصون متعددة عبر شبه جزيرة إيبيريا. وقد استغرقت تلك العملية من الخليفة عبد الرحمن الناصر، وقتا طويلا تمكّن خلاله من تغيير بنيات جل الحصون القائمة، وذلك بهدمها بعد حصار العديد منها. لقد كانت الحصون تشكل، بالفعل، أداة فعالة في يد المنتزين الذين يستولون عليها لأنها توفر الحماية والأمن والقوة كما يتبيّن من أحد الأمثال الشعبية الذي يقول: «حِصنِي ولا من يقِسنِي»[4]. وبإمكان المحتمين بالحصون أن يشكلوا معارضة قوية

---

(1) - اوضح الرازي الجغرافي الأندلسي المشهور (ت 955 م)، وهو من الأوائل الذين كتبوا عن الحصون أن المسلمين لما أتوا إلى شبه جزيرة الأندلس اقتسموا العديد من حصونها مع أهلها.
وصف الأندلس...، مصدر سابق، ص. 51، 108.

(2)- ACIÉN ALMANSA (M); La fortificación en Al-Andalus Arqueológia medievale, XXII, 1985, pp. 7, 36.

(3)- BAZZANA (A); CRESSIER (P); GUICHARD (P); Les châteaux ruraux..., op. cit..., p. 20 et sv.
ESCO (Carlos), GIRALT (J), SÉNAC (Ph); Arqueológia Islámica en la Marca Superior de Al-Andalus, Madrid, 1987, pp. 7, 38.

(4) - الزجالي: أمثال العوام في الأندلس...، مصدر سابق، ج 1، رقم 841، ص. 211.

تُخيف السلطة المركزية وتهددها. ونموذج حصن بُبَشتر[1] الذي تمسك به عمر بن حفصون واحتمى به لمدة طويلة غني عن البيان. ولم تغب أهمية الحصون عن ذهن عبد الرحمن الناصر الذي كان يشرف بنفسه على الحملات العسكرية ضد المحتمين بها، لأنه يشترط عليهم في الكثير من الحالات التنازل عن الحصن أو الحصون مقابل التفاوض معهم أو منحهم الأمن والأمان. يشير ابن حيان[2] بصدد حصن إشتيبن من عمل إلبيرة أن أهله كانوا على مكايدة باطنة «فعرض عليهم (الناصر) النزول عن حصنهم إلى البسائط حوله أسوة بالجماعة ». وفي حالة المواجهة العسكرية مع الرافضين يعمد الناصر وجيشه إلى هدم حصونهم وإتلافها، أي تغيير البنية المادية التي يتقوى بها أولئك المعارضون. ويُفهم ذلك بوضوح من خلال إشارات متعددة واردة في ثنايا المصادر: « وهدّم الحصن (سكتان) فألحق أعلاه بأسفله »[3].« (...) وهُدّمت حصون الكفرة... فلم يبق فيها صخرة قائمة »[4]. و «أهبطهم من أجبلهم فتفرقوا في بسائطهم واستقصى الحصون خراباً ونسفا »[5].

تجدر الإشارة إلى أن عملية الهدم التي طالت العديد من الحصون، وإن كان الهدف منها تغيير البنيات السائدة في المجالين العسكري والبشري، فإن الخليفة عبد الرحمن الناصر كثيراً ما أمر أيضاً ببناء حصون وقصبات جديدة، كانت أساسية في العمليات العسكرية نفسها كالحصار مثلاً. وقد اعتبرت تلك الحصون والقصبات محطات أو مراكز ضرورية لمختلف الحملات كالصوائف والشواتي التي نُظّمت ضد المسيحيين، أو وُظّفت لاستنزاف وإخضاع المعارضين لسياسة قرطبة.

«وفيها (308 هـ) افتتحت الميدات بحوز قرطبة من كورة ريه، وبنى السلطان هناك حصن قشتره دكوان وأدخل فيها يحيى بن زكريا بن أنتله بالحشم والعدة» [6].

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 138، 151، 153، 210.
ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 181، 183.
(2) - ابن حيان: نفسه، ص. 200.
(3) - نفسه: ص. 122.
(4) - نفسه: ص. 191.
(5) - نفسه: ص. 218.
(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 169.

و«(...)حصن مربيط (جهة سرقسطة) المبتنى هنالك لمحاصرة أهلها»[1]. وأمر الخليفة الناصر «ببنيان صخرة عودان المشرفة على بسيط بلدة» [2]. كما بنى حصن أشبره على حصن لقوط وأدخل فيه جميل بن عقبة البلوي عاملا وصيَّرَ معه فيه عدة كثيفة من الفرسان» [3].

يجب التذكير أيضا أن الخلافة، التي عمدت إلى هدم حصون وبناء أخرى لأسباب محددة قد تركت بعضها، كما كانت على عهد الإمارة بيد أصحابها بشروط محددة كذلك كالتزام الطاعة لقرطبة أو الخدمة في جند الحضرة حين تدعو الضرورة ذلك: فهؤلاء أهل جند دمشق الذين كانوا يستغلون كورة إلبيرة لما تخلوا عن حصونهم ومعاقلهم وتوجهوا إلى قرطبة، ولأهم النّاصر «ما كان بأيديهم من حصونهم بعد أن توثّق منهم على التزام الطاعة... » [4]. وهذا أبو كرامة هابل بن حريز قد أظهر التمسك بالطاعة «وتمّ إقراره بحصنه على أن يُقيم الخدمة ويغزو في الجيش متى استنهض إلى جهة »...[5].

يتضح مما سبق أن عملية هدم الحصون لم تكن "شمولية"[6] في مختلف مناطق الأندلس، بل كانت الخلافة تراعي مصالح محددة في الهدم أو البناء أو الإبقاء على بعضها كما كانت سلفاً.

ويمكن رصد لائحة بأسماء الحصون والمواقع الدفاعية الأساسية عبر الريف الأندلسي وتبيان أهميتها ووظائفها على امتداد القرنين الرابع والخامس للهجرة. تقدّم المصادر، وخاصة المصنفات التاريخية[7]، وكتب التراجم والطبقات[8] والمعاجم الجغرافية[9]، وكذا كتب المسالك والممالك[10]، معلومات هامة حول تلك الحصون والمواقع الدفاعية الكثيرة

---

(1) - نفسه: ص. 361.
(2) - نفسه: ص. 148.
(3) - نفسه: ص. 88.
(4) - نفسه: ص. 58.
(5) - نفسه: أنطونية، ص. 28.
(6) - الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، ص. 59.
(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 60، 61، 64، 177، 284...
ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 170، 177، 179، 264...
(8) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 2، ص. 204، 206، 207، 214...
(9) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 74، 75، 76...
ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 2، ص. 80، 81.
الحموي (ياقوت): معجم البلدان...، ج 1، ص. 334، 338. ج 2، ص. 73، 265.
(10) - ابن خردانبة: المسالك والممالك...، ص. 110، 112...
الإصطخري: المسالك والممالك...، ص. 38.

والمنتشرة عبر بلاد الأندلس. إن اختيار نماذج منها ومحاولة توطينها حسب المعلومات المصدرية المتوفرة من شأنه أن يساهم في فهم مختلف التحولات التي عرفتها البنيات الدفاعية الأندلسية في مجالات متعددة.

I ـ التوزيع الجغرافي للحصون

1 ـ حصون الثغور

من المواقع الهامة التي تحتاج إلى الاهتمام والدراسة، الحصون المواجهة للعالم المسيحي، أي حصون الثغور التي احتفظت بأنظمة عسكرية وبشرية خاصة تميزت بها عن باقي الحصون الواقعة إلى الجنوب، نظراً لسياسة قرطبة نحوها من جهة، ونظراً لكونها تراقب باستمرار عدواً مجاوراً ما فتئ يتحيّن الفرص لإخضاعها والتوغل في عمق الأندلس.

من المواقع المحصنة في نواحي لاردة ووشقة تذكر المصادر حصوناً عديدة مثل بلكانة[1]، ولرباس[2]، وأيراش[3]، وزناتة[4]، ورباس[5]، وطولية[6] وغيرها من التحصينات التي يصعب توطينها نظراً لانفراد الرازي بذكرها ولم ترد في المصادر اللاحقة له. ومن الحصون أيضاً نشير إلى القليعة[7] الذي وصف محيطه أو المجال القريب منه بالخصُوبة. وحصن منزون[8] القوي الذي يشرف على نهر الزيتون[9]. وحصن مكناسة[10].

---

(1) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 74. حصن بلكانة (Belicana) في النص الأصلي أو (Bellcaire) حسب ل. بروفنسال محقق الرازي.

(2) - الرازي: ص. 74. لرباسْ (Loribas ?) أو Sorribas حسب SÉNAC وهو موقع (SAN Llorenç de Mongay) حيث الآثار الإسلامية ما تزال قائمة إلى الآن، انظر:
SÉNAC (Ph) ; Note sur les Husn de Lérida. **Mélanges de la CASA de Velazquez**, T. XXIV, Madrid, 1988, pp. 53, 69.

(3) - الرازي: نفسه، ص. 76. أيراش (Ayrás) أو (Ilche).

(4) - نفسه: ص. 76. (ZNATA) للحصن، ربما، علاقة بقبيلة زناتة البربرية.

(5) - نفسه: ص. 76 (Ribas ?).

(6) - نفسه: ص. 76. (Tolia).

(7) - نفسه: ص. 74؛ ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 161؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 176.

(8) - الرازي: ص. 74. (Monzón).

(9) - وادي الزيتون في الرازي يقابل (Cuenca)، ص. 74. وأكد ذلك ل. بروفنسال نفسه و SÉNAC في المرجع السابق، ص. 60، وفي نصوص أخرى يطلق على وادي شيقر (Segre) انظر مثلاً :
الفاسي (محمد) : "الأعلام الجغرافية الأندلسية"، وحي البيّنة، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1970، ص. 121.

(10) - الرازي: نفسه، ص. 74.

وحصن فراغة[1] على نهر الزيتون السالف الذكر، وحصن بلجي[2] على نهر شيقر. وذكر ابن حيان من جهته حصناً باسم بلقي[3] ويقع في إقليم لاردة. كما ذكر حصونا أخرى في الثغر الأعلى منها حصن بلغر[4] أو بلغي[5] حسب العذري، وهو من ذوات سرقسطة.وبمحاذاة جبال أركون ذات الطابع الستراتيجي، نجد حصني أو صخرتي سان ومان[6] حسب الرازي، وفان ومان[7] براي ابن حيان أو التان ومان[8] وبان ومان[9] حسب العذري. إنهما حصنان مشهوران يقعان في أعلى منحدر يسيطر على سلسلة جبال أركون، ويجري بينهما نهر فلومين[10]. وتجدر الملاحظة أن الحصنين ذكرا بكثرة في المصادر التي اهتمت بأحداث قيام الخلافة بقرطبة واهتمامها الكبير بإعادة ترتيب الأوضاع في المناطق الثغرية المواجهة للمسيحيين[11]. إن الاختلافات الواردة في الحصنين السابقين ونطقهما يدفع إلى تساؤلات حول أصولهما أو تاريخ بنائهما في أقصى التخوم (جبال أركون)، واهتمام الخلافة بهما.

ليس هناك من الأدلة، إلى حد الآن، ما يكفي للحسم في ذلك، رغم أن أحد الدارسين[12] مال إلى تأويل ينطلق من الاختلافات في كتابة أسماء الموقعين في النصوص العربية، وعدم ذكرهما إلا نادراً في النصوص والوثائق المسيحية المصاحبة لحركة الاسترداد أو الموضوعة بعدها، (آخر إشارة إليهما واردة في هبات عقارية ترجع إلى سنة 1188م)، للقول بأن الأمر لا يعدو أن يكون تضخيم لفظي سان ومان

---

(1) - الرازي: ص.74.(Fraga). ذكر الحميري حصن إفراغة إلى الغرب من مدينة لاردة.الروض المعطار، مصدر سابق، ص. 50.

(2) - الرازي: ص. 74، يقابله موقع (Bolcarc) الحالي حسب تنقيبات الباحث SÉNAC : انظر : Note sur les Husun. مرجع سابق، ص. 61.

(3) - ابن حيان: المقتبس... انطونية، ص. 126. هل يمكن ربط بلجي وبلقي؟

(4) - نفسه: ج 5، ص. 378. ذكر محققو ابن حيان أن الصحيح هو بلغي وليس بلغر، الهامش 12، ص. 378.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 39.

(6) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 76.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 469، 480.

(8) - العذري: نفسه، ص. 56.

(9) - نفسه: ص. 69.

(10) - نهر فلومين هو المعروف حاليا باسم Solto de Roldán ويقع 15 كلم إلى شمال وشقة.

(11) - انظر تفاصيل بعض الصراعات الحادة بين عامل مدينة وشقة الذي لجأ إلى صخرتي فان ومان، وسكان المدينة في: العذري: نفسه، ص. 68، 69.

(12)- SÉNAC (P); ESCO (C); «Une forteresse de la marche supérieure d'al- Andalus. Le Hisn de SEN et MEN», Province de Huesca. Annales de Midi, T. 100, N° 181, Janv-Mars 1988, Toulouse Privat, 1988, p.17. 33.

على المستوى الطُبُونيمي لحقبة ما قبل الإسلام. وهكذا تكون كلمة سان هي(Peña de SAN Miguel)، وكلمة مان هي(Peña de Aman). لكن لماذا لا نعكس الأمر لنقول إن المسيحيين احتفظوا بما وجدوه من إرث تاريخي في تلك المناطق سواء أكان رومانيا أم قوطيا أم إسلاميا. وإذا تركنا جانبًا الخوض في فرضيات تهم أصول الأسماء[1]، نقول إن بعض المواقع الجغرافية خاصة في أقاليم الثغور تحدد إلى حد كبير خصائص ووظائف الحصون كما هو الحال في موقعي سان ومان.

إن الوظيفة العسكرية والدفاعية تحتل المرتبة الأولى في هذا النموذج من الحصون. ولذلك نفهم انشغالات الخلافة الأموية في قرطبة بتحصين الموقعين الستراتيجيين السابقين قصد حماية إقليم وشقة الغني اقتصاديا، من الهجمات المسيحية المحتملة من جهة بنبلونة. يتعلق الأمر إذن بحراسة الحدود عبر الحصون الثغرية. ولفظ الصّخرة الذي أطلق على سان ومان له دلالة في مجال الدفاع والتّحصين[2].

لقد فصّل ابن حيان في ذكر الحصون والقلاع على امتداد الريف الأندلسي مُبَيِّنًا أهميتها وأدوارها منذ آخر الإمارة وعلى امتداد عصر الخلافة، وتابع ابن بلقين (الأمير عبد الله) أهمية تلك المواقع الدفاعية طيلة القرن الخامس الهجري مع الكشف عن

---

(1) - لقد أفادت الدراسة السابقة الذكر في توطين الحصنين السابقين سان ومان (فان ومان)، وقدمت أرقاما أوّلية مفيدة في ميادين المعمار والأشكال الهندسية المستعملة في البناء، والفخار المعتمد في بناء الأبراج والقياسات في ذلك الخ... انظر: ص. 25 وما بعدها.

(2) - يمكن اعتبار الصخرة أو المعقل نوعا من التحصين الطبيعي الذي عُرف بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف. تشير الباحثة بنلحاج إلى صعوبة تحليل الألفاظ والمصطلحات المرتبطة بالتحصين في الأندلس من حيث المعاني المعجمية فالمعنى يختلف من نص مصدري لآخر. فالحصن والقلعة والرباط والقصبة تختلف من مؤلف لآخر. ومحاولة تفكيك معاني مصطلحات التحصين الأندلسي صعبة رغم مقارنتها بمثيلاتها في الغرب الأوربي. إنها مصطلحات تنتمي إلى حقول دلالية ونماذج اجتماعية وثقافية مختلفة: فالحصن مثلا قد يكون لفظا عاما يعني مؤسسة معمارية هدفها الدفاع عن المجال. وقد يستعمل للدفاع عن السكان أو ينطبق على مدينة أو مكان استراتيجي أو مركز اقتصادي. انظر:

DALLIÈRE-BENELHAJ(V);«Le château en Al-Andalus:un problème de términologie, Habitats fortifiés et organisation de l'espace en Méditerranée médiévale»,
Lyon, Maison de L'Orient, 1983, pp. 63, 67.
BAZZANA (A); CRESSIER (P) ; GUICHARD (P) ; Les châteaux ruraux..., op. cit, pp.17, 124, 125, 126, 127, 128, 129, 130.
Guerre, fortification et Habitat dans le monde méditerranéen au Moyen Age, Castrum 3. Ecole. France. de Rome CASA de Velazquez, Madrid, 1988.
MAZZOLI-GUINTARD (Ch) ; Villes d'al-Andalus..., op. cit, p. 25 et sv.
LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., T. 3, op. cit, pp. 62, 63.

التحولات التي طرأت على أدوارها خلال عهد الطوائف. فإذا أفاد ابن حيان في ذكر أسماء لأكثر من مائة وثلاثين حصناً في القطعة الخامسة من المقتبس وحدها[1]، سواء تلك التي هدَّمها الخليفة عبد الرحمن الناصر في مستهل القرن الرابع الهجري، أو التي بناها، فإنه يصعب وضع لائحة مضبوطة قصد محاولة توطينها لأسباب منها أن المؤلف لا يميز أحيناً بين تلك الحصون، بل يكتفي باستعمال تعابير عامة تدل على كثرتها. من ذلك مثلا أن الخليفة الناصر خلال حملاته المختلفة لهدم حصون معارضيه، «فتح سبعين حصناً من أمهات الحصون» [2]. و«هدم حصوناً لا تحصى» [3]. وفتح: «من قصابها ومراقبها وبناتها قرابة الثلاث مائة ما بين حصن وبُرج » [4]. أو يورد أسماء الحصون باسم القبائل أو المناطق التي تقع فيها مثل: «حصون بني هابل »[5]، أو«حصون البشارات بأسرها» [6]، و«حصون تاكُرُنَّا » [7]، و«حصون مغيلة » [8].

تصدق الملاحظة ذاتها على ابن عذاري[9] الذي لا يفصح أحياناً عن أسماء الحصون، بل يكتفي بسرد أعدادها. ففي إحدى حملات الحاجب عبد الملك المظفر أشار إلى غنيمة «ستة حصون»، و«تدمير خمسة وثمانين حصناً».

وعلى غرار الرازي ذكر ابن حيان مجموعة من الحصون جهة الثغر الأقصى، مثل بَلتِيرة[10] أو بَلتَيَّرة[11] على نهر إبرُه. وكان عُرضة لهجمات المسيحيين باستمرار وحصن

---

(1) - أحصى الباحث Acién Almansa في أحواز قرطبة وحدها حسب العذري حوالي 148 حصناً و 294 بُرْجاً و1079 قرية. ووضع Guichard لائحة لحصون إقليم بلنسية التي بلغت 180 حصناً ما بين القرنين XII و XIII م. انظر:

ACIÉN ALMANSA (M) ; « Sobre la función des Husun en el Sur de Al-Andalus : La fortificacin en el Califato », Coloquio Hispano-italiano de Arqueologia Medieval, Universidad de Siena, Univ. de Granada Abril 1990, Granada, 1992 ,pp. 263, 273.

GUICHARD (P) ; Les Musulmans de Valence..., op. cit, T. 1, pp. 195, 203.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 61.

(3) - نفسه: أماكن متعددة.

(4) - نفسه: ص. 61.

(5) - نفسه: ص. 60.

(6) - نفسه: ص. 64. حاول Créssier توطين بعض حصون إقليم البشارات في دراسة بعنوان:

Fonction et évolution du réseau Castral en Andalousie Orientale : le cas de l'ALPUJARRA, dans : Castrum 3 : Guerre, fortification et Habitat..., op. cit, pp. 123-134.

(7) - ابن حيان: نفسه، ص. 218، 219.

(8) - نفسه: ص. 236.

(9) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 8.

(10) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 143.

(11) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 172.

وخشمة[1]، وقاشتره مورش[2] أو قصر موسى[3]. وحصن مَوْرِيل[4] غير بعيد عن مركز طرسونة. وحصن قلهرة[5] الذي هدّمه الخليفة عبد الرحمان الناصر خلال أحداث العام 308 هـ. وحصن أرنيط[6] على مقربة من تطيلة في الواجهة المسيحية، وحصن نقيرة[7] أو بقيرة[8] الذي يُعتقد أنه من بناء لب بن موسى في الثغر خلال النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة[9]. ثم حصني مُويش[10] وهريز[11] أو هدين[12]. ومن حصون الثغر الأعلى تشير المصادر إلى قانسية[13] (قلنشية) ، وشمالق[14]، والْمَرِيَّة[15] وهي مواقع بجهة سرقسطة. وقشتيل[16] وفالجش[17] من عمل بنبلونة، وقرنيل[18] أو قرقستال[19]، على وادي أركون، وطفالية[20] أو تفالية[21]، وصخرة قيس[22]، وحصن روطة اليهودي[23] أو روطه[24]. وإلى جانب تلك المواقع المحصنة نذكر حصون تاجرة وغويتور[25] التي بُنيت أيضا خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أي إبان عهد الأمير محمد وابنه المندر. وكان الهدف من بنائها إيواء من هرب من الأسرى[26]. ولما أمر الأمير محمد

---

(1) - ابن حيان: نفسه، ص. 160؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 177، 284.
(2) - ابن حيان: نفسه، ص. 160.
ابن عذاري: نفسه، ص. 170: يتفق ابن عذاري مع ابن حيان في القول إن حصن قاشتره مورس هو شنت أشْتِيبَن: ابن حيان، أنطونية، ص. 27؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 177.
(3) - قاشتره مورس ينعت كذلك بقصر موسى: ابن عذاري: نفسه، الهامش (2)، ص. 170.
(4) - ابن حيان: نفسه، ج 5، ص. 360.
(5) - نفسه: ص. 191؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 186.
(6) - ابن حيان: نفسه، ص.165؛ الرازي: وصف الأندلس...، ص.77؛ العذري: ترصيع الأخبار...، ص.30، 36.
(7) - ابن حيان: ص. 167. ذكره أيضا في مكان اخر من المصدر ذاته، ص. 186، 187 باسم بقيرة.
(8) - ابن عذاري: نفسه، ص. 179.
(9) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 31، 32.
(10) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 79. .
(11) - نفسه: ص. 143.
(12) - ورد هذا الإسم في الهامش (1) من ابن عذاري: نفسه، ص. 143.
(13) - ابن عذاري: نفسه، ص. 178.
(14) - العذري: نفسه، ص. 50.
(15) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 360. العذري: ص. 45، 47.
(16) - ابن عذاري: نفسه، ص. 97.
(17) - ابن حيان: نفسه، ص. 191، 336؛ ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 186.
(18) - ابن حيان: نفسه، ص. 192.
(19) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 186.
(20) - ابن حيان: نفسه، ص. 191.
(21) - ابن عذاري: ص. 186.
(22) - ابن حيان: نفسه، ص. 194.
(23) - نفسه: ص. 335.
(24) - ابن الكردبوس:تاريخ الأندلس...،ص.119؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...،ص.64؛ ابن الخطيب:أعمال الأعل...، ص. 197.
(25) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.
(26) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.

بالغزو إلى مدينة برشلونة ثمّ فتح حصن طرّاجة[1] أو طرّاخة[2]. وفي آخر عهد الخلافة وُجِّهت شاتية نحو قطلونيا بقيادة الحاجب عبد الملك المظفر واستهدفت حصون شنت مرتين[3]، ومَدَنِيش [4] ومُمَقَصَر[5]. وبجهة بربطانيا (بُلطانيا) في اتجاه شمال مدينة لاردة، ذكرت حصون بربسترو[6] وأنْتَسَر[7]. ولم يفت العذري[8] الحديث عن حصون جهة وشقة بالقول« ومن معاقلها المتناهية حصن بيطرة شلج، وهو حصن آهل... ومنها حصن عَبَرْدَة، ومنها حصن نوبة، ومنها حصن ربرش، ومنها حصن يُلويه، وهو حصن له سور نفيس..». وذكر ابن عذاري بعض حصون ومعاقل أحواز ألبة مثل غرنون وبايش وإيلاس[9]. وإلى الجنوب من ألبة أي في عمل صوريا، اشتهر حصن عرماج[10] أو غرماج[11] على وادي دويره، وهو من إحداث الخلافة على غرار حصون أخرى[12]،

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 95.
(2) - نفسه: هامش (3)، ص. 95.
(3) - نفسه: ج 3، ص. 21.
(4) - نفسه: ص. 6.
(5) - نفسه: ص. 6، 7. وُصف حصن مُمَقَصر بنوع من التفصيل في:
LÉVI- PROFÉNÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne.., op. cit, T. 3, p. 62.
SÉNAC (Ph) ; Note sur les Husun de Lérida..., op. cit, pp. 61, 63.
(6) - الرازي: وصف الأندلس...، ص.75؛ العذري: نفسه، ص.67؛ البكري: جغرافية الأندلس وأوربا...، ص.92، 93
(7) - العذري: نفسه، ص. 60.
(8) - نفسه: ص. 55، 56.
(9) - ابن عذاري: المصدر السابق، ج 2، ص. 141.
(10)- ابن حيان: ج 5، ص. 341. وذكر "غرماج" في مكان آخر من المقتبس. الحجي، ص. 218.
(11)- المقري: النفح...، ج 1، ص. 383.
يقع حصن عرماج (غرماج) (Gormaz) على هضبة علوها 130 مترا على نهر دويره الأعلى غير بعيد من مركز أسْمة (Osma)، في حزام مُرَمّم أو مبني خلال عهد الحكم الثاني، عام 354 هـ/ 965 م. كان يشكل القاعدة الأساسية لجند الخلافة في اتجاه الحدود الشمالية.
اهتمت الأبحاث المعاصرة المعمارية والأركيولوجية بحصن غرماج منذ مدة غير قصيرة وكشفت عن طبيعته وأهميته ومواد بنائه وأشكال هياكله المعمارية. إنه شكل من الألواح والأشرطة المسَنَّنة والدقيقة مما يوضح القدرة العالية في رسم الأبراج والزوايا بالأحجار والطابيةالتي سادت كمواد البناء عصري الخلافة والطوائف. (انظر الصورة).
لاحظ ل. بروفنسال من خلال مواد البناء وطريقة البناء والموقع في حصن غرماج أن المسلمين عصر الخلافة كانوا يجيدون البناء ويتفننون في الخطوط المعمارية. وقد استفادوا إلى حد كبير، وبشكل عقلاني من المجال أكثر من المسيحيين. يتضح ذلك من خلال الإمكانيات التي كانت تتوفر عليها الخلافة ووظفتها في المجال العسكري والبناء حتى أنها كانت تصدر المتخصصين في بناء الحصون إلى شمال إفريقيا كما ذكر ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 388.
للمزيد من التفاصيل حول حصن عرماج: LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne...,op.cit, T. 3, p.64
AZUAR RUIZ (R) ; Las Técnicas constructivas en Al-Andalus ; El Origen de la Sillería y del Hormigon de TAPIAL, Semana de Estudios Medievales, Najera, 1-5 de Agusto, 1994.Instituto de Estudios Riojanos,1995, pp. 125, 142.
ZOZAYA (J) ; Evolucion de un Yacimiento. EL-Castillo de Gormaz (SORIA), Castrum. 3, Guerre, fortification..., op. cit, pp. 173, 178.
(12) - انظر في هذا الفصل الحصون الأخرى التي أسستها الخلافة كمحطات للجند بدءا من طريفة في أقصى الجنوب،وعقبة البقر شمال قرطبة إلى عرماج وذلك على شكل خط استراتيجي يمتد من جنوب شبه جزيرة إيبيريا نحو الشمال.

ليكون مَحلّةَ أو مَحَطّةَ أساسية يجتمع بها الجند المستعد لمواجهة المسيحيين.

وفي واجهة جليقية بأقصى الشمال الغربي تشير المصادر إلى حصن الحَامَة[1] الـذي ذكر كثيراً إبان حملات المنصور بن أبي عامر ضد المسيحيين. وهو يختلف عن حصـن الحمّة[2] (sLos Ban) الذي يقع في إقليم إلبيرة ما بين غرناطة ومالقة.

(1) – ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 174؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 264؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 60.

(2) – ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 114؛ ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 1، ص. 258؛ الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 561، 566.

LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 1, p. 352; T. 2, P ; 211.



حصن غورماز إقليم صوريا



أخذت الصورة في أكتوبر 1997

2 ـ حصـون الموسطة والغرب

وترد إشارات مصدرية متعددة حول حصون الموسطة من الأندلس وغربهـا وهـي كثيرة منها: اليشة[1] ومَوْرَة[2] وجرنكش[3] وهي من عمل طليطلة. وقنالش[4] أو قنيلش[5]، والفهمين[6]، وأربقيرة[7]، وطرنكوشة[8]، واقليش[9]، ومولة[10] بنواحي مدينـة مجـريط والذي عُرف خلال غزوات ابن أبي عامر نحو الثغر الأوسط. إضافة إلى حصني المـال وزنبق[11]، وكذا بنياني[12] غير بعيد من مدينة شنترين. ثم حصن الرّقاع[13] أو الوقاع[14] في اتجاه أكشونبة، والحنش[15] من عمل مدينة ماردة. ويذكر البكري[16] لائحـة بأسـماء مواقع محصنة جهة ماردة وبطليوس منها: مَدِّلين[17] ومورش وأم غزالة، وحصن الأرش وأم جعفر[18] والجزيرة، وحصن الصخرة (صخرة أبي حسان، حصن لقرُشَـان، وشـنت أقروج[19]. أما الإدريسي فأشار إلى حصن المعدن[20] الواقع على البحر قبالة مدينة

---

(1) - **ابن حيان:** نفسه، ج 5، ص. 279.

(2) - **نفسه:** ص. 282. - **ابن عذاري:** البيان...، ج 2، ص. 203.

(3) - **نفسه:** ص. 203، 207.

(4) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 283.

ابن الكرديوس: تاريخ الأندلس...، ص. 83.

ابن القطان (أبو محمد حسن بن علي بن محمد بن عبد الملك المراكشي): نظم الجُمان، تحقيق: مكي (محمود علي)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص. 70.

(5) - **ابن عذاري:** نفسه، ج 2، ص. 203.

(6) - **ابن حيان:** ج 5، ص. 283؛ **ابن عذاري:** نفسه، ص. 203.

(7) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 382.

(8) - **نفسه:** ص. 382.

(9) - **نفسه:** ص. 362؛ **ابن الخطيب:** شرح رقم الحلل في نظم الدّول، تحقيق: عدنان (درويش)، دمشق، 1997، ص. 164؛ **ابن سعيد:** المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 11.

(10) - **ابن عذاري:** المصدر السابق، ج 2، ص. 265.

(11) - **نفسه:** ص. 267.

(12) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 104.

(13) - **نفسه:** ص. 248.

(14) - **ابن عذاري:** نفسه، ص. 200.

(15) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 239. **ابن عذاري:** نفسه، ص. 193.

(16) - **البكري:** جغرافية الأندلس...، ص. 120.

(17) - ذكر ابن حيان حصن مَدلين على وادي أنة... المصدر السابق، ج 5، ص. 121؛ **الإدريسي:** نزهة المشتاق...، ص. 550؛ **الحموي:** معجم البلدان...، ج 1، ص. 77.

(18) - **ابن حيان:** نفسه، ص. 239.

(19) - **البكري:** نفسه، ص. 120. حصن شنت أقروج هو شنت أفروج (أفرج) وهو المقابل لكلمة SANTACRUZ de la SIÉRRA حسب ل. بروفنسال.

انظر **البكري:** المصدر السابق، هامش ص. 120. وليس هو حصن **شنت أقلج** الوارد في **التبيان** للأمير عبد الله، المصدر السابق، ص. 99، أو عند **العذري:** ترصيع الأخبار...، ص. 92. يقع شنت أقلج في ناحية البيرة.

(20) - **الإدريسي:** نزهة المشتاق..، ص. 577.

لشبونة. وسُمّي كذلك لأن البحر يقذف «بالذهب والتبر إلى هذا الحصن الذي رأيناه عيانا»[1].

وفي نواحي جيان حصن المنتلون[2] الذي استنزل منه الخليفة عبد الرحمن الناصر المنتزي المشهور سعيد بن هذيل، مع مطلع القرن الرابع الهجري. وحصون بكوروقاشتره، وشنترة وأقليق[3]، ومارتش [4]، وتَشْ [5]، وبغنتيوة[6] وشودر [7]، والشَّارة[8] ومورينة[9]. وكذا حصن الحمّة[10] المعروف ب (Banós de la Encina) إلى الشمال قليلا من مدينة جيان والذي بُني عهد الخلافة عام357 هـ/ 968 م على غرار حصن غرماج السالف الذكر. وتشهد إحدى النقائش الجدارية المحفوظة كوثيقة على بنائه حين تقول:«أمر ببنيان هذا البرج عبد الله بن الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه على يد موله وقائده ميسور بن الحكم، فـتَمَّ وكَمُلَ بحول الله وتأييده في شهر رمضان سنة سبع وخمسين وثلاث مائة » [11].

وحصن قنبيل[12] إلى القبلة من جيان كذلك، وحصن فرغْليط[13] في نواحيها. وغيرها من الحصون خريطة والمعاقل وهي كثيرة. قال الإدريسي[14] بهذا الصدد: «وفيما بين مدينة جيان وبسطة ووادي آش، حصون كثيرة عامرة ممدنة آهلة..» . وأضاف في مكان آخر:«(...) وما بين مالقة وقرطبة من الحصون العامرة التي هي

---

(1) - نفسه: ص. 547.
(2) - ابن حيان: المقتبس، أنطونية...، ص. 25؛ نفسه:ج 5، ص.60؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 161،136.
(3) - ابن حيان: نفسه، ج 5، ص. 60، 63.
(4) - نفسه: ص. 65؛ ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 102.
(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 142. يبدو أن حصن مارتش عند ابن حيان هو "تش" عند ابن عذاري، ويقابل اليوم مارتو (Marto) بكورة جيان والأصل هو Tucci أو Acci اللاتينية التي أصبحت (توشي)، انظر: كتاب التبيان...، ص. 102، والهامش (222)، ص. 228.
(6) - ابن حيان: ج 5، ص. 63.
(7) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 136؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص. 569.
(8) - ابن عذاري: ص. 161. وأحيانا تستعمل كلمة "حصون البشارات"؛ ابن حيان: ج 5، ص. 64.
(9) - ابن عذاري: نفسه، ص. 137.
(10) - لاحظ ل. بروفنسال أنه رغم أهمية حصن الحمة، لم ينل ما يستحقه من العناية والبحث على غرار حصن غرماج المعاصر له. نشير إلى أن بعض آثاره ما تزال قائمة إلى الآن: (انظر الصورة).
(11) -LÉVI-PROVENÇAL (E); Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, La rose, Leyde- Brill, 1931, pp. 134, 135. Inscription N° 150.
(7) - ابن الزبير (أبو جعفر أحمد): صلة الصلة، ذيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس، تحقيق: ل.بروفنسال، باريس، 1937، ص. 204.
(8) - نفسه: ص. 126.
(9) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569.

حواضر في تلك النواحي..»[1]. ويبدو أن الإدريسي، الذي يقارن الحصن بالمدينة، يعكس نوعاً من التحوّل في بنية الحصون خــلال القــرن الســادس الهجــري (12 م) (عصــر الإدريسي) والذي ساد فيه نوع من الانتعاش والتطور الاقتصادي، أي الإنتقال من تأديــة الحصن لوظيفة عسكرية وأمنية بالدرجة الأولى خــلال القــرن الخــامس الهجــري (الطوائف) إلى وظيفة أو وظائف أخرى لها علاقة بتأطير المجال اقتصادياً وبشرياً وعمرانياً: (الحصن المدينة) [2]. ومن هذه المعاقل والحصون التي ذكرها الإدريسي فــي الوسط الجنوبي الأندلسي، نذكر: أشتبين[3] في نواحي إلبيرة، وفنيانة[4] والمنتوري[5] مــا بين غرناطة وألمرية. ويتبيّن أن بناء حصن المنتوري من قبل الأمير عبد الله كان أمــراً ضرورياً لأنه كان يستجيب لضرورة أمنية مرتبطة بالنزاع الحدودي والمجالي مع صاحب ألمرية. يقول صاحب التبيان[6]:«ووافق ذلك أن وقعت بين قائدي النّظر ما بــين فنيانــة والمنتوري مشاجرة على الجهات، ولم يتهيأ حيازة ذلك النّــظر، إلاّ ببناء المنتــوري المذكور... ». ثم حصن قبره[7]، وقبريرة[8] على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش. وعلى غرار حصن المنتوري كان معقل قبريرة يلعب دوراً استراتيجياً بالنسبة لدولــة غرناطة. إنه كان يحرس ويراقب الطريق الذاهب من غرناطة نحو قادس فــي اتجــاه الغرب. ولقد لعب دوراً في إزعاج ابن صمادح بألمرية[9]. وذكرت المصــادر حصــوناً ومعاقل كانت ملاذاً لعمر بن حفصون كحصن منت روي [10] بإلبيرة أو منــت

---

(1) - نفسه: ص. 571.
انظر ملاحظات:

(2) - CRESSIER (P); Fonction et évolution du réseau castral...,op pp. 123, 134. cit,
MAZZOLI-GUINTARD (Ch) ; Villes d'al-Andalus..., op. cit, p. 23 et sv.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 61، 200؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 146.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 66؛ ابن بلقين: التبيان...، ص. 112.

(4) - نفسه: ص. 113.

(5) - نفسه: ص. 112. يقع حصن المنتوري على جبل: (Cerro Montaire) بين غرناطة وألمرية. والمنتوري بالعربية برأي محقق التبيان محرف، ربما، من إسم (Monte aurio/ aureo)، وهو حصن على أميال معدودة إلى الجنوب الغربي من حصن فنيانة.
كتاب التبيان، الهامش (264) ص. 235.

(6) - ابن حيان: ج 5، ص. 71، 80.

(7) - ابن بلقين: نفسه، ص. 85.

(8) - حاول أحد الدارسين توطين حصن قبريرة اعتماداً على نص ابن بلقين وعلى بعض الخرائط والطبونيميا. وبعد التذكير بوظيفته الدفاعية أشار إلى ضرورة البحث في البنيات العمرانية والسكانية التي كانت في مجال الحصن لتبيان أدوارها. ولم يغفل الحديث عن مواد البناء (الطابية) وأحجامها في الحصن وطرق استعمالها. انظر:
MALPICA CUELLO (Ant) ; « Un Hisn en Las Memorias del Rey Abdellah »,QABRIRA :dans **REVISTA del Centro de Estudios Historicos de Granada y Su Reino**, N° 1, Granada, 1987, pp. 53, 67.

(9) - ابن حيان: ج 5، ص. 179، 204.

روبي [1]، وبُبَشْتَر[2] ما بين مالقة وموروون. وقد ذاع صيت حصن ببشتر نظـرا لكونـه المعقل الرئيسي لعمر بن حفصون، وحاولت الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر، بكل الوسائل بما في ذلك هدم وتخريب حصون أخرى، قصد الوصول إليه وإخضاعه. قال ابن عذاري[3] مكرر في هذا المعنى: ودمَّر الناصر «حصون قرذارش ونجارش والجاش وشنت بيطر» [4]. وأمَّن حصن قامرة الخاضع لعمر بن حفصون، وكذا حصن طلجيرة[5] باب بُبَشتر. كما أخضع حصون طرُش [6] أو طرُش خشين[7]، ومنت مـاس[8] (مـاش) وجطرون[9] ، وريّينة [10] القريبان من مالقة. وحصن بلدة[11] غير بعيد منها أيضـا. وفي الوقـت نفسه أمر الخـليفة الناصر«(...) ببنيان صخرة عودان المشرفة على بسيط بلدة، فانتظم بنيانها بحصني صخرة عصام، وبني بشير، وهما مِمَّا بُنيا (بُنـي) فـي ايـام الأمير عبد الله » [12]. وذكـر حصن دوش أمانتش[13] بنـواحي بلـدة، وحصـن

---

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 191.

(2) - ابن حيان: نفسه، ص.138، 151، 153، 210؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 181، 183.

(3) - نفسه: ص. 184.

(3) مكرر - ذكر صاحب ذكر بلاد الأندلس ان لجزيرة قادس حصنين أحدهما شنت بيطر، واخر الملعب، وفي شنت بيطر كنيسة معظمة عند النصارى. مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 65.
واشار ابن حيان إلى أن حصن شنت بيطر بكورة تُدمير، ج 5، ص. 238.

(4) - ابن حيان: ج 5، ص. 86؛ ابن بلقين: كتاب التبيان...، ص. 116. قال الأمير عبد الله في صراعاته مع أخيه تميم بمالقة: «وبقيت بيده الحصون الغربية من قرطمة ومشيش، وحمارش، وأعطيناه قامرة بلد الزرع ليتسع فيها للحرث». نفسه، ص. 196.

(5) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 152.

(6) - نفسه: ص. 85.

(7) - نفسه: ص. 154. ذكر العذري حصن "شيت طرش" و "شيت طريش"، بنواحي إشبيلية وهو من بناء عبد الله بن غلب الذي كان صنيعة لمحمد بن الإمام عبد الله. ترصيع الأخبار...، ص. 104، 105.
ولاحظ ل. بروفنسال أن ابن حيان نطق اللفظ العربي طرش خشين والمصادر الأخرى تقتصر على لفظ "طرش"، وهو مركز على بعد 9 أميال من ميناء مربلة الحالي، مرتفع بحوالي 320 مترا.
LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 2, p. 11.

(8) - ابن بُلقين: كتاب التبيان، ص. 114، 115.

(9) - نفسه: ص. 115؛ ابن حيان: ج 5، ذكر (نطرون)، ص. 218؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 196.

(10) - ابن حيان: نفسه، ص. 86؛ ابن بُلقين: نفسه، ص. 115. يقول ابن بلقين: «وكنا في أول وجهتنا قد أخذنا ريّينة بالسيف قسرا، وطاعت لنا جطرون، وهما قصبتا مالقة». نفسه، ص. 115.
يقول محقق التبيان إن ريّينة هو ريحانة أو رحانة وتقع في مقاطعة بلش مالقة، وهي مهجورة الآن: كتاب التبيان...، الهامش (283)، ص. 236.

(11) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 85، 148.
تحدث ابن عبد ربه عن حصن بلدة في أحداث 307 هـ على شكل نظم شعري قائلا:

وبعدها كانت غزاة بلـدة * وهي التي أودت بأهل الرّدة
حـتى إذا مرّ بحصن بلدة * خـلف فيه قائدا في عـدة.

العقد الفريد: المصدر السابق، ج 4، ص. 510، 511.

(12) - ابن حيان: نفسه، ص. 148.

(13) - نفسه: ص. 148. قال ل. بروفنسال إن حصن دوش أمانتش Roche des Amants، غير بعيد عن حصن بلدة السابق الذكر Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 2, p. 17, 18.

ذكوان[1] بالغرب من مالقة وقد ذكر ابن حيان حصن قاشترة ذكوان[2] بكورة ريه. ويقع حصن بليش[3] شرقي مالقة، ومنتميور[4] ومورور[5] بالقرب منها كذلك. وقال النباهي: «ومن ناحية الغرب حصن الورد المعروف الآن بمنت ميور القريب من مربلة. ومن جهة الجوف وادي شنيل، حيث حصن بني بشير» [6]. وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر كذلك ببناء حصن اشب[7] من أجل حصار أنصار عمر بن حفصون. وقد ذكرت حصون اخرى خلال أحداث مطلع القرن الرابع الهجري التي واجه فيها الناصر معارضيه، منها بمارش[8] أو قمارش وكمارش وممارش[9]، على بعد أميال من مالقة. وحصون أشر[10]. وسهيل[11] إلى جهة البحر في إقليم ريه، وهو من أهم ابراج المراقبة على البحر حتى إن موقعه لا يترك أيا كان صغيرا أو كبيرا يتجه نحو الساحل دون أن يرى[12]. والمنكب[13] غرب المرية وشرق مالقة. وكذلك حصون شنت أولالية[14]، وشنت مَريَّة[15]، وبُنَيْرة[16]، واشبره[17] أو أشبر غيرة[18] الذي بناه الناصر على حصن أقوط[19]. وفي نواحي قرطبة وإشبيلية تُذكر حصون مثل القصر[20]، وقلعة

---

(1) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار. دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي شبانة (محمد كمال)، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977، ص. 67.

(2) - ابن حيان: نفسه، ص. 169.

(3) - ابن الزبير: صلة الصلة...، المصدر السابق، ص. 11، 59.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 86؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 12.

(5) - ابن سعيد: المغرب...، ج 1، ص. 448.

(6) - النباهي: تاريخ قضاة الأندلس...، ص. 82.

(7) - ابن حيان: ج 5، ص. 211.

(8) - نفسه: ص. 218، 234؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 196.

(9) - بن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 206؛ الحميدي: جذوة المقتبس...، ج 32؛ الضبي: بغية الملتمس... ، ص. 27.

(10) - ابن عذاري: نفسه، ص. 115؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، المجلد 2، ص. 82.

(11) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 68.

(12) - الرازي: ص. 99.

(13) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 548؛ ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق: التازي (عبد الهادي)، بغداد، 1979، ص. 196.

(14) - ابن حيان: نفسه، ص. 151.

(15) - نفسه: ص. 151.

(16) - نفسه: ص. 181.

(17) - نفسه: ص. 88.

(18) - نفسه: ص. 173 وقطعة أنطونية، ص. 31؛ ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 181.

(19) - ابن حيان: نفسه، ج 6، ص. 88؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 181.

(20) - نفسه: ج 3، ص. 191؛ ابن الزبير: صلة الصلة...، ص. 191؛ المراكشي (أبو عبد الله محمد بن محمد): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق: بنشريفة (محمد)، بيروت، دار الثقافة، د.ت، ص. 301.

جابر[1]، وحصن الوادي [2]، وبُلاي [3] الواقع على عشرين ميلا من قرطبة، وحصن شنت يَاله[4] القريب منه. إضافة إلى حصن أشونة[5] في نظر قرطبة، وعقبة البقر[6] إلى الشمال منها قليلا. وحصن شدفيلة[7] بجهة إشبيلية، تجدر الإشارة إلى أن إشبيلية التي اعتبرت من الكور المجندة الأساسية وقاعدة بني عباد طيلة القرن الخامس الهجري[8] قد لعبت بها الحصون والمواقع الدفاعية الكثيرة أدوارا عسكرية وعمرانية هامة. يكفي الإشارة إلى حصون مثل زعبوقة[9] أو زغبولة[10] وقورة[11]، والزعواق[12] شمال إشبيلية، ولبخس[13]،وقلعة الحصادي[14] إلى الجنوب منها، إضافة إلى حصن القلعة[15]، والفرج[16]، والورد[17] ونيبة[18].

---

(1) - ابن الزبير: نفسه...، ص. 209.

(2) - المراكشي: نفسه، ص. 485.

(3) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 25؛ مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 133.
الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 572. أشار ل. بروفنسال إلى أن حصن بُلاي هو موقع "Aguilar" الحالي على بعد 50 كلم إلى الجنوب من قرطبة.
Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 1, p. 372.

(4) - الإدريسي: نفسه، ص. 572.

(5) - الحموي: معجم البلدان...، ج 1، ص. 202؛ السلفي: أخبار وتراجم أندلسية...، ص. 124.

(6) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 205. يقع حصن عقبة البقر في المرتفعات المطلة على نهر قرطبة من الشمال بحوالي 20 كلم. ما تزال بعض أجزائه قائمة إلى الآن (انظر الصورة). بُني على غرار غرماج في صوريا خلال الخلافة ليكون مركزا أساسيا للجند. له شكل هندسي رباعي مبني بالطابية.

(7) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 106.

(8) - انظر تفاصيل في: الطاهري: عامة إشبيلة...، مرجع سابق، ج 1، ص. 58، 60، 70.

(9) - ابن عذاري: البيان، ج 3، ص. 190.

(10) - نفسه: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: الكتاني (محمد إبراهيم) وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985، ص. 61.

(11) - ابن حيان: أنطونية، ص. 72.
يذكر العذري قرية قَوْرَة بنواحي إشبيلية، ترصيع الأخبار...، ص. 99.
يقع حصن قورة شمال غرب إشبيلية وما يزال يحمل هذا الإسلام العربي (AZNALCOLLAR).
HUNT ORTIZ (M.A) ; « El Castillo y la Torre de Aznalcóllar (Sevilla) : dos edificaciones almohades » ; dans Fortificationes en al - Andalus, 1er congreso intérnacional, Algéciras, 1998, pp. 379, 388.
الطاهري: عامة إشبيلية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 52.

(12) - ابن حيان: أنطونية، ص. 113. يذكر ابن القوطية (قلعة الزعواق)، تاريخ افتتاح الأندلس، ص. 80.

(13) - العذري: نفسه، ص. 105، 106.

(14) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 3، م 1، ص. 147.

(15) - ابن عذاري: ج 3، ص. 130. حصن القلعة هو الموقع المعروف (Alcala guadaire) على أميال من إشبيلية في الطريق إلى جهة مالقة. الطاهري: المرجع السابق...، ج 1، هامش (302)، ص. 70.

(16) - ابن عذاري: قسم الموحدين...، ص. 215.

(17) - ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 232.

(18) - ابن القوطية: المصدر السابق، ص. 48.



حصن عقبة البقر

20 كلم شمال قرطبة يطل عليها من الجهة الجبلية

أخذت الصورة في أكتوبر 1997

3 ـ حصون الجنوب والشرق

وإلى جنوب خط إشبيلية قرطبة اشتهرت عدة حصون منها لورة[1] المجاور لمدينة الجزيرة الخضراء حسب ابن حيان[2]. ثم حصون "عوجين ونبارش وشمانة ووادي يارو"[3]، القريبة من الجزيرة الخضراء أيضا، وحصن طريفة[4] المواجه لجبل طارق والبحر المتوسط.

ولم تغفل المصادر ذكر الحصون والمعاقل بشرق الأندلس وهي كثيرة منها، سمغوس[5] بكورة بلنسية ومنت أقوط[6] بجهة مرسية، وحصن ينشته[7] القريب من جنجالة. وجنجالة[8] حصن بشمالي مرسية. وفي نواحي مرسية كذلك ترد حصون المنارة[9]، والبونت[10]، وشُرِيُّون[11] وغيرها من المواقع المحصنة.

---

(1) - ابن حيان: ج 5، ص. 71.

(2) - نفسه: ص. 86، 87. نلاحظ أن ابن حيان ذكر حصن لورة مرة في طشانة جهة إشبيلية، ومرة ذكره مُجاورا للجزيرة الخضراء.

(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 68.

(4) - على غرار حصن عقبة البقر شمال قرطبة رُمّم حصن طريفة وأنشئ برجه الأساسي من قبل الخلافة عام 349 هـ/ 960 م وذلك لمراقبة التحركات الفاطمية انظر:

LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne ..., op. cit, T. 3, p. 63.

ACIÉN ALMANSA (M) ; Sobre la función des Husun..., op. cit, pp. 266, 267.

SOLER ALVARO ; ZOZAYA (Juan); « Castillos Omeyas de planta cuadrada: su relacion funcional». dans III congreso de Arqueológia Medieval Espagñola, Oviedo, 1989, pp. 265, 274.

(5) - ابن حيان: ج 5، ص. 249.

(6) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 2، ص. 123. وهو اليوم مركز "MONTEAGUDO" التابع لبلدة مرسية.

(7) - المراكشي: الذيل والتكملة...، المصدر السابق، س 1، ق 1، ص. 381، 390.

(8) - نفسه: ص. 381، 390.

(9) - العذري: المصدر السابق، ص. 19. أشار Guichard إلى أن حصن المنار الذي يبعد عن بلنسية بعشرين ميلا، وظل قائما إلى الغزو المسيحي لإقليم بلنسية هو المنارة الذي أورده العذري:

GUICHARD (P) ; Les Musulmans..., op. cit, T. 1, pp. 195, 203.

(10) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 142؛ ابن بسام: الذخيرة...، ق 1، م 1، ص. 455؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 175؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، قسم المغرب...، ص. 143؛ ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي): قلائد العقيان، تحقيق: ابن عاشور (محمد الطاهر)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990، ص. 307.

(11) - السلفي: أخبار وتراجم أندلسية...، ص. 41.

II - وظائف الحصون

لا يمكن، في الواقع، تجاهل مجموعة من الأبحاث الجادة التي اهتمت بالتحصين في جهات أندلسية متعددة وفي مراحل تاريخية متباينة[1]. ومن أهم هذه الأبحاث، الدراسة الهامة التي أنجزها كل من Bazzana و Guichard و Créssier بعنوان الحصون الريفية في الأندلس ؛ تاريخ وأركيولوجية الحصون في جنوب شرق إسبانيا[2]. وتعتبر الدراسة تركيبية ومنوغرافية في الآن نفسه. فهي تؤرخ للحصون في جنوب شرق الأندلس خلال فترة طويلة نسبياً تمتد ما بين القرن التاسع الميلادي والخامس عشر، وتقدم خلاصات عامة بعد إجراء مقارنات واسعة مع جهات أندلسية أخرى أو مع حصون أوربا الفيودالية[3]. لقد اعتمد المؤلفون على نصوص مصدرية متنوعة مسيحية وعربية وخاصة المترجم منها، إلى جانب المادة الأركيولوجية المتوفرة كالخزف والمطامير والصهاريج إلخ، للتفصيل في دراسة نماذج من الحصون في الجنوب والشرق الأندلسي معتمدين على ما سمّوه بالتحليل السّيولوجي والسّيوسياسي القائم على النظرية الانقسامية[4] التي ترى

---

(1) - نكتفي بالإشارة إلى بعض أهم هذه الأبحاث كالتالي:

BAZZANA (A); Problèmes d'architecture militaire au Levant espagnol: Les château d'Alcala de chivert. Château Gaillard. **Etude de Castellologie médiévale**, N° 8, 1976, pp. 21, 46.

- « Eléments d'archéologie musulmane dans Al-Andalus : Caractères spécifiquesde l"architecture militaire arabe de la région valencienne ». dans : **Al-QANTARA** 1, 1980, pp. 339, 363.

GUICHARD (p) ; « Castrum et société rurale musulmane dans la région de valence au Moyen Age », dans: **Bulletin d'archéologie marocaine, XIII**, Rabat, 1980.

Les Musulmans de valence.., op. cit, T. 1, T. 2.

AZUAR RUIZ (R) ; Denia islamica, Arqueologia y poblamiento Alicante, 1989.

EPALZA (M) de ; « Funciones ganaderas de las albacares en las fortalezasmusulmanas ». Sharq-al-Andalus. Estudios árabes 1, 1984, pp. 47, 55.

Guerre, Fortification et Habitat dans le monde Méditerranéen.. Castrum 3, op. cit.

ESCO (C) ; **SÉNAC** (Ph) ; Un Hisn de la Marche supérieure d'Al-Andalus : Piraces (Huesca). **Mélanges de la CASA de Vélazquez, T. XXIII, 1987**, pp. 125, 150.

CRESSIER (P) ; « Le château et la division territorial de l"Alpujarra médievale : du hisn à la t a a », **Mélanges de la Casa de velazquez, XX**, pp. 115, 144.

(2) - **BAZZANA** (A); **GUICHARD** (P); **CRÉSSIER** (P); Les châteaux ruraux…, op. cit.

(3) - لم يتبنّ الباحثون مفهوم "الحصن الفيودالي" الأوربي نظراً لخصوصيته التي لا تنطبق على الأندلس، وإنما استفادوا من الدراسات الأوربية المهتمة بالحصون في علاقتها بالمجال والسكن. ولا غرو فقد قدم لهذا البحث المؤرخ TOUBERT الذي اشتهر بدراسة السكن المحصن أو ما يُعرف (incastellamento) في إقليم Latium الإيطالي. فقد تساءل Toubert في التقديم عن إمكانية الحديث عن هذا النوع من السكن في أرض الأندلس مع مراعاة خصوصيتها. إذ يلاحظ أن السكن المحصّن الذي بدأ في إيطاليا منذ مطلع القرن العاشر للميلاد أي حوالي 920 م/940 م، كما أوضح Toubert نفسه، قد عُرف بشكل من الأشكال في الأندلس منذ القرن الثالث الهجري (IX م) على الأقل. وقد تبيّن من المصادر أن الخلافة استغرقت سنوات عديدة في بداية القرن الرابع الهجري (X م) من أجل التغلب عليه واستنزال المتمسكين به، بل وهدمه وتغيير بنيته. لكن ما تزال قضايا مرتبطة بالسّكن والسكان كالبناء والأعداد والهجرات وغيرها في حاجة إلى التعمق والبحث، عكس ما حدث في أوربا، ومن شأن الاهتمام بها أن يساهم في فهم طبيعة وخصوصيات التحصين في الأندلس.

عن التحصين والسكن في إيطاليا انظر التفاصيل في:...TOUBERT(P);Les Structures du Latium médiéval,op. cit

(4) - **BAZZANA** (A); **GUICHARD**(P); **CRÉSSIER**(P); Les châteaux ruraux…,op.cit, p. 35 et sv.

يبدو أن هذه "النظرية الانقسامية" التي حاول الباحث **P. GUICHARD** الدفاع عنها منذ مدة أصبحت متجاوزة.

أن المجتمعات الإسلامية تميزت بنوع من الاستقلال القبلي خاصة في الفترة ما بين القرن التاسع والثالث عشر للميلاد. ثم أبرز المؤلفون أمثلة من الحصون منها ما كانت له طبيعة سياسية وعسكرية، ومنها ما كان يراقب المجال والطرق، ومنها مــا يُعــرف بحصــون الحماية أو حصون/ ملاجئ؛ قصد حماية السكان في حالة الأخطار. إن هذا النوع الأخيــر من التّحصين دفع الباحثين إلى تأكيــد تصَــوّرهم لمــا يُعــرف بمصــطلح "البقــار" [1] (ALBACAR) الوارد في النّصوص المسيحية المعاصرة لحركة الاسترداد وينطبق علــى تلك الأجزاء من التحصين أو النطاقات المحصنة في شرق الأندلس (جهة بلنسية) والتــي تقع عادة في أماكن مرتفعة طبوغرافيا يصعب الوصول إليها وولوجها؛ وقد تكون خاليــة من السّكن إلا في حالات استثنائية. ومن المحتمل أن يكون لفظ "البقار" من أصل عربــي أخذته المصادر المسيحية، ويُقصد به البهائم خاصة الأبقار التي يُنتجهــا العــالم الريفــي ويحميها لأنها تشكل أحد موارده الأساسية. ومن الإنصاف القول إن ل. بروفنسال[2] قــد تحدث من قبل عن الحصون ذات الطابع الحمائي (Châteaux refuges)، التّي تحتل عــادة مواقع مرتفعة وتضم نطاقا أو حزاما محصنا بشكل طبيعي، أو بواسطة الحجارة. وتتخللها أبراج خاصة في الزوايا مجهزة بشرفات للدفاع عن الحصن في حالة الهجوم عليه. وقــد يأوي النطاق المحصن بعض الأدوات الضرورية كالصّهاريج التي تستقبل مياه الأمطــار، أو مخازن السلاح والمؤونة. وخارج هذا الحزام المحصن في اتجــاه المنحــدر، تتشــكل أرباض الحصن حيث سكن الجند وعائلاته، إلى جانب بعض الحرف الضــرورية للحيــاة اليومية حول الحصن.

ودون الدخول في تفاصيل الأمثلة من الحصون التي درسها الباحثون السابقون فــي إقليم بلنسية، يمكن القول إن الدراسة أثارت نقاشا واسعا في الأوساط العلميــة المهتمــة. وأكثر من ذلك واجهت انتقادات مختلفة وأحيانا عنيفــة منهــا: مــا لاحظــه MIKEL de

---

(1) - Les châteaux ruraux…, op. cit , p. 25, 29, 30, 31, 32.
GUICHARD (P) ; Château et communauté rurale dans l'Espagne musulmane du XIIè siècle : Les textes et l'archéologie. dans : **L'Espagne et la Sicile musulmanes aux XI et XIIè siècles**, P.U.L, 1990, pp 196, 201.

(2) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E); Histoire de l'Espagne…, op. cit, T. 3, p. 59, 60, 61, 62.
MAZZOLI-GUINTARD (Ch) ;Châteaux et rebelles : L'exemple de l'al-Andalus à la fin du IXè siècle. dans:Châteaux, nobles et aventuriers : **3è rencontre internationale d'archéologie et d'Histoire en Perigord, Perigueux**, 27. 29 Septembre, 1996, Bordeaux. 1999. pp 19, 49.

EPALZA[1] الذي انطلق بدوره من نظرية عامة حول الحضارة الإسلامية قائمة على ثنائية المدينة والريف، والغلبة في نظره للمدينة لأن الحضارة الإسلامية ساد فيها الطابع الحضري. ولذلك فمصطلح "البقار" ليس حصنا أو ملجأ حمائيا للسكان، بقدر ما هو خزان تمويني أو غذائي تودع فيه البهائم التي يقدمها العالم القروي للمدن والحواضر المجاورة. إن غلبة المدينة وحمايتها للريف تدفع بهذا الأخير إلى ضرورة توفير حاجياتها باعتباره مجالا احتياطيا في التغذية[2]. أما الباحث R. AZUAR RUIZ[3] فدرس بدوره بعض المواقع بشرق الأندلس خاصة دانية ولقنت معتمدا على المعطيات الميدانية، الأركيولوجية والطبونيمية، ودافع عن أطروحة تعدد وظائف الحصون. ولقد بيَّن أهميتها في النظام السُّسيوإداري الأندلسي، مشيرا إلى أن الحصن الإسلامي لا ينطبق على الكلمة بالمعنى المادي، أو يقتصر على الجانب الدفاعي فحسب، وإنما يُفهم في إطار تطورات العالم الريفي على المستوى البشري كذلك. فالسكان هم الدَّعامة الأولى التي يرتكز عليها فهم وظائف الحصون[4]. فعلى السكان يُمارس الحصن تأثيره في مجال القضاء أو الإدارة مثلا، وليس على المجال[5] كما ذهب إلى ذلك كل من - BAZZANA- CRESSIER GUICHARD. ثم إن المجال ذاته قد يضم حصونا قوية ومهمة كالقنت[6]، أو ثانوية وهي بمثابة قرى. أما العلاقات ما بين الحكم المركزي (السلطة) والسكان فتتم بواسطة الولاة أو القواد الذين يحاولون التحكم في السكن بطرق متعددة. ولاحظ الباحث Acién Almansa[7] من جهته أن التفسيرات التي قدمها مؤلفو "الحصون الأندلسية"، وإن كانت مهمة وجدِّية، لا يمكن تعميمها أو تصديرها إلى جهات أندلسية أخرى[8] لأنها مبنية على خصوصيات المجتمع القبلي في شرق

---

(1) - EPALZA (M. de); Funciones ganaderas de las albacares.. . op. cit, pp. 47, 55.

(2) - نفسه، ص. 48.

يصعب الإتيان برأي EPALZA لأسباب منها أن ثنائية المدينة والريف لا يمكن تعميمها في كل أنحاء العالم الإسلامي بشكل يجعل الريف تابعا باستمرار للمدينة. إضافة إلى ذلك، إذا كان حصن البقار (الملجأ) في مكان مرتفع يصعب ولوجه فمن الصعب أن يخصص مكان للبهائم الذاهبة إلى المدن.

(3) - AZUAR RUIZ (R); Una interpretación del "Hisn" musulman en EL ambito rural , **Revista del Instituto de Estudios Alicantinos, N° 37, 1982, pp. 33, 41.**

(4) - نفسه، ص. 34.

(5) - نفسه، ص. 38.

(6) - (AZUAR RUIZ (R); Castellológia medieval alicantina: área meridional. Alicante, 1981, pp. 213,226.

(7) - ACIÉN ALMANSA (M); Sobre la función..., op. cit, p. 263, 273.

(8) - نفسه: ص. 264.

الأندلس. ولذلك يقترح دراسة التطور البشري والاجتماعي في شبه جزيرة ايبريا منـــذ الفـــتح الإسلامي، وهو أمر معقد وشائك، لكنه يفسّر العديد من القضايا المرتبطة بالتحصين والســـكن. فخلال الفتوحات الإسلامية لشبه جزيرة الأندلس حدثت صــــراعات مختلفـــة بـــين تشـــكيلات اجتماعية قبلية متباينة عرب وبربر من جهة، وأنظمة موروثة مـــن "الفيوداليـــة الأهليـــة"[1] القوطية من جهة ثانية. وفي خضم تلك الصراعات عمت ظاهرة التحصين عبر كل الجهـــات الأندلسية وتعددت وظائف الحصون. فأمهات تلك الحصون أي المدن كانـــت مراكـــز لجمـــع الضرائب من المجموعات البشرية المحيطة بها، إلى جانب كونها ملاجئ للمعارضين والثـــوار من كل صنف سواء من المسلمين المعادين لقرطبة أو من الأهالي، وذلك في فترات تاريخيـــة محددة. ومن أمثلة ذلك حصون دوش أمانتش، وبلدة وقامره[2] وغيرها.

وفي مرحلة انتقالية بنت قرطبة مجموعة من الحصون بتعاون مع السكان المحليـــين، وكان الهدف منها صد الهجمات التي تنطلق من الحصون الأولى. ولذلك يُفهم لماذا كانـــت تلك الحصون تُملأ بالمؤونة والذخائر والمرتزقة، مثل ما حدث في حصن ذكوان[3] الـــذي كان يقوم بدور حماية التجمعات القبلية المجاورة. ولما استقرت الأوضاع اتجهت الخلافـــة إلى بناء بعض الحصون كطريفة ومربلة لمواجهة الخطر الفاطمي الشيعي[4]. وتَـــمَّ بنـــاء حصن Banos de la Encina بإقليم جيان عام357 هـــ (968 م) من أجل مراقبة المجـــال، وليس لإخماد الثورات كما ادعى ل. بروفنسال[5].

يلاحظ من خلال التحليل السابق مدى الاختلافات بين الباحثين حول أدوار ووظـــائف الحصون في الأرياف الأندلسية. ولعل تفسير ذلك يعود إلـــى الاختلافـــات الـــواردة فـــي

---

(1) - نفسه: ص. 264.

(2) - نفسه: ص. 265.

لقد درس Créssier بعض هذه الحصون من الزاوية الأركيولوجية والطبونيمية في:

Le château et la division territoriale de l'Alpujarra..., op. cit, pp . 115, 144.

Fonction et évolution du réseau castral..., op. cit, pp. 123, 124.

(3) - ACIÉN ALMANSA (M); Sobre la función..., op. cit, p. 265.

اعتمد الباحث في هذا على نص ابن حيان، ج 5، ص. 169، والقائل بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر ببناء «حصن قشتره ذكوان وأدخل فيه يحيى بن زكريا بن أنتله بالحشم والعدة».

(4) - ACIÉN ALMANSA (M);) ... op. cit, p. 266.

(5) - نفسه: ص. 266.

تحدث كل من BAZZANA – CRESSIER – GUICHARD عن حصون المراقبة للطرق الرئيسية والواقعة في المسالك الضرورية للمرور وسموها: (Château d'Itinéraire) انظر:

Les Châteaux ruraux..., op. cit, p. 110 et sv.

المصادر نفسها بصدد أسماء الحصون ودلالاتها. لقد سبق القول بصعوبة وضع لوائح محددة بأسماء تلك الحصون نظرا لكثرتها. وبالعودة إلى النصوص المصدرية نفسها نلاحظ تباينا وتراتبية واضحة في أهمية ووظائف الحصون عبر الأرياف في الأندلس. ويُفسَّر ذلك التباين، فيما نرى، بعاملين أساسيين يتعلق الأول بمواقع الحصون نفسها. ويتعلق الثاني بالظروف السياسية والعسكرية القائمة. وانطلاقا من ذلك يمكن النظر إلى أهمية ووظائف الحصون على الشكل الآتي.

أ - وظائف حصون الثغور

سبقت الإشارة إلى أن السلطة بقرطبة كانت تتعامل مع الثغور باعتبارها أقاليم حربية[1] متميزة عن باقي الكور والأقاليم. ونعتقد أن حصون الثغور كانت تلعب أدوارا مختلفة عسكرية واقتصادية وبشرية. إنها كانت تحمي مجالات الحدود وتحرسها باستمرار من الهجمات المسيحية المحتملة. وتحمي في الوقت ذاته تلك المجالات الخصبة كما هو الشأن في أودية دويره وإيره[2]. وقد ذكرت المصادر دور حصني فان ومان أو التان ومان[3] في إقليم وشقة ودورهما العسكري والاقتصادي. لقد كانت الخلافة تتدخل لبناء أو ترميم حصون وقصبات وتسجل لقوادها عليها قصد ضبطها والتحكم أيضا في محيطها الطبيعي والبشري. فهذا ابن حيان[4] يؤكد اعتناء الخليفة عبد الرحمن الناصر «ببناء قلعة خليفة بجهة طليطلة، وادّخر فيها العُدّة والذخائر، وأخرج إليها قائدا لسكناها وضبطها... وسَجّلَ لقاسم بن مَطرِّف عليها..». والتسجيل على الحصن يعني التصرف في مجاله البشري والاقتصادي شريطة إدرار الجباية المنتظمة على قرطبة. وقد كشفت المصادر عن معلومات كثيرة في هذا المعنى. يذكر العذري[5] في حصون وشقة عام 309 هـ أن فرتون بن محمد بن عبد الملك خرج إلى حصن بليش من أقاليم وشقة و« وردت كتبه إلى

---

(1) - انظر فصل "نظام الثغور" في الباب الأول.

(2)- LÉVI-PROVENÇAL (E): Histoire de l'Espagne..., op. cit, T 3, pp. 60, 63.

(3) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 76.
ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 469، 480.
العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 56.
SÉNAC (Ph); ESCO (C): Une forteresse de la Marche supérieure...,op. cit. pp. 17, 33.

(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 456.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 69.

أمير المؤمنين عبد الرحمن يسأله التسجيل له على وشقة فسجّل... والتـزم قطيعـا مـن الجباية». وجدد له التسجيل عام 319 هـ.

وفي إحدى الحملات العسكرية افتتح الناصر حصن الرقاع (الوقاع) الذي كان لابـن بكر، وتوسّل إليه هذا الأخير ليُقرَّه في حصنه و«دعا إلى إقراره بمكانه على أن يُمحـص الطاعة ويلتزم إدرار الجباية الوافرة »[1]. لكن تكشف المصادر، أحيانا، عـن معلومـات يستفاد منها، عكس ما سبق، أن السلطة السياسية بقرطبة تقدم إغراءات مختلفة كالإعفـاء من الضرائب أو منح استغلال الأرض وغيرها للذين يرغبون في الاستقرار بجوار بعض الحصون المواجهة للعدو المسيحي. فقد حدث أن اشتكى أهل طرطوشة للخليفـة الناصـر «(...) ثقل مغارمهم مع مكانهم من الدنو إلى العدو الشديد الشوكة...وسألوه النظر لهـم فاسقط عنهم الزكوات والصدقات وكتب لهم بذلك عهدا» [2]. وفي عام 393هـ/ 1003 م وجّه عبد الملك المظفر حملة مشهورة إلى حصن مُمَقصر، وأمر بعدم هدمـه لأنـه أراد «إسكان المسلمين فيه... ونادى من أراد للإثبات في الديوان بدينارين في الشهر على أن يستوطن في هذا الحصن فعل، وله مع ذلك المنزل والمحرث..»[3]. ويجـب التـذكير أن هذه الإغراءات ذات الطابع العمراني والبشري (تشجيع السكن والإقامة) والاقتصادي كانت تشكل استثناءا للقاعدة، لأن السلطة كثيرا ما كانت تجبر السكان والفلاحين والجنـد علـى سكنى بعض الحصون والقصبات. ففي سنة 328 هـ «شرع أحمد بن محمد بن إليـاس في بنيان مدينة سكتان الخراب بثغر الجوف، وادّخر بها الأقوات، وألزم الجند سكناها مع من نقل إليها من المُرَحَّلين »[4].

يتبيّن مما سبق أن حصون الثغور تلعب أدوارا مختلفة؛ فهي تقوم بحراسة ومراقبـة العدو على المستوى العسكري، كما أنها تـؤطر المجـال علـى المسـتوى الاقتصـادي والعمراني. وأكثر من هذا قد يُخصّص بعضها لأغراض مُحدَّدة كاستقبال الأسـرى فـي أوقات الحروب، كما هو الشأن في حصون جهة تطيلة خاصة «تاجرة، وغويتر وبقيـرة

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 248، 249.
(2) - نفسه: ص. 468.
(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 6، 7.
(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 457.

التي كانت ملاذا لمن هرب من الأسرى»[1]. وفي مقابل ذلك يتمتع أهل تلك الحصون ببعض الامتيازات حسب ظروف تاريخية محددة يفرضها الجوار المسيحي. وقد سبقت الإشارة أيضا إلى ظاهرة التحبيس لفائدة حصون الثغور في ميادين الأرض والعقار والغلل والدّواب وغيرها[2]. ولذلك لا نتفق مع Guichard[3] حين تحدث عن حصون من نوع "سنيوري" في الثغور.

ب - وظائف حصون الخلافة

لاحظنا سلفا[4] أن السلطة الأموية بقرطبة عمدت في مطلع القرن الرابع الهجري إلى هدم واسع للحصون الموروثة من عهد الإمارة لأنها كانت ترى فيها أداة عسكرية وبشرية تهدد كيانها. ولم يتردد عبد الرحمن الناصر في قيادة الحملات العسكرية بنفسه للإشراف على استنزال معارضيه من حصونهم ومعاقلهم وهدمها. وقد كان في الوقت نفسه يبني بعض الحصون والقصبات ذات الطابع الستراتيجي ويضع فيها الأقوات والعدة من أجل حصار أعداء قرطبة. وحين نجحت سلطة قرطبة بعد سنوات عديدة، في تغيير البنيات التحصينية والبشرية السابقة وتمكّنها من إخضاع المجال الجغرافي الأندلسي تغيرت نظرتها للحصون. وانطلاقا من ذلك يمكن في اعتقادنا فهم وظائف الحصون من خلال ثلاثية تربط الحصن بطبيعة السلطة السياسية القائمة وبمجال جغرافي محدد (الحصن، السلطة، المجال). ففي مرحلة يمكن نعتها بانتقالية وتمتد من مطلع القرن الرابع للهجرة إلى إعلان الخلافة، اتجهت أنظار السلطة إلى بناء قوتها ونفوذها السياسي والعسكري عبر إخضاع المجال الجغرافي أوّلا، ولذلك لعبت الحصون خلال هذه الفترة، سواء تلك الموروثة من عهد الإمارة، أو التي بنتها سلطة قرطبة في الأقاليم الأندلسية، وظائف عسكرية بالدرجة الأولى. وانتهت المرحلة الانتقالية مع إعلان الخلافة بقرطبة سنة 316

(1) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 36.
(2) - ابن سهل: الأحكام الكبرى...، مخطوط ص. 155، 317.
ابن رشد: الفتاوي...، مصدر سابق، ج 3، ص. 1340 و 1401.
الونشريشي: المعيار...، ج 7، ص. 151، 218.
LAGARDÈRE (V) ; Histoire et société en occident musulman au Moyen Age, Analyse du Miyàr d'Al-Wansarisi, Madrid, Casa de Velazquez, C.S.I.C, 1995, p. 165 et sv.
(3)- GUICHARD (P): Château et pouvoir politique, dans: Fortificaciónes en Al-Andalus, op. cit, pp. 25, 31.
(4) - انظر بداية هذا التفصيل.

هـ، وبدأت فترة جديدة تزامنت مع إرساء قواعد الدولة في كـل المجـالات خاصـة أن الخلافة قد نجحت في إقصاء المعارضين وإخضاع كل المجال الأندلسي، إضافة إلى بنـاء جيش نظامي جديد، جند الحضرة[1]، الذي أصبح أداة فعالـة يمكـن اسـتعمالها لإخمـاد الثورات أو لمراقبة كل المجال الجغرافي الواسع والخاضع لسلطتها. وبتعبير آخـر، حـلّ جند الحضرة القوي محل بعض الحصون التي كانت تلعب الأدوار العسـكرية بالدرجـة الأولى. والدليل على اعتماد قرطبة على جند الحضرة وإمكانية اسـتعماله فـي ميـادين متعددة، إرساله مرات متعددة لقمع الثورات أو لردع الرافضين لتأدية الضـرائب. فهـذا الوزير عبد الحميد ابن بسيل توجّه بالجند إلى سكان إحدى الجهات لأنهم، «امتنعوا عـن أداء الجباية وخرجوا إلى المعصية... فلما بلغهم خروج الجيش إليهم أقلعوا عما همّوا به ولاذوا بالطاعة وسألوا الأمان »[2].

إن قوة ونفوذ السلطة السياسية بقرطبة وسيطرتها على المجال وامتلاكهـا لجنـد قوي انعكس بشكل مباشر على التحصين. لقد أجمعت المصادر على أن عصـر الخلافـة خاصة عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور بن أبـي عـامر، تميز بالاستقرار والتطور في المجالات الاقتصادية والبشـرية والعمرانيـة. ولاشـك أن الحصون قد ساهمت بشكل من الأشكال في ذلك التطور، ولا غرابة إذا تحدثت المصـادر عن الحصون القرى أو الحصون المدن. أي أن الحصن، الذي يتطابق أحياناً مع القرية أو المدينة، يكون مركزاً لأنشطة اقتصادية مختلفة، وأكثر من ذلك يمكن اعتبارهُ أداة عمرانية هامة تساهم في تأطير المجال على المستويين الاقتصادي والبشري، وذلك تحت إشـراف عمال وولاة الخلافة الذين يُعَيَّنُون في الكور والأقاليم ويتخذون من الحصون والقصبات مقراً لسكناهم وتواجدهم[3]. إن التحول الذي طرأ على وظيفة الحصون مرتبط الى حد بعيد، فيمـا نرى، بالأوضاع السياسية والعسكرية القائمة بقرطبة. وهذا التحول لا يعني أن الحصون قـد تخصَّصت في أنشطة اقتصادية معينة ومحددة أو كان بعضها «محطات تجارية، ممَّا يشـير إلى تحول نمط الإنتاج في اتجاه تغليب الطابع التجـاري». كمـا أشـار إلـى ذلـك أحـد

---

(1) - انظر فصل: الكور المجندة وجند الحضرة في الباب الأول.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 486.

(3) - انظر لوائح بأسماء مختلف العمال والولاة الذين عُيّنوا من قبل الخلافة في الأقاليم والكور الأندلسية المختلفة في؛ ابـن حيـان: المقتـبس...، ج 5، ص. 376، 377، 468، 488، 489؛ العـذري: ترصـيع الأخبـار...، ص. 69، 115، 121.

الدارسين[1]. يجب انتظار القرن السادس الهجري (XII م)، للحديث عن «الحصون العامرة التي هي حواضر مُمَدَّنة » [2] كما يتبين من مصادر القرن السادس نفسها.

إن الاستقرار الاقتصادي والسياسي والعسكري الذي طبع عصر الخلافة، جعل هذه الأخيرة تتطلع إلى منافسة أعدائها خارج المجال الجغرافي الأندلسي، سواء في الثغور الشمالية المسيحية أو في شمال إفريقيا. نتج عن ذلك، الاهتمام بحصون أخرى غلب عليها طابع المراقبة أو ما يمكن أن نطلق عليه "الحصون الثكنات" التي كانت تخصص لتجميع الجند الخلافي قبيل أو أثناء الحملات العسكرية خاصة تلك الذاهبة إلى الثغور.

والمُتَمَعِّن في خريطة شبه جزيرة إيبيريا يلاحظ أن الخلافة بنت أو رمّمت سلسلة من الحصون والقصبات. وهي على شكل خط استراتيجي يمتد من طريفة في أقصى الجنوب ويمر بعقبة البقر شمال قرطبة لينتهي في عرماج (غرناج) جهة الثغور شمالاً. أي أن حصن طريفة أنشئ لمراقبة التحركات الفاطمية في شمال إفريقيا واستقبال الجند القادم من هناك إلى قرطبة أو إلى الثغور. ورُمِّمت قصبات مالقة والمرية للغرض ذاته[3]. وكان حصن سُهيل غير البعيد عن مالقة (إقليم ريَّة) يُراقب البحر، وهو لا يترك أيا كان صغيرا أم كبيرا يتجه نحو الساحل دون أن يُرى[4]. وبُني حصن عقبة البقر في المرتفعات المطلة من الشمال على قرطبة ليحرسها، ويستقبل أيضا الجند باعتباره محطة عسكرية أساسية نحو الشمال أو نحو الجنوب. أما حصن عرماج في عمل صوريا على نهر دويره، فهو آخر محطة عسكرية هامة قبيل الثغور.

ج - وظائف حصون الطوائف

بمجرد انتهاء القرن الرابع الهجري، انهارت سلطة الخلافة الأموية القوية، وانحصر نفوذها في كافة المجالات، وأصبحت عاجزة عن مراقبة المجال والتحكم في الأقاليم والثغور. وقد أثر ذلك بشكل مباشر وسلبي على عملية التحصين والعمران العسكري. لقد توقف الانتعاش الاقتصادي والعمراني والأمني الذي أرست الخلافة قواعده، وعاد هاجس

---

(1) - الطاهري (أ): عامة قرطبة...، ص. 60.

(2) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569، 571.

لاشك أن الإدريسي وهو من أهل القرن السادس قد عكس تلك التحولات التي طرأت على البنيات التحصينية والحضرية، ففي هذه الفترة أصبح لفظ الحصن المدينة أو الحصن الحاضرة أكثر تداولا.

(3) - ACIÉN ALMANSA (M); La fortificación en Al-Andalus…,op.cit, p.20. Sobre la funcion…,op.cit, p. 266.

(4) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99.

الأمن إلى الواجهة ليُذكّر بالأوضاع التي عمّت الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري. ولاشك أن ظاهرة اتخاذ الحصون والاحتماء بها قد غدت من السمات البارزة للعصر الطائفي الجديد. وقد عبر أحد الدارسين[1] عن هذا الأمر بدقة انطلاقا من نموذج إشبيلية العبادية بالقول إن التحصين أصبح من أولويات الاهتمام العمراني، نظرا لتحول جل المناطق والأقاليم الأندلسية إلى ثغور، واضطرت القرى إلى اتباع ذلك التحول، وذلك عبر تحصينها أو تهميشها. وهكذا حل الحصن من جديد محل القرية والمدينة. وللوقوف عند مظاهر مختلف التحولات السالفة الذكر في ميدان العمران العسكري، يكفي أن نقرأ بنوع من التّأنّي بعض نصوص "**كتاب التبيان**" الذي يُعد مؤلفه أحد المعاصرين لتلك التحولات، بل من المشاركين فيها بشكل فعال، يقول ابن بلقين[2]:«فلما تمّت الدولة العامرية وبقي الناس لا إمام لهم، ثار كل واحد بمدينته، وتحصن في حصنه، بعد تقدمة النّظر لنفسه، واتخاذه العساكر، وادخاره الأموال...». وعبر صاحب الذخيرة[3] عن هذا المعنى بالقول: «كان كل واحد يختفي عن قرنه بقصره ويُطيل الهز لسيف غيره، ويسّلُه على جاره، حتى غدا ذلك السيف مسلولا عليه..». ولقد سلك أمراء بني زيري هذا المنحى منذ البداية كما يتضح من كلام زاوي بن زيري لأهل إلبيرة: «أرى من الصّواب أن نرتحل عن هذه المدينة، ونختار لأنفسنا، فيما يقرب منها معقلاً نأوي إليه بأهالينا، وأموالنا، ونجعله وراء ظهورنا، ونسند إليه ظهورنا فإن الحرب سجال..» [4].

إن إخضاع الحصون خاصة تلك القريبة من المدن من شأنه أن يُقوّي ويُضاعف النفوذ السياسي والعسكري، بل والاقتصادي للذي يخضعها. ولقد عبر ابن رشد[5] عن ذلك لما أشار إلى أن أحدهم استبد بحصن شقورة لأعوام يُجبي الفوائد و"يضرب الضرائب على الرعايا". مما يبيّن التحكم الإقليمي في الحياة الاقتصادية عبر السيطرة على الحصون. وأكد ابن صمادح صاحب ألمرية ذلك إثر نزاعه الدائم مع الأمير عبد الله حول بعض الحصون، بالقول: «هيهات! ليست تُملك الأقطار إلا بالبنيان والسيف..»[6].

(1) - **الطاهري: عامة إشبيلية...**، ج 1، ص. 22، 70، 79...
(2) - **ابن بلقين: كتاب التبيان...**، ص. 58.
(3) - **ابن بسام: الذخيرة...**، ق 2، م 1، ص. 253، 254.
(4) - **ابن بلقين: نفسه**، ص. 60.
(5) - **ابن رشد: الفتاوي...**، ج 1، ص. 288، 289.
(6) - **ابن بلقين: المصدر السابق**، ص. 112.

إذ يعدُ بنيان الحصون وتعدادها ومواقعها من المفاخر والمباهاة أمام الأعداء. يقــول ابــن بلقين: «وكان عدة ما بُني عليه (صاحب المرية) سبعة حصون... وإنــي إنمــا بنيتهــا صولة وتهيبا..» [1]، وأضاف: «فأعلمت بصخرة دومس ولا معنى لرية إلا بها، وهي موسطة البلد.. فلو انتزعت تلك الشوكة كان أمر غيرها يسيرا... » [2] .«أما حصــن منت ملون فلا سبيل إلى مالقة إلا بالراحة منه» [3]. وكذلك الأمــر بالنســبة لحصــني قامشره ومارتش،«المعقلين اللذين... لم يكن لجيان معنى إلا بهما..» [4] مكـرر. لقد تجلــت أهمية التحصين في الأمثال الشعبية الأندلسية نفسها كما يتبيّن من إحــداها حــين تقــول: «حصني ولا من يقسني» [5]. لاشك أن المسيحيين الذين كانوا يتربّصون بالأندلس كــانوا على بيّنة بأهمية الحصون الأندلسية خاصة إبان الأزمات كما هو الشأن خلال الطوائــف. ولذلك جعلوا منها ومن الجزية أدوات فعالة تضمن توغلهم في عمق الأندلس. ويكشف عن ذلك، الحوار الذي دار بين المامون بن ذي النون صاحب طليطلة وأحد زعمــاء الإفــرنج الذي لم يُخفِ رغبته في الحصون حين قال: «وحق الإنجيل لا نجوت مني حتى تعطيني الحصن الفلاني والحصن الفلاني، وسمّى حصونا من المسلمين بين طليطلة، وتجعل لــي مالا في كل سنة..» [6].

إن العودة إلى الصراعات العسكرية والتسابق نحو الحصون وبنائها أو ترميم القــديم منها والاعتزاء بها وإشهار القوة على الجار، يؤثر بشكل مباشر على السكان وأنشطتهم، بل أصبح الحديث في المصادر عن السكن المحصن وبحث السكان عــن الحمايــة والارتبــاط بالحصون وقد عبرت نوازل فقهية متعددة عن هذه الظاهرة في مناسبات عديدة منها: انتقــال الناس من القرى إلى حصن من الحصون[7]، أو جلتهم الفتن إلى حصن وسكنوا و «صــار

---

(1) - نفسه: ص. 113.
(2) - نفسه: ص. 114.
(3) - نفسه: ص. 114، 115.
(4) - نفسه: ص. 102.
(4) مكرر -نلاحظ أن مصادر عصر الطوائف خاصة "كتاب التبيان"، تستعمل في التحصين ألفاظا ومصطلحات أكثر دلالة إذ تعكس أكثر ظاهرة الخوف وانعدام الأمن والحماية كغلبة لفظ المعقل والصخرة. استعمل الأمير عبد الله لفظ "المعقل" 22 مرة، ولفظ "القصبة" 14 مرة، والحصن 14 مرة كذلك.
(5) - الزجالي: أمثال العوام...، ج 1، رقم: 841، ص. 211.
(6) - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب... قسم المغرب...، مصدر سابق، ص. 147.
(7) - ابن رشد: الفتاوي...، ج 2، ص. 783، 784.

أهل كل قرية إلى ناحية من الحصن وبنوا »[1]، «وقرية سكنت بجانب حصن من الحصون»[2]، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تعكس بوضوح تأطير الحصون للسكان الذين يبحثون عن الملاذ والأمن المفقودين خلال الصراعات الطائفية الطائفية أو الطائفية المسيحية.

---

(4) - **ابن الحاج**: النوازل، مخطوط ص. 121، 145.
(5) - **نفسه**: ص. 116.

خلاصة

اتضح من خلال تتبع المادة المصدرية المتنوعة الواردة في حصون الأندلس، غزارة تلك المادة وغناها. لكن لاحظنا في الوقت نفسه أنها لم تستغل بما فيه الكفاية من قبل البحث العربي المعاصر الذي ما يزال عند التصور الكلاسيكي الذي ينظر إلى الحصون باعتبارها مؤسسات عسكرية سياسية أو معمارية. إن غزارة النصوص والإشارات حول الحصون في متون المظان المختلفة يتطلب أوّلا رصد تلك المادة واستغلالها في اتجاه يبدأ من العملية التاريخية نفسها، أي محاولة وضع لوائح أولية للحصون[1] والمواقع الهامة عبر الأقاليم والكور اعتماداً على المصادر المعاصرة للخلافة والطوائف بالدرجة الأولى. إن من شأن ذلك أن يساعد على توثيق وتوطين ثم تصنيف الحصون والمواقع حسب الأقاليم. كما يساعد في تتبع أصولها وأهميتها بحسب المراحل التاريخية، خاصة أن الكثير منها قد تعرض للتلف بفعل عوامل متعددة طبيعية وبشرية وسياسية.

بعد القيام باستعراض لائحة أوّلية من الحصون الهامة عبر مختلف الأرياف في الأندلس حاولنا القيام بقراءة أولى في أدوارها ووظائفها، انطلاقا من مجموعة من المعطيات لها علاقة بالمجال الاقتصادي والبشري والجغرافي، وبطبيعة السلطة السياسية القائمة في قرطبة. هكذا ميّزنا بين وظائف حصون أقاليم الثغور ذات الطبيعة الحربية، ووظائف حصون الخلافة والطوائف عبر باقي الكور والأقاليم. واتضح أن حصون الثغور قد جمعت ما بين الوظائف العسكرية والاقتصادية والعمرانية نظراً لمواقعها في مواجهة المسيحيين. وميزنا في حصون الخلافة ما بين مرحلتين أساسيتين، ارتبطت الأولى بانشغال سلطة قرطبة قبل إعلان الخلافة بإرساء بنياتها وأسسها في المجال الجغرافي وفي الميدان السياسي والعسكري. ولذلك تميزت حصون هذه المرحلة سواء تلك الموروثة من الإمارة، وهي كثيرة، أو التي بنتها قرطبة بالأداء العسكري بالدرجة الأولى لأن هاجس إخضاع المجال والمعارضين كان أقوى. وبعد التغلب على المعارضين والسيطرة على المجال وبناء جند مركزي قوي (جند الحضرة) بقرطبة، وإعلان الخلافة بدأت المرحلة

(1) - لاشك أن هذه العملية وحدها تتطلب مجهودات كبيرة نظراً لكثرة الألفاظ والمصطلحات المرتبطة بالتحصين وغموض بعضها. ناهيك عن كثرة وتنوع المصادر وقد سبق القول إن أحصينا في القطعة الخامسة من المقتبس لابن حيان، وحدها أكثر من مائة وثلاثين حصناً.

الثانية في تاريخ التحصين. لقد أدت الوضعية الجديدة المتسمة بالاستقرار والأمن والانتعاش الاقتصادي، إلى تحول في وظائف الحصون، بحيث أصبح الحصن المرادف للقرية أو المدينة يؤطر المجال اقتصاديا وعمرانيا وبشريا وذلك تحت إشراف ممثلي السلطة المركزية أي الولاة والعمال في الأقاليم. وإلى جانب ذلك، اهتمت سلطة قرطبة القوية سياسيا وعسكريا (هي قوة إقليمية كبرى في الغرب الإسلامي)، بإنشاء نوع آخر من الحصون لعب دوراً هامّا في مراقبة تحركات ومجال أعدائها سواء القوى المسيحية في الشمال أو القوى الفاطمية في الجنوب. وهكذا أنشئ خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري خط من الحصون يمتد من طريفة جنوبا إلى غرماج في الثغور شمالاً.

وبانتهاء الخلافة وحلول الطوائف في مطلع القرن الخامس الهجري حدث تحول عميق آخر في وظائف الحصون. لقد عاد هاجس الأمن والحماية إلى الواجهة بفعل الانقسامات السياسية والعسكرية التي طبعت دويلات الطوائف. وأصبحت الحصون مركزاً للحياة من جديد، ولذلك صار التهافت والتسابق نحو بنائها أو ترميم القديم منها عملة رائجة مما أدى إلى تهميش الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والبشرية التي كان الحصن نواتها في العصر الخلافي السابق.

تجدر الملاحظة إلى أن بعض الأبحاث الأجنبية المعاصرة قد اهتمت بالتحصين بالأندلس من الزاوية الأركيولوجية، وخلال فترات تاريخية مختلفة. وتمكنت من الكشف عن العديد من المواقع الإسلامية الهامة، وبينت بعض خصائصها المعمارية وطبيعة مواد البناء فيها. ويمكن القول إن كتابة تاريخ التحصين في الأندلس خاصة خلال الخلافة والطوائف، التي تعرضت جل حصونها إلى التلف بفعل عوامل متعددة، يتطلب، إلى جانب البحث التاريخي المصدري تضافر جهود باحثين في حقول معرفية أخرى كالآثار والطبونيميا والجغرافيا. وإن من شأن ذلك أن ينير الكثير من القضايا التي لا تزال في بداية البحث.

الفصل الثاني

القصبات والأسوار في المدن

على غرار الحصون في الأرياف الأندلسية، أوردت المصادر فيضا من المعلومات حول القصبات والقصور والأسوار والخنادق والأبراج التي ميّزت المدينة الإسلامية في شبه جزيرة إيبريا وشكلت جزءا هاما من بنياتها العمرانية والدفاعية منذ تأسيسها. وإذا كانت الحصون في الأقاليم قد أثارت قضايا مرتبطة بالأصول وصعوبة التوطين، فإن القصبات والقصور والأبراج لا يزال بعضها قائما في المدن الرئيسية على امتداد الأندلس، لكن أُدخلت عليه ترميمات وتعديلات كثيرة مما يصعب معه رصد مختلف التحولات التي تعاقبت على البنيات المحصنة في العالم الحضري منذ البداية.

سبقت الإشارة إلى أن المصادر تخلط، أحيانا، أو تنعتُ الحصن بالمدينة الآهلة والعامرة[1]. إنّها تنعتُ كذلك المدينة بالقصبة لأن «قصبات الأندلس هي مدن مثل طليطلة، وسرقسطة، وماردة وإشبيلية»[2]. وتعتبر القصبات النواة الأولى التي ينطلق منها توسُّع المدينة[3].

وتقدم المصادر إشارات ومعلومات مفيدة في أصول المدن وتحصيناتها المختلفة.

أ - الأصول

يمكن الحديث عن المدن التي وجدها المسلمون في شبه جزيرة إيبريا وقت فتحها، وهي في الغالب الأعم من أصل روماني وقوطي، والمدن التي أُحدثت وتطورت خلال الفترة الإسلامية وفق ظروف متعددة وفترات تاريخية محددة. يرى الرازي[4] وهو من أقدم الذين كتبوا عن المدن المحصنة أن إقليم تطيلة كان يضم مدنا كثيرة، وحصن أرنيط كان ذرعا للمسلمين وهو مدينة قديمة جدّا. ومدينة باجة هي أيضا من أقدم المدائن لأنها تعود إلى عهد القياصرة[5]. أما قرمونة فمدينة قديمة شرق إشبيلية قوية

---

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 569، 571.
(2) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 307.
(3) - انظر أهمية القصبات في المدن الأندلسية في:
IZQUIERDO BENITO (Ricardo); Las alcazabas en Al-Andalus : sentido y funciones. dans : Fortificationes en Al-Andalus..., op. cit, pp. 103,110.
(4) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 77.
(5) - نفسه: ص. 87.

بأسوارها[1]. واستجة بدورها مدينة قديمة تقع على نهر شنيل[2] الذي ينبع من جب الثلج. ويتفق الرازي مع الإصطخري[3] الذي أشار إلى أن مدن الأندلس كلها "جاهلية" إلا بجانة. يقول في هذا المعنى: «ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقسطة ولاردة، ووادي الحجارة، وترجالة، وقورية، وماردة، وباجة، وغافق ولبلة، وقرمونة، ومورور، واستجة ورية، وهي كلها مدن عظام، وليس فيها ما يُقارب قرطبة في العِظم والكبر، وأكثر أبنيتها من حجارة وهي أبنية جاهلية لا تعرف فيها مدينة محدثة إلا بجانة..»[4]مكرر. لم تبخل المصادر اللاحقة للإصطخري والرازي في إبراز قدم وأهمية المدن عبر شبه جزيرة الأندلس، وكيفية توسيع بنياتها وتطويرها خلال العصر الإسلامي. كما بيَّنت في الآن نفسه الهدم والخراب الذي طال الكثير منها خلال فترات تاريخية مختلفة. يرى ابن حيان[5] أن مدينة أريولة أقدم مدن تُدمير وأمنع معاقلها اتخذها «الأعاجم في الدهر الأول ملجأ، فاستبلغت في تقوية أركانه..» . ومدينة استجة "كانت في الجاهلية ذات شان [6]. أما مدينة سرقسطة فبناها «القوط وسورها من الكَذان الأبيض المنجور الذي يُشبه الرخام الأبيض..» [7]. وقال بصددها الحميري[8] إنها تُعرف بالبيضاء لكثرة جصها وجيارها. وزارها الزهري[9] الجغرافي الكبير وعاين تحولاتها خلال منتصف القرن السادس الهجري (XII م)، وذكر أن بنيانها من عمل قسطنطين، وسورها

---

(1) - نفسه: ص. 94.
(2) - نفسه: ص. 99.
(3) - الإصطخري: المسالك والممالك...، ص. 35.
(4) - نفسه: ص. 35.
(4) مكرر - اعتمد الباحث L. Torres Balbas على البحث المعماري والطبونيمي في بعض مواقع المدن ووضع لائحة بحوالي 22 مدينة محدثة لأسباب متعددة أهمها استراتيجي وعسكري.
« Ciudades Hispano musulmanas de nueva fundacin » Etudes d'Orientalisme dédiées à Lévi-Provençal, Paris, Maisonneuve- La Rose, 1962, T. 2, pp. 781, 803.
(5) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 128.
(6) - نفسه: ص. 55.
(7) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 70.
ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 150.
(8) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 319.
(9) - الزهري (أبو عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري): كتاب الجغرافية، تحقيق: صادق (محمد حاج)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت، ص. 81.

من الكذّان، ومن عجائبها أنها مردومة. وأوضح الإدريسي[1] في السياق ذاتــه أن مدينــة سرقسطة من قواعد الأندلس لها سور من الحجارة حصين[2].

ومن المدن القديمة أيضا سمورة دار الجلالقة التي غزاها الخليفة عبد الرحمن الناصــر، وهي من بنيان الملوك السالفة[3]، وقاعدة من قواعد الروم[4] على ضفة نهر كبير. ومدينة وشــقة شرق سرقسطة أولية قديمة[5]. وماردة إلى الجوف من قربة، «كانت مدينــة ينزلهــا الملــوك الأوائل فكثرت بها آثارهم..» [6]. أما إلبيرة "ف" «أزلية خربها باديس بن حبوس..» [7].

ويبدو من خلال هذه النماذج من المدن المؤسسة في شبه جزيرة إيبريا قبل مجيء المسلمين إليها أنها كانت قواعد هامة وحصونا قاومت المد الإسلامي. ولذلك لــم يتــردد الأمراء ثم الخلفاء وخاصة عبد الرحمن الناصر خلال النصف الأول من القــرن الرابــع للهجرة، في إخضاعها أو تدمير أجزاء منها وبناء أخرى، أو الاحتفاظ بقصباتها وقصورها لتُستغل من قبل ممثلي السلطة المركزية في قرطبة أو من قبل الجند. ومن المدن أيضــا- ما أعيد بناؤه. يقول العذري[8] بصدد وشقة إن الأمير محمد بن عبد الملك صرف «ثلاثة عشر ألف دينار كثمن بيع سبي النصارى عام(290 هــ/903 م)، في بنيان مدينــة وشــقة وإتقانها» . وفي سنة (276 هــ/889م)، انتفض بكر بي يحيى واقتعد مدينة شنت مرية من كورة أكشونبة وبناها حصنا اتخذ عليها أبواب حديد[9]. ومن المدن الهامة التــي أحــدثت عصر الخلافة مدينة سكتان جهة الثغور. يقول ابن حيان[10]:«فيها (329 هــ/914 م) استتمّ الوزير القائد أحمد بن محمد بن إلياس بنيان مدينة سكتان، من قاصية الجــوف، وشــحنها بالرجال، وأعدّ فيها الأطعمة والأسلحة». ولما توجه الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى جهة

---

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص.570.

(2) - انظر بعض التفاصيل في الأنظمة الدفاعية لسرقسطة في:

SOUTO (J.A) . Sistemas defensiros andalusies..., op. cit, p.275, 285.

(3) - المقري: النفح ، ج1، ص.355.

(4) - الحميري: الروض المعطار...، ص.324.

(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص.56.

(6) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص.119.

(7) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.69؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص. 569؛ المقري: نفسه، ص. 150؛ الحميري: نفسه، ص.48.

(8) - العذري: نفسه، ص.56.

(9) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص.137.

(10) - ابن حيان: المقتبس ..، ج 5، ص.465،456.

طليطلة سنة(318هـ/930م) احتل بمَحلّة جرنكش و«أمر بالبنيان في جبل جرنكش لمدينة سماها بالفتح، وأرتب لبنيانها سعيد بن المنذر الوزير، وأمر بنقل الأسواق إليها والتمدين لها لتكثر مرافق أهل العسكر بها»[1]. ولما شعر الناصر بأخطار القشتاليين على الثغر الأوسط أمر ببناء مدينة سالم به سنة (335 هـ/946 م). وهكذا «ابتنى (الناصر) مدينة سالم القديمة التعطيل بالثغر الأوسط الشرقي المواجهة لبلد قشتيلة (دمّرها الله)، وهي يومئذ خالية مقفرة، وأرسل لذلك غالباً مولاه، في جيش جرّده معه من الحضرة، وأنفذ العهد إلى قوّاد الثغر بالاجتماع إليها لبنيانها... ونقل إليها البناؤون من بلاد الثغر للاختطاط لديارها..» [2].

ومن المدن التي احتفظت الخلافة بقصباتها وأسوارها وقصورها، أو عملت على بناء قصباتها من أجل إعادة ضبطها وإسكان الجند أو ممثليها فيها، نذكر ببشتر قاعدة عمر بن حفصون التي أخضعها الخليفة عبد الرحمن الناصر عام (316 هـ/928 م)، وأمر بهدمها عن آخرها «حاشى القصور والقصاب التي أبقى لعماله وحشمه، الذين بوّأهم للمقام بها، فدُكّت أسوارها، وحُطّتْ أعلامها، واعتدت قاعاً صفصفاً..» [3]. وأشار ابن عذاري[4] إلى أن الناصر لما افتتح مدينة ببشتر قلّد أمرها سعيد بن المنذر لضبطها وأكمل البنيان فيها. وأضاف أن الخليفة تَجَوّل في المدينة ولاحظ حصانتها وعلوها و «دبَّر بنيان قصبتها على أحسن ما دبَّرهُ وأحكمه في غيرها..» [5]. وفي العام(317هـ/929 م)، أخضع الخليفة مدينة باجه «وندب فيها قوة وأكثف لها الجمع والعدة، وأمر بابتناء قصبة فيها ينفرد فيها العامل عليها ويسكنها برجاله..»[6]. وذكر ابن حيان[7] أن إستجة القديمة البنيان هدَّمها الخليفة الناصر ولم يُبق فيها إلا« القصر لسكنى العمال والقواد».أما إلبيرة المدينة

---

(1) - ابن عذاري: نفسه، ص. 203. قال Torres Balbás إن مدينة الفتح (chalencas) كانت قاعدة أساسية ما بين قرطبة وطليطلة، كان هدف الناصر من إنشائها هو إخماد الثورات الدائمة في تلك الجهات. لكن يبدو أنها قد تكون كذلك محطة أساسية نحو الثغر الأقصى المواجه للإفرنج.

TORRES-BALBÁS (L) ; Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundacion..., op.cit, p. 792.

(2) - ابن عذاري: نفسه، ص. 214.

ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 60.

(3) - ابن حيان: المقتبس...،ج 5، ص. 232.

(4) - ابن عذاري: البيان...،ج 2، ص. 196.

(5) - نفسه: ص.196.

(6) - ابن حيان: نفسه، ص.248.

(7) - نفسه:ص.55.

"الأزلية" حسب المصادر[1] فـ«خربها باديس بن حبوس وبنى بنقضها قصبة غرناطة وأسوارها»[2]. نلاحظ من خلال مضمون الإشارات السابقة في بناء القصبات في المدن اهتمام السلطة السياسية بقرطبة بتلك القصبات بل وجودها الفعلي فيها عبر عمالها وولاتها ورجالهم الذين يسكنون تلك القصبات. وإذا كان الهاجس العسكري المرتبط بإخضاع المجال والمعارضين هو المسيطر في بداية تكوين الخلافة، فيمكن القول إن القصبات قد لعبت كذلك أدوارا بشرية واقتصادية باعتبارها كانت مراكز هامة لتحصيل الضرائب من سكان الأرباض[3]. وبذلك تقارن بالحصون في الأرياف والتي سبق القول إنها كانت نشطة، إبّان استقرار الخلافة، في تأطير المجال البشري والاقتصادي.

يظهر أن العصر الطائفي قد شهد بدوره إنشاء القصبات أو ترميم العديد منها وذلك في إطار ازدهار البنيات التحصينية المرتبطة بالتجزؤ السياسي والإقليمي الذي عرفه القرن الخامس الهجري. وقد لاحظ أحد الدارسين[4] أن انتشار الحصون والقصور والمنيات له علاقة بتطور وازدهار النمو الحضري الإقليمي، الطائفي. لقد طال الترميم قصبة غرناطة[5]، وحصن الحمراء[6]، وقصبة ألمرية[7]، ومالقة[8]، وقصور إشبيلية وقصبتها[9] على عهد بني عباد وغيرها. ومن الطبيعي أن تتحصن المدن أكثر خلال العصر الطائفي نظرا للأوضاع السياسية والعسكرية أو الأمنية آنذاك، بل منذ أواخر الخلافة ذاتها. يقول ابن عذاري[10] في بناء المنصور بن أبي عامر لقصره بالزاهرة إنه أمر«ببناء قصره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما استفحل أمره، واتّقد جمره، وظهر استبداده، وكثر حساده.. وبالغ في رفع أسوارها». لكن يظهر أن هذا القصر ومدينة

---

(1) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس ..، ص. 69؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 150.
(2) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.69؛الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص.569؛ المقري: النفح...، ج 1، ص.150.
(3) - IZQUIERDO BENITO (R); Las alcazabas..., op. cit, p. 105.
(4) - TAHIRI (A); « Problemas de una reconstrucion urbana en al-Andalus: el ejemplo de la Sevilla àbbadi ». dans: Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb occidental, Madrid, Casa de velazquez. C.S.I.C, 1998, p. 219, 227.
(5) - ابن بلقين: التبيان...، ص. 58.
(6) - نفسه: ص. 86.
(7) - نفسه: ص. 112، 113.
(8) - نفسه: ص. 114، 115.
(9) - الطاهري: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 59 وما بعدها.
(10) -ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 275.

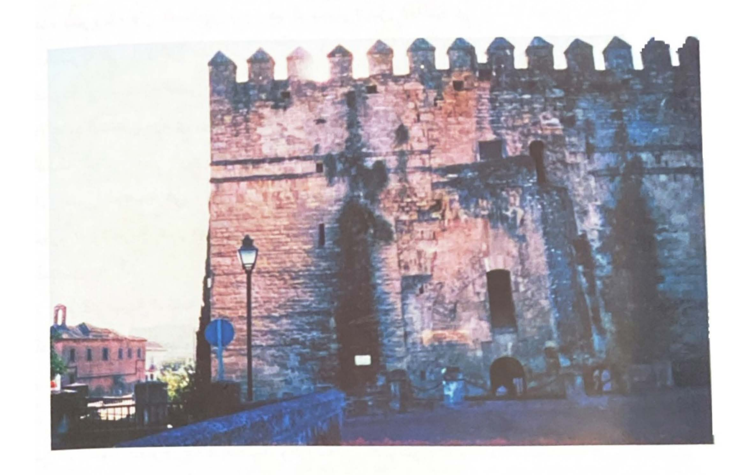
الزهراء كلها قد تعرضت للهدم والتخريب عن آخرها خلال الفتنة التي اشتغلت بقرطبة بعد غياب المنصور بن أبي عامر مباشرة. لقد أقدم محمد بن هاشم على «هدمها وحط أسوارها وقلع أبوابها، وتشعيث قصورها وطمس آثارها»[1].

إلى جانب القصبات تشير المصادر إلى إنشاء مجموعة من القصور التي كانت رمز للسلطة ونفوذها في المراكز الحضرية الأساسية منذ الإمارة. فهذا عمروس بن يوسف قد بنى في عهد الحكم بن هشام القصر على باب جسر طليطلة وأتقن أمره[2].وفي سنة(301هـ/913م) افتتحت طليطلة من جديد وأمر الأميرعبد الرحمن بتجديد القصرالذي كان بناه عمروس[3]. ويذكر ابن حيان[4]في شأن قصر إشبيلية أن حاجب الخليفة الناصر،بدر دخل سنة (301هـ/913م) هذا القصر«فاحتل بالمجلس المعروف بالأخَيْضَر منه».ولما افتتح بدر إشبيلية قلدها سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم فهدّم سورها، وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة، وحصنّه بسور حجر رفيع وأبواب منيعة[5]. يبدو أن القصبات والقصور كانت مقرات دائمة لأصحاب النفوذ السياسي والعسكري التابعين للسلطة المركزية بقرطبة. لكن هل كانت القصبات باعتبارها النواة الأساسية في المدن، تأوي أيضاً الجند الذي يعتمد عليه على المستوى الإقليمي؟ لاشك أنها تأوي القواد بالدرجة الأولى، وقد لا تكفي لإسكان أو إيواء مجموع الجند المتواجد بالمدينة. ومن ثمّة لا نستبعد أن يتخذ الجند سكناه في أحياء أو أرباض خاصة به في المدينة وبجانب السكان داخل الأسوار. وممّا يؤيد ذلك ما ذهب إليه ابنحيان[6] حين أوضح أن الحاجب بدر لما أخضع إشبيلية سنة(301 هـ/913 م)، «كتب أماناً للجند الخارجين من مدينة إشبيلية من الفرسان على الدخول إلى منازلهم منها، وأمر بترك أبوابها مفتوحة».

---

(1) - نفسه: ج 3، ص. 64؛ الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 580؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 111.
(2) - ابن عذاري: نفسه، ج 2، ص. 84.
(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 85.
(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 79.
(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 59.
(6) - ابن حيان: نفسه، ص. 79.
إن تواجد الجند في القصبات أو داخل الأسوار بجوار السكان قد يفيد حمايتهم ومراقبتهم في الآن نفسه. انظر بعض التفاصيل في:
JEHEL(G) ;RACINET (Ph); La ville médiévale de l'occidcnt chrétien à l'orient musulman,V-XVè siècle, Paris, A. Colin, 1996, p. 45, 46.

واجهة لقصر طليطلة



أخذت الصورة في أكتوبر 1997

ب - المـواقـع

تجدر الإشارة إلى أن المدن في شبه جزيرة إيبيريا سواء القديمة منها أو المحدثة كان يراعى في تأسيسها مجموعة من الشروط يمكن تلخيصها في الأمن (المواقع) ووجود المياه وما يرتبط بذلك من المعطيات الاقتصادية والبشرية. وإذا كان الرومان والقوط قد اتبعـوا هذه الشروط، فإن المسلمين بدورهم لم يحيدوا عن القاعدة في إنشاء المدن وتوسيع الشبكة الحضرية في الأندلس منذ القرن الثاني الهجري[1] (الثامن الميلادي). إن أغلـب المـدن القديمة أو المحدثة أنشئ على الأنهار أو بالقرب منها. فبطليوس مثلا تقع علـى "النهـر الأعظم المسمى بوادي يانه" [2]. و"سرقسطة وطرطوشة على نهر إبره"[3]. وتقع تطيلة في الضفة اليمنى لنهر إبره في منتصف الطريق بين سرقسطة وبنبلونة. وقد أنشئت لحمايـة الأراضي الخصبة في وادي إبره، من الهجمات المسيحية[4]. وتطل مدينة لاردة على نهر شقر[5]، وقلمرية على نهر منديكو بالبرتغال[6]. ويعسر سور مدينة طلبيرة بسبب الـوادي المتصل به[7].

وتقع مدينة استجة على نهر شنيل المنحدر من جبال الثلج[8]. أما قلعة رباح فمدينـة كبيرة على واد كبير[9]، ومدريد وطليطلة بالقرب من نهر التاج[10]. وإشـبيلية وقرطبـة بالقرب من الوادي الكبير[11]. إن هذه الأمثلة كافية لتبيان الدور الحيوي الذي تلعبه الأنهار في الحياة اليومية للحواضر الأندلسية. إنها تتزود بالمياه وتقيم عليها الأرحى إلى غير ذلك من الأنشطة الضرورية لساكنتها. وفي مقابل ذلك تقوم الأجزاء المحصـنة فـي المدينـة

---

(1) - TORRES BALBÁS (L); Ciudades Hispano Musulmanas..., op. cit, p. 455.

(2) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص.89.

(3) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 42؛ الرشاطي، و ابن الخياط: الأندلس في اقتباس الأنوار...، ص. 80.

(4) - TORRES BALBÁS (L); op. cit, p. 788.

أوضح أن مساحة المدينة داخل الأسوار (intramuros) وقت احتلالها من قبل ألفونسو الأول عام 1119 م، بلغت 23 هكتارا. نفسه، ص. 788.

(5) - الرازي: نفسه، ص. 74.

(6) - نفسه: ص. 89.

(7) - ابن القطان: نظم الجمان ، ص. 69.

(8) - الرازي: نفسه، ص. 99.

(٩)- ابن حوقل: صورة الأرض...، ص.١١١ .

(١٠)- الإصطخري: المسالك والممالك...، ص.٣٦ .

(١١)- ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.١٠٣ .

خاصة القصبات بحماية الأراضي الخصبة الواقعة في محيطها، أو ما يُعرف بالمجال الحيوي للأنهار حيث الأنشطة الاقتصادية والبشرية قائمة[1]. والحديث عن.مواقع المدن على الأنهار يقتضي إقامة الجسور والقناطر للربط ما بين ضفافها. ولم تغفل المصادر الحديث عن أهمية القناطر وأدوارها خاصة في حصار المدن أو الدفاع عنها في حالة الحروب. وأحياناً كثيرة تعطى الأولوية لبناء القناطر قبل الأسوار. ويتجلى هذا الأمر فيما أورده صاحب أخبار مجموعة[2] من أخبار السمح والي الأندلس الذي تردد في بناء سور قرطبة أو بناء القنطرة في جهتها الغربية وشاور في ذلك الخليفة عمر قائلا: «إن أمرني أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت... وإن أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم، فيقال والله أعلم إن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور، وأن يُبنى السور باللبن إذ لا يجد له صخراً..». ولاشك أن الخلافة الأموية بقرطبة قد استفادت من إمكانيات متعددة وظفتها في تطوير وتوسيع شبكة المواصلات بين المدن الأساسية، وشيدت في الوقت ذاته الكثير من الجسور والقناطر استغلتها في المجال الأمني والعسكري.

لقد سبق القول إنه إلى جانب الأنهار أو الشبكة المائية يتم عادة اعتماد مواقع طبوغرافية دفاعية هامة في تخطيط المدن. وذلك ما لاحظه الباحث المعماري الكبير L.TORRES BALBÁS [3] حين اعتمد في الواقع، علي ابن أبي زرع[4] الذي أشار إلى أن الحكماء قديماً قالوا: «أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها». أما الباحثة Mazzoli-Guintard[5] فصنفت المدن الأندلسية إلى خمسة أنواع.

(1) - **TORRES BALBÁS (L)**; Ciudades..., op. cit, p. 788.
LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 60 .

(2) - **مجهول**: أخبار مجموعة...، ص.31.

(3) -**TORRES BALBÁS (L)**; Ciudades..., op .cit, p. 781.

(4) - ابن أبي زرع (الفاسي): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972، ص.33.

(5) - **MAZZOLI-GUINTARD (Ch)**; Les villes d'al-Andalus..., op. cit, p. 51, 52, 53,54.

1ـ المدينة المرتفعة أو المعلقة (perchée): تقع في منعرج أو في نقطة التقاء نهرين. وعادة ما تكون من حجم صغير مثل رُنده. يمتاز هذا النوع من المدن بصغر نطاقاتها المحصنة إذ لا تتعدى في الغالب نصف هكتار.

2ـ المدينة التقليدية المحصنة في جزئها الأعلى. عادة ما تكون نواتها أو البنية الأساسية فيها على الساحل، كما هو الشأن في ألمرية ومالقة، ودانية والقنت وغيرها. أو على ضفة نهر كما في بطليوس وغيرها. وقد يكون موقعها بعيداً نسبياً عن المجرى النهري أو عن الساحل، كشاطبة وجيان. وفي هذه الحالة تتمتع المدينة بموقع مرتفع نسبيا كأن تكون على هضبة أو تل، كمالقة أو جيان أو غيرها. ولذلك تُؤَسَّس قلاعها على صخرة تُمَيِّزها عن السكن المجاور لها، الشيء الذي ينجم عنه عدم التناسق ما بين العمران في داخل مجال المدينة والحزام أو النطاق المحصن منها، مما يجعل قلعة المدينة الدفاعية منزوية.

3 ـ مدينة الهضبة: عادة ما يُختار موقعها في نقطة التقاء نهرين أو مجريين مائيين صغيرين، كما هو الحال في مدينة قبرة أو وشقة أو مدريد.

4 ـ مدينة السهل المحاطة بحزام من المياه: يلعب عامل الهدروغرافيا، وليس الطبوغرافيا دوراً حاسماً في هذا النموذج من المدن من حيث أمنها وتطور شبكتها العمرانية مثال مرسية وطريفة وغيرهما. ويخضع التطور الحضري أو العمراني في هذا الصنف من المدن لضوابط منها:

أ ـ الدفاع ضد الهجومات المحتملة والحذر من المياه إبان الفيضانات.

ب ـ مراقبة نقط العبور. فالحصن قبالة البحر في طريفة، والقلعة في طلبيرة تحرس نهر التاج.

5 ـ المدينة القنطرة: عادة ما تُكَوِّن خطاً مستقيماً مع النهر كسرقسطة الواقعة على نهر إبره.

وتقدم مدينة طليطلة نموذجا خاصّــا [1] من المدن الكبيرة التي تقع على مرتفع فـــي منعرجات نهر التاج، وقلعتها الهامة (انظر الصورة)، تحرس مدخل المدينة والقنطرة فـــي الآن نفسه.

ويبدو من خلال التحليل السابق أن الباحثة Mazzoli-Guintard، قد وضعت تصـــنيفا مفيدا، يساعد على تكوين صورة عامة عن المواقع الحضرية في الخريطة الأندلسية. لكن في الوقت الذي حاولت فيه تجــاوز آراء L.TORRES BALBÁS، القائمـــة علـــى الرؤيـــة المعمارية المحضة[2]. تبنّت وصف الإدريسي (القرن السادس الهجري) للمدينة الأندلسية، وهو وصف يعكس تطورات وتحولات كبرى في الحواضـــر الأندلســـية خــلال عصـــر الموحدين، مما يصعب معه رصد التحولات أو التطورات التي لحقت ازدهار المدن خلال الفترات السابقة، أي الخلافة والطوائف. وللدلالة على ذلك نلاحظ أن مدينة ألمرية علـــى الساحل، والتي صنفتها الباحثة ضمن المدن التقليدية قد احتلت الصـــدارة فـــي الأنشـــطة الاقتصادية والعسكرية طيلة القرن الرابع الهجري (X م). فهي ميناء تجاري ضخم ســـاهم إلى حد بعيد في الأنشطة التجارية الداخلية والخارجية. كما لعب دورا أساسيا في صـــناعة الأساطيل الحربية التي واجهت بها الخلافة المسيحية والفاطميين. قال فيهـــا العـــذري[3]: «ودار صناعتها القديمة.. قد قسمت على قسمين، فالقسم الواحد فيه المراكـــب الحربيـــة والآلة والعدة، والقسم الثاني فيه القسارية... قد أمن فيها التجار بأموالهم...» . أما مدينة طريفة فقد رُمّم حصنها خلال الخلافة[4] لمراقبة المضيق من جهة ولاستقبال الجند القـــادم من شمال إفريقيا إلى جهة الثغور من جهة أخرى.

يتضح من المثالين السابقين أن المدن في الأندلس اختلفت أهميتها وأدوارهـــا حســـب المراحل التاريخية. وقد تلعب، كذلك، في فترة معينة وظائف مزدوجة وهامة.

---

(1) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Les villes..., op. cit, p. 54.

(2) - نتفق مع الباحثة حين لاحظت أن Torres Balbás، قدم أشكالا معمارية هامة لكن غابت فيها الحياة الاجتماعية القائمة على الحركة والتطور.

MAZZOLI-GUINTARD (Ch) ; Les villes... op. cit, p.13.

(3) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 86.

انظر دور المرية في صناعة الأساطيل الحربية خلال الخلافة في باب الأسطول الحربي.

(4) - انظر فصل الحصون.

ج - الأسوار والخنادق والأبواب

تعتبر الأسوار والخنادق والأبواب من الخصائص العسكرية البارزة في مدينة العصر الوسيط عموما. إن طغيان هذه الجوانب الدفاعية في المدينة دفع البعض[1] إلى نعتها كانها في حالة دائمة من المواجهة وهي مستعدة على الدّوام للدفاع. سبق القول إن المدن الأندلسية خضعت لتطورات كثيرة منذ نشأتها، ممّا يصعب معه تتبع مراحل التأسيس وبناء الأسوار لأن هذه الأخيرة كثيرا ما أصابها التلف والهدم لأسباب طبيعية أو بشرية. فهي تتعرض للهدم والتخريب المقصودين إبان الحملات والحصار. وتلك ظاهرة كشفت المعلومات المصدرية عن تفاصيلها سواء مع قدوم المسلمين إلى شبه جزيرة إيبيريا أو خلال مطلع القرن الرابع الهجري مع حروب عبد الرحمن الناصر ضد معارضيه، أو خلال الحملات العسكرية والهجومات المسيحية كحملات النورمان، وما صاحبها من إتلاف معالم المدن والآثار فيها. وعادة ما تعرضت الأسوار كذلك للتلف بفعل عوائد الطبيعة. فكثيرة هي الإشارات الواردة في ثنايا المصادر تكشف عن هول الهدم والدمار الذي يصيب الأسوار من جراء فيضانات الأمطار والأنهار. يقول النويري[2] في أخبار سنة (212هـ/827 م):«فيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة فخَرَّبَت أكثر أسوار مدن الأندلس. وفي سنة (401هـ/1010 م) «كان بنهر قرطبة سيل عظيم هدّم في أرباض قرطبة نحو ألفي دار... والمساجد والقناطر، وهدّم أكثر السور وردم كثير من الخندق،..»[3].

وتتضح الأهمية القصوى للأسوار في الحياة العسكرية للمدينة الأندلسية في وقت الحروب والهجمات الخارجية كالنورمانية مثلا، أو إبان الصراعات المحلية على السلطة. ولذلك تعمد السلطة السياسية القائمة إلى بنائها أو ترميمها، قبل الانصراف إلى الاهتمام بالمؤسسات الدينية نفسها. وقد تأكد ذلك من خلال ابن حيان[4] لما تحدث عن أسوار

---

(1) - HEERS (J); La ville au Moyen Age en occident: paysages, pouvoirs et conflits, Paris, 1990, p. 328 .
قال: « Chaque cité se montrait dressée ».

(2) - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، قسم المغرب...، ص. 95.

(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 105.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 244.

إشبيلية التي واجهت باستمرار الأخطار النورمانية من جهة البحر، بالقول لن عبد الرحمن بن حبيب راسل الأمير عبد الرحمن بن الحكم إثر محنة أهل إشبيلية. «ووافق ذلك أيام شروع الأمير عبد الرحمن في بنيان زيادة بالجامع بقرطبة... وذكر له في كتابه أن بنيان سور مدينة إشبيلية وتحصينها أوكد عليه من بنيان الزيادة في المسجد الجامع، فعمل برأيه في بنيان سور إشبيلية ». لقد اتجهت الجهود في أول الأمر إلى بناء الأسوار في المدن المعرضة أكثر للهجمات الخارجية سواء في الثغور أو على امتداد السواحل الأطلسية والمتوسطية. وكان ذلك منذ عصر الإمارة الذي تزامن مع تفاقم الخطر النورماني على شبه جزيرة إيبريا. ونشط الترميم في الأسوار أيضا خلال الصراعات الطائفية طيلة القرن الخامس للهجرة حتى قال صاحب النفح[1]: وأكثر مدن الأندلس مسوَّر من أجل الاستعداد للعدو بذلك التزيين والتشييد. لاشك أن المسلمين وجدوا في المدن التي أخضعوها أسوارا قائمة من "تأسيس الأوائل" حسب المصادر، ووجدوا صعوبات كثيرة في هدمها؛ يذكر ابن خلدون[2] أن عساكر الإمام عبد الرحمن ذهبت إلى جليقية عام 231 هـ «فدوَّخوها وحاصروا مدينة ليون ورموا سورها، فلم يقدروا عليه لأن عرضه سبعة عشر ذراعا فثلموا فيه ثلمة ورجعوا..» . ويضيف صاحب ذكر بلاد الأندلس[3] أن برطانة كانت مدينة محصنة "بثلاثة أسوار".

1 - أسوار سرقسطة

ومثل ذلك كانت أسوار سرقسطة حصينة للغاية. لقد دخلها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة (326هـ/938 م) وعاين مناعتها«فرأى من حصانة سورها، وإتقان بنيته، وبعد غايته، ما علم أنه الباعث لخلاف أهلها في الأوقات والمُقوّي لنفوسهم على المعصية فأمر بهدمه وإلصاق بواسقه بقواعده، فشرعت الأيدي في ذلك»[4]. ويبدو أن الذين عاينوا سرقسطة من المؤرخين والجغرافيين قد لاحظوا أن سورها من حجر الرخام الأبيض

---

(1) - المقري: النفح ، ج 1، ص. 205.
(2) - ابن خلدون: كتاب العبر ، مصدر سابق، ق 2، م 4، ص. 282.
(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 73.
(4) - ابن حيان: المقتبس ، ج 5، ص. 419؛ العذري: ترصيع الأخبار ، ص. 45.

القديم[1]، أو الرخام المعقود بداخله الرصاص[2]، أو من الكدان الأبيض المنجور الذي يشبه الرخام[3]، ظل قائما لفترة طويلة. يقول الزهري[4] الذي شاهد أسوار المدينة «سور سرقسطة من الكدان المنجور المدخل ذكرا في أنثى، ارتفاعه في خارجها أربعون ذراعا، وأقل وأكثر، ومن داخلها معتدل مع الأزقة والشوارع، وأبعد ما يكون من داخلها من خمسة أذرع، وديارها كلها بارزة على أسوارها ». ولاحظ الإدريسي[5] أن لسرقسط سور مبني من الحجارة حصين. ويظهر أن بناء الأسوار بالحجارة الصلبة في المدن الشمالية الثغرية أو القريبة من الثغور كان أمرا شائعا، وأكثر من ذلك نقلت المصادر إشارات متعددة عن تعدد الأسوار في المدينة الواحدة.

2 - سور وشقة وبربشتر

في إطار وصف مدينة وشقة أشار العذري[6] إلى «السور الثاني»، كما ذكر أن الإمام محمد كتب إلى عمروس والي وشقة يأمره ببنيان «سور المدينة في إحدى وستين ومائتين، فابتدأ في بنيانه...»[7]. ولما أساء الوالي عمروس السيرة إلى أهل وشقة فرّ منها في سنة (306هـ/ 918 م) إلى بربشتر وابتنى بها «سورا بالصخر، وشاد أبرجتها..»[8]. ونشير إلى أن أحد الدارسين[9] أجرى بحثا ميدانيا هاما في وشقة أبرز من خلاله أهمية قصبة المدينة وأبراجها وتطور السكان داخل الأسوار وخارجها، كما بيّن بالأرقام أهمية أسوار المدينة والتي بلغت1800 مترا على مساحة22 هكتارا،وساكنة وصل عددها 7000 نسمة خلال القرن الخامس الهجري (XI م)، مقابل 17000 نسمة في سرقسطة في الفترة نفسها.

---

(1) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 319.
(2) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص.150؛ الرشاطي وابن الخراط:الأندلس في اقتباس الأنوار ،ص. 80.
(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 70.
(4) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 81.
(5) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 555. أضاف أن لمدينة طركونة سور من الرخام وأبنية وأبراج منيعة ، نفسه، ص. 555.
(6) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 55.
(7) - نفسه: ص. 63.
(8) - نفسه: ص. 67.
(9) - SÉNAC (Ph) . La Muralla islamica de Huesca. dans: Arqueológia medieval española II congreso. Madrid. 1987, p. 590, 601.

3. ســـور ســمـــــورة

وكان بمدينة سمورة قاعدة الجلالقة سبعة أسوار من أعجب البنيان احكمتـــه الملـــوك السالفة، وبين الأسوار فصلان، وخنادق ومياه واسعة[1]. وطول سور سمورة الجوفي ألف وخمسمائة ذراع والقبلي ألف وثلاثمائة ذراع، والشرقي سبعمائة ذراع[2].

4. أسوار طرطوشة وطليطلة ووادي الحجارة وقلعة رباح

وتكشف المصادر عن منعة أسوار مدن الثغور. فقد تمَّ إتقان أســـوار طرطوشـــة[3]، وامتنعت كل جهات طليطلة «بوثاقة أسوارها، واكتنـــاف واديهـــا لقصـــبتها ووعـــورة مسالكها»[4]. ومدينة وادي الحجارة كبيرة وثغر مشهور الحال، مسور بحجارة، وبها سكن ولاة الثغور كأحمد بن يعلى وغالب وعليها أكثر جهاد جليقية ». أما مدينة قلعة رباح التي كانت خالية إلى حدود عصر الإمارة «فاحتلها الحكم[5] وأمر ببنيان سورها واسترجاع من فرَّ من أهلها إليها» [6]. وقد أصبحت خلال عصر الخلافة «مدينة كبيرة ذات سور مـــن حجارة»[7] بشهادة ابن حوقل الذي زار الأندلس خلال منتصف القرن الرابع الهجري.

5. أسـوار يابـرة

اهتمت السلطة بتحصين مدن الكور الغربية وبناء أسوارها ترقُبا للهجمات المسيحية. وقد تحدث الرازي[8] بنوع من التفصيل عن هدم أسوار يابرة عام (301 هــ/913م)، مـــن قبل زعيم الجلالقة أرذون بن أدفونش. ويمكن أن تكون الأسوار أداة هامة للـــدفاع عـــن المدينة، ولكن قد تلعب دوراً سلبياً وتساعد على انهزام المدينة واستسلامها. فهذا ما عبـــر

---

(1) - **الحميري:** الروض المعطار...، ص. 324؛ **المقري:** النفح...، ج 1، ص. 356.
(2) - **مجهول:** ذكر بلاد الأندلس...، ص. 188.
(3) - **ابن غالب:** تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 285.
(4) - **ابن حيان:** المقتبس...، ج 5، ص. 319.
(5) - **ابن حوقل:** صورة الأرض...، ص. 111.
(6) - **ابن عذاري:** البيان...، ج 2، ص. 94. يذكر صاحب "ذكر بلاد الأندلس"، ان محمد بن عبد الرحمن ابو المنذر بنى السور والقصبة على مدينة رباح؛ **مجهول:** نفسه، ص. 147.
(7) - **ابن حوقل:** نفسه، ص. 111.
(8) - **ابن حيان:** المقتبس...، ج 5، ص. 94، 95.

عنه ابن حيان[1] بالارل إن أرذون لما تقدم إلى يابرة «استدار بسورها وتأمله، فرآه متطامناً لا سِتارة له، ولا شرفات بأعلاه، وبجهة من خارجه كوم مرتفع من زبول أهل المدينة، قد اعتادوا إلقاءها عند أصله من داخلها... فاستبانت له العورة فيها وأطمعته في فتحها... فأحاط بها من جهاتها وجَدَّ في منازلة أهلها.. ولصق العدو إلى أعلاه (السور)، على تلك الأكوام الزبولية، وهدَّموا ثلمة منه كانت حديثة البنيان، فما شعر أهل المدينة إلا وهم قد دخلوا عليهم.. ثم كاثَرَهُم العدو حتى قهرهم وألجأهم إلى موضع بشرقي المدينة بقرب من سورها تضايقوا فيه فقتلوا أجمعين». ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن عبد الله بن محمد صاحب بطليوس خاف من استقرار البربر بيابرة ومناوشتهم له، فخرج إليها «وهدَّم أبراجها وحَطَّ بقيةَ أسوارها حتى ألصقها بالأرض»[2]. لكن أعاد بناءها لصاحبه مسعود بن سعدون السرنباقي عام(302هـ/914 م)[3]. إن ما تعرضت له مدينة يابرة من هدم وتخريب كان الحافز والسبب المباشر في اندفاع أهل الغرب بالأندلس، وتسابقهم في تحصين المدن وبناء أسوارها. لقد «احتذوا في إصلاح أسوارهم وحفظ عورتهم، وشد معاقلهم...» [4].

6 - سور بطليوس

ذلك ما قام به أهل مدينة بطليوس، إذ كان سور مدينتهم إلى ذلك الوقت (301هـ/913 م) مبنيًا بتُرب الطابية المرزوم بالمداوس وبالطوب المشمس»[5]. وقد رُمِّمَ لاحقاً بالحجر الطوابي[6]. طلب سكان المدينة من الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن يونس أن يُساعدهم في البنيان«فشَدَّ عزائمهم في ذلك وتولى النّظر في ذلك بنفسه مع مشيختهم وجميع العملة على بنيان السور وتقوية متنه، فصَيَّرَهُ في عرض عشرة أشبار لوحاً واحداً، واتصل العمل فيه حتى كَمُلَ في أسرع مدة»[7].

---

(1) - نفسه: ص.94، 95.
(2)- نفسه: ص.96.
(3) - نفسه: ص.96.
(4) - نفسه: ص.96.
(5) - نفسه: ص.96.
(6) - الحميري: الروض المعطار...، ص.93.
(7) - ابن حيان: نفسه، ص.96.

7 ـ سور ماردة

يبدو أن سور ماردة ــ إلى الشمال الغربي من قرطبة لم ينج بدوره من عمليات الهدم والتخريب ثم محاولة إعادة ترميمه أو بنائه منذ وقت مبكر. وقد لاحظ البكري[1] أن المدينة كان:«يتزلها الملوك الأوائل...أحدق بها سور عرضه اثنا عشر ذراعا، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا، وعلى بابها كتابة ترجمتها: براءة لأهل إيلياء من عمل في سورها خمسة عشر ذراعا». وأشار ابن الكردبوس[2] وغيره[3] إلى المعنى نفسه بالقول «وجد في مكان من سورها (ماردة) لوح رخام شديد الصفاء كثير الماء فيه، مكتوب بالأعجمي براءة لأهل إيلياء من عمل خمسة عشر ذراعا في السور». ويلاحظ أن الهجومات المتكررة التي تعرضت لها مدينة ماردة أدت إلى إحداث تغييرات كثيرة في أسوارها وفي مواد بنائها منذ عهد الإمارة[4]. ولاشك أن الترميمات الأساسية أحدثت بالحجارة الصلبة عهد المرابطين أو بداية الموحدين على حد تعبير الإدريسي[5] الذي أوضح أن سور ماردة من حجارة «منجورة من أحسن صنعة وأوثق بناء».

8 ـ سور لبلة

على غرار ماردة تميزت مدينة لبلة بسور عجيب ومنفرد باعتبارها تضم آثار الأول وانفرد سورها بكونه مبنيا على تماثيل أصنام. وقد لاحظ محمد عبد الله عنان[6] أن لبلة هي المدينة الوحيدة بين مدن الأندلس المسلمة التي ما تزال تحتفظ بأسوارها حتى اليوم، وهي كاملة من كل جهة إلا من جهة الشرق. ويذكر القزويني[7] أن سور المدينة « قد عقد بناؤه على تصاوير أربعة أصنام ». وقد اكتفى الإدريسي[8] بالإشارة إلى أن لبلة مدينة « حسنة

---

(1) - **البكري**: جغرافية الأندلس...، ص. 119.
(2) - **ابن الكردبوس**: تاريخ الأندلس...، ص. 147.
(3) - **الرشاطي وابن الخراط**: الأندلس في اقتباس الأنوار...، ص. 55.
(4) - **ابن خلدون**: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 278.
(5) - **الإدريسي**: نزهة المشتاق...، ص. 545.
(6) - **عنان** (محمد عبد الله): دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، 1988، ص. 42.
(7) - **القزويني**: آثار البلاد وأخبار العباد...، ص. 555.
(8) - **الإدريسي**: نفسه، ص. 541.

أزلية لها سور منيع». وفصّل الحميري[1] قليلا في ذلك مبيّـــنـــا أن «سور لبلة قـــد عقـــد على أربعة تماثيل صنم، تسميه العامة دردب، وعليه صنم آخر، وصنم تسميه العامـــة مكـــبح، وعليه صنم آخر. فيُخَيّلُ إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع في أعناقهم ».

9 - سور إشبيلية

ومن المدن الأساسية التي تقدم نموذجا هامّا لتتبع ورصد التطورات والتّحولات التـــي طرأت على بناء الأسوار منذ العهد الروماني: إشبيلية، التي تميزت بموقع استراتيجي هام على الوادي الكبير، وبتطور واسع في الشبكة العمرانية والتحصينية منذ عصـــر الخلافـــة على الأقل. وقبل الحديث عن الإختلافات ما بين الدّارسين حول مدى مساهمة العبـــاديين والمرابطين والموحدين في بناء أسوار المدينة، يلزم، فيمـــا نـــرى، رصـــد المعلومـــات المصدرية التي تؤرخ لتلك الأسوار منذ ما قبل الخلافة لمحاولة تبيان مختلف التطـــورات التي طرأت على أسوارها قبل القرن الخامس الهجري. لقد تمّ الانتباه إلى تحصين المدينة وتسويرها منذ المراحل الإسلامية الأولى خاصة عصر الإمارة لما كانت مستهدفة من قبل الهجومات النّورمانية المتكررة خلال العام (230 هـ/845 م). يقـــول ابـــن القوطيـــة[2] : « بنى عبد الرحمن (الأمير) الجامع بإشبيلية، وبنى سور المدينة بسبب تغلـــب المجـــوس عليها عند دخولهم سنة ثلاثين ومائتين». ونَفّذ البناء في السّور عبد الله بن سنان رجل من الموالي الشاميين واسمه على أبوابها[3]. وفي السياق نفسه ذكر ابن حيان[4] بنـــاء الأميـــر عبد الرحمن لسور إشبيلية بسبب "طروق المجوس لها من ناحية البحـــر الرومـــي ســـنة (230 هـ/845 م)". وأفاد البكري[5] بتفاصيل تكشف عن أهم مراحل بناء أسوار إشـــبيلية وكذا مواد البناء المعتمدة. وبيّن أن المدينة من بناء الأوائل أي من تشييد القيصر يليـــوش الذي أحدق عليها أسوار صخر صلد وبنى في وسط المدينة قصبتين[6]. واتفق البكري مع

---

(1) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 507.
(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 78.
(3) - نفسه: ص. 81.
(4) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 244.
(5) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص. 107، 108؛ الحميري: الروض المعطار...، ص. 58.
(6) - البكري: نفسه، ص. 112.

ابن القوطية وابن حيان، حين أوضح أن الأمير عبد الرحمن بنى سور المدينة بالحجر[1]، لمواجهة أخطار المجوس. ولما افتُتحت إشبيلية من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر عام (301 هـ/ 913 م)، وجّه إليها عامله سعيد بن المنذر المعروف بابن السليم و «هدّم سورها والحق أعاليه بأسافله، وبنى القصر القديم المعروف بدار الإمارة، وحصّنه بسور صخر رفيع وأبراج منيعة» [2]. وإبان الفتنة، آخر الخلافة، «بُني سور المدينة بالتراب وله من الأبواب باب أبي القليص غربي، ومنه الخروج إلى الشرف، وباب حميدة غربي أيضا بإزاء المقبرة، وباب قرمونة شرقي..»[3]. وأشار العذري[4] إلى الظروف التي بُني فيها سور إشبيلية بالتّراب من قبل الموالي على عهد الإمام عبد الله. لقد انتفض في صدر أيامه بكورة المدينة محمد بن خطاب، إذ لما «ولي إشبيلية الولد محمد بن الإمام عبد الله ظهرت من بعض العرب أحوال أوجبت إخراجهم عن المدينة إلى بواديهم، وانفرد بمدينة إشبيلية الموالي وبنوا سورها»[5]. وتحدث ابن حيان[6] عن أهمية أسوار إشبيلية من خلال حوار جرى ما بين الحاجب بدر الدين انتدبه الخليفة الناصر للنظر في مصالح أهل المدينة، وعاملها سعيد بن المنذر القرشي ولقد أيد الأول الإبقاء على أسوار إشبيلية في حين اعترض الثاني على ذلك وأمر بهدمها. وقد احتكما إلى وُجهاء المدينة الذين اختلفوا بدورهم في الأمر وقال «فريق منهم هي مدينة ساحلية لا يؤمن عليها من قبل البحر، وبقاء سورها أحرم مع أنه من بنيان عبد الرحمن بن الحكم، فلجَّ سعيد بن المنذر في هدمه... وأن ذلك أحوط على السلطان وأحسم لطمع من يبغي الفتنة... وجُمعت الأيدي على هدم أسوارها فسويت بالأرض » [7].

لم يقف الأمر عند هذه التحولات التي طالت سور إشبيلية إلى آخر الخلافة، بل خضعت تحصينات المدينة وأسوارها إلى بناء وترميم وتوسيع خلال فترات الطوائف

(1) - نفسه: ص. 112.
(2) - نفسه: ص. 114.
(3) - نفسه: ص. 114.
(4) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 112.
(5) - نفسه: ص. 112.
(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 80.
(7) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 163، 164؛ الحميري: الروض المعطار...، ص.59.

والمرابطين والموحدين. وذلك بشكل مواز لتطورات هامة حدثت في شـبكتها العمرانيـة وبنياتها السكنية في تلك الفترات.

اختلف الدارسون المعاصرون حول تحديد الفترات التاريخية الأساسية فـي بنـاء أسوار إشبيلية. وساد اعتقاد واسع إلى وقت قريب، معزز ببعض الأبحاث الأركيولوجيـة في المدينة[1]، يقول بغلبة الأسوار الموحدية. لكن ثمَّ تجاوز هذا الرأي بـالقول إن أغلـب أسوار المدينة بُنيت إبان المرابطين[2]. وقد دافع عبد العزيز سالم[3] بحمـاس عـن هـذا الاتجاه مشيراً إلى أن جل أسوار إشبيلية مرابطية وليست موحدية، لأن الموحدين اقتصروا على ترميم ما أنشأه المرابطون[4]. وانطلاقاً من ذلك يمكن التمييز ما بين ثلاثـة أسـوار إسلامية. فالسور الأول بُني بواسطة الأحجار التي استعملت في الأسوار الرومانية القديمة والتي اختفت معالمها. ولما تهدّم هذا السور إبان عصر الخلافة أعيد بناؤه زمـن الفتنـة بالتراب وهو السور الثاني. وتجدر الملاحظة أن الطابية كانت آنذاك سهلة وسريعة الصنع. أما بنو عباد فقد استغلوا بدورهم أحجار الأسوار الرومانية في بناء قصورهم، أو فـي بنـاء أسوارها على الأقل. ولم يحد الموحدون عن هذا النهج لأنهم استخدموا أحجار قصور بنـي عباد بدليل أنها لا تزال قائمة في أسس صومعة إشبيلية وعليها كتابات رومانية. أما السور الثالث فهو مرابطي كما سلف الذكر. لقد اضطر المرابطون إلى بنائـه نظـراً للتطـور العمراني الذي عرفته المدن الأندلسية في عهدهم[5]، بحيث دفع الاكتظاظ إلى الخروج عن الأسوار القديمة. كما أدى الخوف من الهجمات المسيحية إلى بناء أسوار أخرى. لاشك أن الاكتظاظ أو الازدهار العمراني في المدن الأندلسية الذي تحدث عنه عبد العزيز سالم قـد بدأ في بعضها على الأقل قبل مجيء المرابطين، وخاصة في إشبيلية التي توسعت بنيانهـا

---

(1)- **VALOR MAGDALENA (P)**: La Arquitectura militar y Palatina en la Sevilla musulmana, Sevilla, 1991.

(2) - سالم (عبد العزيز): اضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار إشبيلية. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 8، مدريد، 1974 - 1975، ص. 1 - 25.

MAQUEDA JIMENEZ (D); « Algunas precisiones cronologicas sobre las murallas de Sevilla ». dans: **Fortificaciones en al-Andalus**..., op. cit, p.333, 339.

(3) - **سالم عبد العزيز**: نفسه، ص. 10 وما بعدها.

(4) - دافعت الباحثة Valor Magdalena عن أطروحة تميز الدور الموحدي في تحصين إشبيلية وترميم أسوارها... نفسه: ص. 30، 32، 49، 57، 60.

(5) - **سالم عبد العزيز**: نفسه، ص.20.

السكنية على عهد بني عباد[1]، الذين لم يدّخروا جهداً في تطوير وتوسيع أسوار المدينة[2]. وربما أمكن القول إن تهديدات المرابطين دفعت بالمعتمد بن عباد إلى الاهتمام بالأسوار[3]. لقد كشفت المصادر بالفعل عن اعتناء المعتمد بـ «بناء الأسوار وعمل القنطرة»[4]. وأكثر من ذلك يُلزم سكان إشبيلية في بعض الأحيان بأن يساهموا في تحصين أسوار مدينتهم، كما حدث أيام القاضي أبي بكر بن العربي[5] قاضي إشبيلية لما كان سور المدينة في حاجة إلى تحصين إحدى جهاته ففرض على الناس جلود أضحياتهم، «فأحضروها كارهين»[6].

ويتضح من المعلومات السالفة الذكر أنه من الصعوبة الحسم في تاريخ الأسوار الإشبيلية. لكن تبيّن من الإشارات المصدرية المتنوعة التي أمكن جمعها أن أسوار وتحصين المدينة خضعت لتطورات ولتحولات متعددة منذ عصر الإمارة. وذلك ارتباطا بأوضاعها العمرانية والدفاعية، وبالتهديدات الخارجية التي كانت تستهدفها نظراً لموقعها الهام.

10 ـ أسوار وخنادق قرطبة

خضعت قرطبة بدورها كمدينة وكعاصمة سياسية لفترة طويلة للتحصين وبناء الأسوار والخنادق منذ وقت مبكر. فقد ذكر ابن خلدون[7] أن الأمير عبد الرحمن شرع في بناء الأسوار الإسلامية بها عام (173هـ/789م). في حين أشار صاحب ذكر بلاد الأندلس[8] إلى أن الأمير الحكم أقدم سنة (179 هـ/795م) على بناء سور قرطبة وحفر خندقها. لم تقف المصادر عند أصول الأسوار، بل اتجهت إلى الحديث أكثر عن أهميتها وأحجامها وطولها، وإلى أهمية الخنادق حولها. ولاشك أن لذلك علاقة بأحداث الفتنة التي

---

(1) ـ الطاهري: (أ): عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 40، 41، 42، 43.

(2) - TAHIRI (A); Problemas de una reconstrución urbana..., op. cit, p. 224, 225.

(3) ـ نفسه: عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 41.

(4) ـ مجهول: الحلل الموشية...، ص. 72.

(5) ـ من القضاة الأندلسيين المشهورين الذين زاروا المشرق، توفي 543 هـ. انظر بعض التفاصيل حول كراهية العامة له لما فرض عليهم تحصين أسوار إشبيلية في:
المقري: النفح...، ج 1، ص. 27.

(6) ـ المقري: نفسه، ص. 27.

(7) ـ ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 267.

(8) ـ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 132.

عانت منها قرطبة في أواخر الخلافة. كما دأبت المصادر على اتباع ما ذكره الـرازي[1] الذي أوضح أن أسوار القصر الخلافي بالمدينة بلغت في الطـول حـوالي 33.000 ذراع. وأشار ابن حوقل[2] الذي زار المدينة إلى أنها مسورة بالحجارة، ولها بابان فـي سـورها وهي مستديرة ذات سبعة أبواب حديد. «درت بسورها غير يوم فـي قـدر سـاعة» [3]. وعلى غرار الرازي ذكر ابن غالب[4] أن «دَوْر قرطبة كلها ثلاثة وثلاثون ألـف ذراع، وعدد أبوابها سبعة، وعدد أبراجها سبعة، وعدد أبراجها المنتظمة بدَوْر السور من جانبهـا الأربعة، مائتان واثنان وسبعة أبراج، وعدد أرباضها عشـرون ربضـا ". » . ولاحـظ مؤلف ذكر بلاد الأندلس[5] من جهته أن تحصين المدينة خضع لعدة تطورات منذ أن فتحها الإسلام إلى أن دمّرها المسيحيون. ففي مرحلة أولى دامت إلى سنة (400 هـ/1010 م)، عرفت قرطبة تطورا في بنيتها العمرانية، وكان « تكسير مدينة قرطبة ومساحتها التـي دار السور عليها دون الأرباض طولا من القبلة إلى الجوف ألفا وسبعمائة ذراع، وعرضها من المشرق إلى المغرب ألفا وأربعمائة ذراع..» [6]. وبالمثل لاحظ المقري[7] أن سـور قرطبة من حجارة وطوله أقل قليلا ممّا ذكِر، فهو من القبلة إلى الجوف ألـف وسـتمائة ذراع. ويلاحظ من الإشارات المصدرية المتنوعة أن أسوار قرطبـة تجـددت وتَرَمَّمَـت مرات عديدة خلال عصري الخلافة والطوائف[8]. فلقد أنقِن سور المدينة في خلافة الحكم وفي عهد أبي الوليد محمد بن جهور الذي بنى سـور قرطبـة وحصـنها ومـات سـنة (462 هـ/1070 م) [9]. وقد استنجد بالمعتمد بن عباد الذي جاء المدينة وبنى سـورها[10]. كانت الفتنة المعروفة "بالبربرية"، مناسبة للحديث عن الخنادق التي حُفرت حـول مدينـة قرطبة. وتجدر الإشارة إلى أن الخنادق كأدوات دفاعية ليست خاصـة بمـدن الأنـدلس

---

(1) - **الرازي:** وصف الأندلس...، ص. 64.
(2) - **ابن حوقل:** صورة الأرض...، ص. 108.
(3) - **نفسه:** ص.108.
(4) - **ابن غالب:** تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 296.
(5) - **مجهول:** ذكر بلاد الأندلس...، ص. 31، 32.
(6) - **نفسه:** ص.32.
(7) - **المقري:** النفح...، ج 1، ص. 458، 460.
(8) - **ابن عذاري:** البيان...، ج 2، ص. 71.
(9) - **مجهول:** نفسه، ص. 216.
(10) - **نفسه:** ص.216.

وحدها. إنها تقنية عسكرية ناجحة في الحصار والحروب في المدن منذ القديم، وقد اشتهرت في التاريخ الإسلامي منذ الفتوحات، إذ برع المسلمون في حفرها واختيار أماكنها واستخدام الكمائن والحيل المتعددة فيها[1]. يقول ابن غالب[2] في خنادق قرطبة:« ويدور بجميع هذه الأرباض، الخندق المشهور، لم تقتدر على مثله أمة من الأمم، وهو المحيط بجميع أرباض قرطبة ومساكنها ودرع دَوْره من جهاته الأربع ثلاثة وعشرون ميلا..».

ويبدو أن الخنادق بقرطبة لم تكن أقل أهمية من الأسوار والتحصينات الأخرى، حتى أن كل خليفة أو حاكم كان يشرف على الاعتناء بها أو حفرها. فلقد حفر خندق أيام الحكم بن هشام [3]. ولم يتردد محمد بن عبد الجبار في حفر الحفائر حول قرطبة على أفواه الأرباض عام (400هـ/1010م) [4]. كما حفر خندقا حول فحص السرادق تحسبا للبربر [5]. ولحماية كل الأرباض التي لم تكن لها أسوار، تمّ اللجوء خلال الفتنة إلى حفر خنادق تدور بجميعها [6].

وقد قدر ابن الخطيب [7] المسافة التي دار عليها خندق قرطبة حين أشار إلى ذرع مسافة الخندق المضروب على قرطبة أيام قتال البرابرة من جهاتها الثلاث «أعني النهر الأعظم عن مد الحفير عليها من الجهة القبلية، سبعة وأربعين ألف ذراع وخمسمائة ذراع، يجب لها ستة عشر ميلاً غير سدس الميل»[8].

11 ـ أسوار استجة وبلنسية

تشهد المصادر بحصانة ومنعة أسوار مدينتي استجة وبلنسية. يقول ابن حيان[9] في أخبار سنة (300 هـ/ 913 م) لما فتح الناصر مدينة استجة إن « سورها الأول معقود بين حائطين أحدهما من صخر أبيض والآخر من صخر أحمر لا يؤثر في شيء منه الحديد،

---

(1) ـ انظر بعض التفاصيل في طرق حفر الخنادق في الحروب والحيل المستعملة فيها في:
الناصري: كتاب الحيل في الحروب، مخطوط الخزانة العامة، الرباط ميكروفلم رقم 2216، 40 أ. ب. 173 أ. 174 أ. 174 ب؛ ابن أبي حجة (يوسف): رعاية الرعية...، مخطوط سابق...، 64 ب.

(2) ـ ابن غالب: تعليق منتقى...، ص. 296.

(3) ـ ابن عذارى: البيان...، ج 2، ص. 71.

(4) ـ نفسه: ص. 87.

(5) ـ نفسه: ص. 87.

(6) ـ المقري: النفح...، ج 1، ص. 466.

(7) ـ ابن الخطيب: أعمال الأعمال...، ص. 103.

(8) ـ نفسه: ص. 103.

(9) ـ ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 56.

قد رُدم بينهما إلى أعلاهما أوثق ردم بأحكم صناعة، وجُعل أعلاه مواضع الشرفات تماثيل حجارة منحوتة من الرخام الأبيض محيطة بالسور من جميع أعلاه فكان رائيها من بعد إن قابل السور من جميع جهاته لم يشك أن الرّجال قيام عليه». ويبدو أن هذا السور قد هدمه الناصر لما احتل المدينة وأحكم سيطرته عليها. إنها أول مدينة دخلها الحاجب بدر بن أحمد والوزير أحمد بن محمد بن حدير، وضُبطت وهُدّم سورها» [1]. وذكر العذري[2] أن بلنسية "مدينة التراب"، قد «أتقن سورها المنصور بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر، ولا يعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجمل منه ». ولها عدة أبواب، باب القنطرة، وباب الوراق إلى الشرق، وباب ابن صخر بالقبلة، وباب الحنش في الجوف، وباب بيطالة، ويليه باب القيسارية [3]. وقد بدأ مظفر ومبارك عهدهما ببناء «بلنسية وتحصينها وسد عورتها بسور أحاط بالمدينة تحت أبواب حصينة » [4]. وهو من الحجر والطوابي [5].

12 ـ أسوار المرية ومالقة

تعتبر المرية ومالقة من المراكز الهامة على البحر المتوسط، واشتهرتا خاصة المرية كقواعد مهمة للأسطول الخلافي [6]. وقد لعبت المدينتان دوراً هاماً كذلك خلال العصر الطائفي ولذلك اهتمت السلطة السياسية المركزية أو الإقليمية بتحصينهما طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة. وقد أشار العمري [7] إلى أن مدينة المرية ثلاث مدن الأولى على الغرب، تعرف بالحوض الداخلي « لها سور محفوظ من العدو بالسُّمَّار والحراس ولا عمارة بها» [8]. وإلى الشرق المدينة القديمة، ثم المدينة المعروفة بمصلى المرية [9]. لقد

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 160.
(2) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 17، 18.
(3) - نفسه: ص. 18. اقتصر الحميري على ذكر أربعة أبواب لمدينة بلنسية. الروض المعطار...، ص. 97.
(4) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 3، م 1، ص. 16.
(5) - الحميري: نفسه، ص. 97.
(6) - انظر باب الأسطول.
(7) - العمري: مسالك الأبصار.. وصف إفريقية والأندلس...، ص. 46.
(8) - نفسه: ص. 46.
(9) - نفسه: ص. 46.

أقدم زهير الفتى العامري (ت429 هـ/1038 م) على بناء السور في ساحل ربض المصلى[1]. وبنى أخوه خيران العامري قبله (دخل المرية عام 405 هـ/ 1014 م) «السور الهابط من جبل لِهُم إلى البحر، وجعل له أربعة أبواب، باب في الجبل... وباب يخرج منه إلى بجانة، وباب يُسَمَّى بباب المربي، وباب قرب ضفة البحر يُعرف بباب السودان، وهو الآن يُعرف بباب الأسد» [2].

أما قلعة المرية أو قصبتها فهي في الواقع« قصبتان في غاية الحسن والمنعة»[3]. أو هي «القصبة العظيمة التي ليس أمنع منها ولا أحصن» [4]. وكما حدث بالنسبة لبلنسية حل المنصور بن عبد العزيز بن أبي عامر بمدينة المرية وولى ابنه أبا يحيى محمد بن معن « وله في بناء القصبة آثار جميلة في منعتها وسمو سورها، وإتقان بناء قصورها»[5]. وذكر ابن الخطيب[6] أن خيران العامري توجه إلى مدينة المرية (سنة405 هـ/1014 م)، وكان بها أفلح الصقلبي، وتغلب على قصبتها «وحصَّن (ها) وسد عورتها إلى أن صيَّرها في الحد الذي هي اليوم فيه. فلاة يرام التعلق بها ». وهو ما عبر عنه العذري[7] قبله حين أكد أن قصبة المرية « في جبل منفرد عليه سور متقن لا يصعد إلى قصبتها إلا بكلفة». وفصَّل الحميري[8] أكثر في بناء أسوار المرية لما أوضح أنها محاطة بسور حصين منيع من بناء عبد الرحمن الناصر. ويحيط بربض المصلى سور تراب بناه خيران العامري[9]. وللمدينة باب شرقي خارج من أسوارها. و«عرض ممشى السور الدائر بالقصبة خمسة أشبار»[10] مكرر.

(1) - العذري: نفسه، ص. 83.
(2) - نفسه: ص. 83.
(3) - العمري: المصدر السابق، ص. 46.
(4) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.
(5) - العذري: نفسه، ص. 84.
(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 211.
(7) - العذري: نفسه، ص. 86.
(8) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 537.
(9) - نفسه: ص. 537.
(10) - نفسه: ص. 538.
(10) مكرر - كشفت مجموعة من الأبحاث الميدانية التي اجريت بالمرية ومالقة عن جوانب هامة من الأسوار المبنية بالطابية أو استعمال مواد أخرى كالحجارة في القصبات انظر:
ACIÉN AL MANSA (M); La fortificación en al-Andalus...,op. cit,p.20.- Sobre la función des Husun ..op cit, p.267. AR RUIZ (R); Las técnicas constructivas... op. cit, p. 126, 127.

وإلى الجنوب الغربي من المرية مدينة مالقة التي تشير المصادر إلى تحصينها بشكل أهم خلال القرن الخامس الهجري. لقد تهدّم سورها الأول الصخري[1]، وتوسعت المدينة حتى أن بعض أرباضها لا أسوار لها[2]. أما قصبتها المنيعة فظهرت أهميتها الدفاعية والعسكرية في الصراعات التي كانت تدور بين عبد الله بن بلقين[3] وصاحب مالقة. ويذكر ابن بلقين أن جدّه «بنى قصبتها بنيانا لم يقدر على مثله أحد في زمانه، وأعدها عدة للمهمات.. (و) يحتصن فيها من استطاع»، حتى أن المعتمد بن عباد لما دخل مالقة امتنعت له القصبة[4]. وهي وسيلتها الدفاعية الأساسية.

د- مواد البناء

إذا كانت الإشارات المصدرية المرتبطة بمواد البناء في العمارة الحربية قليلة، فإن البحث الأثري، الأركيولوجي والطبونيمي الذي أجري في العديد من المواقع عبر الأقاليم والمدن الأندلسية، كشف عن طبيعة البناء وكذا المواد التي استعملت في المعمار العسكري خلال عصري الخلافة والطوائف. فإلى جانب الكشف عن الأشكال الهندسية المتبعة في بناء وتصميم الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، تمَّ ضبط أحجام الكثير من المواد وطرق صناعتها واستخدامها. لقد سادت مواد مثل الحجر والطابية والرخام والتراب، والكدان، والصلصال والفخار وغيرها في البناء عامة، وفي العمارة العسكرية خاصة.

وتجدر الإشارة إلى أن اتخاذ الحجارة والطابية لم يكن وليد عصر الخلافة، بل ساد استعمال هذه المادة في التحصين والعمارة عبر شبه جزيرة إيبيريا منذ العصر الروماني ذاته، وإن تغيرت أحجام المواد المستعملة [5]. تؤكد المعلومات المصدرية أن الرومان استخدموا الحجارة في العديد من المدن والمواقع التي أسسوها عبر شبه جزيرة الأندلس. فهذا يوليش قيصر قد أحدق مدينة إشبيلية بسور من صخر صلد [6]. وبُني سور مدينة

---

(1) - **الحميري**: نفسه، ص. 517.
(2) - **الإدريسي**: نزهة المشتاق...، ص. 570.
(3) - **ابن بلقين**: كتاب التبيان...، ص. 76.
(4) - **نفسه**: ص. 89.

(5) - **AZUAR RUIZ (R)**; Las técnicas constructivas..., p.133.
(6) - **البكري**: جغرافية الأندلس...، ص. 107، 108.

استجة "بالرخام الأبيض المنحوت" [1]، وأضيف له سور من صخر أحمر [2]. وكانت أسوار مدينة لاردة بالحجارة منذ مطلع القرن الثالث الهجري (IXم) [3]. كما بُنيت أسوار مدينة سرقسطة من الحجارة [4]، ومن الرخام المعقود بالرصاص [5]، أو من الكدان الأبيض الذي يشبه الرخام حسب صاحب ذكر بلاد الأندلس [6]. وعلى غرار لاردة بنى الأوائل سور مدينة قرمونة بالحجارة المرتفعة "ثلاث وأربعون ذراعا" [7].

إضافة إلى ذلك استخدمت مواد أخرى في البناء الحربي والمواقع الدفاعية كالحجارة المختلطة بالرمل أو التراب أو الحجارة والجبس (الجير) كما هو الحال في سور مدينة الجزيرة الخضراء الذي بُني بالحجارة المفرغة بالجير [8]. ولاشك أن الخلافة الأموية بقرطبة قد عمدت إلى استغلال الحجارة التي وُجدت بالحصون التي هدَّمتها في مطلع القرن الرابع الهجري لما كانت بصدد إنزال المعارضين لها. وقد وظفتها في المواقع الدفاعية ذات الأهمية القصوى كالحصون والقصبات والأبراج والأسوار الواقعة في الثغور المواجهة للإفرنج. فمدينة بربشتر وأبراجها ابتناها أحد القواد المحليين عام (306 هـ/918 م)، بالصخر [9] المنيع. ووصف الرحالة ابن حوقل الذي زار مدينة قرطبة في منتصف القرن الرابع الهجري ما لاحظه بأسوار هذه المدينة قائلاً:«قرطبة مدينة ذات سور من حجارة... ودُرت بسورها غير يوم..» [10]. وأضاف أن الحجارة استعملت في أسوار مدينة قلعة رباح [11]. ونظراً لأهمية مدينة ألمرية براً وبحراً، لم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في بناء سورها بالصخر سنة (343هـ/954م) [12]. وإلى جانب الحجارة استخدمت الخلافة أيضاً الطابية والتراب كما يتبيَّن من إشارات مصدرية متعددة.

---

(1) - **ابن حيان: المقتبس...**، ج 5، ص.56.
(2) - **الحميري: الروض المعطار...**، ص.53.
(3) - **ابن خلدون: كتاب العبر...**، ص.62.
(4) - **الإدريسي: نزهة المشتاق...**، ص.554.
(5) - **ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...**، ص.150.
(6) - **مجهول: ذكر بلاد الأندلس...**، ص.70.
(7) - **الحميري: نفسه**، ص.461.
(8) - **نفسه**: ص.232.
(9) - **العذري: ترصيع الأخبار...**، ص.67.
(10) - **ابن حوقل: صورة الأرض...**، ص.107، 108.
(11) - **نفسه**: ص. 111.
(12) - **مجهول: ذكر بلاد الأندلس...**، ص.77.

فسور مدينة بطليوس مثلا كان «بالطابية المرزوم بالمداوس وبالطوب المشمس » [1]. كما بني سور مدينة إشبيلية أيام الفتنة بالتراب[2]. واستغلت كذلك مادة اللّبن منذ فترة مبكرة في أسوار مدينة قرطبة[3]. وكان سور مدينة طريفة على البحر الشامي من تراب[4]. وقد تخلط الأحجار بالطابية في بعض الأسوار كما هو الأمر في مدينة بلنسية[5] شرق الأندلس؛ أو يُخلط التراب بالكلس كما حدث في أسوار مدينة بطليوس عام (421 هـ/1030م) حسب الحميري[6].

تجدر الإشارة إلى أن البحث الميداني، الأركيولوجي والطبونيمي قد انطلق من الإشارات المصدرية السالفة الذكر، وكشف عن معلومات دقيقة للغاية تهم مختلف المواد التي كانت تدخل في بناء الكثير من الحصون والقصبات والأبراج والأسوار عبر الريف والمدينة بالأندلس منذ الفتوحات الإسلامية. لقد أجمعت تلك الأبحاث الميدانية أن الأسوار والقصبات والحصون كانت تشكل جزءا أساسيا من البنية السكنية والمعمارية، والحربية شبه جزيرة الأندلس. وأكثر من ذلك كشفت عن معطيات مفيدة تتعلق بأحجام المواد المتخذة في البناء ومقاييسها، وكذا الأشكال الهندسية المتبعة في العمارة الحربية؛ كالقول بالأبراج المضلعة الشكل التي انتشرت خلال عصر الخلافة[7]، وأخرى ذات شكل رباعي[8] عرفت في أقاليم أندلسية مختلفة. فبصدد الأحجام تبيّن أن الأندلسيين استخدموا الطابية التي بلغ حجمها خمسين سنتمترا، وعرض ألواحها حوالي مترا واحدا[9]. ويبدو أن الطابية كانت توضع في مكانها بواسطة قوالب جاهزة من الخشب[10]. وقد تترك شرفات

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص.96.
(2) - البكري: جغرافية الأندلس وأوربا...، ص.114.
(3) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص.31.
(4) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص.539.
(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص.97.
(6) - نفسه: ص.93.

(7) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Villes d'al-Andalus..., p. 60.

(8) - ESCO (C); SÉNAC (Ph); Un HSN de la Marche supérieure..., p.136.
ESCO (C); GIRALT (J); SÉNAC (Ph); Arqueológia islamica en la marca superior..., p. 22.
جسد الشكل الرباعي في بقايا بعض النطاقات أو الأحزمة المحصنة والتي تبلغ حوالي 5,70 مترا طولا و4,70م عرضا.
انظر التفاصيل في: ESCO (C); SÉNAC (Ph); Un HSN..., p.135. 136.

(9) - SOLER (Alv); ZOZAYA (J); Castillos Omeyas..., p.265,267.GAZUAR RUIZ(R); Las te:nicas constuctivs..., pp. 126, 128 ; SOUTO (J. A); Sistemas defensivos..., p. 275, 285.

(10) - BAZZANA (A); « Eléments d'archéologie musulmane dans al-Andalus: Caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne » . dans: Al-QANTARA, vol. XI, Fasc. 1-2, Madrid, 1980, p. 339, 363

في أماكن معينة من الجدران لتسهيل النظر والمراقبة. ويُعمد أحيانا إلى خلط الطابية بحجر صغير كلسي أو رملي، وتستعمل أيضا أحجار ذات الحجم الصغير لتشد الطابية خاصة في الزوايا، مما يمكنها من الشدة والصلابة. وأكثر من ذلك تبنى بعض الجدران من الطابية على أسس أو قواعد من الحجر تضمن قوتها ومتانتها[1]. وقد كشفت بعض الأبحاث الميدانية عن بقايا من الطابية في العديد من القصبات والأسوار كما هو الشأن في السور الثاني الذي بناه الفتى خيران العامري بمدينة ألمرية في القرن الخامس للهجرة[2]؛ أو في بعض أجزاء سور مدينة قرطبة خلال العهد العامري[3]. وفي أبراج وأسوار العديد من المدن الأخرى[4].

أما أحجام الأحجار المتخذة في العمارة العسكرية فتختلف حسب أهمية ودور التحصينات. ففي بعض الأبراج، استعملت أحجار رملية من حجم أربعين (40) سنتمترا تقريبا. ومن الجدران ما بلغ عرضه 0.90 سم[5]. كما استخدمت أحجار منجورة بلغت 0,80 سم[6]. ولاشك أن هذه الأحجار كانت تستخرج من مقالع تكون عادة قريبة من مناطق البناء. ورغم ذلك فإنها تحتاج إلى يد عاملة في الإعداد والنقل. أما الطابية فيبدو أنها تقنية هامة وسريعة. لقد اعتبرها البعض[7] رخيصة وشعبية لكنها، مع ذلك، تحتاج إلى لوازم محددة تتحكم في نجاح العمل بها. من ذلك مثلا أنها تحتاج إلى مياه متوفرة وقريبة وسهلة الاستعمال، مما دفع بأحدهم[8] إلى القول بأن صنعها يكون عادة في أماكن غير مرتفعة كثيرا عن الأدوية. ناهيك عن أن تجفيفها يحتاج إلى وقت طويل نسبيا مما يسبب عادة في بطء استعمالها عكس ما يتبادر إلى الذهن أحيانا. أكثر من ذلك تعتبر الطابية تقنية أو مادة غير صلبة إذا قورنت بالحجر، ولذلك تخضع باستمرار إلى عملية الترميم.

---

(1) - نفسه: ص.339.
AZUAR RUIZ (R); Las técnicas..., p.134
(2) - نفسه: ص.134.
(3) - MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Villes d'Al-Andalus..., p.57, 174.
TORRES BALBÀS(L); Ciudades Hispanomusulmanas..., p.482, 491
(4) - « Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundación », op. cit, p.781, 803.
(5) - ESCO (C); GIRALT(J); SÉNAC (Ph); Arqueológia islamica..., p.31.
(6) - AZUAR RUIZ (R); Las técnicas..., p.151.
(7) - نفسه: ص.127، 126.
MAZZOLI-GUINTARD (Ch); Villes d'Al-Andalus..., p.57.
(9) - BAZZANA (A); Éléments d'archéologie musulmane..., p.356, 357.

وللمقارنة المفيدة نشير إلى أن الأوربيين قد استعملوا الحجارة التي تتوفر في المناطق الجبلية الوعرة حيث المواقع أو الصخور المعلقة ذات الطابع الحمائي[1]. وذلك عكس ما نجده مثلاً لدى الصقالبة الذين تميزوا بطريقة خاصة في بناء وإعداد الحصون. فعادة ما يعمدون إلى المروج ويخطون ويحفرون ويوثقون ذلك بالألواح والأخشاب حتى يبلغ السور ارتفاعا معينا، ويتركون له بابا يأتون إليه على جسر من خشب[2].

يمكن القول إن انتشار العمارة العسكرية بالأندلس رافقه رواج مواد البناء خاصة الحجارة والطابية. ولاشك أن عصر الخلافة الذي شهد نوعا من الاستقرار الاقتصادي والبشري والأمني قد طوّر تقنيات البناء بدليل أن الخلافة بقرطبة عمدت إلى تصدير البنائين المتخصصين في العمارة الحربية إلى شمال إفريقيا بشهادة ابن حيان[3].

---

(1) - **BOUTRUCHE (R)**; Seigneurie et féodalité...,T.2, p.**CONTAMINE (Ph)**; La guerre au Moyen Age,39 Paris, P.U.F, 1980, p. 128.
MOUTON (D); « L'édification des Mottes castrales de Provence, un phénomène durable, X-XIIIè siècles », dans: Château Gaillard..., op. cit, p. 309, 321.

(2) - **البكري**: جغرافية الأندلس وأوربا...، ص. 160.

(3) - **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص.388.

خلاصة

إذا كانت الحصون تشكل جزءا هاما من البنيات الدفاعية والعمرانية في الأرياف الأندلسية، فإن القصبات والأسوار والخنادق تقدم نموذجا آخر من البنية الدفاعية والبشرية في المدن. لقد اتضح من خلال استعراض المعلومات المصدرية المتنوعة عن أهم المدن في شبه جزيرة إيبيريا أن العديد منها ذات الأصول الرومانية، قد عمل المسلمون على استغلالها وتطويرها في المجال المعماري والدفاعي. كما أسسوا أخرى واتخذت طابعا إسلاميا واضحا في المجالين السالفي الذكر. ولقد تبيّن أن المسلمين لم يحيدوا عن سابقيهم في اختيار مواقع المدن وفق شروط طبيعية توفر الأمن والمياه. وقد دفعت هذه الشروط السلطة في قرطبة مع مطلع القرن الرابع الهجري إلى إخضاع أهم تلك المدن وتحصينها وتسويرها انطلاقا من الثغور. ومع إقرار نفوذها وإعلان الخلافة تحكمت في الشبكة الحضرية كما هو الحال مع الحصون في الأرياف، إذ عملت على تأطير المدن في الميادين الاقتصادية والمالية والبشرية والعسكرية، وذلك عبر الولاة أو ممثليها الذين كانوا يتخذون من القصبات والأحياء المجاورة لها مقرا لسكناهم وجندهم. كما اهتمت الخلافة كذلك بتحصين وتسوير المدن خاصة تلك الواقعة في جهات الثغور أو تلك الواقعة في الجنوب لمراقبة المضيف بجانب بعض الحصون. وهنا تصدق ملاحظة Jacques Heers [1] التي تقول إن عملية التحصين في قصبات المدن وأسوارها تجعلها كأنها في حالة استنفار دائم.

وتبيّن من خلال استعراض المادة المصدرية المرتبطة بالأسوار أن بناءها وتوسيعها وترميمها بدأ منذ عصر الإمارة على الأقل، وكان خاضعا لظروف أو لعوامل بشرية وطبيعة. فكثيرا ما كانت الفيضانات وراء هدم أسوار العديد من المدن مما يدفع إلى إعادة بنائها من جديد. ولقد بيّنا في الوقت ذاته أن الهجمات الخارجية أي حصار المدن، خاصة أيام الحملات النورمانية التي كانت تتكرر على بعض المدن كإشبيلية مثلا، كانت وراء الاهتمام بالأسوار والتحصينات. كما لاحظنا أيضا أن الأسوار التي هي أداة أساسية للدفاع عن المدينة في حالة حصارها، يمكن أن تصبح وسيلة سلبية تساهم في إخضاع

---

(1) - HEERS (J); La ville au Moyen Age..., op. cit, p.328.

المدينة في مناسبات عديدة. فقد يستغلها المعارضون أو الثائرون في وجه السلطة المركزية للاحتماء بها والاستدلال بالمدينة، أو يستغل الأعداء بعض ثغراتها وعيوبها للانقضاض عليها. بل أكثر من ذلك يمكن أن تكون الأسوار، شأنها شأن الخنادق، عقبة ولو مؤقتة في وجه توسيع المجال المعماري للمدينة. وقد يضغط ذلك التوسع مما يؤدي بالساكنة إلى الاندفاع خارج الأسوار بعد هدم أجزاء منها، وبناء أخرى ممّا يؤدي إلى صعوبة رصد مختلف التحولات التي رافقت عملية بنائها وترميمها. ولاشك أن عملية النمو الحضري والعمراني على المستوى الإقليمي بأندلس القرن الخامس الهجري (عصر الطوائف) قد أحدث تحولات كبرى وعميقة في تحصين المدن وبناء قصباتها وأسوارها. إن عملية البناء في الحصون والقصبات والأسوار أدّت إلى الوقوف عند طبيعة البناء والمواد المستخدمة فيه. ولقد كشفت المصادر عن استعمال الأحجار والطابية أو التراب المجفف خلال عصري الخلافة والطوائف. وتبيّن من خلال إشارات متعددة دالة انتشار البناء بالأحجار[1] خلال الخلافة. في حين استعملت الطابية بشكل أوسع خلال الطوائف نظراً لسرعة إنجازها لقلة تكاليفها. ومن البديهي القول إن انتشار البناء بالحجر الصلب خلال القرن الرابع الهجري، إلى جانب توفر تقنية عالية في عملية البناء (مرحلة الاستقرار) قد أدى إلى صمود العديد من المواقع في وجه التطورات الطبيعية والبشرية. وما بعض القصبات والحصون والقلاع التي ما تزال قائمة إلى الآن إلا دليل على ذلك. وإن تضافر مجهودات البحث المصدري التاريخي والتوثيقي، والبحث الميداني الأركيولوجي والطبونيمي من شأنه أن يساهم في إنارة الكثير من القضايا، بل وحل العديد من الألغاز المرتبطة بالحصون القصبات والأسوار، أي دراسة العمران العسكري دراسة تكشف عما غمُض في العديد من جوانبه.

(1) - قال ابن عذاري إن الخليفة عبد الناصر، لما كان بصدد بناء مدينة الزهراء عام 325 هـ كان «يُصرف فيها من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة في اليوم» . البيان...، ج 2، ص.209.

الفصل الـثالث

الأسلحة والألبسة الحربية، الأنواع والوظائف

(...)«عن هشام بن عطية عن أبي منيب الحرشي عن عبد الله بن عمر قال: قال الرسول :"إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي"».

السيوطي(جلال الديـــن عبد الرحمن بن كمال): السماح في أخبار الرماح، تحقيق القيسي (فوزي حمودي)، **مجلة المورد، عدد 4، المجلد** 12، 1983، **ص.** 83.

«قالت الحكماء، خير السلاح ما خف حمله على الأعضاء ودفع عنها الأذى».

مجهول: البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 32 (مجموع)، ص. 34.

تُزوّدنا المصادر العربية القديمة الجغرافية والأدبية، وكتب التراجم والطبقات، والنوازل، وكذا المعاجم اللغوية المتخصصة، وكتب الآداب أو الأخلاق السلطانية، بمعلومات مفصلة عن الأسلحة وأنواعها وكيفية صناعتها وحملها واستعمالها. وقد ألفت مصنفات بكاملها في السلاح[1] وأنواعه والمشهور منه منذ الحضارات القديمة خاصة في المشرق. أما في الغرب الإسلامي فيُعَدُّ ابن خلدون[2] وابن هذيل[3]، رغم أنهما من المتأخرين، من الرواد في هذا المجال[4]. أما الأبحاث المعاصرة سواء في تاريخ المغرب أو الأندلس، فلم تهتم بموضوع السلاح إلا بشكل عرضي أي أنه لم يحظ بتأليف مفصل أو منفرد. ولذلك نعتقد أن "تاريخ السلاح" في الغرب الإسلامي لا يزال في حاجة إلى العناية والاهتمام والكتابة. خاصة وأن المصادر تتفق على وفرة الأسلحة في الأندلس منذ مطلع القرن الثالث الهجري على الأقل. فالأمير الحكم (ت 206 هـ) كان أول من جنّد الجنود وجمع الأسلحة والعدد واستكثر الحشم والحواشي وارتبط الخيل على بابه[5]. وامتاز الأندلس بـ « تبحُّر العمران وجودة اللّباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وإحكام التمدن »[6]. بل أكثر من ذلك يُنعت الأندلسيون بأنهم«ركيون في معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية وأبصرهم بالطعن والضرب، وذلك بحسب ما يقتضيه إقليمهم» [7]. وهم كذلك «صينيون في إتقان الصنائع العَمَلية، وإحكام المِهَن الصورية، ومعالجة آلات الحرب

---

(1) - ابن سلام (أبو عبيد القاسم توفي 224 هـ): كتاب السلاح، تحقيق الضامن (حاتم صالح)، المورد، عدد 4، المجلد 12، 1983، ص. 223، 253؛ الكندي (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي): فيما يُطرح على الحديد والسيوف فلا تتلثم ولا تكل. رسالة الكندي الثالثة، المورد، نفسه، ص. 119، 171؛ ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب): الفروسية، تحقيق: الحسيني (عزت العطار)، القاهرة، 1994؛ الطرسوسي (مرضى بن علي بن مرضى الطرسوسي): تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء، تحقيق كاهين (كلود)، بيروت، 1948؛ ابن منكلي (محمد بن محمود المصري): التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية، تحقيق: صادق الجملي (محمود)، المورد، عدد 4، ص. 319، 378.

(2) - خصص ابن خلدون فصولا كاملة لأداب الحرب والسلاح في المقدمة...، ج 2، ص. 700 وما بعدها.

(3) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط سابق.

(3) - سبق ولن كتب كل من الطرطوشي و ابن سيدة الأندلسي عن السلاح، لكن الأول لم يفصل في الموضوع كما فعل ابن خلدون، وكتب الثاني عن الموضوع من منظور لغوي معجمي.

انظر: ابن سيدة، المخصص...، مصدر سابق، ج 6.

(4) - النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (قسم المغرب)...، ص. 93.

(5) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 4.

(7) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 282.

والنظر في مهماتها» [1]، لقد جَرَّبُوا واختبروا أنواعاً متعددة من السلاح حتى قيل «وأما آلات الحرب من التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر، فأكثر همم الأندلس كانت إلى هذا الشأن» [2]. إن الاهتمام بالسلاح جعل السلطة السياسية في قرطبة خاصة في عصر الخلافة تُحْدِث ما يُعرف في المصادر "بخطة السلاح"، أو صاحب "خزانة السلاح" أي الذي يتولى الإشراف على الأسلحة في مجال الصناعة والعناية والتوزيع والمراقبة؛ شأنه في ذلك شأن أصحاب الخطط الأخرى كـ"خطة الخيل" أو "خطة القضاء"، والتي ترمي السلطة من ورائها إلى تنظيم الحياة الاجتماعية والعسكرية في الأندلس. ويبدو أن صاحب خزانة السلاح شخصية نافذة، لا تقل أهمية عن قائد الجند في الثغور أو المحتسب أو القاضي بقرطبة مثلاً. وتذكر المصادر العديد من الشخصيات التي عُهد إليها بخزانة الأسلحة منذ مطلع القرن الرابع الهجري. ففي عام 301 هـ تولى موسى بن سليمان الخولاني كاتب الناصر خزانة السلاح[3]. وفي السنة نفسها «ولي عبد الملك بن سليمان خزانة السلاح» [4]. وفي عام 304 هـ «نُقل علي بن حسين عن خزانة السلاح إلى خطة العرض» [5]. وفي 313 هـ ولي الناصر عبد الله بن محمد الخروبي خزانة السلاح[6]. وفي العام الموالي (314 هـ) عُيِّن حسين بن محمد بن عاصم وأحمد إبن يحيى بن حسان، وعبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف على خزانة السلاح[7]. وتولاها محمد بن يمليح مكان خلف بن أيوب[8] سنة 329 هـ. تجدر الإشارة إلى أن موقع الأندلس في أقصى غرب "دار الإسلام"، بجوار المسيحيين، وقيام الخلافة بقرطبة مع مطلع القرن الرابع للهجرة، وإرسائها لبنيات اقتصادية واجتماعية وعسكرية جديدة، جعل السلطة تهتم كثيراً بالسلاح كأداة مادية أساسية توفر لجند الحضرة إمكانية الدفاع عن حدود الخلافة في الشمال وفي الجنوب

---

(1) - المقري: النفح...، ج 3، ص. 151.
(2) - نفسه: ج 1، ص. 202.
(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 81؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 164.
(4) - ابن حيان: نفسه، ص. 97.
(5) - نفسه: ص. 134؛ ابن عذاري: نفسه، ص. 169.
(6) - نفسه: ص. 190.
(7) - نفسه: ص. 123. يبدو ان الثلاثة عُيِّنوا في فترة واحدة قصد التعاون فيما بينهم والتنسيق في منصب خزانة السلاح نظراً لأهميته.
(8) - ابن حيان: نفسه، ص. 488.

كذلك. وانطلاقاً من ذلك كان لزاماً عليها أن تتولى صناعة الأسلحة أو استقدامها من المغرب أو من المشرق أو حتى من المسيحيين أنفسهم. لقد عرفت الأندلس الكثير من السيوف والقسي الإفرنجية[1]، أو ما عرف بالسيوف البردالية[2] المشهورة بالجودة، والتي يُصنع منها في بلاد الكفر ما يُبهر العقول حسب المقري[3]. وقد يبدو الأمر في ذلك متناقضاً مع ما ورد في كتب الفقه والجهاد والنوازل، التي تدعو إلى الاحتراس وعدم التعامل أو التجارة في مجال الأسلحة مع العدو المسيحي الذي من شأنه أن يتقوى على المسلمين. ويُحَدِّد ابن رشد[4] المواد التي يُحَرِّم التعامل بها مع الكفار مُشيراً إلى الكراع والأسلحة والحديد والرايات والنحاس الذي تُعمل منه الطبول لترهيب المسلمين. ويقول ابن زكون[5] اعتماداً على المدونة: «ولا يباع من الحربيين آلة الحرب من كراع أو سلاح أو سروج أو غيرها ممّا يتقوّون به في الحرب». وكرَّر الونشريسي[6] المواد التي لا يجوز التعامل فيها مع الأعداء خاصة آلات الحروب وعدة الفرس، بحيث يُمنع على السقطي والصيقالي والحدادي ترويجها[7].

إذا كانت هذه القضايا الفقهية المرتبطة بالأسلحة تعكس، بالتأكيد، اهتمام بعض الأوساط الفقهية والشعبية معاً ورغبتها في مقاطعة العدو المسيحي، فإنها لا تعدو أن تكون ذات الطابع النظري المحض، لأن الواقع السياسي والعسكري يفندها ويتحدَّاها. إنها نظريات فقهية انشغلت، في الواقع، برسم ما ينبغي أن يكون، وليس بما هو موجود في الواقع التاريخي العياني الذي شهد، كما أشرنا إلى ذلك، رواجاً في الأسلحة وغيرها[8] من هذا الجانب أو ذاك. إن الملاحظة ذاتها تصدق أيضاً من الجانب المسيحي الذي حاولت فيه بعض الأوساط السياسية والدينية منذ العهد "الكارلنجي" ـــ

---

(1) - ابن حيان: نفسه، ص. 268.

(2) - ابن سعيد (المغربي): كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خنيس فرنيط.خ، تطوان، معهد مولاي الحسن، 1958، ص. 114.

و"البردالية" نسبة إلى بوردو (Bordeaux) المدينة الأساسية في جنوب غرب فرنسا.

(3) - المقري: النفسح...، ج 1، ص. 202.

(4) - ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد قاصي الجماعة): كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات، الشرعيات الأمهات مسائلها المشكلات، القاهرة، مطبعة السعادة، د. ت، ص. 613، 614.

(5) - ابن زكون: اعتماد الحكام في مسائل الأحكام...، مخطوط سابق، ص. 389.

(6) - الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 67، 190، 191.

(7) - نفسه: ص. 67، 190، 191.

(8) - حناوي: جوانب من العلاقات الاقتصادية...، م. س، ص. 151، 166.

منتصف القرن الثامن للميلاد - إصدار قوانين تهدف إلى منع، أو على الأقل الحد من أنشطة التجار الذين "يُسَرِّبــون" الأسلحة الإفرنجية الجيدة إلى المسلمين[1].

تعتبر الأسلحة القتالية على اختلاف أنواعها، شأنها شأن الحصــون والقصــبات والأبراج والأسوار والخنادق، وسائــل مادية هامة، تكتمل بواسطتها قوة الجند ونفوذه. وللتأكد من أهميتها يكفي تصفح كتب الجهاد، والأخلاق السلطانية[2] التي تؤكد أن الجند بلا سلاح جيّد، أعزل، وأن السلاح بلا جند مُقتدر ومقدام لا قيمة له. ويتأكد هذا الأمر من خلال مضمون مقولة مشهورة ومأثورة عن الخليفة عمر بن الخطاب الذي طلب في إحدى المناسبات من القائد عمرو بن معد يكرب الزبيدي، أن يبعث إليه بسيفه المعــروف **بالصَّمصامة**، فضرب به فوجده دون ما كان يتصوره فسأل عن الأمر فأجابــه صــاحب السيف قائلاً:«إني بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضــرب به»[3].

ما هي أنواع الأسلحة التي راجت في أندلس الخلافة والطوائف. وما هي وظائفها وطرق القتال بها؟

1 - السـيوف

تجدر الإشارة إلى أن السيف من الأسلحة الأولى المشهورة فــي الحــروب منــذ العصور القديمة. ولا داعي إلى التفصيل في القول إن السيوف عرفت منــذ مــا قبــل الإسلام بكثير، فيكفي العودة إلى الأدب الجاهلي نثره وشعره للاطلاع على ما تزخــر به المصنفات القديمة من أوصاف كثيرة ودقيقة حول السيوف وطرق استخدامها فــي القتال. وقد ازدادت أهمية السيوف في العصر الإسلامي خاصة مع الفتوحات الإسلامية

---

(1) - **GANSHOF** (Fr. L); *L'Armée sous les Carolingiens*. Dans : Ordinamenti militári in Occidente. centro italiano de Stadi Sall'alto medioevo Settemane di Studio, T. XV, Spolètè 1968, p.109,130.

(2) - كثيرة هي المصنفات التي فصلت في دور السلاح في تقوية المُلك والسلطان. انظر مثلاً:
ابن المقفع: الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة...، مصدر سابق؛
(الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية...، مصدر سابق، وأدب الوزير "قوانين الوزارة وسياسة الملك"...، مصدر سابق)؛ ابن أبي النور: سياسة الأمراء وولاة الجنود...، مخطوط سابق؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة في السياسة النافعة...؛ ابن الأزرق: بدائع السلك في طباع الملك...، مصدر سابق؛ العلام (عز الدين): السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1991.

(3) - ابن عبد ربه: العقد الفريد...، ج 1، ص. 179.
ابن هذيل: حلية الفرسان وشعار الشجعان...، 1997، ص.119؛ الصَّمصامة اسم مشهور لسيف بالغ الأهمية، يبلغ ثمنه خمسين ألف درهم حسب ابن هذيل...، نفسه، 1951، ص. 190.

كما تشهد على ذلك كتب الجهاد[1] والفروسية[2] التي فصلت في الأنـواع والأسـماء والأوصاف، بل في الأفضل منها، بحيث يتم التباهي ما بين الهنديـة أو الهنداويـة[3]، والإفرنجية[4]، والقلعية والسليمانية وغيرها، أو الافتخار بما شابه سيف الرسول ﷺ ذو الفقار[5] الذي غنمه يوم بدر إلى غير ذلك من الأسماء. وكثيراً مـا اسـتعمل السـيف للدلالة على الأسلحة بشكل عام أو لمنافسة القلم وكلاهما أي السيف والقلم يشـكل أداة أساسية تستخدمها الدولة أو السلطة عند الحاجة. وهو ما أوضحه ابن خلدون[6] بدقة في باب التفاوت بين المراتب ودور السيف والقلم في الدول بالقول: «اعلـم أن السـيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره. إلا أن الحاجة في أول الدولة إلى السيف ما دام أهلها في تمهيد أمرهم، أشد من الحاجة إلى القلم؛ لأن القلم في تلـك الحال خادم فقط» [7].

لاشك أن أصنافاً عديدة من السيوف قد راجت في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف. فمنها المجلوب إليها من مناطق أخرى، ومنها ما كان يُصنع محلياً، بـدليل أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما اختط مدينة الزهراء، «اتخذ فيهـا داراً لصـناعة آلات السلاح والحرب والحلي للزينة» [8]. كما اشتهرت مدينة طليطلة منذ القديم فـي صناعة السيوف. ولما فتحها العرب زادوا تلك الصناعة إتقاناً[9]. ويبدو أن الخلافة في مطلع القرن الرابع الهجري، قد لجأت إلى تغليب القوة والسيف مـن أجـل إخضـاع المعارضين وإرساء قوتها وبنياتها، بدلاً من القلم كما يتضح من نظرية ابـن خلـدون السالفة الذكر.

---

(1) ـ مجهول: كتاب الجهاد...، مخطوط سابق: باب السيوف؛ ابن هذيل: في الرباط والجهاد، مخطوط سابق، الخزانة العامة، 1108 د الاسكوريال، 904. باب السلاح؛ المراكشي: سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد، مخطوط سابق، ص. 22.

(2) ـ مجهول: كتاب الحيل في الحروب، مخطوط/ميكروفلم، مصدر سابق. باب السلاح؛ مجهول: كامل الصناعة في الفروسية...، مخطوط. باب السلاح؛ مجهول: كتاب الخيل، مخطوط الخزانة العامة، الرباط د 1312. السلاح.

(3) ـ بن الحاج (النميري): فيض العباب، تحقيق: ابن شقرون (محمد)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990، ص.302.

(4) ـ البكري: جغرافية الأندلس...، ص.145.

(5) ـ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص.1؛ ابن هذيل: حلية الفرسان،1997، ص.121.

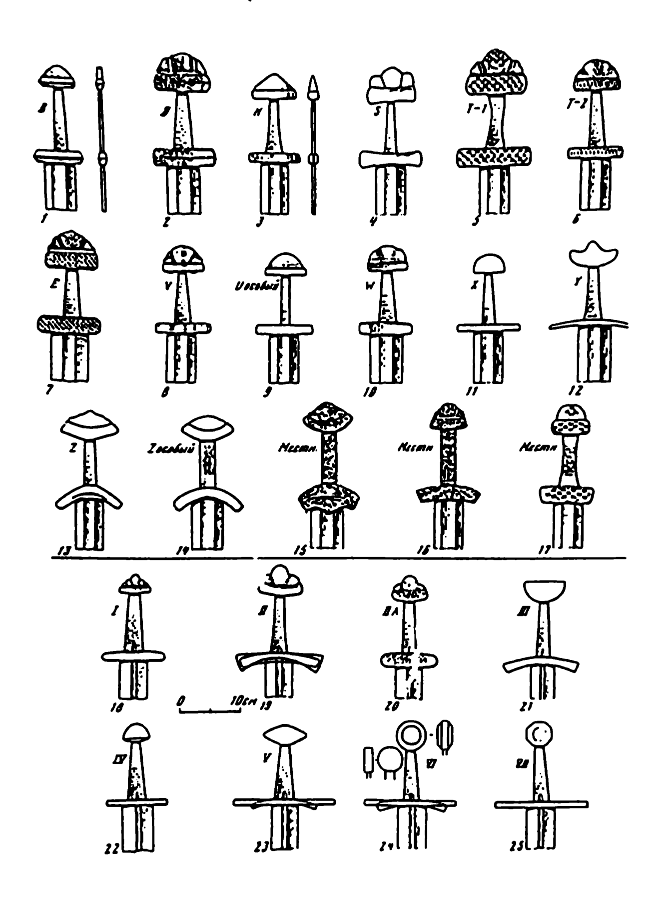
(6) ـ ابن خلدون:المقدمة...، مصدر سابق،ج 2، ص.695، 696.

(7) ـ نفسه: ص. 695.

(8) ـ نفسه: كتاب العبر...، م 4، ص.312.

(9) ـ أرسلان (شكيب الأمير): الحلل السندسية...، ج 1، ص.440.

نماذج من السيوف الأوربية حسب أشكال مقابضها (IX – XIVم)



المرجع : Le combatant au Moyen Age

وإلى جانب السيوف المصنوعة محلياً التجأت الخلافة والطوائف بعدها إلى السيوف الإفرنجية نظراً لجودتها، بل هي أكثر تفوقاً وشهرة عن سيوف الهند حسب البكري[1]، أو هي أمضى السلاح حسب القزويني[2]. ولا غرو فقد اشتهرت السيوف البردالية[3] الإفرنجية في الأندلس. ويقدم ابن حيان[4]مكرر معلومات دقيقة حول سيف إفرنجي كافأ به الخليفة عبد الرحمن الناصر محمد بن خزر. إنه "إفرنجي الجنس صارم مُحلّى بفضة مذهبة منقشة في غمد سفن حوت.." ويتبين مما سلف أن السيف[5]، وإن أضيفت إليه أسلحة أخرى، قد ظل ذلك الموروث التاريخي الذي كان الزعماء يتباهون به على أعدائهم، ويدّعون امتلاك أجوده.. ويُستفاد هذا المعنى من نص بالغ الدلالة أورده صاحب المجالس والمسايرات[6] في سلاح المعز لدين الله الفاطمي، قائلا: «وجلست يوماً بين يديه مع جماعة من أوليائه فذكر ذو الفقار سيف الرسول ﷺ، ثم أمر بإخراجه إلينا، فنظرت فإذا هو حديد كُلُّه قطعة واحدة قائمة وبدنه، يكون طوله قدر ثلاثة أشبار، فيما قدَّرته، وعرضه أقل من عرض ثلاثة أصابع، وعرضه ممّا يلي قائمه أقل قليلاً من عرض مضربه، وذبابه حديد، كحديد الرّمح، يصلح للضرب والطعن، وله شفرتان، وفي وسطه عمود، وخَفي ً». ورغم أن النص يحمل شحنة إديولوجية مبالغاً فيها لأن صاحبه لا يُخفي ولاءه للفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس بفعل النزاع الدائم حول أحقية الخلافة، وادّعاء ملك سيف الرسول إنما يعكس ذلك

---

(1) - **البكري**: جغرافية الأندلس...، ص.145.
(2) - **القزويني**: آثار البلاد وأخبار العباد...، ص.494.
(3) - **ابن سعيد**: كتاب بسط الأرض...، ص.114.
(4) - **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص.268.
(4) مكرر- يبدو أن السَفن مادة (شجر أو غيره) تستخدم في صناعة مقابض السيوف، وهي متوفرة بالأندلس حسب معلومات **المقدسي**: أحسن التقاسيم...، ص.239.
(5) - انظر أوصاف السيوف الأندلسية في بعض المصادر ذات الطابع الأدبي مثل:
التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى): ديوان الأعمى التطيلي، تحقيق:إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963، ص. 105، 106، 107.
(6) - **النُعمان** (أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القاضي): كتاب المجالس والمسايرات، تحقيق: الفقي (الحبيب) وآخرون، تونس، المطبعة الرسمية، 1978، ص. 114.

النزاع، فهو إلى جانب ذلك يعكس طبيعة السيوف آنذاك من حيث المتانة والصلابة والمقاييس المعتمدة في صناعتها، ونوع الحديد المتخذ فيها الخ.

2 ـ أسلحة الرماية الخفيفة والطعن (القسي والنبال، الرماح والمزاريق)

على غرار السيوف ألّف الكثير في أنواع القسي والرماح والسهام منذ القديم، حتى أنه خُصّصت مصنّفات[1] بكاملها لهذه الأنواع من السلاح منذ أن خطب الرسولﷺ في رجاله وهو مُتّكِئ على قوس عربية[2]. لاشك أن الفرس هم أشهر الأمم التي عرفت القسي والرماح على أنواعها، وعنهم أخذ المسلمون والأتراك في هذا الباب. قال ابن الجوزية[3]: «وأما القوس الفارسية فهي قسي العساكر الإسلامية في هذا الزمان في الشام ومصروما يُضاف إليهما». وأضاف: «ولا ريب أن القسي العربية أنفع للعرب، والفارسية للعسكر اليوم، وكلاهما يفضل القسي التركية لما فيها من القوة والشدة والسرعة والرطوبة وخفة الحمل، وقوة الفعل، ولم تكن الترك تعتاد هذه القسي الفارسية، ولكن لما خالطت الفرس وعاشرتهم تعلموا منها الكثير من زيهم ولباسهم، وحربهم ولسانهم وآلاتهم»[4]. لكن نلاحظ أن المسلمين الذين تأثروا بالفرس في صناعة الآلات الحربية كالقسي والرماح وغيرها، قد صنعوا أخرى وطوّروها وفق البيئة التي عاشوا فيها. لقد برعوا في إتقان هذا الفن من الأسلحة تأليفاً وممارسة وتجربة. والدليل هو ذكرهم لكل أصناف القسي والرماح وكيفية صنعها، ومواد صناعتها، وتركيبها، وطرق الرمي بها في الحروب. بل أكثر من ذلك ميزوا في الصناعة ما بين القوس التي تصلح للصعود أي لضرب القلاع والحصون، والتي تصلح للرّمي من الأعلى إلى

---

(1) ـ مجهول: في علم الرّمي وفضل القوس والوتر والنشاب ومعرفة أصول ذلك وسقاية السلاح المهلكة، مخطوط الخزانة العامة، الرباط، رقم 64؛ مجهول: كتاب علم الرّمي وصفاته ومقاديره ومداراته، مخطوط خ. ع، الرباط مجموع د 1867؛ أبو عبيد الله (محمد بن يوسف الإخباري الشيعي): كتاب الإيضاح في علم الرّمي، مخطوط خ. ع، مجموع د 1867؛ السّخاوي (شمس الدين): القول التام في فضل الرّمي بالسهام، مخطوط الإسكوريال، رقم 765؛ الشورنحي (الفرحاتي): فضل القوس العربية، تحقيق: الجنابي (أحمد نصيف)، عبودي، فتوحي حبري، المورد، عدد 4، م 12، 1983، ص. 253، 304.

(2) - مجهول:البدائع والأسرار..، مخطوط سابق. باب القوس؛ ابن هذيل:حلية الفرسان، مصدر سابق،1997،ص.133.

(3) - ابن القيم الجوزية: الفروسية...، ص. 101.

(4) - نفسه: ص. 103.

الأسفل[1]. ناهيك عن ذكرهم للأقاليم والمناخات التي تتلاءم وأجناساً منها دون غيرها. فالقسي تختلف باختلاف البلاد وأهويتها، «فالقوس الكثيرة الخشب تصلح للبلد الشديد الحر والبرد وللبلد الشديدة الرطوبة جداً... وأما القوس الكثيرة العقب الضيقة فتصلح للهواء المعتدل» [2]. وكل نوع من هذه القسي يصلح له صنف محدد من الرّجال تتوفر فيه شروط تضمن حسن استعمالها ونجاحها «فالقسي الكثيرة الأخشاب الواسعة..تصلح للرجال العريضي الأكتاف وقصار البدن والعنق، والقوس الكثيرة العقب، يصلح لها من الرّجال طويل الذراعين رقيق العصب ضيق الصدر»[3]. ولضمان جودة القسي يلزم انتقاء الأخشاب التي تجتمع فيها الصلابة والخفة والرقة. فالجودة في خشب المشرق تكون في عود الشوحط، وبالأندلس في الصنوبر الأحمر الخفيف الذي قد خرجت دهنته[4].وفي المعنى ذاته ذكرابن هذيل[4]مكرر أن القسي تُنتَخَبُ«من عشرة عيدان خمسة برية وخمسة بستانية، فالبرية: الطخش وهو النبع بلغة العرب، والزنبوج والدّردال والكتم والشبر، والبستانية: النارنج، والنّسمان، والتفاح والرمان والسّفرجل»[5] . وأما أنواع القسي فكثيرة وأهمها القسي

---

(1) - مجهول: البدائع...، ص. 180.
(2) - نفسه، ص. 180.
(3) - نفسه: ص. 180، 181.
(4) - نفسه: ص.181، 204، 207.
(4)مكرر - ابن هذيل: حلية الفرسان، 1997، ص. 135.
(5) - ترتبط الأخشاب التي تدخل في صناعة القسي، ارتباطاً وثيقاً بالمناخ وبمناطق محددة. يقول محقق ابن هذيل: إن هذا الأخير ذكر أسماء الأخشاب التي تُتخذ للقسي ولا ترد في المصنفات المشرقية لأنها أندلسية محلية.
ابن هذيل: حلية الفرسان وشعار السجعان، تحقيق: محمد عبد الغني (حسن)، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951. المقدمة.
لكن بالعودة إلى المعاجم المغربية أو المشرقية نفسها نلاحظ أن العديد من أسماء الأخشاب التي تصنع منها القسي لم ينتبه إليه المحقق. يقول صاحب البدائع والأسرار...، ص.32/ 33 إن أهل بادية الحجاز يستعملون عود النبع والشّوحط في القسي. والشوحط هو المرّان من قضيب، والمران أو الزّان يدخل في صناعة الرماح والمزاريق، ونكر في المصادر المغربية والمشرقية على حد سواء. انظر:
طيبغا (الأشرفي): كتاب بغية المرامي وغاية المرام للمعاني في علم الرّمي، مخطوط الخزانة العامة، الرباط ضمن مجموع د1867، ص. 123؛ الجاحظ: البيان والتبيين...، مصدر سابق، ج 3، ص.16؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان...،ج 7، ص.118؛ ابن خاقان: قلائد العقيان...، ص.90؛ المقري: النفح...، ج 4، ص.368.
ويُقال إن الزنبوج أو الزّبوج لا ينتج في المشرق. إنه عود الزيتون الذكر، وهو نوعان أحدها يُجلب إلى المشرق من بلاد المغرب، والآخر من بلاد اليمن، انظر:
الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 8؛ مجهول: البدائع والأسرار...، ص.62.
للمزيد من التفصيل حول المواد التي تدخل في صنع القسي يمكن الرجوع إلى لائحة كتب النبات والفلاحة وهي كثيرة في:الطاهري (أ): الطب والفلاحة في الأندلس، منشورات كلية الآداب، المحمدية، 1997.

العربية وهي أنسب للفارس[1]، نظراً لسرعتها. والقوس الإفرنجية أنسب للرّاجـل[2]. وقسي الرجل ذاتها أنواع منها: « الجرخ للإفرنج واللّقشة للمغاربة، والدّنبورك للعجـم والترك، والبندوق للإسلام وهو أنفع قسي الرجل لأهل البر..»[3]. ويستعمل الفــرس كثيراً قوس اليد، أما الترك فيفضلون قوس الرجل، التي كرهها الرسولﷺ[4]، لأسباب منها أنها على شكل صليب يبعث على الشؤم أو كونها معقدة في التّركيب وتتعطل في الرّمي[5]. لذلك عَدَل أهل الأندلس إلى القوس الإفرنجية التي لها جــوزة ومفتــاح[6]. وينفرد ابن هذيل[7] بوصف القوس الإفرنجية المعتمدة في الأنــدلس مُقــدِّماً بصــددها مُعجماً لغوياً غنيّاً. إنها تتكون من «عمود وقضيب وجوزة، ومفتاح. وكان العمود قبل يسمى المجرى، ويسمى بذلك لجري السهام عليه، وكان مفتاحه طالعاً من جهة الجوزة، يرمي سهاماً عِدَّة مشتمِلةً»[8]. ويضيف صاحب البدائع والأســرار[9]، ويظهــر أنــه يعرف الأندلس، أن«أحسن القسي بالأندلس القليلة الخشب المعتدلة من العقب الكثيــرة القرن. فإن النكاية والقوة إنما هي في القرن، لكن كلمــا كثــر قــرن القــوس كثــر اعوجاجها..». ويدقق أكثر في أوجه القتال بها وكيفية اعتمادهــا فــي قتــال العــدو وإصابته، حين يقول:«إذا رميت الفارس، إن كان مقبلاً إليك، فاطلب قربوس سرجه، فإن طاش السّهم وقع في صدره،أو في وجهه،وإن قصر وقع في بطنه أو في دَابَّتــه. وإن كان هارباً أمامك وأردت رميه فاطلب القربوس، فــإن طاش الســهم وقــع فــي ظهره..» [10].

وإذا اتخذ الأندلسيون القسي الإفرنجية أو الأعجمية[11] في الحروب فذلك يرجــع لأسباب منها أنها سهلة ومُناسبة في حروب بعينها. يقــول صــاحب الــنفح[12] بــأن

(1) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط الإسكوريال،90أ.
(2) - نفسه: 90 أ. حلية الفرسان...،1997، ص.134.
(3) - طيبغا الأشرفي: بغية المرامي...مخطوط ص.125.
(4) - مجهول: البدائع والأسرار، مخطوط ص.42.
(5) - نفسه: ص.43.
(6) - نفسه: ص.47.
(7)-ابن هذيل:حلية الفرسان...،1997، ص.135.
(8) - نفسه: ص.134.
(9) - مجهول: البدائع والأسرار...، ص.181.
(10) - مجهول: نفسه، ص.279.
(11) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص.197، 199. يسميها أحياناً "الأسنة الفرنجية".
(12) - المقري: النفح...،ج1، ص.223.

الأندلسيين يُعِدُّون قسي الإفرنج للمحاصرات في البـلاد وللرجالة مـن الجنـد عنـد الصفوف للحروب. وإضافة إلى ذلك نعتقد أن الأندلسيين ارتأوا خبرة سـلاح العـدو القريب منهم كي يقاتلوه به عند الضرورة. لكن نبادر إلى القول إن القوس الإفرنجيـة لم تكن وحدها الرائجة في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، بل تصنع القسي أيضـا بدار صناعة الأسلحة بقرطبة أو من لدن حرفيين مختصين بقرطبة والزاهـرة وربمـا بمدن أخرى في الأقاليم. لقد أفادنا ابن حيان[1] أن المنصور بن أبي عـامر، الكثيـر الغزوات ضد المسيحيين، كان يأمر بصناعة القسي التي يُصنع منها حوالي إثنا عشـر ألف قوس بشطرين عربية وتركية. إن النّصف منها كان يصنعه أبو العباس البغـدادي المعلم الأكبر بقـرطـبة، والنصف الآخر يصنعه طلحة الصقلبي بـالزهراء[2]. كمـا تصنع أسلحة أخرى كالنّشـاب[3] والسـهام[4] والرمـاح[5] والمزاريـق[6]، والقنـا بأنواعها[7] كالطوال للرجالة والقصارللفرسان[8].وأسلحة أخرى كالفـأس أومـا

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 101
(2) - نفسه، ص. 101.
(3) - ابن حيان: المقتبس...، أنطونية، ص. 103؛ أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب...، ص. 110.
(4) - أبو الخير الإشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق: الخطابي (محمد العربي)، الرباط 1990، ج 2، ص. 690؛ القيرواني (ابن أبي زيد) الرسالة، بيروت، دار الفكر، 1993، ص. 324.
(5) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 122؛ ابن حيان: المقتبس، الحجي، ص. 48.
العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 51؛ ابن الأبار: ديوان ابن الأبار، تحقيق: الهراس (عبد السلام)، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 330؛ نفسه: المقتضب من تحفة القادم، تحقيق: الأبياري (!)، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983، ص. 168، 169، 190، 198؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 223، 225؛ ابن سلام: كتاب السلاح...، ص. 231،230.
(6) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص.60؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 11؛ ابن رضوان: الشهب اللامعة...، ص. 395.
تحدث كتب السلاح والمعاجم اللغوية عن أنواع المزاريق ومعانيها كأن يُقال: المزراق ما رزق به زرقا وهو الخفيف.
ابن سلام: كتاب السلاح...، ص. 231؛ المعجم الوسيط...، ج 1، مادة زرق، ص. 392.
(7) - ابن بسام: الذخيرة...، ق 4، م 1، ص. 85؛ مجهول: الحلل الموشية...، ص. 22؛ الجاحظ: البيان والتبيين...، ج 3، ص. 16؛ نفسه: الرسائل...، ج 1، ص. 27؛ حركات (!): النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، د. ت، ص. 173.
LAGARDÈRE (V); Le vendredi de Zellaqa..., op. cit, p. 47, 49, 50.
(8) - الجاحظ: البيان والتبيين...، ج 3، ص. 16.
LAGARDÈRE (V); « Esquisse de l'organisation militaire des Mirabutún à l'époque de Yusúf B. Tasfin 430 H (1039) à 500 (1106) » dans: **Revue de l'occident musulman et de la Mediterranée**, N° 27 Sep, 1979, p. 99, 114.
يقدم العمري بعض التفاصيل عن أسلحة القنا والمزاريق وهي أسلحة هجومية يتراوح طولها ما بين 1,50م إلى ثلاثة أمتار.
العمري: مسالك الأبصار، إفريقية ناقص مصر، ترجمة
Gaudefroy-Demonbynes, Paris, Librairie Orientaliste, 1927, p. 9.
يمكن المقارنة مع بعض الرماح والمزاريق لدى الأوربيين منذ العهد الكارلنجي والتقنيات المتخذة في رميها والقتال بها، والقياسات فيها، كالرمح الذي يصل طوله إلى 12 مترا وأهميته لكن مع صعوبة معرفة التوازن عند قبضه وضبطه.. انظر:
FLORI (J), Encore l'usage de la lance: La technique du combat chevaleresque vers l'an 1100 dans **Cahiers de Civilisation médiévale**, X-XIIe siècles, 1988, N° 3, Juillet, Spt, 1988, p. 236,237, 238.
CIRLOT(Victoria),Téchniques guerrières en Catalogne féodale: le maniement de la lance Dans **Cahiers de Civilisation médiévale**., op. cit, N°1, Janvier, Mars, 1985, p 35, 43
GAIER (C),«Technique des combats singuliers d'après les auteurs bourguignons » dans: **Le Moyen Age**,N° 1, 1986, pp. 5-40.
GANSHOF (F. L); L'Armée sous les carolingiens ..., op. cit, p. 122, 123
CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age ., op. cit, p. 310 et sv

يُعرف بالطّبرزين[1]، والأسل[2]، والعنزة[3]، والأقــزال[4]،والمطــارد[5]، والإلال[6] وغيرها. وعلى غرار سلاح القسي تقف المصادر عند مواد صــناعة هــذه الأســلحة كأخشاب الزّان أو المرّان[7] أوالصنوبر والبلوط[8]، وهي مواد تُنــتج فــي المغــرب والأندلس. كما تتخذ أخشاب الخيزران[9] في مناطق إفريقية. ولم تكتف المصادر بتبيان أهمية وكيفية صناعة الأسلحة والقتال بها، بل انفردت كتب الطبوالنبات بذكر الإصابات التي يتعرض لها المحاربون أثناء المعارك والمواجهات وسبل علاجها، أو التخفيف من حدتها على الأقل. ويؤكد ابن منكلي[10] مكرر أن «من لوازم الجندي... اتخاذ الذرورات المانعة لخروج الدم، وهو عندي واجب يكاد يكون استصحابه للجندي عند سفره مــن فروض الأعيان». لكن لا نعرف بالدقة من يتولى أمر مداواة الجندي ومساعدته علــى استعمال ما تَوفر من الأدوية خلال المعارك. وهل يرافق الأطباء الحملات العسكرية؟ والملاحظ أن المصادر شحيحة إلى حد الصّمت عن ذكر الكيفية التي يزاول بها الأطباء

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 150؛ ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 2، ص. 159.
الطبرزين: كلمة تركية من أصل فارسي، طبر = الفأس، زين = السرج. وهي فأس تعلق بالسرج. يقول الجاحظ في مناقب الترك "ولنا... الخيول الشهرية.. والطبرزينات في الأكف والخناجر في الأوساط ولنا حسن الجلسة على ظهور الخيل، ولنا الأصوات التي تسقط منها الحبالى".
الرسائل...، المصدر السابق، ج 1، ص. 20.
لقد استعملت هذه الفأس وتسمى البلطة الحادة (Hache) من قبل الإفرنج وتزن حوالي 1,2 كلغ ، وطولها حوالي 18 سم وحوالي 40 سم في المقبض ويمكن القتال بها في دائرة من 4 إلى 12 مترا.
CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 310.
(2) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 94؛ ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 142.
السيوطي: السماح في أخبار الرماح...، ص. 86؛ الأصفهاني (العماد): خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق: المرزوقي (محمد) العروسي (المطوي محمد) الجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، 1973، ج 2، ص. 98؛ الرصافي (معروف): الآلة والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهنات، تحقيق: الرشودي (عبد الحميد)، بغداد، دار الرشاد، 1980، ص. 18. المعجم الوسيط ج 1، مادة أسل...، ص.18.
(3) - ابن سلام: كتاب السلاح...، ص.239.
(4) - ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة...، ص. 28.
(5) - الجاحظ: الرسائل...، ج1، ص.127؛ حركات: النظام السياسي والحربي...،ص.179.
(6) - ابن سلام: كتاب السلاح...،ص. 231. يقول: «الإلال مثل البلال، الحراب واحدتها ألة، وهي أصغر من الحربة وفي سنانها عرض».
نفسه، ص. 231.
والألة: الحربة العريضة النّصل. سُمّيت بذلك لبريقها ولمعانها. يقول البعض: الألة كلها حديدن والحربة بعضها خشب وبعضها حديد.
المعجم الوسيط مادة ألّ، ص. 24؛ لسان العرب، المجلد الأول، ص. 85، 86.
(7) - الجاحظ: البيان والتبيين...،ج 3، ص. 16. يقول:«إنما كانت رماحكم من مُرّان وأسنتكم من قرون البقر».
ابن خاقان: قلائد العقيان...،ص. 90. يقول بيت شعري:

وجزعا من منازلة الأقران ● ومقابلة ذوي المــران.

نفسه، ص. 90؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان...،ج 7، ص. 118.
يعتقد الباحث Lagardère أن الزّان نوع من البلوط (Hêtre) تُتخذُ منه المزاريق:انظر:
LAGARDÈRE (V); Le Vendredi de Zellaqa...,op.cit, p.50.
- Esquisse de l'organisation militaire..., op. cit, p. 108.
(8) - تنتج أخشاب الصنوبر والبلوط ببعض الأنواع في المغرب والأندلس وتستعمل في الأسلحة والأساطيل.(انظر الأسطول).
(9) - يدخل نبات الخيزران المجوف وقرون البقر في صناعة السّهام والنبال في بعض المناطق الإفريقية.
العمري: مسالك الأبصار...، ص. 26.
(10) - ابن منكلي: التدبيرات السلطانية...، ص. 365.
(10) مكرر- الذرورات:ما يذر على الجرح لسد مساماته وشقوقه ليقطع نزيف الدم...، نفسه، هامش (136)، ص.365.

والجراحون والبياطرة أعمالهم وهم يرافقون الحملات العسكرية. ونحـــن نتصــــور أن الأمر في غاية الأهمية لما يتطلبه من إعداد الأدوية وحملها ومراقبـــة الجرحى إلـــى غير ذلك من القضايا الصّحّية المرتبطة بحياة الجند. تفيد بعض الإشارات المصدرية[1] في تبيــان دور النساء في ميدان الخدمات الطبية والإسعافات المُقدَّمة للجنـــد خـــلال المعارك. لقد كان المسلمون في حروبهم يصطحبون «الأطباء والبياطرة والمضمدين، وغالـــباً ما يقوم بهذه المهمة نساؤهم ويسمون الأواســـي»[2]. وقـــد وقفـــت بعـــض الإشارات عند النساء الغوازي[3] في أندلس الخلافة. ويعتقد ل.بروفنسال[4]أنها نســـاء قادة الحملات العسكرية أو عاهرات يصاحبن الجند الغازي.

ينفرد الطبيب الأندلسي الشهير أبو القاسم الزهراوي[5] بمعلومـــات بالغـــة الدقـــة والأهمية تتعلق بتجربته الطّبية مع شخصيات مسلمة ومسيحية في مجـــال انتشـــال أو إخراج السّهام والنبْل من الجُروح، والطرق المتبعة في ذلك، تمشياً مع طبيعة الجروح وأمكنتها في جسم الجريح. ولقد خصص جزءً هاماً من كتاب التصريف فـــي الطـــب لكيفية مداواة وجراحة المصابين في الحروب. دون إغفال وصف الآلات المستعملة في الجراحـــة. يقـــول الزهـــراوي فـــي السّـــهام والآلات إن العمـــل يكـــون بـــالمرود والكلاليب[6]مكرر. أما السهام فتختلف «حسب أنواعها وبحسب المواضع التي تقع فيهـــا

---

(1) ـ مجهول: في الوقف والأمور الجهادية، مخطوط الخزانة العامة، الرباط ك 2125، (مجموع) باب مداواة النساء للجرحى، 29 أ.

(2) ـ ابن منكلي: نفسه...، هامش (137)، ص. 365.
للتفصيل عن دور النساء في الحروب منذ الفتوحات الإسلامية الأولى انظر:
جمال محفوظ (لواء): فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، 1994 ص.50؛ الجنابي (خالد جاسم): تنظيمات الجيش العربي في العصر الأموي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1986، ص. 132.

(3) ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 100.

(4) - **LÉVI-PROVENÇAL** (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 97.
سار دوزي في السياق ذاته حين بيّن أن "الغوازي" ج/ غازية تعني في المشرق (مصر) راقصة أو امرأة عمومية.
DOZY (R); Supplément aux dictionnaires arabes, op. cit, T. 2, p. 212.

(5) ـ الزهراوي (أبو القاسم خلف ابن عباس الزهراوي) : اشتهر بكتابه التصريف في الطب. عُرف الزهراوي لدى الأوربيين باسم "ABOULCASSIS"، وترجموا له الجزء التشريحي من عمله الطبي حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد. واستفادوا منه كثيرا قبل أعلام "النهضة الأوربية" نفسها والذين قُدّم بعضهم على أنه الأول في مجال التشريح الطبي. انظر شهادة بعض الأوربيين أنفسهم في:
SOURNIA (J. Ch); Médecins Arabes Anciens..., op. cit, p.155 et sv.
CLOT (André); L'Espagne Musulmane, op.cit, p.258, 259.

(6) - **SOURNIA** (J. Ch); Médecins Arabes..., p. 168, 170, 172.
انظر التفاصيل في آلات الجراحة في:
الطيبي (أمين توفيق): الأصيل في كتاب الجراحة لأبي القاسم خلف الزهراوي (ت 404 هـ ـ 1013 م): في دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج 2، ص. 9-47.

(6) مكرر ـ انظر الآلات المستعملة في مجال البيطرة في فصل خطط وأساليب القتال.

من الجسم... منها ما له ثلاث زوايا، ومنها مالها ألسنة، ومنها ما لهــا شــظايا» [1].
لاشك أن السهام تؤثر بشكل فعال في الجسم، وقد تؤدي إلى المــوت، وذلــك حســب الأعضاء التي تصيبها. وتصنف تلك الأعضاء إلى أساسية كالــدماغ والقلــب والكبــد والعين وغيرها. وثانوية كالأنف وغيره. وقبل الشروع في عملية استئصال السّهم ينبّه الزهراوي إلى ضرورة التزام الحيطة والحذر اللازمين لأن المباغتة لا تفيد المــريض أو الجريح في شيء. ولتأكيد هذا الأمر وقف عند حالات وأمثلــة اســتُدعي لعلاجهــا وتختلف خطورتها حسب الإصابات. ففي إحدى المرات وقع سهم لرجل «(...) فــي مأق عينه في أصل الأنف فأخرجته له من الجهة الأخرى تحت شحمة الأذن وبرئ ولم يحدث في عينه مكروه» [2]. كما أخرجت «سهماً آخر ليهودي كان قد واقعه في شحمة عينه تحت الجفن الأسفل... وكان سهماً كبيراً من سهام القسي المركبة مربــع الحديــد أملس، لم يكن فيه أذنان، فبرئ اليهودي» [3]. وقد نجح الزهراوي في إخراج سهم آخر من «حلق نصراني، وكان السّهم عربيّا، وهو الذي له أذنــان، فشــققت عليــه بــين الوداجين، وكان قد غار في حلقه فلطفت حتى أخرجته فسلم النصراني» [4].

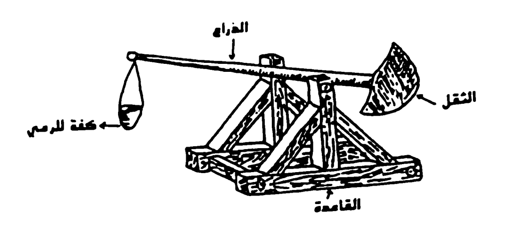
لاشك أن أطباء وجراحين آخرين قد ساهموا بدورهم إلى جانب الزهراوي، فــي مزاولة الطب العسكري خاصة في الأقاليم أو في مناطق الثغور التي كــان باســتمرار قبلة الحملات العسكرية. ونشير في هذا الصّدد إلى الطبيب والمهندس عمر بــن عبــد الرحمن بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي الأندلسي [5] الذي كان مستقراً بسرقســطة جهة الثغر الأعلى واشتغل بعناية وحنكة «بالكي والقطع والشق والبط وغير ذلك مــن أعمال الصناعة الطبيّة» [6]. إلى أن توفي سنة 458هـــ.

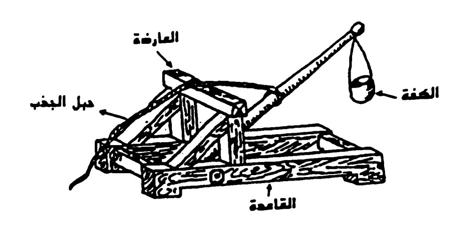
---

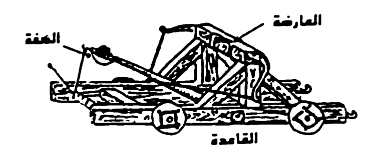
(5) - SOURNIA (J. Ch); op. cit, p. 164.

(1) - نفسه، ص.166.
(2) - نفسه: ص.166.
(3) - نفسه. ص.166.
(4) - القفطي: كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء...، ص. 162.
(5) - نفسه: ص.162.

بعض أنواع المجانيق







بتصـــرف

Radhi BASHIR Hassan Med :
El ejecto en la del Caifato del – Al Andalus. T2 , p : 811

3 ـ المجانيق والعرادات والدّبابات

تجدر الإشارة إلى أن المجانيق (المنجنيقات) والعرادات والدّبابات أسلحة هجومية قديمة، وليست حديثة كما يتبادر إلى الذهن أحيانا. لقد انتشرت هذه الأسلحة في المشرق خاصة في الجزيرة العربية منذ عهد الرسول ﷺ الذي« نصّب علـى أهـل الطـائف منجنيقا »[1]. والعرادة التي هي نوع من المنجنيق عُرفت هي الأخرى منذ حوالي 350 ق.م[2]. أما الدّبابة فآلة حربية قديمة هي الأخرى تتخذ في حصار الحصون[3]. وعلى غـرار القسي والرماح والقنا، تتكون المجانيق من أنواع منها: «العربي المبين، وهـو أيقـن مصنوعاتها وأوثق معمولاتها، ومنها التركي، وهو أقلها كلفـة، وأحصـرها مؤونـة، ومنها الفرنجي»[4]. ومنهم من دقق أكثر في المنجنيق المغربي والإفرنجي بـالقول إن «المغربي يُعمل من الخشب الجيد مثلث متساوي الساقين تكون قاعدته دون القائمـة لا زيادة فيها ولا نقصان، وليكن من خشب السنديان..»[5]. أما «الإفرنجي فيعمل مثلثـا من الجيد متساوي الساقين يُركب أعلاه أحد الساقين على الآخر حتى يكون بينهما مثلثا لطيفا، ويُبَطّنُ بالخشب، ولتكن قاعدة هذا المثلث أعظم من أحد أضلاعه...»[6]. ويقدم الطرسوسي[7] معلومات هامة في كيفية استخدام المجانيق في الرّمي والمسـافات فـي

---

(1) ـ الماوردي:الأحكام السلطانية...، ص. 52؛ ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط30 ب.
انظر أنواع وخصائص المجانيق في:
الزركاش ارنبغا:الأنيق في المناجيق (المجانيق)، تحقيق: نبيل (محمد عبد العزيز أحمد)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981.

(2) ـ العرادة: آلة حربية أو منجنيق صغير لرمي الحجارة مسافات محددة. ومنهم من قال العرادة رعاعيد آلة تحدث أصواتا شبيهة بأصوات الرعد. عرُد/ الرعد، انظر:
(الجاحظ: الرسائل...، ج1، ص.69؛ البيان والتبيين...،ج 3، ص.17)؛ الحموي ياقوت: معجم البلدان...،م4، ص.92؛ المراكشي: الذيل والتكملة...،السفر الخامس،القسم الأول، تحقيق:إحسان عباس، بيروت،1965، ص. 224؛ ابن منظور:لسان العرب، م2، مادة عرد، ص.728؛ المعجم الوسيط،ج 2، ص.592.
DOZY (R); Supplément aux dictionnaires..., op.cit, T. 1, p.536.

(3) ـ موريز(إ): مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب أكرم ديري، الأيوبي الهيثم، بيروت، 1970، ص.97.
والدّبابة آلة الحصار يدخل في جوفها الرجال وتُدفع إلى أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها. وقد تتكون من عدة مستويات أو طوابق، من الخشب والرّصاص والحديد والنحاس وتودع على عَجل لتحريكها. انظر:
الرصافي: الآلة والأداة...، ص.93.
DOZY (R); Supplément..., op. cit, T. 1, p. 421.

(4) ـ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 16. (انظر رسوم المجانيق).
(5) ـ ابن منكلي: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية...، مخطوط، ص. 23.
(6) ـ نفسه: ص. 25.
(7) ـ نفسه، ص. 16.

ذلك. لقد أوضح أن «الرّامي إذا وقف تحت الكفّة سواء على الخط المستقيم، كان الحجر كثير الارتفاع قريبة المسافة، وربما أسقط على الرجال، وإذا خرج عن الكفة، كان الحجر كثير الارتفاع قريب المسافة». أما المسافات التي يمكن أن تبلغها أحجار المجانيق، فـ «ستون باعاً وأقلها أربعون باعاً، والأصل أيضاً في بعد المسافة وقربها لين السّهم ويُبسه، فمتى كان السّهم في لين بالمفرط، كان ذلك أبعد للرماية، وأشد للنكاية، ومتى كان يابساً كان دون ذلك..» [1]. لقد عرفت المجانيق والعرادات والدبابات في الأندلس منذ وقت مبكر- أي منذ الفتح الإسلامي لها- كما تشهد بذلك المصادر. وقد أشار ابن عذاري[2] إلى فتح مدينة ماردة من قبل موسى بن نصير وحصار سكانها« أشهرا حتى عَمِل دبّابة فدبَّ المسلمون تحتها إلى برج من أبراجها».
كما حوصرت مدينة سرقسطة عام 164 هـ، بالمجانيق[3]، وغزاها الأمير عبد الرحمن بالمجانيق فقيل:« إنها حقّها بستة وثلاثين منجنيقاً»[4]. وأنزل الأمير محمد بن سعيد الجيش بإشبيلية ونصب المجانيق بها ضد المجوس[5]. ولم يتردد الخليفة عبد الرحمن الناصر في اتخاذ المجانيق والعرادات لإنزال المعارضين والخصوم من حصونهم المنيعة. ويستفاد من إشارات مصدرية متعددة أنه طوّر الأسلحة الحصارية، وأدخل عليها تحسينات كي يزيد في فعاليتها ضد أعدائه. يذكر ابن حيان[6] في هذا المعنى واصفاً حصار حصن شبليش سنة300هـ أن الخليفة «اعتاص عليه منها حصن شبليش لبعده وتعذر نيله بحجارة المنجنيق القاذفة له... ولجَّ الناصر وبنى رجلاً عليهم نصب المنجنيق عليه فأصابهم بأحجاره، وقطع الماء عنهم حتى قهرهم.».
وإبان غزوه لكورة ريُّه سنة 309 هـ أمر عبد الرحمن النّاصر الجند « بنصب المجانيق على مرتقى لهم تصل منه حجارتها إلى الكفرة»[7]. وفي عام325هـ احتل الخليفة بباب سرقسطة « فزاحف أسوارها بعدته... وقد توارى رجالها... واستسلموا

(1) - نفسه: ص. 16.
(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 14.
(3) - مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 117.
(4) - مجهول: أخبار مجموعة...، ص. 105.
(5) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 99.
(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 61.
(7) - نفسه: ص. 171، 172.

للصَغَار فتعاورتهم المجانيق من كل جانب»[1]. ويبدو أن القتال والحصار بالمجانيق أصبح تقنية فعالة ومنتشرة في الأندلس خاصة خلال الخلافة والطوائف وقد كانت مفيدة للغاية في التغلب على الأسوار والحصون. ففي «سور قرمونة الغربي بُرج يُعرف بالبرج الأجم عليه تنصب العرادات عند القتال»[2]. ولاشك أن العامريين قد استخدموا المجانيق في غزواتهم المتكررة ضد الإفرنج. يذكر صاحب ذكر بلاد الأندلس[3]، في حصار جند المنصور بن أبي عامر لمدينة برشلونة، وذلك بأسلوب مليء بالمبالغة القريبة من الأسطورة أنه «نصب عليها المجانيق فكان يرميهم برؤوس الروم عوضا من الحجارة، كان يرمي كل يوم عليها ألف رأس حتى فتحها عنوة». ولم يتوان ابنه عبد الملك المظفر في اتخاذ المجانيق للتحكم في حصن شنت مرتين[4]. وهكذا يتبيّن أن المجانيق والعرادات والدبابات أسلحة انتشرت وازدادت فعاليتها في حصار الحصون والأسوار والمدن خلال عصري الخلافة والطوائف[5]. وكما لاحظنا بالنسبة لمواقف الفقهاء في استخدام أسلحة المسيحيين والتعامل معهم[6]، كان الجانب السياسي والعسكري يتحدى الجانب الفقهي الذي حاول التنبيه إلى عدم حصار حصون وأسوار العدو بالمجانيق في حالات محددة منها وجود النساء والأطفال في الحصون أو اتخاذ أسرى المسلمين فيها كرهائن[7] الخ.

4 ـ لباس الحرب والشارات العسكرية

تعد الألبسة الحربية على اختلافها أدوات وقائية هامة في المعارك؛ عملت المجتمعات على تطويرها منذ القديم، وذلك في أفق الحد من الخسائر البشرية وتلافي الإصابات والجراح القاتلة أثناء القتال. وعلى غرار الأسلحة السالفة الذكر انتشرت

---

(1) ـ نفسه: ص. 411.
(2) ـ الحميري: الروض المعطار...، ص. 461.
(3) ـ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص.23.
(4) ـ ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص.10.
ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.101.
(5) ـ ابن بُلقين: كتاب التبيان...، ص. 127؛ مجهول: الحلل الموشية...، ص. 68؛ حركات (إ): النظام السياسي والحربي...، ص.179.
LAGARDÈRE (V); Le Vendredi de Zellaqa..., op. cit, p. 47.
(6) ـ انظر بداية هذا الفصل.
(7) ـ انظر على سبيل المثال: ابن أبي زمنين: قدوة الغازي...، مصدر سابق، ص.171، 172.

أنواع الدروع والدرق والتراس. ومع انتشار الخيل واتخاذها في الحـــروب، وظهـــور فئات الفرسان المتخصصة تعمَّمت السّروج واللُّحم وما يرتبط بها، وتمَّ تطويرها بشكل يتلاءم وبيئات طبيعية وبشرية مختلفة. وتزخرُ المصادر العربيـــة خاصـــة المعـــاجم اللغويةوكتب الفروسية[1] بمعلومات مفصلة ودقيقة للغاية عن الألبسة الحربية: صفاتها ونعوتها، وأنواعها ومكوناتها وطرق صناعتها، بل وأصواتها[2]. ودون الخوض فـــي استعراض أهم التفاصيل والمعلومات المرتبطة بأنواع تلك الألبسة نكتفي برصد أهمها بأندلس الخلافة والطوائف.

أ. الـدروع والـجـواشـــن[3]

وُجدت الدروع على اختلاف أنواعها في الأندلس خلال الخلافة والطوائف بـــدليل أن الخليفة عبد الحمن الناصر كان يهدي العديد منها للمؤيدين لسياسته خارج الأندلس. يشير ابن حيان[4] إلى تقديمه هدية إلى ابن خزر الزناتي سنة 328هـ تضـــم «الآلات الحربية الشريفة من الدروع». كما كانت الدروع تعرض بقرطبة خلال مناسبات البـــروز أو العرض أي إبان استعراض الجند الخلافـــي وأســـلحته أمـــام الخلفـــاء. ففـــي بـــروز

---

(1) - الجاحظ: البيان والتبيين...،ج 3، ص. 18؛ نفسه: الرسائل...، ج 1، ص. 19؛ ابن قتيبة (الدينوري): عيون الأخبار، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964، ج 2، ص. 130؛ ابن منكلي: التدبيرات السلطانية...، ص.338، 339؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 14؛ الطرطوشي: سراج الملوك...، ج 2، ص.551، 671؛ ابـن هـذيل: حليـة الفرسـان...،1951، ص.229، 230، 231؛ نفسـه: 1997، ص. 143، 144، 146، 147، 148؛ نفسه: في الرباط والجهاد، مخطوط 94 أ؛ المراكشي: سيرة أجواد الأنجاد...، مخطوط ص. 81، 82، 83؛ ابـــن ســـيدة: المخصـــص...،ج 6، ص.73،72؛الرصـــافي:الآلـــة والأداة...، ص.68؛ المعجـــم الوسيط...،ج1،ص.141،84؛ لسان العرب...،ج1، ص. 516،317.

(2) - ابن سيدة: نفسه، ج 6، ص.75، 76.

(3) - الدرع قطعة من الجلود أو صفائح حديد تغطي جسم المحارب من العنق إلى الركبتين لاتقاء ضربات الخصم، وتختلف أشكالها وأحجامها ومواد صنعها يقول أحدهم: «الدروع واسعة زغفة وجمعها زغف ولينة فهي حدباء وذلاصٌ، وإذا كانت طويلة الذيل فهي ذائل... فإذا كانت منسوجة من جدلاء ومجدولة وكانت صدرا بغير ظهر فهي جوشن». المراكشي: سيرة أجواد الأنجاد...، مخطوط ص.81، 82.

عن الدرع والجوشن انظر: مجهول: كتاب في علم الرمي ومقاديره...، مخطوط ورقة 38؛ البطريق: كتاب السياسة في تدبير الرياسة...، مخطوط ص.228؛ الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص.14. يقول «الجواشن من صنع العجم من ألواح صغار من الحديد تارة ومن القرن تارة ومن الجلود»؛ الرصافي: الآلة والأداة...، ص.68؛ المعجم الوسيط...، ج1، ص.147؛ لسان العرب، ج1، ص.463، مادة جشن.

LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne...,op. cit,T.3, p. 94.

وضع موريز جدولا يفيد بتاريخ انتشار الألبسة الحربية عبر العالم يستفاد منه أن الدروع أو ما سماه الدرع الفلاذي ودرع الفرسان ظهر خلال القرن السادس للميلاد والقميص الزردي ظهر خلال القرن التاسع الميلادي. مدخل إلى التاريخ العسكري، مرجع سابق، ص.99.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج5، ص.460.

عام360هـ كان «العبيد بالزهراء في الدروع السابغة»[1]. أما الفرسان «الخمسيون وعبيد الدرق والعبيد الرماة فعلى جميعهم الدروع السابغة»[2]. إلى جانب الفرسان «المدرعين وأصحاب الجواشن»[3]. وكان سلاح الأندلسيين شَاكٌ من الدروع والبيضات[4]. فهم «لبسوا الدروع الضافية وتقلدوا السيوف الماضية»[5]. ولما تولى جعفر المصحفي الحجابة أهدى للخليفة الحكم المستنصر «السيوف وعشرين درعا مختلفة الأجناس»[6]. وقد ازدادت أعداد الدروع والجواشن خلال العهد العامري، كما يتبيّن من خلال تكليف عبد الملك العامري خازن الأسلحة بتوزيع «خمسة آلاف درع، وخمسة آلاف بيضة، وخمسة آلاف مغفر على طبقة الأجناد الدراعين في جيشه»[7]. وذكر ابن الخطيب[8] أن المنصور بن أبي عامر كان «يغزو بالدروع السابرية والجواشن المذهبة». ويجمع «الدروع والعدة»[9]. وكان بمدينة الزهراء من بين أنواع الأسلحة «خمسة آلاف درع ومن الجواشن التّنسية والخراسانية سبعمائة قطعة»[10]. ويتّضح مما سبق أن الأندلسيين عرفوا وجربوا الدروع المختلفة في الحروب منذ بداية الخلافة على الأقل، وليس بعد ذلك، أي مع الجواز المرابطي الأول عام الزلاقة كما ذهب إلى ذلك أحد الدارسين[11]. ربما يمكن الإشارة في هذا الباب إلى انتشار الدروع الخفيفة أكثر من تلك المصنوعة بشكل معقد والمخصّصة للاستعراض والمناسبات كما سلف الذكر، أوللهدايا، وهي كما نعلم مهمة ومكلفة وقد لا تُستعمل إلا من قبل فئة محدودة من الفرسان[12]. ولا غرابة أن تكون موضوع التحبيس[13] نظراً لأهميتها كما

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص.48.
(2) - نفسه: ص. 48.
(3) - نفسه: ص. 48، 49، 196، 197.
(4) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص.159.
(5) - ابن الكرديوس: تاريخ الأندلس...، ص.92.
(6) - ابن خلدون: كتاب العبر...، مصدر سابق، ص. 312، 313؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 382.
(7) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص.4.
(8) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.54.
(9) - نفسه: ص.101.
(10) - نفسه: ص.102.
(11) - LAGARDÈRE (V); Esquisse de l'organisation..., op. cit, p.108.
(12) - إن المقصود هو الدروع المزردة أي المقرونة بالزرد(Cottes de mailles)، انظر:
المعجم الوسيط ج 1، ص.391؛ لسان العرب، ج 2، ص.19.
LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T.3, p.94.
(13) - الباجي (أبو الوليد بن خلف الباجي): فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء الحكام، تحقيق: الباتول (بن علي)، الرباط 1990، ص.345.

سبقت الإشارة بالنسبة للحصون والخيل وغيرها. وللمقارنة مع أوربا نشير إلى أن عملية تجهيز الفارس المقاتل، كانت مكلفة للغاية. فالفارس والحصان والسلاح كان يتطلب مثلا خلال الكارلنجيين (النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي) ما بين 36 إلى 40 فلسا (sous)، أي ما يعادل 18 إلى 20 بقرة[1]. ولما تجزأت السلطة السياسية المركزية خلال النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد لفائدة السلطات الإقليمية، وازداد نفوذ الفرسان المتخصصين في الحروب، تطورت صناعة الدروع. وأصبح الدرع المزرد يساوي ثمن ستين شاة. أما الحصان المجهز كاملا فلا تقل قيمته عن 2 إلى ثمانية ثيران[2]. ولذلك لا يتوفر إلا للأغنياء الذين يملكون الأرض[3].

ب - التراس والدرق والخوذ والعمائم

تعتبر التراس والدرق والخوذ والعمائم، إلى جانب الدروع، أسلحة وقائية لا يُستغنى عنها. ويُعَبَّر عنها عادة بالجُنَن[4]، أي ما يُتّقى به في المعارك والمواجهات. فما صُنع للرأس من حديد فهو بَيْضة ومن أسمائها خوذة وتركة وتريكة[5]، إن التّرس هو المِجَنّ، وإن كان من الجلود فهو درق[6]. وتزودنا المصادر بمعلومات مفصلة عن أنواع التّراس والدرق المتخذة في الأندلس، سواء المصنوعة منها محليا أو المجلوبة إليها من المغرب أو من مناطق أخرى. تحدث ابن حيان[7] عن "عبيد الدرق" و "أسلحة التّراس والدرق"[8]. وقال في أحداث سنة 362 هـ بأنه حَلّ بقرطبة الرّجال الشّداد

---

(1) - GANSHOF (L. F); L'Armée sous les Carolingiens..., op. cit, p. 124.

(2) - CANTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 147.

(3) - GANSHOF (L. F); op. cit, pp. 124, 125.
CANTAMINE (Ph); op. cit, p. 147.

(4) - ابن هذيل: حلية الفرسان، 1951، ص. 229.

(5) - نفسه: ص. 230.

(6) - نفسه: ص. 231، طبعة 1997، ص. 147، 148. يقول "إن كان الترس من جلود فهو درق وجَحَفٌ ويَلَبٌ (درقة، يلبة، جحفة).
انظر أيضا: المراكشي: سيرة أجواد الأنجاد...، مخطوط ص.83؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار...، ج 2، ص. 130.
يُقال في المعاجم: الترس أتراس وتِراس وتُرسة وتُرْس والمتراس: يعرقل العدو، وترّس: تَوقّى، ورجل تارس وتَراس وذو تَرس.
المعجم الوسيط ج1، ص.84؛ لسان العرب، ج 1، ص. 317؛ ابن سيدة: المخصص...، ج6، ص. 73، 74.

(7) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 426، 460.

(8) - نفسه: الحجي، ص. 48.

لابسين«الأقبية البيض... وبأيديهم التراس الملونة»[1]. وعلى رؤوسهم المقاريف[2]. ويليهم أصحاب التجافيف[3]. وتذكر المصادر[4] أن خزانة السلاح على عهد الملك المظفر العامري كان بها «خمسة آلاف بيضة وخمسة آلاف مغفر»[5]. لقد كانت التراس المختلفة الأشكال والأحجام تصنع بكثرة في الأندلس خاصة في فترة الاستعدادات لحملات الصوائف والشواتي التي تنظم ضد المسيحيين. وكان يتولى ذلك أصحاب الحرف المتخصصون. لقد كان «يصنع بدار التراسين من أصناف التراس*/كل سنة حسبما تلقيته من يحيى التراس أحد من بقي من مشيخة التراسين في وقتنا، فقال كان الطريحة من التراس في السنة ثلاثة عشر ألف ترس»[6]. وقال «اليمني، وكان بالزاهرة على ذلك كله من التراس الحفصونية المعدة للتوزيع على رجالة قرطبة، وغيرهم من المحشودة، أيام البروز والزينة أربعون ألفا»[7]. وأضاف اليماني مندهشا ممّا عاينه بخزانة ـ السلاح وقت العامريين أن ما رآه من «سائر الأسلحة من الدرق والتراس والسيوف... والطشتانيات. والدّبابيس، والطبرزين -ات وغير ذلك، ففات إحصائي...»[8] مكرر.وفي الصائفة التي مات على إثرها المنصور ابن أبي عامر سنة 392 هـ،«أعد الدّواب التي تحمل ستمائة ترس

---

(1) - نفسه: ص.117. الأقبية: قباء، ضرب من الثياب يقول المقري: أقبية الأشكرلاط (Ecarlate) أي القماش الأرجواني الذي يوضع على الرأس. - المقري: النفح...، ج 1، ص. 222؛ الخشني: قضاة قرطبة، ص. 32؛ الجاحظ: البيان والتبيين، ج 3، ص. 18.

(2) - نفسه: الحجي، ص. 196، 197. المقاريف (اقروف) يُفهم منها أنها أنواع من القلانس أو لباس للرأس مخروطي الشكل. المقتبس، نفسه، ص. 48.
يقول المنوني إن المشاة الأندلسيين «عليهم الأ بية المختلفة الألوان، وفوق الرتافيل وهم إسم إسباني يعني نوعا من القلانس المقبّبة» ورقات عن حضارة المرينيين،الرباط 1996، ص.105.

(3) - ابن حيان: نفسه، الحجي ص.49. التجافيف ـ يستعمل من سلاح لوقاية الجراح؛ الجاحظ:المسائل...،ج1، ص.19.

(4) - ابن عذاري: البيان...،ج3، ص.4؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 87.

(5) - المغفر: ما يُلبس من الصوف. يقول المقري، النفح...،ج 1، ص.223. وغفائر الصوف يلبسها الأندلسيون حمرا وخضرا والصفر خاصة باليهود.
والغفائر القرمزية يلبسها الميسورون بالأندلس حسب الزجالي وابن الأبار، أمثال العوام، ج2، ص.170؛ ابن الأبار:الحلة السيراء...،ج1، ص.178.
انظر كذلك: DOZY (R); Supplément..., op. cit, T. 2, p.510.
مقر(محمد): اللباس المغربي خلال عهدي المرابطين والموحدين، دبلوم الدراسات العليا، الرباط 1996، (مرقون)، ص. 80 وما بعدها.

(6) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.101.

(7) - نفسه: ص.103.

(8) - نفسه: ص.103،102.

(8) مكرر - الطشتانيات. الطشتانة والطلشانة، هي الخوذة الخشبية حسب المقري، النفح، ج 1، ص.382. يقول: « وثلاثمائة خوذة ومائة بيضة هندية وخمسون خوذة خشبية يسمونها الطشتانة».
يمكن أن تكون كلمة طشتانة مشتقة من اللغة اللاتينية أو البروفنسالية نسبة إلى إقليم بروفانس، وتعني (Testina) (Testa) أي الراس.
يقول ل. بروفنسال، استعملت في أندلس الخلافة خوذة أو بيضة من المعدن واقية أو قبعة مغفار ومنها الكلمة الإسبانية (faralm) أي غطاء حديدي للرأس.
LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 94, 95.
الطبرزينات سبق شرحها، في ص. 110 من هذا الفصل.

عامري، وألف ترس سلطاني، وخمسة آلاف ترس سلطاني من مدينة سالم» [1].

ويتضح من الإشارات السابقة مدى تحكم السلطة أو الدولة في صناعة الأسلحة والإشراف عليها وذلك عبر أصحاب الحرف المتخصصين الذين ورثوها وأورثوها لغيرهم. وإذا كانت الدولة تتحكم في صناعة السلاح وتوزيعه ومراقبته خلال الخلافة، فإن الأمر تغير منذ آخر القرن الرابع الهجري. فمع ضعف السلطة المركزية واندلاع الصراعات الإقليمية بات من المستحيل التحكم في صناعة السلاح ومراقبته، بل صار التهافت عليه أمراً واقعاً. وللدلالة على ما نذهب إليه يكفي الإشارة إلى ما أقدم عليه أبو الحزم جهور بقرطبة أيام الفتنة المشهورة من اتخاذ أهل الأسواق جنداً وتفريق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت[2]. وتصنع الأسلحة السابقة الذكر خاصة الخوذ والدرق من مواد متنوعة. فالخوذة تتخذ عادة من صفائح معدنية ومن الحديد[3]. وللتلطيف من صلابتها على رأس حاملها، تُحشى بمواد رخوة ورطبة كالإسفنج، «الضيق الأبخاش (المسامات)، لمنع تأثير الضرب القوي» [4]. أما أنواع التراس والدرق فتصنع من جلود حيوانات مختلفة حسب أماكن إنتاجها، كالبقر والسمك واللمط. وتكاد تتفق المصادر على جودة وصلابة الدرق اللمطية. يقول صاحب تحفة الألباب[5]«وعندهم (السودان) حيوان يقال له اللمط مثل الثور الكبير له قرنان كالرماح، تطول بطول بدنه ممدودة على ظهره، إن طعن بها حيوان أهلكه في الحال، يُتخذ من جلده تراس يُقال لها الدرق اللمطية، لا تنفذها النشاب، ولا تؤثر فيها السيوف وهي من أحسن التراس». بل "أحسنها وأمنعها" حسب الطرسوسي[6]. ولذلك يعتمدها "الفرسان المغارب"[7] في رأي ابن منكلي المشرقي. ولاحظ الإدريسي[8] أن مدينة لمطة مشهورة بصناعة «الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها

---

(1) - ابن الخطيب: نفسه، ص. 101.

(2) - ابن حزم: الرسائل...، ج 2، ص. 203، 204؛ الحميدي: جذوة المقتبس...، ص.28، 29؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (قسم المغرب)...، ص. 145، 146.

(3) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 16، 17.

GANSHOF (F. L) ; L'Armée sous les Carolingiens..., op. cit, p. 123.

(4) - ابن منكلي: التدبيرات السلطانية...، ص. 338.

(5) - أبو حامد الغرناطي: تحفة الألباب...، ص. 41.

(6) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، ص. 14.

(7) - ابن منكلي: التدبيرات السلطانية...، ص. 339.

(8) - الإدريسي: نزهة المشتاق، ص. 225.

ظهراً...وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها». ويظهر أنها استخدمت في الأندلس خلال الخلافة والطوائف[1] والمرابطين[2]. كما استعملت درق من جلد البقر[3] أو من «جلد سمك على خلقة القرود من جلوده تكون الدرق التي تنبو عنها السيوف»[4].

وإلى جانب الدرق والتراس المختلفة الأشكال والأحجام اتخذ الجند الأندلسي قلانس وعمائم ميزته عن باقي الفئات الاجتماعية. وتشير المصادر إلى أن كل فئة تتخذ زيا يُمَيّزها. فالبربر مثلا يتميزون بالعمائم والأندلسيون بالقلانس[5]. وانفرد ابن عذاري[6] بمعلومات هامة ودالة تفيد أن الحاجب عبد الرحمن العامري (شنجول) أرغم أهل الخدمة من دولته على «طرح قلانسهم الطوال المرقشة الملونة، وكانت على قديم الدّهر تيجانهم التي يباهون بها طبقات الرعية... وأمرهم بالانتقال عنها إلى العمائم... فاستعان كثير منهم بجيرانهم من البرابر حتى لبسوها على أكره حال، فكانوا بها أقبح واهجن زي». ويُفهم من إشارات مصدرية متعددة أن الفقهاء والقضاة كانوا يلبسون العمائم ويشتركون مع الجند في ذلك كما يتضح من كلام ابن الخطيب[7] حين يقول: «والعمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة (غرناطة)، إلا ما شذّ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم والجند العربي منهم». وبيَّن المقري[8] أن« غفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً، والصفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمَّم البَتَّة، والذؤابة لا يرخيها إلا العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنما يسدلونها من تحت

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج5، ص.462. الحجي، ص.49، 84؛ المقري: النفح...، ج 4، ص.356، 358.

(2) - ابن خلكان: وفيات الأعيان...، ج 7، ص.118؛ حركات: النظام السياسي والحربي...، مرجع سابق، ص. 173؛ سعدون (عباس نصر الله): دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1985، ص.91.

LAGARDÉRE (V) ; Le vendredi de Zellaqa..., op. cit, p. 49 et sv.

(3) - الطرسوسي: نفسه، ص. 14، 15.

(4) - ابن الفقيه: كتاب البلدان...، مصدر سابق، ص.9.

(5) - الزجالي: أمثال العوام...، ج 1، ص. 210. تقول إحدى الأمثال «طالع هابط بحال عمام في راس مرابط». ج1، ص.210، رقم: 1062.

(6) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 48.

(7) - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة...، م1، ص. 142، 143.

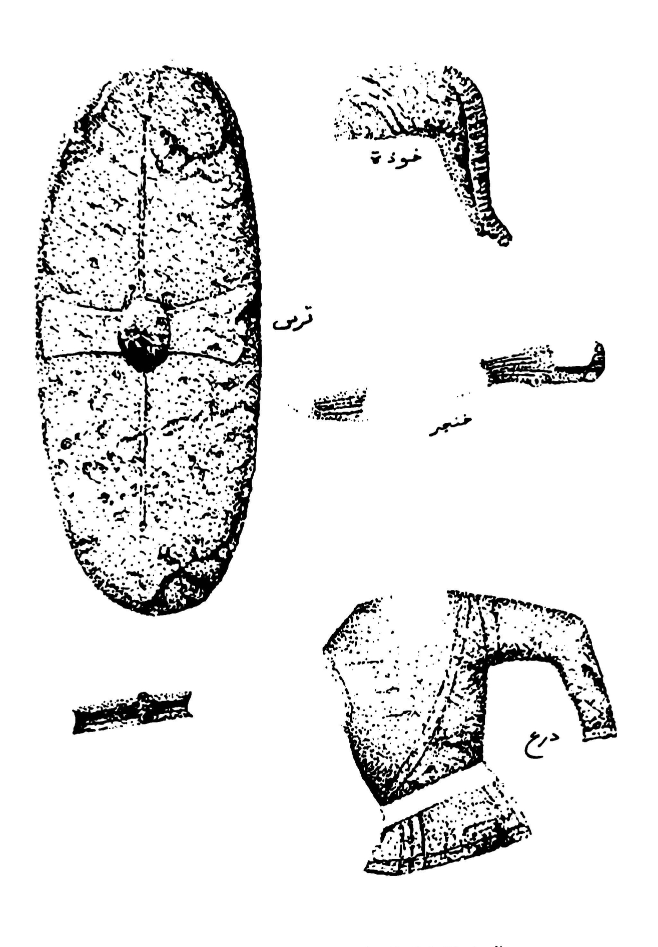
(8) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 223.

ترى الباحثة سحر عبد العزيز سالم أن الجند الأندلسي كان يفضل اللون الأبيض في زيه وملابسه. «ملابس الرجال في الأندلس في العصر الإسلامي»، ندوة الأندلس: الدرس والتارخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص. 249، 274.

الأذن اليسرى». وأضاف: «وأما زي أهل الأندلس، فالغالب عليهم تـرك العمـائم لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه وهو بعمامة، وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه بعمة في شرق منها أو فـي غرب... وكثيراً ما يتزين سلاطينهم وأجنـادهـم بزي النّصارى المجاورين لهـم»[1]. وبالمقـارنة مـع زي أهـل المغرب قـال البكري[2] في بورغواطـة« كـان يلـبس السراويل والملحفة ولا يلبس القميص ولا يعتم إلا في الحـرب، ولا يعـتم فـي بلـده (بورغواطة) إلا الغرباء». وذكر القلقشندي في زي المرابطين والموحدين أن أشـياخهم وأرباب وظائفهم وعامة جندهم، «يتعمّمون بعمائم طوال قليلة العرض من كتان ويُعمـل فوقها إحرامات يلفونها على أكتفاهم... ويلبسون الخفاف في أرجلهـم، وتسـمى عنـدهم الأنمقة كما في إفريقية ويشدون المهاميز فوقها، ويتخذون المنـاطق، وهـي الحـوائص ويعبرون عنها بالمضمات.. ولكنهم لا يشدونها إلا في يوم الحرب أو التمييز..» [3].

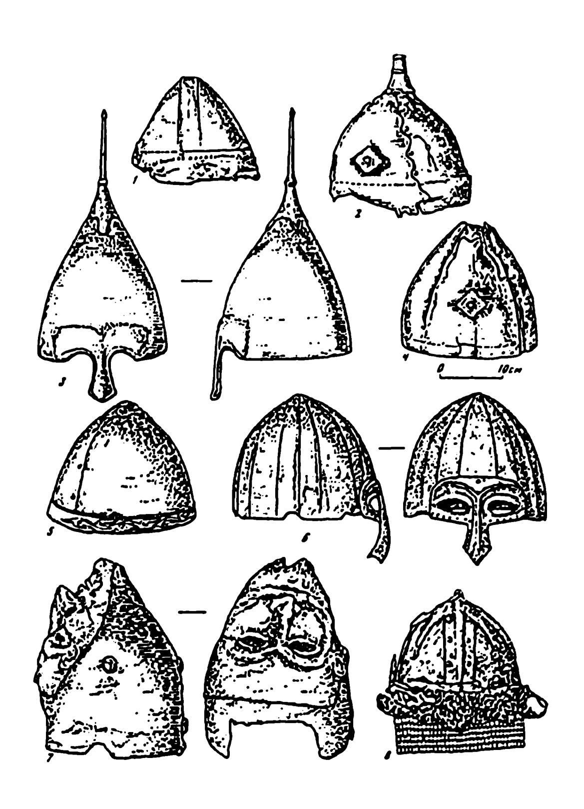
---

(1) ـ المقري: النفح...، ج 1، ص. 222.
(2) ـ البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، 1965، ص. 137.
(3) ـ القلقشندي: صبح الأعشى...،ج 5، ص. 203.



المرجع : المتحف الوطني الأركيولوجي مدريد 1997

نماذج من الخوذة (IX–XIIم)



المرجع : Le combatant au Moyen Age

ج - لوازم الخيل

ارتبط انتشار وتطور السروج ولوازمها، كما هو معلوم، باستعمال الخيـل فـي الحروب. ولاشك أن الأمم القديمة، كالفرس وغيرهم قد استعملت، مكان السروج، تقنية أخرى أقل تعقيدا ممّا عُرف لاحقا، كفراش بسيط من اللّبود أو لجام بسيط أيضا يُعرف بالشكيمة[1]. والتجأت أقوام أخرى كأهل الحبشة والنوبة إلى استخدام جلود الحيوان في السروج. ومنهم من استعمل جلود الغزلان عوض السروج[2]. ورغم أننا لا نتوفر على معلومات مضبوطة حول تاريخ ظهور السروج في الغرب الإسـلامي عمومـا وفـي الأندلس بالخصوص[3]، فيبدو أن السرج الأندلسي والإفريقي عرفا فـي آخـر القـرن الرابع الهجري[4](X م)، أي، مع آخر الخلافة. أما سرج العدوة المغربية فلم يتعمم إلا خلال فترة الحجابة العامرية[5] حسب ل. بروفنسال. لكن بتفحص النصوص المصدرية المتنوعة نلاحظ أن الأندلسيين استعملوا بالفعل السروج خلال الخلافة والطوائف. فقـد وقف ابن حيان[6] عند طبيعة «سروج الخلافة ولجومها المفرغة». وأوضح أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أرسل عام 326 هـ هدية إلى أبي منقذ بن موسى بن أبي العافية ضمّت «سـرجا إفرنجيـا مُـدَوَّرا ومزينا،ولجـام بغلـي لزمتـه عربيـة مقرطـة محببة»[7].وأهدى لمحمد بن خزر «مهمازذهب»[8] سـنة 317 هـــ. وأشـار ابـن

---

(1) - ROSS (D.J.A); L'Originalité de"Turoldus":le maniement de la lance. Dans: Cahiers de Civilisation médiévale, N°2, Av.Juin, 1963, p.127.138.

(2) - ابن سعيد: كتاب بسط الأرض...، ص.74.

(3) - يعتقد موريز (!): أن السروج انتشرت ما بين سنة 600 م و1000 م.
مدخل إلى التاريخ العسكري...،ص.99. وربما جاءت إلى أوربا بمعية تقنيات أخرى ذات الأصل الشرقي، عبر آسيا الوسطى، وذلك ما بين القرن الأول والثامن للميلاد، وقد طوّرها الفرسان المتخصصون في الحروب. انظر:

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., o. cit, p. 316 et sv.
ROSS (D.J.A) ; op. cit, p. 130 et sv.

(4)- LEVI-PROVENÇAL (E) ; Histoire de l'Espagne..., op. cit, p. 91.

(5) - نفسه: ص.91. لكن ل. بروفنسال لم يذكر خصائص تلك السروج. بل اكتفى بالقول إن السرج الإفريقي له قربوس خلفي صغير.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص.426.

(7) - نفسه: ص.426.

(8) - نفسه: ص.268.

الخطيب[1] إلى أهمية السروج العامرية. ولم يغفل المقري[2] ذكر السروج واللجم الأندلسية وخصائصها. وتتجلى خبرة الأندلسيين بالسروج وصناعتها[3] حين نعلم أن بعض كتب الفقه والنوازل والحسبة تحدثت عن كيفية صناعتها ومراقبة العاملين بها لأن بعضهم قد يلجأ إلى الغش في مواد تركيبها. فهذا ابن سهل[4] وردت عليه شكوى احد العامة إلى المحتسب من(عمال السُندروس الذي يُصرف في السروج) قد صنعوه من القصدير لا من الفضة. وقد بين القاضي ابن سهل تباين آراء الفقهاء في الموضوع، فمنهم من ذهب إلى تحريم صناعة السندروس من الفضة لأنها لا تستعمل إلا في المصحف والخاتم والسيف، وأن وضعها في سرج الفرس بذخ مكروه وإذا بيع على أنه فضة فالغش واقع[5 مكرر].

وتجدر الملاحظة إلى أن السروج تطورت بشكل مواز لتطور سلاح القتال نفسه. فالقنا الطويلة أو المزرق يقاتل به الفارس، بثبات وحرية التحرك له علاقة مباشرة بالتحسن الذي أدخل على السروج بفعل حزام أسفل البطن[6]، وحزام مقدم الحصان[7]، أو ما يُعرف بطوق العنق[8]، وحزام الخلف[9].

إلى جانب ذلك نشير إلى أن الركاب يشكل الإضافة الأكثر أهمية بالنسبة للفارس لأنه يمكنه من الحركة والثبات والوقوف في السرج[10]. (لاحظ الرسم). إذا كان الركاب، شأنه

---

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص.64.
(2) - المقري: النفح...، ج1، ص.202.
(3) - أرسلان (شكيب): الحلل السندسية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 440.
(4) - ابن سهل (أبو الأصبغ عيسى القاضي): في شؤون الحسبة، مستخلصة من مخطوط الأحكام الكبرى، خلف (محمد عبد الوهاب)، القاهرة، 1985، ص. 22.
(5) - نفسه: ص.22.
(5) مكرر - شجر السندروس نوعان الهندي وهو الأجود والسبتي له رائحة طيبة أوراقه دائمة الخضرة ثماره سوداء أو ارجوانية تستخدم في الطلاء (Vernis).
DOZY (R) ; Supplément..., op.cit, T.1, p.693.
(6) - FLORI (J) ; Encore l'usage de la lance..., op. cit, p.214,236,238.
(7) - ROSS (D.J.A) ; L'originalité de Turoldus...,op. cit, p.130.
(8) - موريز(!) : مدخل إلى التاريخ...، ص.99. يقول بإمكان طوق العنق أن يساعد الحصان على جر اكثر من 500 كلج.
(9) - ROSS ; ... op. cit,130.
(10) -CONTAMINE(Ph); L'Histoire militaire et l'histoire de la guerre dans la France médiévale depuis trente ans. op. cit, p.71,93.

شأن السروج، قد عرف ما بين سنة 600 م و900م[1]، فيصعب تحديد تاريخ استخدامه في الأندلس نظرا لصمت المصادر بصدده. ولقد انفرد ابن حوقل[2] بنص هام ودال أورده بعد زيارته للأندلس في منتصف عصر الخلافة؛ يقول«وما رأيت ورأى غيري بها (الأندلس) إنسانا قط جرى على فرس فاره أو برذون هجين ورجلاه في الرّكابين، ولا يستطيعون ذلك لخوفهم السقوط، وبقاء الرّجل في الركاب، وهم يفرسون على الأعداء من الخيل». نبادر إلى القول إن هذا النص يثير مجموعة من الملاحظات والتساؤلات لأنه فريد في وصف الفروسية بالأندلس خلال القرن الرابع الهجري. إنه يعاكس كل ما سبق قوله وإثباته في أوصاف الجند والخيل في الأندلس. مع العلم أنه صادر عن أحد الرحالة المشهورين الذين عاينوا بعض الأحداث السياسية والعسكرية بالأندلس على عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر أي خلال أوج الخلافة وقوة الجند الأندلسي. ونلاحظ أنه لم يثر انتباه الدارسين باعتباره يعارض إجماع النصوص التي تنعتُ الأندلسيين بأنهم«أحذق الناس بالفروسية»[3]. ولا يمكن تفسير الحكم القاسي الذي أصدره ابن حوقل في حق الأندلسيين باعتبارهم يجهلون السروج والركاب، إلا بميولاته غير المعلنة للفاطميين الذين أعلنوا عداءهم لأمويي الأندلس.

ونشير إلى أن الركاب قد أحدث نوعا من "الثورة العسكرية"[4] في تاريخ السلاح الفيودالي الأوربي. وقد سبق للباحث الأمريكي المشهور لين وايت[5] أن قدم نظرية مغرية في البحث العسكري الأوربي تعتمد على فكرة أن الأوربيين منذ الفرنجة نجحوا في حروبهم ليس بواسطة الفرسان والخيالة وحدهم، بل الفضل يعود أوّلا إلى الرّكاب الذي تعمم في أوربا خلال القرن التاسع للميلاد[6].

---

(1) - موريز (ا): مدخل إلى التاريخ العسكري...، ص.99.

(2) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص.109،108.

(3) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص.282؛ ابن الخطيب:أعمال الأعلام...، ص.4؛ المقري: النفح ...،ج1،ص.202.

(4) - CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 316, 317
FLORI (J); Encore l'usage de la lance..., op. cit, p.214.

(5) - WHITE (L); Technologie médiévale et transformations sociales, trad française, Paris, 1969, p 70 et sv

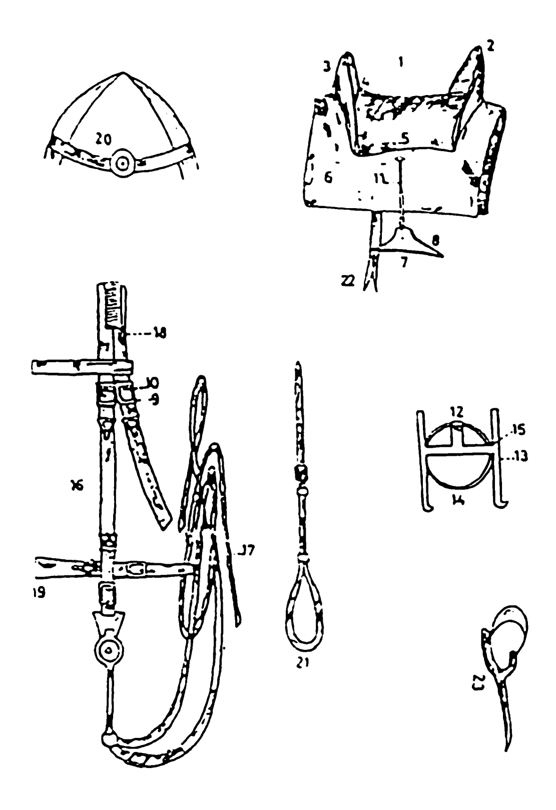
(6) - لاحظ Contamine أن الركاب الذي لم يُعرف في العالم الإغريقي والروماني، ظهر خلال القرن الخامس للميلاد في الصين، ثم إيران وعند شعوب الأفار(Avars) خلال النصف الثاني من القرن السابع الميلادي. وانتشر لدى الفرنجة في أوربا.

CONTAMINE (Ph); La guerre ..., op. cit, p.316, 317.

السرج واللجام ولوازمها من كتاب الفلاحة لابن العوام

الأندلسي الترجمة الفرنسية بقلم

J.J. Clement Mullet Ed. Bouslama – Tunis 1977



المرجع : ابن جزي (الغرناطي) : كتاب الخيل ...ص 275

د- الطبول والرايات والألوية

للطبول والرايات والألوية دور لا يستهان به في الحروب والمعارك، إذ كثيرا ما ساهمت في الانتصار أو الانهزام[1]. وقد نقلت المصادر معلومات مفيدة في اعتماد الأمم القديمة عليها قصد تخويف الأعداء وترهيبهم. بل أكثر من ذلك اعتبرت تلك الآلات سمة من سمات المُلك كما يتضح من ابن خلدون[2]، عن كتاب السياسة لأرسطو الذي ذكر أن«من شارات المُلك اتخاذ الآلة من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول، والنفخ في الأبواق والقرون...(و) السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب، فإن الأصوات الهائلة لها تأثير في النفوس...». وفي المعنى ذاته ذكر صاحب بدائع السلك[3]أن من عوارض الملك الآلة وهي ضربان. **الأول**:الألوية والرايات وهي شعار الحروب والغزوات منذ عهد الخلافة، فلم تزل الأمم تعقدها في مواطن الحروب. **والثاني** قرع الطبول ونفخ الأبواق والقرون وقد كان المسلمون لأول الملة يتجافون عن ذلك تَنَزُّهاً عن غلطة الملك واحتقار الأبهة[4]. وقد ظل استعمال الطبول والألوية والرايات قائما في الأندلس خلال الخلافة والطوائف، بل كان تقليداً خاصة أيام البروز والحملات الصيفية والشتوية ضد المسيحيين. وذلك رغم التنبيه والحذر الذي عبرت عنه كتب الفقه والنوازل بصدد عدم تمكين العدو من آلات تساعده على إضعاف المسلمين، كالرايات وما يلبس في الحروب، وكذا النحاس الذي يستعمل في الطبول لإرهاب المسلمين[5]. وقد يكون اتخاذ هذه الآلات[6] رداً على الإفرنج الذين لا يترددون في استعمال أنواع منها لترهيب المسلمين كالنفخ في القرون والضرب على الطبول. يقول ابن الكردبوس[7] في عساكر ألفونسو السادس : « قد لبسوا الدروع، طبولهم

(1) - البطريق: كتاب السياسة في تدبير الرياسة...، مخطوط ص.228.
(2) - ابن خلدون: المقدمة...،ج 2، ص.296.
(3) - ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع الملك...،ج2، ص.225.
(4) - نفسه: ص. 228.
(5) - ابن رشد: المقدمات الممهدات...، ص. 613، 614؛ الونشريسي: المعيار...، ج 6، ص. 67، 190، 191.
(6) - يفصل ابن حيان في أشكال البنود وألوان الرايات ويذكر أنها تحمل صور الأسد والنمور والعقبان والثعابين... المقتبس، الحجي، ص. 49، 179.
(7) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 92. السحاب الجون هو الكثيف والشديد السواد تشبيه بالخيل الأدهم الأسود الدال على الكثرة، نفسه، هامش 92.

القرون، وألويتهم كأنها السحاب الجون». وللإفرنج من أهل بيونة وراء قشتالة أخبار غريبة في القتال حسب ابن الخطيب[1]، لأنهم يستظهرون في حالة الحرب ببعض الألحان المهيجة. وتجدر الملاحظة إلى أن النفخ في القرون أو الضرب على الطبول إنما هو طريقة هدفها النيل من معنويات العدو أثناء المعارك. لكن قد يُستعمل بعض تلك الآلات كالطبول مثلا لأغراض أخرى غير الحرب، كالأعياد أو الرّحيل أو غير ذلك بشهادة ابن صاحب الصلاة[2] حين يقول «وضرب الطبل الكبير.. إذا ضربت فيه ثلاث ضربات نبّههم (الموحدون) أنه طبل الرحيل ويُسمع على مسيرة نصف يوم من مكان مرتفع في يوم لا ريح فيه». إلى جانب أصوات القرون والطبول تكشف المصادر عن أهمية الأصوات الشعرية في القتال، ودورها في استنهاض همم المتحاربين. لقد لعبت النساء والشعراء أدوارا هامة في تشجيع المقاتلين منذ القديم. قال الجاحظ[3] على لسان الترك:«ولنا الطبول المهولة العظام والبنود... ولنا الأصوات التي تسقط منها الحُبالى». وذكر ابن خلدون[4] وبعده ابن الأزرق[5] أن قبائل زناتة في المغرب يتقدمها الشاعر «ويتغنى فيُحَرك بغنائه الجبال الرواسي، ويبعث على الاستماتة ويسمى ذلك الغناء تاصوكايت»، أو«تازوكّايت» [6]. ويتضح مما سبق أن اتخاذ الآلات في الحروب مثل الطبول والقرون واللجوء إلى الأصوات المهيجة ليس بظاهرة محلية تختص بها منطقة محددة أو شعب معين، وإنما هي ظاهرة حضارية موغلة يمكن للباحث أن يرصد أصولها ويتتبع تحولاتها وتطوراتها في المشرق وفي الغرب الإسلامي وفي أوربا كذلك.

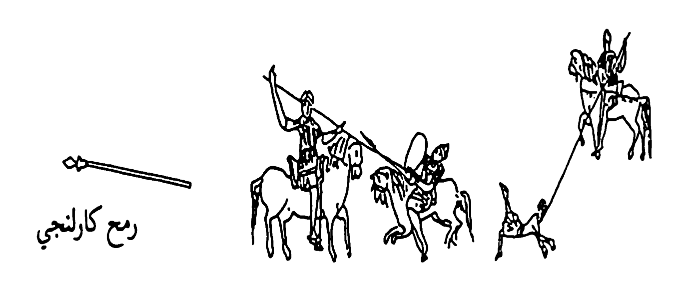
---

(1) - **ابن الخطيب:** الإحاطة، المجلد 2، ص. 43.
(2) - **ابن صاحب الصلاة:** تاريخ المن بالإمامة...، ص.540.
(3) - **الجاحظ:** الرسائل...، ج 1، ص. 19، 20.
(4) - **ابن خلدون:** المقدمة، ج 2، ص. 697.
(5) - **ابن الأزرق:** بدائع السلك...، ص. 229.
(6) - **المنوني:** ورقات عن حضارة المرينيين...، ص. 103.

فارس بسلاحه كاملا : لاحظ السرج المزود بالركاب وطوق العنق الجيد للسرج



فارسان بالمزاريق أحدهما واقف بفضل الركاب



بتصرف عن: CIRLOT (V) Techniques Guerrières....

خلاصة

يتبين من خلال عرض المادة المصدرية المتنوعة والتي تهم الأسلحة وألبسة الحروب أن الأندلسيين برعوا في صناعة تلك الأسلحة واستخدامها منذ وقت مبكر. لقد عملت الخلافة طيلة القرن الرابع على الإشراف عليها وتنظيمها عبر إحداث دار صناعة السلاح ومنصب خازنها. واتضح من لائحة أسماء الذين تولوا عملية تنظيم السلاح ومراقبته أهمية المنصب ونفوذ ومكانة صاحبه.

لقد كشفت المصادر خاصة كتب الجهاد والفروسية وكذا المعاجم المختلفة عن أنواع السيوف العربية والهندية والإفرنجية وأوصافها ومكوناتها. وفصّلت في أنواع وأصول القسي العربي والإفرنجية والتركية، وبيّنت طرق اعتماد الأندلسيين على القسي الإفرنجية نظرا لملاءمتها وسهولة استعمالها. ولم تغفل الحديث عن وفرة أنواع متعددة من الأخشاب والحديد أي المواد التي تدخل في صناعة الأسلحة. وإلى جانب ذلك أفادت في طرق وأوجه استعمالها في الحروب. ورغم انفراد بعض تلك المصادر خاصة كتب الطب والبيطرة بمعلومات بالغة الأهمية والدقة حول طرق العلاج من الجراح وأشكال العمليات الجراحية وتطبيقها، فإنها سكتت عن ذكر الأطباء والبياطرة الذين كانوا يتكلفون بمرافقة الحملات العسكرية، وكيف يزاولون مهامهم خلال المعارك.

أما أسلحة المجانيق والعرادات والدبابات التي تستخدم في حصار الحصون والقصبات والأسوار وهي كثيرة، فتبيَّن أن الأندلسيين قد استعملوها وطوّروها منذ عصر الإمارة. ولم يقف الأمر عند ذلك بل طوروا كذلك الألبسة الحربية خاصة الدروع والتراس والدرق واللجم والسروج وغيرها. واتضح أن السروج التي انتشرت في الأندلس ارتبط تطورها باستعمال الخيل والفروسية. ولاشك أن الركاب كان أهم تطور تقني أدخل عليها. مما يفند زعم ابن حوقل القائل بأن الأندلسيين يجهلون في الفروسية والركاب.

وانطلاقا مما سبق يمكن القول إن الأندلسيين وفروا أسلحة مختلفة سواء بالصناعة المحلية أو بالاستيراد من المسيحيين بالدرجة الأولى، وربما صدّروا منها ما فاض إلى جهات أخرى كالمغرب وهو ما عبر عنه صاحب الحلل الموشية[1] حين أوضح أن يوسف ابن تاشفين استقبل وفدا من الأندلسيين عام 474 هـ أي قبل الزلاقة (479هـ) و«بعث إلى الأندلس برسم شراء العدة، وآلات الحروب، فاشترى له منها كثير، وكان ذلك العام، عام اقتناء العدة واتخاذ السلاح».

إن وفرة الأسلحة في أندلس الخلافة والطوائف، دفع بالخلافة كما سبق الذكر إلى مراقبتها عبر "خازن السلاح" الذي لا يتصرف إلا بأوامر السلطة من قرطبة. لكن لما ضعفت السلطة آخر القرن الرابع انعدمت إمكانية مراقبة السلاح الذي تحول من أداة فعالة وهامة في يد السلطة السياسية والعسكرية، إلى وسيلة خطيرة ضدها بالدرجة الأولى. وهو ما حدث بالفعل إبان الأزمات والفتن التي عصفت بالأندلس ابتداء من آخر القرن الرابع الهجري. وقد عبر ابن الخطيب[2] عن هذا الوضع بدقة حين أشار إلى أن أنواع السلاح الذي كان متوفرا "أحاط به النهب يوم قيام ابن عبد الجبار". إن ضعف السلطة السياسية المركزية وظهور النزاعات الإقليمية عبر الأندلس خلال القرن الخامس الهجري زكى ظاهرة التهافت على اكتساب الأسلحة والتباهي بها كما حدث بالنسبة للحصون والقصبات التي عادت وظيفتها العسكرية إلى الصدارة خلال الطوائف.

---

(1) - مجهول: الحلل الموشية...، ص. 37.
(2) - ابن الخطيب: أعلام الأعلام...، ص. 103.

خاتمة

حاولنا في الفصول السابقة فهم جوانب من البنية العسكرية الأندلسية عبر دراسة العمران العسكري الذي تجسده الحصون والقصبات والأبراج والأسوار، إضافة إلى الأسلحة القتالية باعتبارها أدوات مادية ساهمت في بلورة خصائص الجند الأندلسي خلال الخلافة والطوائف. كما لاحظنا أن البحث العربي المعاصر أغفل دراسة التحصين بالأندلس من زاوية تتجاوز النظرة أو النظرية التقليدية التي ترى في الحصون والقصبات والأسوار أدوات عسكرية وسياسية محضة. وذلك عكس البحث الأجنبي المعاصر الذي بذلت فيه مجهودات كبيرة في مجال الأركيولوجيا والطبونيميا، وكشف عن العديد من المواقع الإسلامية التي أصابها التلف بفعل عوامل طبيعية وبشرية متعددة.

وبعد إجراء قراءة توثيقية في المصادر، تتوخى ضبط العديد من المواقع وإعداد لوائح بأسماء الحصون والقصبات والأبراج وغيرها، أي البدء بالعملية التاريخية نفسها، تَبَيَّنَ كثرة الحصون والمدن وصعوبة تتبعها وتوطينها عبر الأقاليم الأندلسية من الثغور إلى الجنوب إبان عصري الخلافة والطوائف. ورغم ذلك أمكن وضع لائحة أولى بأسماء نماذج من الحصون في الأرياف والقصبات والقصور في المدن، أمكن من خلالها رصد التحولات والأدوار المختلفة التي لعبها العمران العسكري في الأندلس طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة. لقد اتضح من المعلومات المصدرية التي أمكن الاطلاع عليها أن وظائف التحصين أو العمران العسكري سواء في الأرياف أو في المدن مرتبطة إلى حد كبير، فيما نرى، بالمجال الطبيعي والجغرافي، وبالأوضاع الاقتصادية والبشرية، وبطبيعة السلطة السياسية القائمة. ففي عصر الخلافة الذي تميز بالاستقرار الاقتصادي والسياسي والعسكري ميزنا بين مرحلتين أساسيتين في التحصين. تزامنت المرحلة الأولى مع بداية القرن الرابع الهجري وما رافقها من أحداث سياسية واقتصادية وعسكرية حاول من خلالها عبد الرحمن الناصر أن يؤسس لبنيات الخلافة والسلطة في ميادين متعددة. ولذلك لم يتردد في القضاء على المنتزين بالحصون والمعارضين عن طريق هدم معظم الحصون التي كانت تشكل خطراً عليه. وقد وقفنا عند جل حالات الحصون التي أقدم عبد الرحمن الناصر على تخريبها وإتلافها والطرق التي اتبعها في ذلك. إن الهدف من هذه السياسة في الواقع، لم يقتصر

على الجانب العسكري المحض المتمثل في السيطرة على الحصون، بل الأمر تعدى ذلك إلى إحداث تحولات عميقة في بنيات العمران العسكري والبشري الذي كان سائدا خلال النصف الثاني من الإمارة. لقد كان الأمر يقتضي، فيما نعتقد، إخضاع المجال الطبيعي ومكوناته العسكرية والبشرية والاقتصادية. وبعد تحقيق هذا الهدف وبناء سلطة سياسية مركزية وجند نظامي (جند الحضرة) قويين، وإعلان الخلافة انطلقت المرحلة الثانية في تاريخ العمران العسكري. لقد تغيرت نظرة الخلافة إلى التحصين بحيث أصبح العمران العسكري يشكل إطارا هاما لأنشطة مختلفة بشرية واقتصادية وسياسية وعسكرية كذلك. فباستثناء حصون مناطق الثغور التي احتفظت بخصوصيات متعددة منها التسجيل لشخصيات أو لعائلات مشهورة عليها، وقيام تلك الحصون بدور المراقبة العسكرية والاقتصادية لأقاليم الثغور، فإن الحصون في الأقاليم الداخلية وُجدت فيها السلطة المركزية بواسطة عمالها وولاتها، أي ممثليها السياسيين الذين كانوا يساهمون في تأطير الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والبشرية في محيط الحصون[1]. وعملت الخلافة في الآن نفسه على العناية بالعمران العسكري، في المدارات الحضرية. لقد اهتمت بالعمران الحضري عبر إنشاء أو توسيع المدن التي تراعى فيها شروط الارتفاع وتوفر المياه.

وعلى غرار الحصون كانت القصبات والأحياء المجاورة لها في المدن مراكز أساسية تأوي ممثلي سلطة قرطبة وكذا الجند الإقليمي الذين يساهمون بدورهم في توجيه وتأطير الأنشطة الاقتصادية والعمرانية والعسكرية في الحواضر. ولم تكتف السلطة المركزية القوية بإخضاع المجال الداخلي وتأطيره في ميادين متعددة خاصة في مجال العمران العسكري، وقد أصبحت توفر على جند مركزي قوي ينفذ سياستها، بل اتجهت طموحاتها إلى محاولة إخضاع مجالات أخرى أو مناطق نفوذ أعدائها خارج الأندلس، أو على الأقل منافستهم سواء في الثغور الشمالية أو في مجال البحر المتوسط وشمال إفريقيا. وانطلاقا من ذلك بنت الخلافة ورَمَّمت حصونا وقصبات هامة ذات طابع استراتيجي تبدأ من حصن طريفة المقابل لجبل طارق وقصبات مالقة والمرية، مرورا بحصن عقبة البقر إلى الشمال قليلا من قرطبة وصولاً إلى مدينة سالم وحصن عرماج

(1) - لاحظنا صعوبة دراسة "السكن المحصن" نظرا لغياب معطيات كثيرة تتعلق بأعداد السكان في القرى والأرياف الأندلسية، وطبيعة أنشطتهم الاقتصادية وعلاقتهم بالحصون. في حين دُرس السكن المحصن في أوربا الفيودالية منذ بداية السبعينات كما بينا سابقا في فصل الحصون والأرياف.

بإقليم صوريا شمالا. لكن هذه السياسة المتبعة خلال الخلافة في ميدان العمران العسكري لم تتعد عتبة القرن الخامس الهجري. فبمجرد أفول نجم الخلافة على المستوى السياسي ظهرت الطائفية السياسية، والعمرانية إن صح القول على المستوى الإقليمي. فرغم ما أمكن ملاحظته من نمو حضري إقليمي على عهد بعض الدويلات الطائفية خاصة في إشبيلية وغرناطة، فإن ظاهرة التَحَصُن في القصبات والحصون بل وانتعاش العمران العسكري عبر الإنشاء والترميم، أعاد إلى الواجهة ظاهرة الانتزاء والاحتماء بالحصون والأسوار وداخل القصبات التي سادت إبان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري أي قبيل الخلافة. لقد أصبح الحصن والقصبة والمعقل والصخرة عملة رائجة تقوي وتزيد من نفوذ من امتلكها كما بيّنا من خلال مصادر الفترة الطائفية نفسها. إن الملاحظة نفسها تصدق في مجال الأسلحة وهي أيضا أداة أساسية مادية ساهمت في بناء الجند الأندلسي. ففي الوقت الذي أقدمت فيه الخلافة على توفيرها ومراقبتها والإشراف عليها، انقلبت ابان الفتن والأزمات لتصبح أداة خطيرة ضد السلطة نفسها.

وانطلاقا مما سبق نعتقد أن التأريخ للعمران العسكري الأندلسي الذي يعكس الجانب المادي الهام من الحضارة الإسلامية يحتاج أوّلا إلى البحث التاريخي التوثيقي والمصدري الذي يمر عبر إجراء قراءة واسعة ودقيقة ما أمكن لمختلف المصادر، تتوخى القيام بجرد في بنيات التحصين والعمران العسكري الأندلسي عبر مختلف المراحل التاريخية. ويحتاج ثانيا إلى نتائج البحث الميداني، الأركيولوجي والطبونيمي والجغرافي. إن من شأن تلك النتائج أن تثير الكثير من التساؤلات المرتبطة بالتوطين والمواقع وطبيعة البناء وكذا مواد البناء. ولاشك أن ذلك سيساهم في إبراز التطورات والتحولات التي لحقت بالعمران العسكري الأندلسي، ويساعد في الوقت نفسه على التعريف بالعديد من المواقع التي اندثرت بفعل عوامل طبيعية وبشرية.

الـبــاب الـثـالــث

الأســطـــول الـحـــربـــي

الفصل الأول : الرباطات البحرية.

الفصل الثاني : دور الصناعة ومواد الإنشاء.

الفصل الثالث : السفن الحربية،الأنواع والأعداد والمسافات والأوقات.

الفصل الرابع : رجال الأسطول،الأعداد الحمولات والقيادة والأسلحة والألبسة والرواتب.

«(...) يا أمير المؤمنين إني رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد أحزن القلوب وإن ثار أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة، والشك كثرة. هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق... ».

جواب عمرو بن العاص والي مصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب عن سؤال حول البحر.

الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو الفضل محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1966، ص. 51.

« (...) وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم (المسيحيون) ضِراء الأسد على فريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح... » .

ابن خلدون:المقدمة...،ج 2، ص.692.

تقديم

تعددت المصنفات والدراسات حول البحر المتوسط والعلاقات التي نسجت على ضفافه منذ وقت مبكر؛ كما ألف الكثير في الأدوار التي لعبها في مجالات مختلفة. فإذا كانت الحضارة الإسلامية قد لعبت دوراً أساسياً في توجيه الأحداث الاقتصادية والعسكرية في هذا البحر خلال العصر الوسيط، فكيف كانت الأوضاع العسكرية في الحوض الغربي لهذا البحر خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة؟ أو كيف تعاملت القوى السياسية والعسكرية في الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف مع البحر المتوسط في ميدان صناعة الأساطيل الحربية لمواجهة المسيحيين في الشمال والفاطميين في شمال إفريقيا ومصر أو غيرهم.

إن دراسة الأسطول الحربي في البحر المتوسط خلال الخلافة والطوائف يقتضي استحضار النظرية المشهودة الذي وضع أسسها المؤرخ البلجيكي بيرين. هـ.[1]، حول العلاقات المسيحية الإسلامية في البحر المتوسط، وآثار أو نتائج السيطرة الإسلامية على هذا البحر، على الأوضاع الاقتصادية في غرب أوربا قبل القرن العاشر الميلادي.

لا يتسع المجال لمقاربة نظرية هـ. بيرين ومقارنتها بآراء متعددة في الموضوع. يكفي القول إنها أثارت جدالاً ونقاشات واسعة حول أهمية البحر المتوسط منذ فترة العصر الوسيط الأعلى على الأقل. إنها نظرية أصبحت كلاسيكية، بل متجاوزة من قبل مختلف الدارسين المهتمين بالموضوع[2].

تجدر الإشارة إلى أن الأسطول عموماً شكل محوراً للعديد من الأبحاث والدراسات العربية والأجنبية خاصة في الجزء الشرقي من البحر المتوسطي. أما أغلب الأبحاث المخصصة لهذا الأسطول في جزئه الغربي فانكبت بالدرجة الأولى على الأسطول التجاري، ولم تناقش الأسطول الحربي إلى بشكل عَرَضي أو جزئي، أي في إطار تناول الصراعات الاقتصادية والسياسية والإيديولوجية بين القوى المسيحية أو الإسلامية أو

---

(1) - PIRENNE (H); Mahomet et Charlemagne..., op. Cit.

(2) - BOUTRUCHE (R) ; Seigneurie et féodalité..., op. Cit, T. 1, p. 34 et sv.
LOMBARD (M) ; Mahomet et Charlemagne, le problème économique. dans :
Espaces et réseaux du Haut Moyen Age, op. Cit, p. 31-45.

أرشبالد. (ل): القوى البحرية والتجارية في حوض المتوسط...، مرجع سابق، ص.39 وما بعدها.

حناوي (م): جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية...، ص.151، 162.

البزنطية التي تصارعت وتقاسمت النفوذ في البحر المتوسّطي.

إن الاهتمام بالأساطيل التجارية يعود، فيما نرى، إلى توفر جزء هام من المادة التاريخية التي تناولت بشكل من الأشكال موضوع التجارة في البحر المتوسطي. فيكفي استعراض قائمة بأسماء مختلف المصادر والمصنفات من كتب الأنساب والتراجم والطبقات وكتب الرّحلات والجغرافيا، وكذا كتب الفقه والنوازل والحسبة، ناهيك عن كتب فقهية اهتمت بالتشريعات المرتبطة بالملاحة البحرية وما تطرحه من قضايا اقتصادية وتجارية واجتماعية دقيقة[1]، كطبيعة السفن والمراكب والسلع والأكرية[2] والحمولات التجارية والاتفاقيات بين التجار إلى غير ذلك من القضايا الدقيقة التي تساعد في إنارة جوانب متعددة من الأساطيل التجارية.

أما حظ الأسطول الحربي الأندلسي في متون المصنفات السالفة الذكر فقليل جداً. فإن ذكرت إشارات حوله فهي عامة، بحيث لا تكاد تتجاوز عتبة إبراز فوائد هذا الأسطول، وذكر الغزوات والحملات البحرية وأهميتها السياسية والعسكرية بالنسبة للسلطة أو القوى التي قادت تلك الحملات. وأحياناً كثيرة يطغى الخلط ما بين الأسطول التجاري والحربي.

ولدراسة الأسطول الحربي الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة (X/ XI م)، يجب تتبع ورصد المادة والإشارات المصدرية المرتبطة به في مجال الغرب الإسلامي إبان مرحلة الدراسة. إن من شأن هذه المادة المتناثرة في مظان مختلفة أن تفيد في تبيان أهمية دور صناعة الأسطول الحربي والمواد التي تدخل في صناعة أنواع السفن الحربية. وكذا دور رجال الأسطول الحربي وأسلحتهم وألبستهم ومراتبهم ورواتبهم إلى غير ذلك. نعتقد بضرورة مساءلة المادة المصدرية المتوفرة لمحاولة النظر في البنيات الداخلية

---

(1) - ابن النحاس (أبو العباس أحمد بن إبراهيم): مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ، (مثير الغرام إلى دار السلام)، مخطوط الخزانة العامة، الرباط ص. 75، 84 وما بعدها.
الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط 592 ق... 88 - وما بعدها.
عن لائحة كتب الجغرافيا والرّحلات التي اهتمت بالتجارة البحرية انظر:
الطاهري (أ): الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم والطبقات، في: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، المطبعة الجديدة، 1993، ص. 55، 75.

(2) - محمد بن عمر (بن يوسف بن عامر الكناني الأندلسي): كتاب أكرية السفن والنزاع الإسكندراني، المكنى أبو عبد الله (ت 310) بين أهلها. تحقيق: أنور طاهر (مصطفى)، الكراسات التونسية، مجلد 31 عدد 124،123، 1983،ص.53،5.
عادة ما يُنسب الكتاب إلى فقيه آخر، وهو خلف ابن أبي فراس الذي عاش بعد أبي عبد الله محمد بن عمر، (من آخر ق 4 هـ).

وللتركيبات الأساسية المكونة للأسطول الحربي الأندلسي خلا ل الخلافة والطوائف. وذلك لمحاولة تجاوز النظرة أو التصور السائد والقائم على وصف الأسطول الحربي وتمجيده خاصة في المناسبات التي يحقق فيها انتصارات مختلفة. يجب أيضا، إثارة العديد من القضايا والتساؤلات التي ما تزال في حاجة إلى البحث والتقصي من ذلك مثلا: حمولات السفن الحربية، والمسافات التي تقطعها، والأوقات التي تستغرقها في ذلك، وكذا الفصول والأزمنة التي تناسب تحركات الأسطول الحربي. ناهيك عن قضايا أخرى كصعوبة التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري، وما بين الأسلحة البحرية والبرية إلى غير ذلك من القضايا التي أغفلت إلى حد بعيد من قبل البحث التاريخي المعاصر. إن شح المادة المصدرية بشأن بعض الجوانب السالفة الذكر يدفع إلى استشارة مصادر متنوعة[1] ومفيدة ولو نسبيا في إنارة الموضوع.

انطلاقا من الملاحظات السابقة يمكن تناول موضوع الأسطول الحربي الأندلسي خلال الخلافة والطوائف كالتالي:

- الرباطات البحرية.
- دور الصناعة ومواد الإنشاء.
- السفن الحربية: الأنواع والأعداد والمسافات والأوقات.
- رجال الأسطول.

---

(1) - يمكن الاستعانة بمصادر أخرى غير كتب التاريخ والتراجم والأنساب والنوازل والرحلات والجغرافية، المعروفة، كالمصادر الأدبية. نشير إلى أن الكثير من الشعر قد قيل في الأساطيل الحربية والحروب البحرية في مناسبات عديدة كما يتضح من الموسوعات الأدبية والدواوين الشعرية كالنفح والذخيرة للمقري وابن بسام، أو ديوان ابن حمديس أو ديوان الأعمى التطيلي أو شعر ابن دراج القسطلي أو ديوان ابن هانئ الأندلسي أو سيرة جوذر الفاطمي الخ. يجب اتخاذ الحذر والحيطة لأن أغلب النصوص الأدبية، وإن كانت مفيدة لأنها تعكس، بشكل من الأشكال، روح عصرها، فهي لا تخلو من مبالغات كثيرة يصعب تصديقها. انظر ذلك في:
لغزيوي (علي): أدب السياسة والحرب في الأندلس من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الرباط، 1987.

الفصل الأول

الرباطات البحرية

لقد سبق الحديث عن قيمة الجهاد في الثغور الأندلسية المحاذية للمسيحيين[1]؛ وكيف أن الخلافة الإسلامية كانت تولي اهتماما كبيرا لجزيرة الأندلس ككل باعتبار موقعها الهام في أقصى غرب ما يُعرف "بدار الإسلام"، في مقابل "دار الحرب". وقد كشفت المصادر المتنوعة خاصة كتب الفقه والجهاد والنوازل والطبقات والأنساب والتراجم، وكتب الأخلاق السلطانية، وكذا كتب الفروسية عن الأهمية القصوى التي كانت تحظى بها شبه جزيرة الأندلس في ميدان الجهاد والرباط[2]. وإذا تأكدت أو تحققت أقوال الرسول ﷺ، التي تذكر أن الجهاد والرباط سينقطع «إلا بجزيرة يقال لها الأندلس بالمغرب الأقصى، المرابط فيها أفضل من شهيد» [3]. وأن رباط يوم "بجزيرة الأندلس، أفضل من رباط عامين في ثغور غيرها"[4]؛ فإنه يلزم في اعتقادنا إعادة النظر فيما قيل في مفهوم الغرب الإسلامي والمغرب الأقصى[5]. يبدو أن المصادر قد ميّزت خصائص الجهاد والرباط على البحر، وركزت على فوائده وفضائله لاعتبارات كثيرة أهمها: موقع شبه جزيرة الأندلس وأنشطتها في مجال البحار خاصة في البحر المتوسط. ولذلك قيل: « للغزو في البحر فضائل ليست للغزو في البر» [6]. وإن «غزوة في البحر أفضل من عشرة في البر»[7]. وللغزو في البحار فوائد جمة في المغانم[8]. وقد خصص ابن أبي زمنين[9] حديثا مفصلا لفضائل الرباط على البحر والحراسة فيه حين أوضح أن أبا هريرة قال رباط «ليلة على ساحل البحر وراء عورة المسلمين أحب إلي من أن أصادف ليلة القدر في أحد المسجدين، المسجد الحرام، ومسجد رسول الله » [10]. ومن «رابط أربعين ليلة فقد استكمل الرباط»[11]. وعلى نهجه سار ابن النحاس[12] في نفسير فوائد الرباط والغزو في البحر.

---

(1) - انظر فصل: نظام الثغور.
(2) - انظر الفرق بين الجهاد والرباط في: ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، 5 أ.
(3) - ابن هذيل: في الرباط والجهاد...، مخطوط 7 ب.
(4) - نفسه: 8 أ.
(5) - انظر فصل: نظام الثغور، ص. 43، 44.
(6) - ابن النحاس: مشارع الأشواق...، مخطوط ص. 75.
(7) - نفسه: ص. 76.
(8) - مجهول: كتاب في الجهاد...، مخطوط 99 ب.
(9) - ابن أبي زمنين: قنوة الغازي...، مصدر سابق، ص. 246، 247، 249.
(10) - نفسه: ص. 247.
(11) - نفسه: ص. 249.
(12) - ابن النحاس: نفسه، ص. 75، 76.

وذهب أحد الفقهاء[1] إلى تعداد فضائل وأهمية غزوات النساء في البحر. وقال صاحب بدائع السلك[2] بأن الحنابلة كانوا يفضلون الجهاد في البحار عن الجهاد في البر لما يصاحبه من خطر البحر وخطر إمكانية الفرار. ودون التفصيل في سرد المعلومات الكثيرة التي تزخر بها المصادر العربية الإسلامية[3] حول الرباط البحري، نلاحظ أن الحديث عن فضائل الجهاد والرباط البحري يعكس إلى حد كبير حقيقة تاريخية مرتبطة، فيما نرى، بتاريخ الحضارة الإسلامية منذ نشأتها. لقد اصطدم المسلمون إبان الفتوحات بالبحار وبشعوب أخرى لها علاقة بالبحر وبثقافته، مما اضطرهم إلى التعامل مع هذا الواقع الجديد، وحَثّ المجاهدين على ركوب البحر وتعداد فوائده. لكن البداية كانت صعبة للغاية كما يتبيّن مِمّا أشرنا إليه سابقا في السؤال الذي وجهه عمر بن الخطاب إلى الولي عمرو بن العاص، حول البحر. ولذلك كانت تخصص مكافآت وحصص مهمة في الغنائم لتحفيز وتشجيع الذين يركبون البحر[4]. تجدر الإشارة إلى أن سكان شبه جزيرة إيبريا وكذلك سكان الجزر خاصة تلك الواقعة في الجزء الغربي من البحر المتوسط، قد خبروا البحر ودفعتهم الضرورة إلى ركوبه واستعماله لأغراض متعددة كما تشهد بذلك كتب الرّحلات والجغرافيا. يقول المقدسي[5] :« وأهل صقلية والأندلس أخبر الناس به(البحر) وحدوده وخلجانه لأنهم يسافرون فيه ويغزون من هو يليهم وفيه طرقهم إلى مصر والشام، وقد ركبت معهم المدة الطويلة أسائلهم عنه وعن أسبابه، وأعرض عليهم ما سمعت فيه... فيه رباطات فاضلة..». لقد انتشرت، بالفعل، الرباطات على طول السواحل الأندلسية خاصة في الوقت الذي نشطت فيه هجمات بعض القبائل الأوربية كالنورمان على سواحل

---

(1) - مجهول: في الوقف والأمور الجهادية...،مخطوط 28 أ.

(2) - ابن الأزرق: بدائع السلك في طبائع المُلك...،مصدر سابق، ج 1، ص. 54

(3) - انظر مثلا:

ابن بشكوال: كتاب الصلة...، ج 1، ص. 10؛ ابن أبي منصور (صفي الدين): الرسالة، نشر جبريل ديني، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1986، ص. 7، 52، 76؛ الصّفوري (عبد الرحمن الإمام): نزهة المجالس ومنتخب النفائس، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط ج 693، 15 وما بعدها؛ ابن المناصف: الأنجاد في أحكام الجهاد...، مخطوط نسخة خزانة ابن يوسف، مراكش، رقم ي 216، ص. 62 وما بعدها.

(4) - مجهول: كتاب الجهاد...، مخطوط سابق، 78 ب.

MORABIA (Alfred); Le Gihad dans l'Islam médiéval : Le «Combat sacré» des Origines au XIIè siècle, Paris AL Michel, 1993, p. 207, 225, 243.

(5) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، مصدر سابق، ص.10.

الأندلس. يؤكد العذري[1] أن المرية «ليست بأولية العمارة، إنما اتخذها العرب رباطا وابتنت فيها محارس، وكان الناس يرابطون فيها ولا عمارة فيها يومئذ ولا سكنى. عليها سور صخر منيع بناه الناصر أمير المؤمنين سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة» . ويشير الحميري[2] لاحقا إلى أهمية رباط المرية الذي اتخذه العرب كمحرس ينتجعون فيه للرباط. ويبدو أن منطقة بجانة المرية كانت منذ وقت مبكر نشطة على الساحل، فهي حسب التقسيم الجغرافي القديم إسم لميناء روماني إيبري يدعى URCI[3]، قلده الأمير عبد الرحمن الثاني قضاعة من اليمنية مقابل حراسة السواحل المجاورة ضد الهجمات المتعددة التي كانت تستهدفها، واستغلال أراضي الإقليم ولذلك سميت المنطقة عرش اليمن[4].

إلى جانب بجانة المرية تحدثت المصادر[5] عن حصن سهيل بإقليم ريه. ويعتبر بُرجا المراقبة على البحر لأن كل مار يُرى بسهولة. وذكر الإدريسي[6] رباطات هامة في سواحل البحر الشامي قائلا:«ومنه (نهر ايره) إلى رابطة قشتالي غربا إلى البحر ستة عشر ميلا، وهي رابطة حصينة منيعة، على نحر البحر الشامي يسكنها قوم أخيار، وبالقرب منها قرية كبيرة...». وأضاف بصدد رابطة ما بين مرسية والمرية: «ومن هذا الحصن (بيرة) إلى عقبة شقر، وهي عقبة صعبة المرقى لا يقدر أحد على جوازها راكبا... ومن العقبة إلى الرابطة مرحلة، وليس هناك حصن ولا قرية وإنما بها قصر فيه قوم حراس للطريق..»[7]. وإلى الشرق من مدينة المرية وُجد رباط ساحلي عرف بالقابطة، أوضح ل. بروفنسال[8] أنه يقابل الموضع المعروف اليوم ب: (CAP de Gata). ورباط آخر بمصب نهر إيره سُمّي بقشتالو، وقيل إنه (SAN Carlos de la Ràpita)[9]. وربما هو

---

(1) - العذري : ترصيع الأخبار...، ص. 86.
(2) - الحميري: الروض المعطار...، ص.537.
(3) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit. T.1, p.351
CHALMETA (P). Concesiones territoriales..., op. cit, p.33, 43.
(4) LÉVI-PROVENÇAL(E); Histoire de l'Espagne...,op.cit, p.351. CHALMETA (P); Al-Andalus : Société féodale? ... op.cit, p.180 et sv.
(5) - الرازي: وصف الأندلس...، ص. 99؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 68.
(6) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 555.
(7) - نفسه: ص.562.
(8) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 11,112.
(9) - VALLVÉ (J.B). El califato de córdoba, Madrid, MAPFRE, 1992, p.128,129.

رابطة قشتالي التي تحدث عنها الإدريسي سلفا. واعتمادا على بعض الرحالة والجغرافيين الذين زاروا الأندلس كشف L. Torres Balbás[1] عن مجموعة من المراكز اشتهرت على أنها رباطات كعمروس قرب المرية[2]، والبنيول (Albunól) بالقرب من إقليم البشـــارات. وتمت الإشارة إلى رباطات بحرية هامة بجهة الشرق الأندلسي كربـــاط (Guardamar de Segura) غير بعيد عن مدينة القنت[3] (Alicante)، وآخر بالقرب من مركز مربلـــة[4]، ورابطة كشكي[5] أو كشكلي[6] الواقعة بين بلنسية وطرطوشة، وهي مشهورة ببركتهـــا[7]. وفي الجنوب الأندلسي تُذكر رابطة روطة غير بعيد من مدينة قادس. وقد أشار أحد الفقهاء إلى أنها معظمة ومن رابط فيها صائما غفرت ذنوبه[8]. وفي جهة الغرب نشـــطت عـــدة مراكز في الجهاد والرباط كما هو الشان في مدينة شلب[9] ومراكز أخرى[10].

لم تقتصر الرباطات على السواحل، بل نشطت أيضا بجانب بعض الأنهار الكبـــرى خاصة تلك الواقعة في أقاليم الثغـــور المواجهـــة للإفـــرنج كأنهـــار إبـــره ودويـــره[11]، وشقر[12] (الزيتون)، وغيرها[13]، أو في بعض الأنهار الداخلية كما هو الحال في الوادي الكبير الذي لعبت إشبيلية في مصبه دورا هاما في صد الهجمات المسيحية المتكررة على

---

(1) - TORRES BALBÁS (L);Rabitas Hispanomusulmanas, dans : Al Andalus,vol. XIII, Fasc, 2, Madrid-Granada, 1948, p.445, 491.

(2) - تجدر الإشارة إلى أن مجموعة من الأبحاث الميدانية الأركيولوجية والطبونيمية قد بيّنت أهمية العديد من المواقع المحصنة على طول السواحل الأندلسية كما هو الحال في قادس وطريفة ومالقة والمرية والقنت وغيرها، انظر: الحصون والقصبات والأسوار في الباب الثاني.

(3) - AZUAR RUIZ (R); Las técnicas constructivas en el-Andalus.. op. cit, p. 130 et sv.

(4) - نفسه: ص. 132.

(5) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 90، 103.

(6) - نفسه: هامش (2)، ص. 90.

(7) - نفسه: ص. 103.

(8) - نفسه: ص. 90.

(9) - TORRES BALBÁS (L); Rabitas Hispanomusulmanas, op. cit, p. 485.

(10)- HERNÁNDEZ CRUZ (Miguel); EL Islam de Al-Andalus Historia y estructura de su realidad social. Madrid, A.E.C.I, 1996, pp. 266, 345.

(11) - انظر أهمية نهري دويره وإبره في: الرازي: وصف الأندلس...، ص. 42 وما بعدها.
BELÉN SANCHEZ PRIETO(A); Líneas cristianas y ejes musulmanas de fortificacion en la rivera soriana del Duero (Siglos IX. X), Revista de las Armas y servicios, N° 621 ... op.cit, p.56, 65.

(12) - الرازي: نفسه، ص. 174؛ الفاسي (محمد): الأعلام الجغرافية الأندلسية...، مرجع سابق، ص. 121.

(13) - نذكر أهمية نهر سرقسطة في المراقبة الساحلية خلال الطوائف (بنو هود).
المقري: النفح...، ج 3، ص. 266.

سواحل الأندلس منذ بداية القرن الثالث الهجري[1]. وقد كان المرابطون يقيمون الطلائع والمحارس[2] والأبراج لمراقبة الإبحار التجاري والعسكري.

يتضح من الأمثلة السالفة الذكر أن الرباطات في الأندلس مؤسسات لم تقتصر على لعب الدور العسكري فحسب بل جمعت ما بين الوظيفة الدينية والعسكرية. لقد سبق القول إن كتب الأحكام الفقهية والجهاد والنوازل، وكتب الأخلاق السلطانية قد فصلت الحديث عن حقوق وواجبات المجاهدين في الثغور الأندلسية، بل وذكرت صنفا من الرجال العلماء والقضاة والأدباء الذين ينقطعون في مراحل محددة من حياتهم للجهاد[3]. إن هذه المصادر تحدثت أيضا عن جوانب مختلفة من حياة المرابطين والمجاهدين في مختلف الرباطات بالأندلس. إنهم كانوا يمارسون حياة يومية قائمة على التقشف والاقتصار على ضروريات الحياة إلى جانب مزاولة مهمة الحراسة. ولذلك ينعتون أحيانا بالسُّحار أو العساس[4] (العسس) لأنهم كانوا يسهرون الليالي في أبراجهم وطلائعهم لمراقبة ورصد تحركات الأعداء.

فكيف يتم الاتصال والتنسيق ما بين الرباطات المختلفة عبر السواحل الأندلسية؟ يبدو أن أنجع وسائل مراقبة العدو عبر رباطات جهة من الجهات في السواحل هي الأبراج العالية التي يستخدم فيها المرابطون حركات أو أصوات معينة نهارا؛ كما ينذرون بالنيران ليلا إذا أحسوا بخطر يداهمهم أو يهددهم. وقد يجوز بناء بعض الأبراج على صوامع المساجد لاستطلاع أخبار النصارى[5] كما جاء في إحدى الفتاوى يسأل فيها أهل قرية بلش التي خربها العدو وبقي جامعها قائما. و«بناء قامرة على الصومعة المذكورة، تكون، إغاثة لأهل بلش، وأهل الأرحى والنوتية الهابطين، إلى البحر، وفيها خير كثير للناس...»[6]. وتذكر بعض الإشارات المصدرية أن إيقاد النار في بعض الأبراج

---

(1) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 99.

(2) - BASSOLS (Sergi); Una Lnea de Torres Viga musulmanas, LERIDA-TORTOSA, AL-QANTARA: Revista de Estudios árabes, Vol. XI è Fasc,1, Madrid, 1990, p.127, 254.

(3) - انظر فصل: نظام الثغور.

(4) - الونشريسي: المعيار...، ج 7، ص. 236.

ARCAS CAMPOY (Maria); Teoría jurídica de la gererra Santa: EL KITAB « QIDWATAL GÀZI » de Ibn Abi Zamanin? Al Andalus-MAGREB Estudios árabes E Islamicos, N° 1, Univesidad de Cadiz, 1993, p. 51, 65.

(5) - الونشريسي: المعيار...، المصدر السابق، ج 7، ص.148.

(6) - نفسه: ص. 149.

المخصصة لذلك يعد وسيلة ناجعة من وسائل الاتصال بين المرابطين في السواحل خاصة في الليل. يشير الإدريسي[1] إلى أن الطريق الساحلي الذي يبدأ من المرية إلى آخر الجون مرورا بقرية البجانس وبرجة ودلاية فيه برج مبني بالحجارة، "مصنوع لوقيد النار فيه عند ظهور العدو في البحر سِتّة أميال". لا نعرف بالضبط تاريخ استخدام النار في الأبراج الأندلسية كوسيلة أساسية للاتصال. ويبدو أنها استخدمت في المشرق منذ وقت مبكر. يقول أحد الدارسين[2] اعتمادا على المقدسي إن الإنذارات النارية قد استعملت في المجال الأمني خاصة في السواحل منذ القرن الثالث الهجري على الأقل. وأضاف آخر[3] أن الإتصال ما بين الرباطات المختلفة كان يتم بواسطة عملية إيقاد النار أو بالأصوات أو بواسطة ما يعرف بالانعكاسات الشمسية، أو علم المرايا المحرقة[4] التي تستعمل لحصار العدو وإيقافه عبر استغلال الخطوط الشعاعية المنعكسة أو المنكسرة مع أشعة الشمس.

إلى جانب الأعمال العسكرية، كان المرابطون يزاولون حياة دينية، أمكن التعرف على بعض جوانبها من خلال كتب التشريع الفقهي والنوازل التي واكبت ظاهرة الرباطات وعكست بامتياز بعض قضايا وهموم القائمين بها مثل رواتبهم بالطعام أو آثار ذكر الله ورفع الأصوات بالقرب من العدو وغيرها من الأمور التي تشكل جزءً من الحياة اليومية التي يعيشها المرابط. يرى ابن رشد[5] في ميدان الرواتب أنه «لا يجوز للجند من المرابطين وغيرهم بيع الطعام المرتب لهم على خدمتهم وعملهم... إلا بعد أن يقبضوه، ويستوفوه..». وقيل في طريقة مزاولة المرابطين للعبادة والصلاة والذكر أن الإمام مالك أفتى في بعض المسائل التي تهم الأصوات واللهو في الرباط. فأجاز ما له علاقة بذكر الله من التهليل والتكبير ونفر ممّا له علاقة بالتطريب أو بإزعاج الآخر. قال « (...) سئل مالك عن القوم يكونون في الرباط يهللون ويكبرون على الساحل ويطربون بأصواتهم،

---

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 563.

(2)- حركات (إ):النشاط الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق،1996، ص.206.

(3)- BASSOLS (Sergi); Una Lnea de Torres..., op. cit, p. 142.

(4) - حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، الاستانة، مطبعة العالم، 1310 هـ ج 2، ص. 416.

(5) - ابن رشد: الفتاوى، ج 3، ص. 1453، 1454.

قال، أما التطريب فلا يُعجبني، وأما أن يهللون ويكبرون... فلا أرى به بأسا..»[1]. يتضح من الأمثلة السابقة أن القائمـــين بالرباط البحري بالأندلس كانت انشغالاتهم اليومية تتوزع ما بين الأعمال العسكرية الجهادية والأمور الدينية.

(1) - ابن النحاس...:مشارع الأشواق...،مخطوط ص.84،85؛الونشريسي:المعيار...،مصدر سابق،ج11، ص.105.

خلاصة

يتبين من خلال ما أمكن الاطلاع عليه من معلومات مصدرية حول الرباط البحري. أن هذا الأخير، شأنه شأن الجهاد في الثغور، قد بدأ بالأندلس منذ ما قبل الخلافة. لقد سبق القول إن الخلافة الإسلامية كانت تولي أهمية خاصة للمغرب والأندلس منذ الفتوحات. باعتبارهما موقعا بالغ الأهمية في أقصى غرب "دار الإسلام". أضف إلى ذلك أن المصادر[1] أشارت إلى أن الأندلسيين المحاطين بالسواحل قد اضطروا لركوب البحر واختباره في المجالات التجارية والعسكرية. ولا غرابة إذا ظهرت مراكز جهادية على طول سواحله منذ عهد الإمارة على الأقل مثل، ألمرية/ بجانة وروطة، وسهيل، والقابطة. والقنت وغيرها. وإلى جانبها، أمكن الحديث عن رباطات أخرى نشطت بجوار بعض الأنهار الكبرى عبر الأنحاء الأندلسية. لقد كشفت المعلومات المصدرية، المتنوعة خاصة كتب الفقه والجهاد والنوازل عن تفاصيل دقيقة تعكس طبيعة الحياة بالرباط. وبخلاف ما يمكن أن يميّز جند الثغور أو الرجال الذين يجاهدون في الثغور عموما، فإن المرابطين كانوا يزاولون أنشطة دينية وعسكرية في الآن نفسه.

يمكن القول إن الرباطات البحرية، كالجهاد في الثغور، قد انتشرت بالأندلس في أوقات محددة. ونعتقد أن لانتشارها علاقة مباشرة بطبيعة السلطة السياسية والعسكرية القائمة. ويبدو أن نشاط الرباط كان إبان أزمات السلطة وضعفها. وقد سبق القول إن العلماء والفقهاء والقضاة كانوا يأخذون المبادرة ويقدمون إلى الثغور للجهاد خاصة في أوقات يشعرون فيها بفتور السلطة السياسية والعسكرية وعدم القيام بواجبها في صد المسيحيين[2]. إن تقلص ظاهرة الرباطات البحرية خلال عصر الخلافة (IV هـ) له كذلك علاقة بقوة سلطة الخلافة التي اهتمت بإرساء بنيات اقتصادية وعسكرية جديدة. وتعتبر الأساطيل الحربية ودور صناعتها جزءً هامّاً من البنيات السالفة الذكر.

---

(1) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، مصدر سابق، ص. 10.

(2) - انظر فصل: نظام الثغور.

الفصل الثاني

دور الصناعة ومواد الإنشاء

أ - دور الصناعة

تعد دور الصناعة وقواعد الأسطول التجاري والحربي جزءً أساسيا من البنيات الاقتصادية والعسكرية بأندلس الخلافة والطوائف. إن موقع شبه جزيرة إيبريا على مساحات بحرية شاسعة دفع بالسلطة السياسية بقرطبة وفي الأقاليم إلى الاهتمام بحماية السواحل وإبعاد كل الأخطار الخارجية المحدقة بها. لاشك أن إخضاع السواحل كان يتطلب بنية صناعية متينة وسلطة سياسية وعسكرية حازمة وقادرة على تحقيق ذلك. نلاحظ أن شروط بناء أسطول حربي قوي قد توفرت في عصر الخلافة أي إبان القرن الرابع الهجري (X م)، واختلت إلى حد كبير خلال عصر الطوائف (القرن الخامس٧ هـ) (XI م) نظراً للتجزؤ السياسي و الانقسامات الإقليمية التي حالت دون توسيع بنيات الأسطول.

ما هي الظروف العامة التي دفعت بالخلافة إلى الاهتمام بدور صناعة الأساطيل الحربية؟. دون الغوص في تفاصيل تهم الكيفية التي نجحت بها سلطة قرطبة في الخروج من الصراعات والأزمات التي شهدتها الأندلس خلال النصف الثاني من عصر الإمارة خاصة في المجالين الاقتصادي والسياسي، ونجاحها في إقامة بنيات اقتصادية وإدارية[1] مكنتها من تركيز نفوذها وقوتها داخلياً وخارجياً، والاتجاه نحو إرساء قواعد تتناسب وهيبتها في العديد من الميادين خاصة في مجال الأسطول؛ نكتفي بالقول إن الخلافة في قرطبة واجهت على المستوى الخارجي قوى متعددة ومتباينة في طبيعتها وأهدافها منذ البداية. وقد حاولت التغلب عليها بكل الوسائل، والأسطول الحربي إحدى الوسائل في ذلك. إذا كانت ظاهرة القرصنة البحرية قد ضعفت نسبياً منذ عصر الإمارة[2]، فإن الخلافة عملت على مواجهة الحملات العسكرية النورمانية المتكررة على سواحل الأندلس من جهة، وحملات الممالك المسيحية الأخرى في

---

(1) انظر بعض التفاصيل المرتبطة بإنشاء بنيات اقتصادية وإدارية هامة خلال عصر الخلافة في:
الطاهري (أ) : عامة قرطبة...، مرجع سابق، ص. 14 وما بعدها.

(2) - كتبت العديد من الأبحاث العربية والأجنبية حول القرصنة في البحر المتوسط منذ نظرية هـ. بيرين المشار إليها في المقدمة، من تلك الأبحاث نذكر:

BOUCHARD (J); Services féodaux, milices et mercenaires dans les Armées en France aux X.XIè siècles. dans: **Ordinamenti militari in Occidente**...op. cit, p.131,169.

GUICHARD (P); L'Europe et le monde musulman ai Moyen Age .., op. cit, p.65,105.

الثغور من جهة ثانية، والقوى المضادة لها في شمال إفريقيا والمتمثلة في الفاطميين الشيعة من جهة ثالثة. فإذا صح القول أن الخلافة واجهت بنجاح الممالك المسيحية شمالاً والفاطميين جنوبا، فإن الهجمات النورمانية على سواحل الأندلس كانت بشهادة جميع المصادر أحد الأسباب الرئيسية والمباشرة التي أدت بسلطة قرطبة إلى الانشغال بالأسطول الحربي وبناء مراكز تطويره منذ وقت مبكر. يذكر ابن القوطية[1] وغيره[2] أن سبب الاعتناء بإشبيلية وببنياتها الدفاعية هو «تغلب المجوس عليها عند دخولهم سنة 230هـ...وذُعر الناس وفروا... منها إلى قرمونة وإلى جبل إشبيلية..». وكان أولئك المجوس يتوفرون على مراكب [3] تجعلهم متفوقين. مما يكثف الخطر على المدن الساحلية كإشبيلية التي « لا يؤمن عليها من قبل البحر»[4].

لاشك أن حماية المدن الساحلية كان أول الأمر بواسطة بناء وترميم الأسوار خاصة من جهة البحر. ومن الأسوار إلى محاولات في إنشاء وبناء السفن والمراكب.

تشير المصادر[5] إلى أن الأمير محمد أمر سنة 266 هـ «(...) بإنشاء المراكب بقرطبة ليتوجه بها إلى البحر المحيط... فلما كملت المراكب بالإنشاء قُدّم عبد الرحمن بن مغيث إليها، فلما دخل البحر تقطعت المراكب كلها وتفرقت».

يتضح من الإشارات السابقة أن الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (الإمارة)، كانت تفتقد لبنية بحرية وأسطول حربي من شأنه مواجهة أخطار النورمان وهجماتهم الخاطفة التي لم تتردد في مباغتة الأندلس لاقتناص الغنيمة والأرباح.

قبل الحديث عن الكيفية التي أسست بها الخلافة دور صناعة الأسطول الحربي، نتساءل عن أهمية النورمان أو الأردمانيون أو النورمانديون أو المجوس كما تنعتهم المصادر العربية[6]، والقادمون من أوربا نحو السواحل الغربية للبحر المتوسط؟ ودون

---

(1) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 78، 79.
(2) - البكري: جغرافية الأندلس...، ص.112؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 350، 351.
(3) - نفسه: ص. 351.
(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 80.
(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 103، 104؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب.. قسم المغرب...، ص. 109؛ ابن خلدون: كتاب العبر...، القسم الثاني، م 4، ص. 286.
(6) - انظر معلومات عامة حول النورمان في:
ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس... أماكن متعددة؛ ابن حيان: المقتبس...، الحجي، أماكن متعددة؛ البكري: جغرافيا الأندلس...، ص. 110، 114، وما بعدها؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ج 3، أماكن متعددة.

الخوض في تفاصيل قد تبعدنا عن الموضوع، نكتفي بالقول إن الهجرات النورمانية قد كتب عنها الكثير منذ بداية القرن العشرين، مع التركيز على الجوانب الحدثية السياسية والعسكرية. ورغم أن جل الأبحاث الأوربية المعاصرة التقليدية اكتفت بسرد الأحداث السياسية والعسكرية لقبائل النورمان، فإن قسماً من الباحثين حاول إعادة قراءة تاريخ تلك المجموعات القبلية من زوايا إثنلوجية وأنتربولوجية مفيدة[1]. في حين ظلت أغلب الدراسات العربية المعاصرة[2] أسيرة التصورات التي طغت على المصادر المختلفة التي ألفت خلال العصر الوسيط. وبالتمعن قليلاً نلاحظ أن النورمان من القبائل الأوربية التي اقترنت حياتها بالبحار معيشة وركوبا، حتى أنهم نعتوا عن حق "بدو البحر"[3]. إن ملازمة هؤلاء للبحر معناه الخبرة والممارسة اليومية في ركوبه وثقافته. فإذا لم تتمكن نتائج البحث الأركيولوجي البحري، حتى الآن، من التدقيق في إبراز طبيعة المراكب والسفن التي صنعوها لركوب البحار والأنهار، فنعتقد أنهم من الزاوية الحضارية اكتسبوا تقنيات هامة في مجال صناعة المراكب التي وظفوها بالقوة، إن اقتضى الحال، للبحث عن أرزاقهم. فقوة النورمان بالأسطول والتقنيات، لم تدفع بالمسلمين في الأندلس منذ عهد الإمارة، إلى محاولة صناعة الأسطول والمراكب لمواجهتهم فحسب، بل اضطروا في فترة من الفترات إلى تقليد أسطولهم وصناعة مراكب تشبه مراكبهم حتى يتسنى لهم مواجهتهم بنجاح. وهذا ما حدث حين أمر الخليفة الحكم الثاني سنة 355 هـ « (...) ابن فطيس بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب فيها على هيئة مراكب المجوس أهلكهم الله، تأميلا لركوبهم إليها..» [4].

---

(1) - انظر مثلا:

DUMÉZIL (G); Heur et Malheur du Guerrier: Aspects mythique de la fonction guerrière chez les Indo. Europeens, Paris, Flammarion, 1985.

GODELIER (M); L'idéal et le materiel. Pensée, économies, sociétés, Paris, Fayard, 1984.

JOHSUA (I); La Face cachée du Moyen Age, Paris, la Brèche, 1988.

(2) - انظر مثلا:

عاشور (سعيد عبد الفتاح): تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1972؛ العريني (الباز السيد): تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1968.

EL HAJJI ALI (Abderrahman); The Andalusian diplomatic relations with the Viking during the Umayyad period, (138/366 AH) (755/976), Hesperis Tamuda, Vol. VIII, Rabat, 1967, p. 67,105.

(3) - العروي (ع): مجمل تاريخ المغرب، ج 2، ص. 96.

(4) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 239.

إن محاولة تقليد أسطول النورمان بيّن إلى حد كبير أهميته وخطورته بالنسبة للأندلس. لكن نبادر إلى القول إنه لا ينبغي المغالاة في جعل العامل الخارجي (النورمان) هو الدافع أو المحدد الأساسي الذي دفع بسلطة الخلافة إلى الاهتمام ببنيات الأسطول. فهناك قضايا أخرى داخلية لا تقل أهمية، مرتبطة بالبنيات الاقتصادية والعسكرية والسياسية أيضا. فالى جانب خطر النورمان يمكن الحديث عن خطر آخر هدّد الخلافة داخليا ونعني به حركة ابن حفصون. إنها ثورة خطيرة[1] لم تتردد في استغلال مراكز على البحر المتوسط للاتصال بالعدوة المغربية بحثا عن الميرة والتموين. يعكس ابن حيان[2] خطورة حركة ابن حفصون حين أوضح أنها كانت تستخدم المراكب والسفن في الجزيرة الخضراء بحثا عن علاقة بشمال إفريقيا. ولا غرابة أن يقدم الخليفة عبد الرحمن الناصر بنفسه إلى الجزيرة الخضراء مع مطلع القرن الرابع الهجري301هـ/914م، ليطلع عن كثب على خطورة ثورة ابن حفصون. لقد كان "في ساحلها للمارد ابن حفصون وأصحابه عدة من المراكب البحرية يسفّرُونَها إلى أرض العدوة في المير والتجارات، ويقضون بها الحاجات، فيسّيعون بها أعظم التوسعة.. فأخرج الناصر لدين الله الحشم لطلبها وأخذها، وقد كان الفسقة نجوا بها في البحر، فأدخل الجند خلفهم، وقبض عليها، فقيدت بأزمتها إلى ضفة البحر، وأحرق جميعها بين يديه"[3]. لاشك أن سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر التي قطعت الطريق لإمدادات ابن حفصون في البحر المتوسط كانت تهدف كذلك إلى إخضاع المناطق الهامة في شمال إفريقيا وكبح جماح أخطار التشيع الفاطمي بالمهدية. وقد نجح في ذلك لما أمر رجال البحر «التجول في السواحل كلها، وألا تجري في البحر جارية إلا لأهل الطاعة فقط، فملك البحر منذ هذا الوقت وأحكم شانه»[4].

---

(1) - للمزيد من التفاصيل عن حركة ابن حفصون، طبيعتها وأهدافها وصراعاتها مع قرطبة يمكن العودة إلى: ابن حيان: المقتبس...، ج 5، أماكن متعددة؛ ابن عذاري: نفسه، أماكن متعددة.
الطيبي (أمين توفيق): قيام عمر بن حفصون وبنيه ببُبَشْتَر (Bobastro) على الإمارة الأموية بقرطبة، (267 هـ - 315 هـ/880 م – 928 م). في" دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس...، مرجع سابق، ج 1، ص. 120،150؛ بوتشيس القادري: أثر الإقطاع...، مرجع سابق، ص.270 وما بعدها.
(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 87، 88.
(3) - نفسه: ص.87.
(4) - نفسه: ص. 88.

وبعد التغلب على النورمان وحركة عمر بن حفصون اتجه الاهتمام نحو بناء وتوسيع دور صناعة الأسطول الحربي على امتداد السواحل الأندلسية. لقد تغيرت النظرة تجاه الرباطات البحرية في عصر الخلافة كما سلف القول بانتهاج عبد الرحمن الناصر سياسة أكثر واقعية تميزت بنوع من "العصرنة" التي واكبت التطورات التي شهدتها مختلف البنيات في عهد الخلافة.

1 - في الجنوب

أ- المرية: لقد أرست الخلافة دعائم الأسطول التجاري والحربي عبر بناء وتوسيع وتطوير دور الصناعة[1] والإنشاء. وقد كانت مدينة المرية قاعدة ذلك الأسطول خلال الخلافة وبعدها؛ بل يمكن اعتبارها «مقرا للقيادة العامة للأسطول» بتعبير اليوم، لأنها كانت مقر أمراء البحر أو قواد الأساطيل. تتفق المصادر على أن مدينة المرية أكبر دار لصناعة الأساطيل الحربية والتجارية بامتياز، وربما هي الأكبر في الغرب الإسلامي خلال القرن الرابع الهجري (X م). يذكر الحموي[2] أن بالمرية «يكون ترتيب الأسطول الذي للمسلمين ومنها يخرج إلى غزو الإفرنج ». ويؤكد العذري[3] أنها «قسّمت على قسمين فالقسم الواحد فيه المراكب الحربية والآلة والعدة، والقسم الثاني فيه القيسارية». وفي المعنى ذاته يقول ابن غالب[4] :« بالمرية دار الصنعة... استقرت فيها العدة والآلات للسفن ولما يقوم به الأسطول». ويؤكد الرشاطي[5] تألق المرية حتى فترة ما بعد الخلافة، أي إبان الطوائف والمرابطين. لقد بنى الخليفة عبد الرحمن الناصر دار صناعتها سنة 344 هـ. «وهي الآن سنة 527 هـ أعمر دار في الدنيا... فيها من الآلات البحرية والعدد

---

(1) - اشتهرت كلمة "دارالصناعة" أو "دار الإنشاء" حتى أصبحت تستعمل في اللغات الأوربية كالقول: (Darsena) (Atarazana)، (Arsenal): انظر:

VALLVÉ (J.B) ; La Industria en el Andalus, dans Al QANTARA, Fasc 1-2, Madrid, 1980, pp. 209, 238

DOZY (R); ENGELMANN (W.H); Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe, Beyrouth, sec. Edition, 1974.

(2) - الحموي ياقوت: معجم البلدان...،ج 5، ص. 119.

(3) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص.86؛ مجهول : ذكر بلاد الأندلس...، ص.77.

(4) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 283.

(5) - الرشاطي: الأندلس في اقتباس الأنوار...، ص. 59، 60.

الحربية ما لم تجمعه دار قط» (1)مكرر. وأشار الزهري(2) بدوره إلى أن ألمرية« لم يكن في بلاد الأندلس أعظم منها أجفانا وحركة في البحر، وقد انتهت أجفانها، وبلغت المائة، ولم تبلغ مدينة ما بلغتها في هذا الفن». لكن ابن الخطيب(3) رفع من أعداد قطع أسطول المدينة بقوله إن الخليفة الحكم أشرف على شؤون المرية ونظر إلى أسطولها « وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة». وأضاف في وصف المدينة « قلت فمدينة ألمرية؟ قال: ألمرية هنية مرية بحرية، برية أصيلة سرية، معقل الشموخ، والاباية، ومعدن المال وعنصر الجباية، وحبوة الأسطول» (4)، أي قاعدة الأسطول.

يتضح من مختلف الإشارات السالفة الذكر أن ألمرية تعد دار الصناعة النموذجية خلال الخلافة. منها كانت تنطلق أغلب الحملات البحرية سواء ضد المسيحيين شمالا أو ضد شمال إفريقيا(5). ولا غرابة إذا انصرفت جهود الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى العناية بها، يقول ابن حيان في أحداث عام321هـ، إن الناصر كلف أحد قواده الكبار أحمد بن عيسى بن أحمد بن أبي عبدة الوالي الجديد على بجانة وإلبيرة، «وعهد إليه بإصلاح الأسطول المستقر لديه، بدار الصناعة بألمرية، وتهذيبه والزيادة فيه، وإعداد آلاته وجميع ما يحتاج إليه» (6). إن الزيادة في وحدات الأسطول بالمرية كان يقتضي توسيع بنيات المدينة. ذلك ما تؤكده بعض الأبحاث المعاصرة ذات الصبغة الأركيولوجية والطبونيمية(7)

---

(1) - نفسه: ص. 59، 60.

(1) مكرر- يذكر الرشاطي أن الخليفة الناصر بنى دار صناعة المرية عام 344 هـ. ويتناسب ذلك مع ما أورده العذري حين أشار أن الناصر بنى سورها الصخري المنيع عام 343 هـ أما المدينة فقد اتخذ الناس مركزها الأول رباطا قبل الخلافة. (ترصيع الأخبار..، ص. 86). مما يبين عكس ما ذهب إليه فوزي عيسى حين أوضح أن المرية مدينة ساحلية بناها عبد الرحمن الناصر. انظر: رسائل أندلسية...، مصدر سابق، هامش 259.

(2) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.

(3) - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة...، م 1، ص. 479.

(4) - نفسه: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، شبانة (محمد كمال)، الرباط المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977، ص.56.

(5) - **LIROLA DELGADO** (J): El poder naval de Al Andalus en la época del Califato Omeya, Granada, 1993, p. 320 et sv.

لقد نافست دانية المرية في الحملات البحرية خلال عهد مجاهد العامري (انظره لاحقا).

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 232.

(7) - **BAZZANA** (A); **CRESSIER** (P); **GUICHARD** (P); Les châteaux ruraux d'Al Andalus....op. cit, p.107, 108.

ANCIEN ALMANSA (M) ; La fortificación en Al Andalus..., op.cit, p.7, 36. Sobre la función des Husun en el sur de Al Andalus, op. cit.., p. 265 et sv.

التي أفادت في إبراز بعض المواقع والمعالم التاريخية التي تعرضت للتلف من قبل الإنسان والطبيعة في ألمرية[1].

أجرى الباحث L. Torres Balbas[2] دراسات ميدانية بألمرية استنتج منهـا أن الخليفـة عبد الرحمن الناصر أنشأ قصبة المدينة الدفاعية ومسجدها الكبير، ووسع حيها البحـري. تميزت القصبة بكونها تقع في مرتفع ضيق لكنه طويل، مما سمع بتطور عدد السكان طيلة القرن الرابع الهجري خاصة في اتجاه الجهة الغربية للمدينة التي اتسعت حتى شـملت 21 هكتاراً.

ب - مالقة والمنكب والجزيرة الخضراء: لم تهتم الخلافة الأموية بألمرية وحـدها، بل عملت على توسيع وتطوير مراكز أخرى لإيواء الأسطول الحربي. من هذه المراكـز نذكر مالقة التي اعتبرت داراً للأسطول[3]، والمنكب القريب من مدينة غرناطة الذي يعتبر مرفأ السفن بعدته[4]. ثم مركز الجزيرة الخضراء الذي يتمتع بموقع استراتيجي هام علـى البحر المتوسط. لقد سبق القول إن الخليفة عبد الرحمن الناصر انتقل بنفسـه إلـى هـذا المرسى مع مطلع القرن الرابع الهجري (301هـ) لأنه كان يرغب في قطع الطريق على الإمدادات والمؤونة التي كانت تصل عمر بن حفصون من شمال إفريقيا، ومراقبة الخطر الشيعي في شمال إفريقيا. إلى جانب ذلك اعتبرت مدينة الجزيرة الخضراء أقرب نقطة للعـدوة المغربية، و«مرساها أحسن المراسي للجواز» [5]. ولذلك بنى بها الخليفـة عبـد الـرحمن الناصر داراً هائلة لصناعة الأساطيل الحربية[6]. تأكدت أهمية مرسى الجزيرة الخضراء خلال الطوائف والمرابطين من خلال ما تضمنته المصادر من إشارات هامة حول الاتصالات المختلفة التي كانت تُجرى بين أمراء الطوائف خاصة المعتمد بن عباد بإشبيلية والمرابطين في شـخص

---

(1) - سبق الحديث عن الاختلافات أو الخلاف القائم بين اتجاهات البحث التاريخي المعاصر في إسبانيا حول دور الحضارة الإسلامية في شبه جزيرة إيبيريا وأهمية البحث الميداني الأثري الذي ساهم إلى حد كبير في الكشف عن جوانب مادية هامة من تلك الحضارة. انظر، الفصل الأول من الباب الثاني.

(2) - TORRES BALBƑS (L); Ciudades Hispano Musulmanas de nueva fundación..., op, cit, p.781, 803.

(3) - العمري: مسالك الأبصار...، وصف إفريقيا والأندلس...، مصدر سابق، ص. 47.

(4) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار...، ص.54؛ القلقشندي: صبح الأعشى...، ج5، ص.18، 219.

(5) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.

(6) - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 90.

يوسف بن تاشفين. لقد طلب هذا الأخير، بل ألزم المعتمد بن عباد علـى إخـلاء الجزيـرة الخضراء قصد اتخاذها قاعدة أساسية لانطلاق القوات المرابطية نحو الشمال أو العودة إلى العدوة[1].

2 ـ في الغـرب

أ ـ إشبيليــة: ومن الجزيرة الخضراء في اتجاه الغرب اشتهرت مدن ومراكـز متعددة في إيواء أو صناعة الأسطول الحربي كإشبيلية المدينة ذات الموقـع الهـام قبيـل مصب نهر الوادي الكبير، والتي اهتمت بالأسطول منذ عصر الإمارة. وقد سبق القول إنها كانت مستهدفة من قبل الهجمات النورمانية التي لم تكن تجد صعوبات في التوغـل فـي لأندلس عبر مصب الوادي الكبير، ولذلك أمر الأمير عبد الرحمن بن الحكـم بإقامـة دار صناعة بإشبيلية، وأنشأ المراكب واستعد برجال البحر... » [2].

ب ـ شنتمرية الغرب وشلب وقصر أبي دانس: إلى جانب إشـبيلية ذكـرت المصادر مراكز أخرى اعتبرت قواعد هامة للأسطول الحربي في الغرب الأندلسي منها: أكشونبة أو شنتمرية الغرب التي اعتبرت دارا لصناعة الأساطيل أيام المسلمين حسب ابن سعيد[3]، وشلب المركز الذي عرف في مجال بناء السفن[4]، وقصر أبي دانـس[5] الـذي اشتهر بإنشاء الأساطيل الحربية خلال الخلافة، خاصة في عصر المنصور بن أبي عـامر الذي كان يجهز منه الأسطول لقتال المسيحيين وضرب عاصمتهم الدينية شانت ياقاوب.

---

(1) - ابـن بلقيـن: التبـيان...، ص.122 ومـا بعدها؛ مجهـول: الحلل الموشية، ص.38 ومـا بعـدها؛ المراكشي (عبد الواحد): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم حقي (ممدوح)، الدار البيضـاء، د. ت، ص. 203 ومـا بعدها.

(2) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 82.
(3) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.
(4) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 2، هامش 203.
LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., op. cit, P. 316.
LOMBARD (M) ; Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane,VII - XIè siècles, dans : Espaces et réseaux du Haut Moyen Age..., op. cit, p.107, 150.
(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 295.
LIROLA DELGANDO (J) ; op. cit, p. 317.
LOMBARD (M) ; op. cit, p. 123.

3 - في الشرق

أ - دانيـــة ولقنـــت: وفي الجهات الشرقية من الأندلس اشتهرت مدن مثـل لقنت (Alicante) التي هي مدينة عامرة لها «قصبة منيعة عالية جداً في أعلى جبل يصـعد إليه بمشقة، وهي أيضاً مع صغرها تُنشأ بها المراكب السفرية والحراريـق» [1]. وتقـع مدينة دانية على البحر مشهورة[2]. وبها «دار إنشاء السفن... وبها ينشأ أكثرها ومنها يخـرج الأسطول للغزو » [3]، وقد شهدت دانية نشاطاً بحرياً هاماً خلال الطوائـف[4]. وقـد أتـم الحميري[5] كلام الإدريسي بصددها حين أشار إلى أن دانية لها «قصبة منيعـة والسـفن واردة عليها وصادرة عنها، منها يخرج الأسطول إلى الغزو، وبها يُنشأ أكثره لأنهـا دار إنشائه ». وقد سبق القول إن ألمرية كانت مقراً للأسطول الحربي الخلافي، ونافستها دانية في صناعة الأساطيل خاصة في عهد مجاهد العامري[6] الذي أنشأ أسطولاً كبيراً رابط في دانية والجزائر حتّى «غدت دانية في عصره وعصر ولده علي أعظم مركـز للأسـاطيل الأندلسية » [7].

ب - طرطوشـة: وجمعت مدينة طرطوشة ما بين توفير الأخشاب[8] وصـناعة الأسطول في الوقت نفسه. لاحظ الإدريسي[9] أن بها تنشأ «المراكب الكبار مـن خشـب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ». ويبدو أن قرب طرطوشة من مناطق إنتاج الأخشاب دفع بالخلافة إلى تنشيط دار صناعتها منذ النصف الأول من القرن الرابـع الهجري حسب إحدى النقائش الحجرية[10] التي تذكر أن قائد عبد الرحمن الناصر عبد الله ابن كليب بنى بها داراً بحرية لإنشاء السفن والعناية بالأسطول.

---

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 558.
سالم (عبد العزيز)، العبادي (أحمد المختار): تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ج 2، ص.161.

(2) - ابن سعيد: نفسه، ج 2، ص. 401.

(3) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 557.

(4) - VIGUERA (M. J) ; Y OTROS; Los reinos de Taïfas..., op. cit..., pp. 193, 225.

(5) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 232.

(6)- LÉVI-PROVENÇAL (E); L'Espagne musulmane..., op. cit, pp. 154, 155.

(7) - عنان (عبد الله): دول الطوائف منذ قيامها، مرجع سابق، ص. 190.

(8) - ابن غالب: تعليق منتقى...، ص. 285، 286.

(9) - الإدريسي: نفسه، ص. 555.

(10)- LÉVI-PROVENÇAL (E) ; Inscriptions arabes..., op. cit, p. 83.
ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس...، ص. 100.

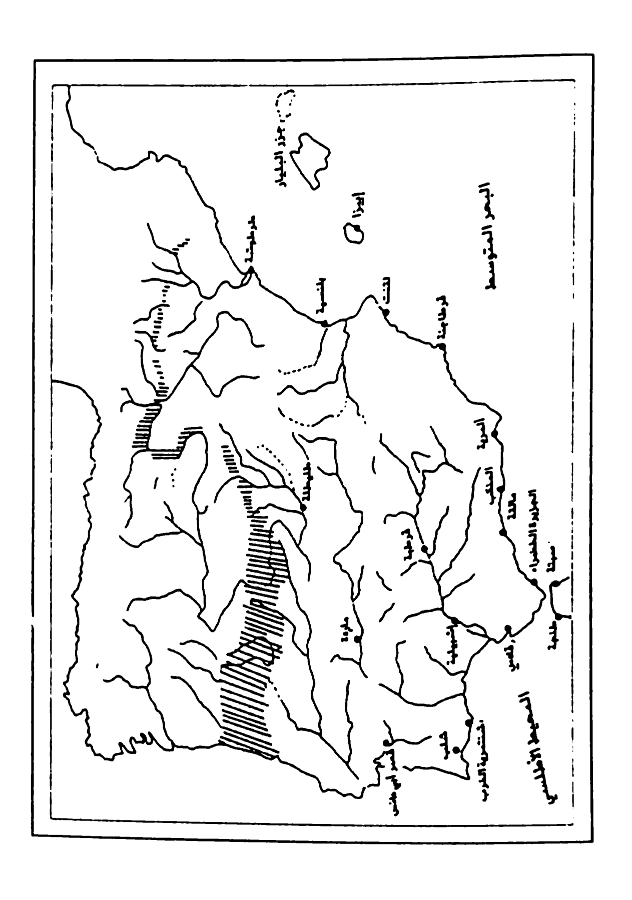
4 - في الجزر وعلى الأنهار الكبرى

أ - الجـزر: إلى جانب المدن والمراكز السابقة الذكر اشتهرت بعض الجزر والأنهار في صناعة الأساطيل، مثل الجزائر الشرقية[1] التي عرفت على غرار دانية خاصـــة فـــي أيـــام المجاهد العامري، وجزيرتي ميورقة ومنورقة[2]. لقد نشطت هذه الجزر خاصة فـــي الفتـــرات اللاحقة للطوائف، أي أيام المرابطين والموحدين الذين أهاب أسطولهم الأوربيين لمدة[3].

ب - الأنـــهـــار: لقد لعبت الأنهار الأندلسية دوراً لا يُستهان به في بنـــاء الأســـطول الحربي، أو على الأقل إيوائه وإعداده خلال الحملات العسكرية. وقـــد تصـــدت الأنهـــار القريبة من السواحل لهذا الدور، كما هو الشأن في الوادي الكبير بجهة إشبيلية[4]؛ ونهـــر قرطبة الذي كان محطة لإقامة وتجهيز السفن الحربية كما يتضح من كلام ابن عذاري[5]، في أحداث سنة 355 هـــ لما «أمر الحكم لابن فطيس بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب فيها». وفي جهات الشمال تميزت أنهار ذات مواقع هامة كالتـــاج[6]، وإيـــره[7] ودويره[8]، وتلك القريبة من المسيحيين في محور لاردة طرطوشة[9].

---

(1) - ابن خلدون: كتاب العبر...، ق 2، م 4، ص. 353.
(2) - الحميري: الروض المعطار...، ص. 567.
(3) - نفسه: ص. 567.
(4) - LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., op. cit, p. 319.
الطاهري (أ): عامة إشبيلية...،ج 1، ص. 325 وما بعدها.
(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص.239.
(6) - LÉVI-PROVENÇAL (E); L'Espagne musulmane..., p. 155.
(7) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس...، ص. 285، 286.
(8) - BASSOLS (Sergi); Una lnea de Torres viga musulmanas..., op. cit et sv., p. 137.
(9) - نفسه: ص. 137 وما بعدها.


جزر البليار
ايبزا
البحر المتوسط
طرطوشة
بلنسية
لقنت
قرطاجنة
المرية
مالقة
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
طليطلة
قرطبة
ماردة
المحيط الأطلسي

لم تكتف الخلافة الأموية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري بإنشاء دور صـناعة الأساطيل الحربية على طول السواحل الأندلسية، بل تعدت المجال الأندلسي نظراً لنفوذها وقوتها، وحاولت إخضاع مراكز أخرى هامة في شمال إفريقيا خاصة في العدوة المغربية. لكن من الملاحظ أنها لم تهتم إلا بمراسي شمال المغرب المتوسطية والأطلسـية، وذلـك لاعتبارات أساسية مرتبطة بقرب العدوة من الأندلس أولا ثم تأمين المجال القريـب منهـا ودَرْء كل الأخطار التي يمكن أن تواجهها من جهاتها الجنوبية وعلـى رأسـها الخطـر الشيعي الذي كان يهدد قوتها ونفوذها داخلياً وخارجياً. وهكذا تعاظم شـأن الخليفـة عبـد الرحمن الناصر لما ملك البحر بعدوتيه[1]. لقد كان الهدف هو ربط الجزيـرة الخضـراء أقصى نقطة في جنوب الأندلس، «وأحسن المراسي للجواز» [2]، بأقصى شمال العدوة أي بسبتة وطنجة. انطلاقا من هذه الاعتبارات أغزى الناصر سبتة سنة 319 هـ[3]/ 931م، وأخضع مدينة طنجة عام 323 هـ/935 م، ومليلية عام 314 هـ/927م، وأصيلا عـام 322 هـ/934 م[4]. وهكذا سهل احتلال العدوة بعد اجتياز مرسى الجزيرة الخضراء[5]. اتجهت أنظار الخلافة أيضاً إلى موانئ أخرى كوهران[6]، وبنـزرت وسوسـة[7]، إذ أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أمر مولاه غالب بالتوجه في أسطول مهم إلى إفريقيـة عـام 345 هـ/ 956م. وقد وصل هذا الأسطول بالفعل إلى نواحي بنزرت وسوسـة حسـب معلومات ابن عذاري[8]. لقد تابع الخليفة الحكم المستنصر سياسة أبيه الناصر الهادفة إلى

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 289.
(2) - ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب...، ج 1، ص. 320.
(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 312.
(4) - LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., op. cit, p. 197.
فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص. 148 وما بعدها.
(5) - ابن عذاري: البيان...،ج 2، ص.205.
LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 197.
HERNANDEZ CRUZ (Miguel); El Islam..., p. 359.
(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 306.
(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 221؛ فلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية...،ص.176.
(8) - ابن عذاري: نفسه، ص. 221.

إخضاع العدوة المغربية. وانتهج الحاجب المنصور بن أبي عامر السياسة ذاتها محاولا الإبقاء على دور الصناعة وقطع الأسطول الخلافي في تلك المناطق[1]. لكن بسقوط الخلافة انهار نفوذها داخليا وخارجيا، وتقلص دور الأسطول الحربي بل جُمِّدت دور الصناعة والإنشاء، وذلك تبعا للصراعات وتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية التي شهدتها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري (الطوائف). فإذا كان الأسطول الحربي قويا بقوة دور الصناعة خلال عصر الخلافة وذلك بشهادة أعداء الخلافة أنفسهم[2]، بحيث كان أسطول الخلافة يجول مياه المتوسط شرقا وغربا ويفرض غلبته فيها، فقد فقد قوته وتقلص نفوذه لأن الدويلات الطائفية خاصة الساحلية منها، اكتفت، في أحسن الأحوال بارث الخلافة في هذا المجال. ونعني بذلك أن قوة الأسطول ظلت نسبيا بيد إشبيلية بني عباد[3]، وألمرية بني صمادح[4]، ودانية والجزر الشرقية عهد مجاهد العامري[5]. لاشك أن عدم قدرة دول الطوائف على تطوير الأسطول الحربي وتوسيع قواعده، وعدم تمكن المرابطين بدورهم، وهم القادمون من الجنوب أي الصحراء من تطوير الأسطول الأندلسي بدورهم نظرا لانشغالاتهم المتعددة؛ قد جعل المنافسة ورد الفعل المسيحي في البحار قويين[6].

ونشير في هذا الصدد إلى أن ضعف الأسطول الحربي الأندلسي بعد سقوط الخلافة، لا يعزى إلى التشرذم السياسي والصراعات الطائفية وحدها، وإنما يمكن القول- فيما نرى- إن القرن الخامس الهجري (XI م) قد شهد تحولات كبرى وعميقة في أطراف العالم الإسلامي برمته وخاصة في أوربا الفيودالية المتوسطية التي انقلبت الأوضاع لصالحها في ميادين متعددة: الاقتصادية والبشرية والبحرية. لقد استفاقت من سلبياتها المتعددة وصارت تبحث عن النفوذ والغلبة والسيادة في المجال الخارجي كما كان الأمر

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E): L'Espagne musulmane..., p. 155.

(2) - النعمان: كتاب المجالس والمسايرات...، مصدر سابق، ص. 164.

(3) - VIGUERA (M. J) ; Y OTROS; Los reinos de Taïfas..., op. cit..., p.196.

الطاهري (أ): عامة إشبيلية...، ج 1، ص. 325 وما بعدها.

(4) - VIGUERA (M. J) ; op. cit..., p. 196.

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 3، ص. 155، 156.

(6) SENAC (Ph): Musulmans et Sarrasins dans le sud de la Gaule du VIIIè à XIè siècle, Paris, Le Sycomore, 1980, p.80.

ارشيالد (ل): القوى البحرية والتجارية...، مرجع سابق، ص. 314 وما بعدها.

بالنسبة للخلافة لما كانت في أوجها خلال منتصف القرن الرابع الهجري[1]. إن التطورات الاقتصادية والبشرية والعسكرية[2] التي عرفتها أوربا منذ مطلع القرن الخامس الهجري (XI م)، وُظّف جزء منها في العالم الخارجي كما يتجلى في الحروب الصليبية المعروفة ضد المشرق، وفي حركة "إعادة التعمير"، التي توغلت بواسطتها أوربا في العمق الأندلسي.

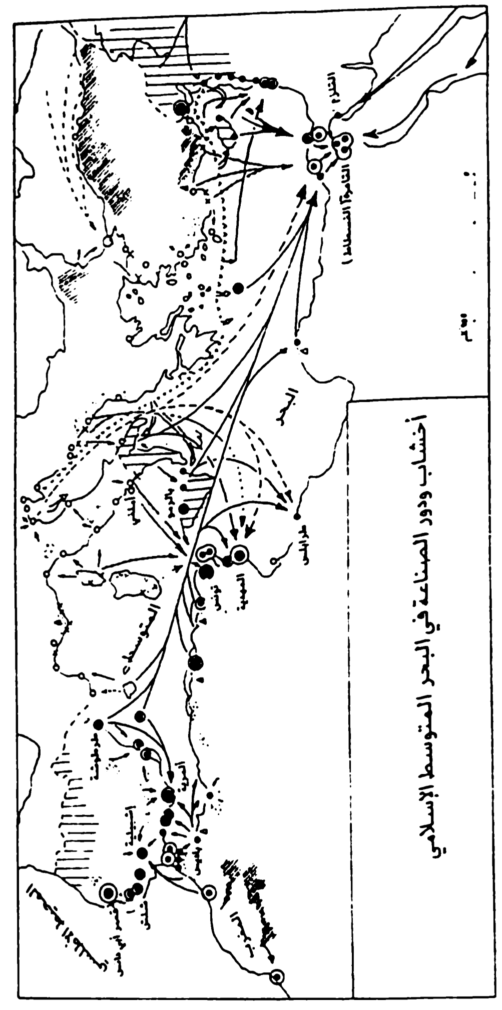
---

(1) - نشير في هذا الصدد إلى أن قوة الأسطول الحربي في عهد الخلافة قد تزامن مع تطورات مهمة شهدها القرن الرابع الهجري في الأندلس في المجالات الاقتصادية والبشرية والإدارية والفلاحية. انطلاقا من ذلك نقول، بدون تردد، إن الأندلس قد سبقت أوربا الفيودالية في العديد من المجالات وليس العكس، كما يتبادر إلى العديد من الأذهان.انظر بعض التفاصيل في:

حناوي (محمد): الأدوات الفلاحية الأندلسية...، مرجع سابق، ص. 116، 117.

(2) - كل الدراسات والأبحاث المعاصرة خاصة المنوغرافية منها والتي أنجزت في المدرسة التاريخية الأوربية، تؤكد تطور أوربا الفيودالية في ميادين مختلفة منذ بداية القرن الخامس الهجري. انظر مثلا:

DUBY (G) ; Guerriers et paysans..., op. cit, p. 180 et sv.
FOSSIER (R) ; Enfance de l'Europe..., op. cit, T. 2, p. 620 et sv.
CONTAMINE (Ph) ; L'économie médiévale..., op. cit, p. 141 et sv.
BOIS (G) ; La mutation de l'an mil..., op. cit, p. 151 et sv.
ROUX (Simone); Le monde des villes au Moyen Age, XI-XVè siècle, Paris, Hachette, 1994, p. 93.



المصدر : LOMBARD (M) : « ARSENAUX ET BOIS DE MARINE DANS LA MEDITERRANEE. VII-XI SIECLE »

ب - مــواد صــناعــة الأسطـــول: كيف تمكنت الخلافة الأموية بقرطبة من بناء الأسطول وتوسيع قواعده. وما هي الإمكانيات والوسائل التي استغلتها من أجل توفير أسطول تجاري وحربي ساهم في دعم سلطتها ونفوذها؟

لقد ســبق القول إن الأندلس عرفــت خلال القرن الرابع الهجري استقراراً سياســياً وانتعاشاً اقتصادياً هاماً، استغلته قرطبة وعملت على تطوير بنيات صناعية فــي ميــادين متعددة. ودون الدخول في تفاصيل التطورات المختلفة التي شهدتها الأندلس على امتداد القــرن الرابع للهجرة، نكتفي بالقول إن الخلافة الأموية وظفت الموارد الاقتصادية والبشرية والمحليــة لتطوير صناعة أساطيلها التجارية والحربية. ويتضح من خــلال المعلومــات المصــدرية أن الأندلس غنية بالمواد الأولية الطبيعية المرتبطة بالصناعة البحرية كالمعادن والأخشاب. لا غرو فقد توفرت مواد الحديد والأخشاب خاصة الصنوبر، والزفت والقطران والألياف وما إلى ذلــك من المواد التي تُوَظَّف مباشرة في دور صناعة الأساطيل. يؤكد ابن حيان أن الخليفــة الحكــم المستنصر أمر القائد صاحب الشرطة أحمد بن نصر بالتوجه إلى كورة جيان «المشارفة ما كان يتقاضاه محمد بن عبد الملك عاملها من الرعية أهلها عن الخشب والزفت والقطران اللائي كان العهد قد نفذ إليهم بإعداد الأعداد المحدودة لهم منها واحتمالها إلى إشبيلية ثــم إلــى الجزيــرة الخضراء للأساطيل المصنوعة فيها»... [1].

يبدو من كلام ابن حيان أن الأخشاب والزفت والقطران كانت تُفرض على سكان إقليم جيان الذين يتكلفون بنقلها من مواطن إنتاجها إلى حيث تُوظف في صناعة الأساطيل. وهذا ما أشار إليه ابن غالب[2] بقوله إن إقليم جيان مهم في إنتاج الأخشاب التي تُنقل منه لِــتَعُمَّ الأندلس. إلى جانب كورة جيان تزود مدينة طرطوشة وإقليمها دور صــناعة الأســاطيل بالأخشاب الجيدة. ذلك ما عبر عنه ابن غالب[3 مكرر] حين وصف طرطوشة بقولــه«(...)

(1) - ابن حيان: المقتبس..،الحجي، ص.101.
LIBROLA DELGADO (J); El poder naval…, p.297.
VALLVÉ (J.B) ; La Industria en el Andalus…, p. 209, 238.
(2) - ابن غالب: تعليق منتقى من فرحة الأنفس..، ص. 284.
(3) - نفسه: ص. 285، 286.
(3) مكرر - شجر البقس: شجر كالآس ورقا وحبا. يسميه الإسبان (el boj). انظر: لسان العرب، مادة بقس.
VALLV É (J.B) ; La Industria…, p. 221.

لنافت على نهر إبره، وقربت من البحر الثاني الذي ينصب فيه هذا النهر، وهي شرق من بلنسية، وشرق قرطبة... وبها شجر البقس، وخشب الصنوبر». ويوضح الإدريسي[1] أن المراكب الكبار تنشأ بطرطوشة من خشب الجبال المحيطة بها. إنه «خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ومنه تتخذ الصواري والقرى، وخشب الصنوبر الذي بجبال المدينة أحمر صافي البشرة، دسم لا يتغير سريعا، ولا يفعل فيه السوس ما يفعل بغيره»[2] مكرر. ويُنتج الصنوبر في جهات أخرى غير طرطوشة، كما هو الأمر في جهة قلصة التي تعتبر من الحصون المنيعة، تتصل بها «أجبال كثيرة بها شجر الصنوبر الكثير، ويُقطع بها الخشب ويُلقى في الماء ويُحمل إلى دانية وإلى بلنسية في البحر... وتسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن قليبرة، وتفرغ هناك على البحر، فتملأ منها المراكب وتحمل إلى دانية، فتنشأ منها السفن الكبار، والمراكب الصغار، ويُحمل إلى بلنسية منه إن كان عريضا فيصرف في الأبنية والديار»...[3]. وللصنوبر كذلك أهمية كبرى بجزر البليار خاصة في يابسة التي يستغل الجيد منه في بناء الأساطيل[4]. إلى جانب أخشاب الصنوبر الجيدة تذكر المصادر أنواعا أخرى تدخل في صناعة الأسطول التجاري والحربي، كالأرز والبلوط الذي يستعمل كذلك في أغراض أخرى تهم الحياة اليومية كالبناء والنجارة والحرق وغير ذلك.

---

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 555.

(2) - نفسه: ص. 555.

(2) مكرر- الصواري: صاري، صيّر (mât)، وليس السواري (الساري) - كما جاء عند شكيب أرسلان: الحلل السندسية...، ج 1، ص. 107.

الصاري هو الخشبة المعترضة في وسط السفينة، وعليه يوضع الشراع. كان يُصنع في الجزيرة العربية من النخيل أو من شجر جوز الهند. وفي بعض المناطق المغربية يطلق الصّاري أيضاً على عمود أو قضيب من حديد يحدث التوازن في بعض آلات الأوزان. انظر:

أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، يناير 1979، ص. 86.

الكافي (محمد بشير): قاموس المصطلحات البحرية، فرنسي - عربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، مادة (ص)، ص. 45؛ القرى: القرايا (القريّة بتشديد الياء)، هي العود الذي يشد إليه الشراع.

يبدو أن تقنيات الصواري والقرايا والمجاذيف قد تعممت في المشرق والمغرب والأندلس، وكذلك في أوربا. لكن لا ندري بالضبط كيف تعممت وما هي التطورات التي لحقت بها. للمزيد من التفصيل حول الصواري والقرايا انظر: الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط سابق،88 أن 99 ب؛ الجوذري:سيرة الأستاذ جوذر...، مصدر سابق، ص.119.

(3) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 560.

(4) - ابن سعيد (المغربي): رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق الداية (محمد رضوان)، دمشق،1987، ص.229.

إن الحديث عن صناعة الخشب واستخدامه في ميادين متعددة خاصة في الأسطول يقتضي توفر أو إعداد نجارين محترفين يتكلفون بالبناء الدقيق والمضبوط لأجزاء السّفن والمراكب. وتذكر كتب العقود والحسبة الشروط الضرورية التي يلزم توفرها في النّجارين وذلك تلافيا للغش الذي يمكن أن يُسَبّب فيه بعضهم حين مزاولة أعمال النجارة خاصة في مجال الأسطول. ناهيك عن التقاعس أو التكاسل الذي يلتجئ إليه بعضهم من أجل ربح الوقت. يوصي ابن عبدون[1] في هذا الباب المحتسب كي يشدد المراقبة على النشارين للخشب ويأمرهم أن «يحدوا مناشيرهم قبل وقت الشروع في العمل... فإن منهم من يَغُشُّ بأن يجلس لذلك ويُطيل المدة ليستريح ويعمل ثلاثة أيام في شغل يومين». وتحدث الجزيري[2] بدقة متناهية عن الشروط التي يلزم توفرها عند صناعة قارب أو سفينة من حيث المواد وطبيعة الصناعة. ويمكن القول دون خطر المبالغة، إنها شروط تنعدم في وقتنا الحالي، ليس في ميدان صناعة الأسطول فحسب، وإنما في طرق تحرير عقود البيوع والشراء عامة. يقول: "ابتاع فلان من فلان سفينة، وإن شئت قلت قارباً أو حراقا أو دُغَيْصا سفرياً أو زورقا، يذكر إسمه بجميع عدته وآلته التي بجريه وإرسائه، وهي صار وقلاع ورجلان، وإسباطة، وسبعة مقاذيف وثلاثة... حديد وقفة عدة بما فيها من آلة النجارة، وكوب وشعشول وصفو وكذا حصيرا من حلفاء وكذا وكذا... وبجميع حباله، بعد أن وقف المبتاع المذكور على القارب المذكور مجرورا فوق البحر بساحل مدينة كذا.. وقلبه من داخله وخارجه وعرف محمله، ودرع طوله وعرض قاعه وارتفاعه وحداثة إنشائه أو قدم إنشائه، واختبر عوده..» [3]. وأضاف في عقد معاملة آخر في النجارة وصناعة الأسطول: «عامل فلان فلانا النجار أن يُنشئ له قاربا قرليا طوله كذا وكذا ذراعا وعرض وسط قاعه كذا شبرا، وارتفاعه، كذا ذراعا بذراع الإنشاء، تكون قرابيسه وأقفاله وقوسيه من عود البلوط، والوجه من عود الأرز، ويمكن إنشاؤه ونجارته بما يحتاج إليه من المسامير إلى حد الجلفطة وعلى ما أمر النقش وزفت التسبيك، بكذا وكذا دينار قبضها فلان أو قبض منها كذا وبقي كذا... » [4].

---

(1) - ابن عبدون: في آداب الحسبة...، ص.81.
(2) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط 88 أ، 99 أ، 99 ب.
(3) - نفسه: 88 أ.
(4) - نفسه: 99 أ، 99 ب.

إن من شأن تطبيق الشروط التي ذكرها الجزيري في مجال صناعة الأسطول أن تجنب أو على الأقل تقلص النزاعات المحتمل حدوثها في هذا الباب. كما ستعمل على بناء أسطول حربي قوي يصمد في البحر وفي وجه الأعداء.

لاشك أن الصرامة اللازمة في إنجاز أو صناعة قطع الأسطول تطبق أيضا في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي كما يتبيّن من إحدى الرسائل (الوثيقة) التي وجهها أحد الخلفاء العباسيين خلال القرن الرابع الهجري إلى أحد قواد البحر يطلب منه مراقبة المواد التي تدخل في صناعة الأساطيل. تقول الرسالة: « (...) أن يُنظر في صناعة المراكب نظراً تكشف به آلاتها من الخشب والحديد والمَشَاقة، والزفت وغيرها حتى يحكمها، ويجيد بناء المراكب، وتأليفها

وقلفطتها وتركيبها ويستجيد المقاذيف ويتخيَّرها وينتقي الصواري والقلوع، وينتخبها، ويميز النواتية، ويعتمد من له الحذق والمهارة والدربة والحنكة..» [(1) مكرر]. تجدر الإشارة إلى أن توفر الأخشاب المتنوعة كالصنوبر والأرز والبلوط وغيره، في الغابات الأندلسية، سهّل إلى حد كبير عملية استغلالها محلياً في الأساطيل. وقد صدرت كميات منها في فترات محددة إلى شمال إفريقيا[(2)]. وأحيانا حدث العكس، أي أن أخشاب الشمال الإفريقي خاصة أخشاب شمال المغرب (جبال غمارة) كانت تصل إلى الأندلس[(3)]. إن وفرة المواد الأولية في الأندلس، لم يكن يكلف الخلافة الأموية في قرطبة كثيراً. وعلى العكس من ذلك عانى الفاطميون، رغم نفوذهم البحري، من نقص في الأخشاب التي تدخل في صناعة أساطيلهم مما دفعهم إلى استيرادها من أماكن متعددة[(4)]. وقد يلتجئون في

---

(1) - انظر نص الرسالة مفصلا في:

أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 105.

(1) مكرر - المَشَاقة: أنواع من الأثواب أو الكتان تستخدم في أسلحة الأسطول خاصة في إيقاد النيران.

(2) VALLVÉ (J.B) ; La Industria en, El Andalus..., p. 221.

(3) - ابن سعيد المغربي): كتاب الجغرافيا، تحقيق العربي (إسماعيل)، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970، ص. 139.

LOMBARD (N) ; Arsenaux de bois de marine..., op. cit, p. 119.

(4) - عانى الفاطميون من نقص في مادة الخشب في الفترة المشرقية لأن مصر كانت بدورها تعتمد على أخشاب لبنان وسوريا وكريت وصقلية ثم أخشاب المحيط الهندي عبر البحر الأحمر: LOMBARD...op.cit, pp. 132, 133 تحدث لومبار بتحليل مقنع مبيّنا أن الحضارات القديمة استغلت بشكل مكثف غابات الجنوب. وفي عصر القوط عادت الراحة البيولوجية إلى الغابات. لكن مع الفتوحات الإسلامية، وعلى امتداد القرون اللاحقة إلى حدود القرن الخامس الهجري (XI م)، استنزفت الغابات في الحوض الغربي للمتوسط. لقد استغلت الخلافة الأموية أخشاب هضاب السواحل والجزب والغرب الأطلسي، وشرق الأندلس وهضابا قطلونيا وجزر البليار، في الصناعات المختلفة وخاصة في الأساطيل، ثم اتجهت إلى تأمين الأخشاب ولو بالغزو في جزر المتوسط أوّلا مثل سردينيا وكريت وقبرص وكورسيكا ثم إيطاليا وبروفانس أو إفريقية نفسها. لكن هذه الوضعية لم تدم لأن الحاجيات الكثيرة دفعت إلى البحث عن مناطق إنتاج ولو بعيدة كالهند أو التعامل مع العالم الأوربي المسيحي.

LOMBARD (M), Le bois dans la Méditerranée, op. cit, p. 153, 176.

بعض الأحيان إلى الخواص الذين يعملون على توفيرها. يقول أحدهم في هذا الصدد:«(...) ولما أنشئت المراكب الحربية بالمهدية، وأعجز عن تمامها الأطراف التي كمالها بالصواري والقرايا، وما أشبه ذلك، وكانت عند الأستاذ في مخزنه أعواد حسان، فتقرب بها إلى أمير المؤمنين... ووقف مولانا على ما كتب به فضرب إليه الجواب وهو: «لا والله يا جؤذر ما نحب أن نخلي مخزنك من مثل هذا العود، فدعه عندك ذخيرة لنا..»[1]. ولما وصلت إحدى السفن من صقلية تحمل الأخشاب تقرب بها صاحبها إلى المعز لدين الله الفاطمي حين علم أن دار صناعته في حاجة إليها. وقد أجابه الخليفة بالقول:«قد قبلنا منك ما تبرعت به فاكتب إلى نصير بقبضه واستعماله إن شاء الله »[2]. لا شك أن الفاطميين الذين حاولوا منافسة الخلافة بقرطبة في مجال البحار قد عمدوا إلى استيراد المواد الأساسية التي كانت تعوزهم في صناعة الأساطيل. ولا غرابة إن نشط الخواص الذين ساهموا بدورهم في تطوير الأساطيل التجارية والحربية في البحر المتوسط. تفصح بعض وثائق الجنيزة[3]عن ملكية بعض الأغنياء للسفن خاصة السلاطين أوالحكام المحليين أو القضاة أو كبار التجار. في حين لا نكاد نعثر على إشارات لذلك في الأسطول الأندلسي، مما يبين تحكم السلطة المركزية في بنائه وتوجيهه. فالمصادر تتحدث عن الإشراف المباشر لقرطبة على الأسطول عبر قواد الأساطيل (انظر رجال الأسطول). لكن نشير إلى انفراد ابن حيان بذكر بعض الإشارات التي تفيد بمشاركة بعض الخواص في إحدى الحملات البحرية التي نظمها الأسطول الأندلسي من بجانة ألمرية إلى أرض العدوة عام 319هـ/931 م. يقول النص:«أغزى الناصر الأسطول إلى أرض العدوة في أتمّ عِدَّة وعُدَّة وأكمل عتاد وآلة... وغزا فيه من وجوه أهل بجانة وألمرية تطوعا في مراكبهم تسعة رجال... »[4]. يمكن تفسير كلام ابن حيان حول مشاركة الخواص وتطوعهم في حملة الأسطول الخلافي إلى المغرب، بكون المشاركين من وجوه وأعيان إقليم بجانة أي من أغنيائه الذين ربما استطاعوا شراء أو صنع قطع من الأسطول على حسابهم. كما نعلم كذلك أن بجانة ألمرية من المناطق الغنية، بل وإحدى القواعد الكبرى

---

(1) - الجوذري: سيرة الأستاذ جؤذر...، مصدر سابق، ص.119.

(2) - نفسه: ص. 121.

(3) - انظر بعضها في:

GOITEIN (Schelomo. D) ; Le commerce méditerranéen avant les croisades quelques faits et problèmes, Diogène N° 59, Paris, Gallimard, 1967, p.52, 58.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 312، 313.

LIBROLA DELGADO (J); El poder naval..., p.186.

للأسطولين التجاري والحربي في الآن نفسه. ناهيك عن أن هذا التطوع تزامع مع بداية عصر الخلافة (319 هـ)، أي مع مرحلة كانت فيها سلطة قرطبة ما تزال في طور تأسيس نفوذها وتطوير بنياتها في مجالات مختلفة. لقد كانت تتخذ الإجراءات الكفيلة بتوسيع دور إنشاء الأساطيل وإعداد الرجال المتخصصين في ذلك. إذا كانت الأخشاب والمواد الأخرى التي تدخل في صناعة الأساطيل، متوفرة بالأندلس أيام الخلافة والطوائف، وفي مناطق وجهات مختلفة، كما هو الحال في طرطوشة وشلب وقادس وجيان وفي بعض الجزر كالبليار وغيرها؛ فإن نقلها من أماكن إنتاجها إلى أماكن تحويلها وتصنيعها كان يتطلب وسائل وإمكانيات متعددة.

لقد تحدثت المصادر عن أهمية النقل البحري والنهري ودوره في توزيع الأخشاب عبر شبكة تربط ما بين دور صناعة الأساطيل. ويعكس قول الإدريسي هذا الأمر حين تحدث عن حصن قلصة وجباله التي تقطع بها الأخشاب وتلقى في المياه إلى «(...) دانية وإلى بلنسية في البحر، وتسير في النهر من قلصة إلى جزيرة شقر، ومن جزيرة شقر إلى حصن قليرة، وتفرغ هناك على البحر فتملأ منها المراكب وتحمل إلى دانية فتنشأ منها السفن الكبار والمراكب الصغار، ويحمل إلى بلنسية منه إن كان عريضاً فيصرف في الأبنية والديار»[1]. يبدو أن عملية تعويم الأخشاب تتم عبر الأنهار المهمة في الأندلس سواء المتوسطية منها أو الأطلسية، أو النقل بالمراكب بواسطة المساحلة (Cabotage)، وهي ظاهرة تنطلق من مناطق شرق الأندلس نحو دور الصناعة في الجنوب، ومن الغرب نحو إشبيلية بمصب الوادي الكبير. لقد اشتهرت هذه المدينة في مجال الأسطول وغيره حتى قيل إنها حازت البر والبحر[2]. ولعب نهر إيره في نواحي طرطوشة دوراً هاماً في النقل حسب ابن غالب[3]. وقد تقاسمه المسلمون والمسيحيون لفترة، وظل بدون منازع طريقاً للاتصال سلكته السفن المسيحية التي جلبت بدورها الأخشاب من تخوم جزر الأسور إلى حدود مدينة طرطوشة[4]. وإلى جانب إيره نعبت الأنهار الواقعة في المحور

(1) - الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 560.
(2) - ابن غالب: تعليق منتقى...، مصدر سابق، ص. 293؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 208.
(3) - ابن غالب: نفسه، ص. 285.
(4) - AZZANA (A); Guichard (P); SENAC (Ph) ; La frontière dans l'Espagne médiévale.... op.cit. p.58

المشهور بين لاردة وطرطوشة[1] ادوارا هامة في النقل والتواصل. رغم ما قيل حول شبكة الأنهار الأندلسية وأهميتها في نقل وتعويم الأخشاب، وهي، مما لا شك فيه، تقنية غير مكلفة كثيرا، فهي محدودة النشاط والأهمية نظرا لطبيعة أنهار البحر المتوسط عموما.

ولذلك يُستعان أيضا بالنقل البري الذي يعتمد الدّواب بالدرجة الأولى لكن يظل محدوداً أيضا نظرا لطبيعة الأرض الأندلسية[2]. ثم إن الأخشاب كثيرة وثقيلة وربما تحتاج إلى وسائل وتقنيات أرقى. إلى جانب الأخشاب تذكر المصادر مواد أخرى تدخل في صناعة الأساطيل كالحديد والكتان والقطران والزفت وغيرها. فالحديد ينتج في مناطق أندلسية متعددة، وبأنواع مختلفة من الجيد إلى الرديء. وقد يستخرج بالقرب من مناطق إنتاج الأخشاب أو بالقرب من دور الصناعة نفسها، مما يضيف ميزة أخرى للصناعات البحرية. فنجده مثلا في ألمرية وغرناطة وطليطلة وشلطيش[3] وغيرها. بعد تحويل الحديد وتكييفه يُستعمل في أغراض متعددة كتصفيح الدّواب وصناعة الأسلحة[4] وفي النجارة وصناعة الأساطيل. إن استغلال الحديد في أغراض يومية مختلفة دفع بالمصادر خاصة كتب النوازل والحسبة إلى الحديث عن أهميته، بل خصصت له فصولاً كاملة في الموازين والأكيال[5]، تناولت أوزانه وكمياته وجيده ورديئه، وأوصت المحتسب بالتشدد والضرب على أيدي الغشاشين فيه. تحدث السقطي[6] معتمداً على إحصاء دقيق عن كميات الحديد والمسمار التي تدخل في صناعة مركب أو سفينة لكن دون ذكر حجم هذه السفينة. يقول: «ويدخل في كل قطعة من القطع البحرية أربعون رُبعاً من المسمار المنوع من ألف مسمار في الرّبع، وخمسمائة في الربع، ويدخل فيها من مسمار التقريط أربعة عشر ألفا

---

(1) - **BASSOLS** (S); Una Lnea de Torres..., p. 134.

(2) - **LOMBARD** (M) ; Arsenaux et bois de marine..., op. cit, p. 108.

انظر النقل البري وطرق المواصلات في فصل: **خطط وأساليب القتال**، (الباب الأول).

(3) - **الإدريسي**: نزهة المشتاق...، ص. 542.

(4) - انظر الباب الأول فصل الأسلحة.

(5) - **السقطي**: في أداب الحسبة...، ص. 29 وما بعدها؛ **الونشريسي**: المعيار...، ج 5، ص. 260.

(6) - **السقطي**: نفسه، ص. 88.

وزنة كل مائة تسع أواق، ومن التقريط الكبير ألفان إثنان وزن المائة منه أربع وعشرون أوقية ويدخل فيها من البياض ثلاثون ربعاً ومن الكتان تسعة أرباع...»[1].

يظهر أن استعمال الحديد والمسمار في الأسطول عملية عادية ومألوفة في الأندلس والبحر المتوسطي على الخصوص[2]، وذلك عكس ما يحدث في بحار ومحيطات أخرى، حيث لا يصلح مع مياهها استخدام الحديد والمسمار نظراً لعامل الملوحة. يتضح ذلك من خلال نص بالغ الأهمية عند المسعودي[3] مكرر يذكر فيه أنه في «البحر الرومي مما يلي جزيرة إقريطش ألواح المراكب السباح المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد عطبت فتقاذفت بها الأمواج من مياه البحار (الإبحار) وهذا لا يكون إلا في البحر الحبشي لأن مراكب البحر الرومي والعرب كلها ذوات مسامير. ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يُذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها، وطُلِيَت بالشحم والنورة». وفي المعنى نفسه تحدث ابن خلدون[4] بنوع من التفصيل عن التجارة والأخشاب والسفن وأشار إلى الأخشاب التي تلحم بالدَّسائر حين قال: «إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدُّسُر»[5]. استعمل ابن خلدون كلمتي دساتر ودُسُر، واستعملت أيضاً كَدِسَار ودوسر[6]؛ والصواب ربما هو الدُّسر وجمعها دُسُر أي المسمار. وقد ذكرت في القرآن الكريم: {وحملناه على ذات ألواح ودُسر} [7]. وعلى غرار ما ذكره المسعودي حول عدم صمود الحديد والمسمار في سفن ومراكب البحر الحبشي، لملوحته أورد التجيبي[8] السَّبتي معلومات مفيدة وهو يصف بعض السفن المصرية الضعيفة والتي لا تصمد في وجه الرياح والعواصف مُبَيِّناً أن

---

(1) - نفسه: ص. 88.

(2) - الجزيري: المقصد المحمود ..، مخطوط 88 أ.

(3) - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق بيلا (شارل)، بيروت، 1965، ج 1، ص. 193، 194.

(3) مكرر - النورة: مادة تستخرج من الحجر الذي يحرق وينتج منه الكلس. لسان العرب، مادة نور.

(4) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 590.

(5) - نفسه: ص. 590.

(6) - قال الرصافي: الدِّسار بالكسر، المسمار، وقيل المسمار المحدد الطرفين، دوسر وهي كلمة فارسية معناها ذو رأسين، يضم به كل اللوحين، إلى آخر. وهو أيضاً خليط من ليف تشد به ألواح السفينة.
الآلة والأداة ، مرجع سابق. ص. 99.

(7) - الآية 12/ سورة القمر.

(8) - التجيبي (القاسم بن يوسف السبتي): مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق منصور (عبد الحفيظ)، طرابلس، الدار العربية للكتاب، 1975، ص.207 وما بعدها؛ حركات(إ):النشاط الاقتصادي.. ،مرجع سابق، ص. 184.

الواحها تُجمع بمادة القنبار، وهو ليف يُنتج في الهند وتُصنع منه الحبال التي تقاوم ملوحة البحر. أما المركب فيُدهن بدهون بعض الأسماك كالقرش، والشراع مصنوع من شجر المقل، وهو نخل برّي، والصواري تتخذ من قصب الهند أيضاً. وفي المعنى نفسه أشار الباحث أنور عبد العليم[1] اعتماداً على السيرافي أن مادة شحم الحوت كانت تستخدم خلال القرن الرابع الهجري (X م) كطلاء للسفن والمراكب. لا شك أن الدهون السّمكية التي تطلى بها المراكب والسفن يقابلها الزفت والقطران بالنسبة للأندلس. وقد سبق القول إن هذه المواد تنتج في الأندلس بشهادة ابن حيان[2] الذي ذكر أن الخليفة الحكم المستنصر أمر أحد قواده سنة 362 هـ كي ينظر في كميات الزفت والقطران والأخشاب التي تنتج بكورة جيان وتحمل إلى الجزيرة الخضراء وإشبيلية حيث صناعة الأساطيل. إن مادتي الزفت والقطران تلعبان دوراً هاماً في الإخراج النهائي للمراكب والسفن. فبعد إعدادها يقوم البحارة المتخصّصون بطلائها أو جلفطتها[3] كي لا تنضح أو ترشح وتتسرب المياه إليها وقت الإبحار والقتال. كما أن مادتي الزفت والقطران تصبغان اللون الأسود القاتم على المراكب والسفن، ولذلك تنعت عادة بالأغربة أو الغراب لوجه الشبه بينهما. وقد نجد هذا الوصف في النصوص الشعرية التي تواكب الحملات العسكرية البحرية وتصف السفن في حالات الانتصار. يقول ابن هانئ الأندلسي[4] واصفاً سفن المعز لدين الله الفاطمي:

وسُفْنٌ إذا ما خاضت اليَمَّ زاخراً

جلت عن بياض النصر، وهي غرابيبُ

تَشُبُّ لها حمراء، قانٍ أُوَارُهـا

سبوح لها ذيل، على الماء مسحوبُ[5].

---

(1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 84.

(2) - ابن حيان: المقتبس...، الحجي، ص. 101.

(3) - جلفط الجلفاط السفينة والمركب، طلاها بالزفت والقطران وقد ادخلت الكلمة ذات الأصل البزنطي إلى اللغة العربية؛ انظر: ابن منكلى: الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية...، مخطوط، ص. 20؛ المعجم الوسيط، ج 1، مادة جلفط ص.131.

DOZY (R), Supplément aux dictionnaires arabes..., op. cit, T. 1, p. 238.

(4) - ابن هانئ (الأندلسي): ديوان ابن هانئ، تحقيق البستاني (كرم)، بيروت، دار صادر، 1952، ص. 25.

(5) - غرابيب: سود مطلية بالزفت والقطران؛ أوار: دخان ينبعث من المراكب.

خلاصة

يتضح من استعراض المعلومات المصدرية المرتبطة بدور صناعة الأساطيل ومواد صناعتها أن الخلافة الأموية بقرطبة انتهجت سياسة واقعية قائمة على إرساء بنيات اقتصادية وسياسية وعسكرية، اعتُبرت دور صناعة الأسطول الحربي أحد أسس تلك السياسة. لقد زاد الأسطول الحربي من نفوذ وهيبة الخلافة داخليا وخارجيا على امتداد القرن الرابع الهجري. وقد حاولنا فهم الظروف العامة التي دفعت بقرطبة إلى الاهتمام بالأسطول مُبَيِّنِين أهمية وضرورة حماية السواحل الشاسعة التي تحيط بالأندلس، والتي كانت، باستمرار، عرضة للهجمات النورمانية (المجوس). وهكذا رصدنا المادة المصدرية المتنوعة والمرتبطة بإنشاء وتطوير دور الصناعة الأساسية عبر الأندلس مثل المرية المركز الأول للأسطول الخلافي، ومالقة والجزيرة الخضراء القريبة من العدوة والشمال الإفريقي عامة، وإشبيلية، وشلب وقصر أبي دانس، ولقنت وطرطوشة ودانية والجزر الشرقية وغيرها، إضافة إلى بعض الأنهار التي استغلت لتطوير الأسطول الحربي كنهر إبره ودويره والوادي الكبير وغيره. ولاحظنا أن الخلافة الأموية لم تكتف بتطوير وتوسيع دور الصناعة بالأندلس، بل اتجهت أنظارها إلى إخضاع مراسي ومراكز في شمال إفريقيا وخاصة في شمال المغرب كمراسي طنجة وسبتة ومليلية وأصيلا وغيرها، ثم وهران وبنزرت. لقد تبيّن أن الخلافة الأموية كانت تهدف إلى إخضاع شمال إفريقيا القريبة والهامة اقتصاديا وبشريا من جهة، وإلى تطويق أو على الأقل التضييق على أعدائها الشيعة من جهة أخرى. لكن رغم ما سبق أي مواجهة النورمان من الشمال والفاطميين الشيعة من الجنوب لاحظنا أن هذه العوامل والأسباب الخارجية وإن كانت مهمة في تفسير أسباب اهتمام سلطة قرطبة بالأسطول الحربي فهي غير كافية في فهم سياسة الخلافة في مجال الأسطول. لقد وضحنا التحولات الكبرى التي شهدتها الأندلس خلال القرن الرابع الهجري، وفي إطارها أسّست الخلافة بنيات جديدة في مجالات مختلفة، وما دور الصناعة والأساطيل الحربية إلا وجها من وجوهها. أما ما يتعلق بالإمكانيات أو الوسائل التي سخرتها الخلافة في بناء الأسطول، فاتضح أنها استغلت ما توفر في الأندلس أوّلا من غابات وأخشاب إلى جانب المعادن المختلفة كالحديد والنحاس والزفت والقطران وغير

ذلك من المواد التي تنتج محليا. إنها كانت توفر للسلطة عناء البحث عنها بتكلفة خارج الأندلس كما حدث لأعدائها الفاطميين. لقد وظفت الخلافة كل الوسائل الممكنة والمتاحة بما في ذلك اللجوء إلى تقنيات مهمة كالنقل النهري والبري والمساحلة قصد الاستفادة من المواد السالفة الذكر. وبناء على ذلك أسست الخلافة أسطولا حربيا قويا أهابت به القوى الخارجية المسيحية والفاطمية. لكن ضَعُف هذا الأسطول وتراجع بمجرد أفول نجم الخلافة وانهيارها وقيام الطوائف. لقد حاولت بعض الإمارات الطائفية الاحتفاظ أو الحفاظ على بعض القطع من الأسطول كما حدث مع بني عباد بإشبيلية، وبني صمادح بالمرية، ومجاهد العامري وبنيه ببعض الجزر الشرقية ودانية، لكن الانقسامات والصراعات السياسية المختلفة حالت دون متابعة تطوير دور صناعة الأساطيل. ويجب انتظار العصر الموحدي للحديث من جديد عن أهمية وقوة الأسطول الحربي، ليس في الأندلس وحدها، وإنما في مجموع الغرب الإسلامي.

الفصل الثالث

السفن الحربية:
الأنواع والأعداد والأوقات والمسافات

إن دراسة الأسطول الحربي في الغرب الإسلامي، قطعه وأنواعها وحمولاتها والمسافات التي تقطعها من الصعوبة بمكان، لأسباب متعددة، لعل أهمها التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي. ولا غرابة أن يقع العديد من الدارسين المعاصرين في هذا الخلط خاصة بالنسبة لفترة ما قبل القرن السادس للهجرة (XII م).

يذكر ابن عذاري[1] في أحداث غزو طارق بن زياد وجنده للأندلس أن يوليان مساعده ودليله كان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهلها بذلك، ويظنون أن المراكب تختلف بالتجار. إذا كانت المصادر شحيحة أحيانا في الإشارات والمعلومات حول جوانب محددة تهم الأسطول التجاري، فإنها تلتزم الصمت فيما يتعلق بالمعلومات التي ترتبط بالأسطول الحربي الذي كان يُتستَّر عنه ربما لأسباب أمنية بالدرجة الأولى.

تتأكد صعوبة التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي حين نستعرض فيضا من الأسماء والألفاظ والمصطلحات التي تزخر بها المصادر المتنوعة. فلفظ الأسطول[2] نفسه ليس وليد العصر الوسيط الذي نحن بصدده، وإنما هو كلمة يونانية قديمة، ارتبطت به أسماء أخرى كثيرة يصعب حصرها في لائحة محددة.

أ - الأنـــواع: فالمصادر على اختلافها تذكر على سبيل المثال: القوارب والسفن والمراكب، والشواني، والقطائع والبوارج، والأجفان والأغربة، والحراريق، والطرائد وغيرها من الأسماء والألفاظ التي يختلط فيها التجاري والحربي. إن بعض هذه الألفاظ كالسفن والفلك والمراكب قديمة أيضا إذ وردت في أمهات المصادر الإسلامية القديمة. فيكفي العودة إلى الأدب الجاهلي وخاصة نصوصه الشعرية المعروفة للتأكد من ذلك. ناهيك عن ذكرها في القرآن الكريم نفسه في آيات متعددة وفي مناسبات مختلفة. يقول

---

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 6.
(2) - الأسطول كلمة يونانية (STOLOS) وتعني طائفة من السفن.
الرصافي: الآلة والأداة...، ص. 18.

تعالى في السفينة: ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ [1].﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ [2].﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ [3].

ويقول تعالى في الفلك:﴿واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ [4]. ﴿ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره﴾ [5].

تجدر الإشارة إلى أن السفينة ذكرت أيضا في التراث المسيحي القديم لما أمر الله نوحا في الكتاب المقدس أي التوراة أن يصنع سفينة من خشب صمغي طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعا، وعلوها أو ارتفاعها ثلاثون ذراعا[6]. يمكن للدارس تتبع ورصد تطور دلالات ألفاظ الأسطول في كتب التراث الإسلامي والمسيحي منذ القديم نظراً لأهمية وطرافة الموضوع. ومن شأن ذلك أن يُفيد في وضع لائحة مضبوطة ما أمكن لتلك الألفاظ والتطورات التي لحقت بها عبر العصور. وفي انتظار أبحاث مفيدة في هذا الشأن نكتفي بإبراز أهمية وطبيعة قطع الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف.

يمكن للوهلة الأولى، القيام بنوع من التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي[7]، انطلاقاً من الألفاظ المستعملة نفسها، ثمَّ من خلال التدقيق في النصوص التي تصف أجزاء من السفن والقطع، مع العلم أن أغلب المصادر تقف عند الأسماء المعروفة كما سلف

---

(1) - سورة العنكبوت،الأية:14.
(2) - سورة العنكبوت، الأية:70.
(3) - سورة الكهف، الأية:78.
(4) - سورة الكهف، الأية:37.
(5) - سورة إبراهيم، الأية:34.
(6) - انظر: LA BIBLE. IV. 14.
LE ROBERT: Dictionnaire alphabétique et analogique de la Langue française, Paris, 1980, p. 980.
(7) - يبدو أن الأسطول عموماً والحربي خاصة كان مُنظماً بواسطة "ديوان البحر" أو ديوان أشغال البحر بالأندلس، وعادة ما يتكلف به أمير البحر أو قائد البحر.
انظرما يفيد هذا المعنى في: ابن **القوطية**، تاريخ افتتاح الأندلس...،ص.82،83. وللمقارنة مع الفاطميين نذكر أنهم أنشأوا دوراً للبحرأو خزائن البحر، أو ديوان الجهاد أو ديوان العمائر. انظر:**الجوذري**:سيرة الأستاذ جوذر...،ص.102،137.

القول، مثل السفن والمراكب والقوارب[1] في وصفها للأسطول التجاري. وقد تضيف صفات أخرى تمييزا أكثر لقطع ذلك الأسطول مثل "المراكب السفرية"[2]. أما الأسطول الحربي فعادة ما يطلق على قطعه أسماء أخرى مثل الحراريق[3] والأغربة[4] والأجفان[5] والقراقير[6] والشواني[7]، وما إلى ذلك من النعوت المميزة له. ومن المصادر ما يتحدث عن المراكب الحربية[8] أو القطائع البحرية[9] الخ. لاشك أن أنواع وأعداد قطع الأسطول الحربي الأندلسي قد تطورت منذ عصر الإمارة لتبلغ الأوج خلال عصر الخلافة، خاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (300هـ ـ350هـ). يقول ابن حيان[10] في هذا المعنى أن الناصر أغزى الأسطول سنة 319هـ إلى"أرض العدوة في أتم عِدّة وعدة وأكمل عتاد وآلة، وكان أضخم أسطول أجراه ملك وقرّ عليه نظره، وتكاملت قطعه..". وفي عام 321 هـ عيّن الخليفة قائدا جديدا على بجانة وعهد إليه بإصلاح أمور أسطول المرية و"تهذيبه والزيادة فيه وإعداد آلاته"[11].

إن توسيع دور صناعة الأسطول والزيادة في أعداد قطعه وتنويعها يصعب معه ضبط طبيعة تلك القطع وأنواعها وأحجامها دون الاستعانة بمصادر متنوعة وموسوعات أو معاجم متخصصة.

---

(1) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص.81، 98؛ ابن حيان: المقتبس...،ج 5، ص.323،87؛ ابن عذاري: البيان...،ج2، ص.239،103،96،89،87؛ المسعودي: مروج الذهب...،ج 1، ص.194،193،129،124،113؛ الحموي ياقوت: معجم البلدان...،ج5، ص.119؛ الجزيري : المقصد المحمود...، مخطوط88 أ، 99 ب؛ الونشريسي: المعيار... ، ج 8، ص. 309،64.

(2) - الجزيري: نفسه، 88 أ؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ص. 558.

(3) - ابن حيان: نفسه، ص. 366.

(4) - ابن الكردبوس: تتريخ الأندلس...، ص.57؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب...، ص. 364، 368.

(5) - الزهري: كاب الجغرافية...، ص. 101؛ الونشريسي: المعيار...، ج 2، ص. 218.

(6) - الزهري: نفسه، ص. 92.

(7) - العذري:ترصيع الأخبار...، ص.82، 83؛ ابن سعيد : رايات المبرزين...،ص.213؛المقدسي:أحسن التقاسيم...، ص.24، 32.

(8) - ابن الأثير(عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني): الكامل في التاريخ، بيروت، 1966، ج 8، ص. 512، 513.

(9) - ابن بلقين: التبيان...، ص. 113؛ ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة...، ص.136.

(10) - ابن حيان: المقتبس...،ج 5، ص.313،312.

(11) - نفسه: ص. 323.

1 ـ الشواني والأغربة

تتحدث المعلومات المصدرية عن الشواني أو الشينات باعتبارها قطعاً حربية بالدرجة الأولى. يذكر ابن حيان[1] أن ابن يونش ركب البحر "في عشرة مراكب غربية وخمسة شواني تامة الشحنة والعدة يريد بلد إفرنجة". ويشير البكري[2] إلى أن صاحب طرطوشة أوصل سنة 446 هـ، نفراً من الناس في الشواني إلى نربونة. وتحدث العذري[3] عن أهمية الشواني الحربية خلال عصر الخلافة مُبَيِّناً أن محمد بن رماحس غزا إلى إفرنجة، عام 331 هـ، بمعية غالب بن عبد الرحمن وسهل بن أسيد في ثلاثين مركباً حربية وستة شواني. ولم يغفل ابن حوقل[4] الحديث عن الحربيات والشينات التي تجوب بحر الروم. وعاين المقدسي[5] بنفسه حرب الروم في الشواني. ووصف ابن حمديس[6] حرب الشواني مخاطباً الحسن بن علي أحد أمراء بني زيري قائلاً:

أنشأت شواطئيَ طائرة * وبَنَيْتَ على ماء مُدنا

ببروج قتال تحسبها * في شم شواهقها قننا

ترمي ببروج إن ظهرت * لعدو محرقة بطنا

وبنفطٍ أبيض تحسبه * ماءً وبه تذكا السَّكَنا

يبدو أن الشواني تستخدم أكثر في القتال والجهاد[7]. إنها مراكب كبيرة وطويلة تقام عليها أبراج وقلاع للدفاع. كما أنها تجذف بأكثر من مائة مجذاف[8] أو بمائة وأربعين

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 323.
(2) - البكري: جغرافية الأندلس وأوربا...، ص. 98.
(3) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 82، 83.
(4) - ابن حوقل: صورة الأرض...، ص. 117.
(5) - المقدسي: أحسن التقاسيم...، ص. 24، 32.
(6) - ابن حمديس: ديوان ابن حمديس، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، 1960، ص. 513.
(7) - ابن سعيد: رايات المبرزين...، ص. 213؛ ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 610.
(8) - الرفاعي (أنور): النظم الإسلامية، دمشق، دار الفكر، 1973، ص. 161.

مجذافا[1]. ولمقارنة مفيدة قال ابن منكلي[2] في الشواني الفاطمية الغزوانية إنها طرائد مفتوحة من الخلف، وذلك لتسهيل الصعود والنزول منها. ويُعتقد كذلك أن الشواني تعرف أيضا بالأغربة أو الغربان[3] لأنها تشبه الغراب في اللون الأسود الذي تطلى به. وقد استعمل لفظ الأغربة بعموم دار الإسلام. ذكر ابن الكردبوس[4] أن الأندلس عرفت سبعمائة غراب على عهد الحكم بن هشام وابنيه عبد الرحمن ومحمد. وأشار صاحب فيض العُباب[5] وصاحب منطق الطير[6]إلى رواج الأغربة في المغرب خاصة بعد المرابطين. وهو ما أكده ابن زكريا الأندلسي[7]مكرر بقوله "كنت بمدينة إشبيلية وتولعت بالسفر في البحر المحيط، فسافرت فيه مرارا، ثم سافرت في السفن الكبار المسمون بالقلمونية بالعجمية، في هذا البحر، فتلاقينا بإحدى عشر غرابا". ومن المرجح أن تكون كلمة "الغراب"، كلفظ الأسطول نفسه، قديمة وقد تكون ذات أصل قرطاجني[8] انتشرت في العديد من المناطق واستوعبتها لغات كثيرة كالإسبانية تحت إسم (GARAPAS) [9]. وقيل أيضا إن الغراب سفينة شراعية صغيرة من طبقة واحدة، وذات صار أو صاريين، وتستخدم عادة في أغراض مستعجلة[10]. ولذلك يطلق عليها اسم **corvette** و **corveta** أو GURAPA[11].

يُجمع الدارسون أن الأغربة تطلى بمواد كالزفت والقطران مما يزيد من صلابتها

---

(1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص.111.
سالم (عبد العزيز) العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 133.
DUFOURCQ (Charles-Emmanuel); La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Age. Provence-Languedoc Catalogne, Paris, Hachette. 1979, p. 61.

(2) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط ص. 20.

(3) - سالم (عبد العزيز) العبادي (محمد المختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 132.

(4) - ابن الكردبوس: تايخ الأندلس...، ص. 157 ابن أبي دينار: كتاب المؤنس...، ص. 97.

(5) - ابن الحاج: فيض العُباب...، ص. 108.

(6) - ابن أبي حجلة: منطق الطير، مخطوط الخزانة الحسنية، الرباط رقم 1910، أماكن متعددة.

(7) - ابن زكريا (إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي): كتاب في صنعة الأمور الجهادية، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط رقم د 1342 ورقة 150.

(7) مكرر - القلمونية/ قلموني، قلمونة: ذات شكل شبه دائري.
DOZY (R) ; Supplément..., op. cit, T. 2, p. 408.

(8) - حركات (إ): النشاط الاقتصادي...، ص. 185.

(9) - ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة...، هامش ص. 253.

(10) - ابن الكردبوس: نفسه، تعليق هامش ص. 121.

(11) - **LIROLA DELGADO** (J) ; El poder naval..., op.cit, p. 303.
DOZY (R) ; op. cit, T. 2, p. 204, 205.

وتلاحمها وتماسكها على الماء. فهي تطلى بالقار ولها قلوع بيضاء، وهي، بذلك تشبه الغراب[1]، أو ان مقدمتها تشبه إلى حد كبير رأس غراب[2]. ولها أيضاً جناحان بيضاوين تحركها القلع والمجاذيف[3]. يقول فيها ابن الأبار[4]:

يا جـندًا من بنات الـمـــاء * تطفو لما شـب أهل النار تطفئه

تطيرها الريح غربانا بأجنحة ال * حمائم البيض للاشــراك ترزؤه

2 ـ الحراقات

أما الحراريق أو الحراقات[5] فهي نوع من السفن والمراكب المتخصصة في الحروب كما يبدو من إسمها. يقول ابن حيان[6] إن الخليفة عبد الرحمن الناصر غزا الأسطول إلى بلد الفرنجة عام 323 هـ بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة، "وكانت عدة مراكبه أربعين مركبا، عشرين حراقات فيها النّفط، والآلات البحرية، وعشرين فيها الرجالة المقاتلة". ويبدو أن مجموعة من دور الصناعة في الأندلس كانت متخصصة في إنشاء هذا النوع من السفن. يقول العمري[7]: وبالمرية "دار صناعة لإنشاء الحراريق لقتال العدو".وبمدينة مالقة كذلك"دار صناعة لإنشاء الحراريق" [8]. والحراريق"سفن للضرب بالنّفط خفيفة للهجوم في البحرالمتوسط"[9].وذكر الإدريسي[10] في المعنى نفسه أن مدينة لقنت بشرق الأندلس"مع صغرها تنشأ بها المراكب السفرية والحراريق". واضح إذن، مما سلف، أن الحراقات تزود بمجانيق لرمي أو إلقاء النفط

---

(1) ـ سالم (ع) العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 132.
(2) ـ الرفاعي (أنور): النظم الإسلامية...، ص. 162.
(3) ـ المنوني: ورقات عن حضارة المرينيين، ص. 110.
(4) ـ أورده الباحثان سالم والعبادي، المرجع السابق، ص. 132.
(5) ـ يقولون في جمع حراقة: حراريق، والصواب حراقات، قال الخليل هي سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو في البحر.
اللخمي (ابن هشام): المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تحقيق: بيريث لافارو خوسي، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1990، ج 2، ص. 103؛ الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط 88 أ.
(6) ـ ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 366.
(7) ـ العمري: مسالك الأبصار...، (وصف إفريقية والأندلس)...، ص. 46.
(8) ـ نفسه: ص.47.
(9) ـ نفسه: (إفريقيا ناقص مصر)...، ص. 237.
(10) ـ الإدريسي: نزهة المشتاق...، ص. 558.

والنيران[1]. وعادة ما ترسم على شكل صور الحيوانات كالأسد والفيل والعقاب والفرس. وقد عرفت بالأندلس ولدى الأغالبة والفاطميين[2].

3 ـ أنواع أخرى

وتشير المصادر إلى أنواع أخرى من قطع الأسطول الحربي كالأجفان (الجفن). قال الزهري[3] في حديثه عن مدينة ألمرية "وهذه المدينة لم يكن ببلاد الأندلس أعظم منها أجفانا وحركة في البحر، وقد انتهت أجفانها، وبلغت المائة ولم تبلغ مدينة ما بلغتها في هذا الفن". وأضاف صاحب ذكر بلاد الأندلس[4] بصدد الأسطول الأندلسي في عهد الخليفة الحكم المستنصر أن هذا الأخير أمر عام354 هـ، بجعل"الأجفان الغزوانية في جميع سواحله". وتحدث ابن الخطيب[5] عن الأجفان الغزوية أو الغزوانية التي استخدمت في الصراعات التي دارت بين المرابطين وبني صمادح خلال القرن الخامس الهجري. تجدر الملاحظة إلى أن الأجفان قد تأخذ أسماء أخرى ربما حسب المناطق أو حسب طرق صناعتها والمهام التي تقوم بها. ويظهر أيضا أنها من السفن ذات الأحجام الكبرى لأنها كانت في الغالب تحمل الرجال والمؤونة. يرى أحد الدارسين[6] أن **الصَّنْدَلَ** مركب حربي كبير ومسطح يحمل المقاتلين والسلاح والمؤونة. والكلمة لاتينية الأصل يسميها العرب **الشلندي** (شلنديات). ويُطلق عليها في الأندلس إسم الأجفان الغزوية أو الغزوانية. أما **المُسَطَّح** فهي سفينة كبيرة الحجم، تحمل الأسلحة للأسطول وتسمى في الأندلس الحَمَّالة[7]. وقد ذكر ابن حيان[8] بالفعل لفظ الحمالة، لكن دون الوقوف عند دورها أو حجمها. ويبدو أن الحمالة توازي المسطحات في الأسطول الفاطمي وهي مخصصة لحمل السلاح

(1) ـ **المنوني**: ورقات...، ص. 114؛ **حركات**: النشاط الاقتصادي...، ص. 185.
(2) ـ **الرفاعي**: النظم الإسلامية...، ص. 162.
(3) ـ **الزهري**: كتاب جغرافية...، ص. 101.
(4) ـ **مجهول**: ذكر بلاد الأندلس...، ص. 171.
(5) ـ **ابن الخطيب**: أعمال الأعلام...، ص. 192.
(6) ـ **الرفاعي**: النظم الإسلامية...، ص. 161.
(7) ـ **نفسه**: ص. 161.
(8) ـ **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص. 313.

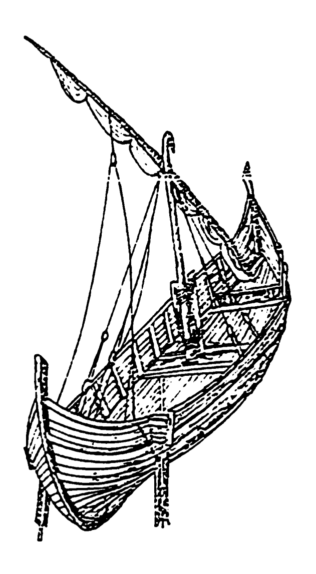
للأسطول خلال المعارك البحرية[1]. أما الشَّلَندي فنوع من قطع الأسطول عُرف كذلك لدى البزنطيين. إنها سفينة على شكل مسطح يأخذ المقاتلون الغزاة أماكنهم على ظهره، ويكون الجذافون في أسفله[2]. ويظهر أيضاً أن الشلندي من المراكب الكبيرة الحجم والمتسعة، مسطحة من أعلاها، وتنقل المؤن والذخائر وتعادل الشونة والحراقة يبلغ طولها 195 قدما، وعرضها 33 قدما وحمولتها 600 شخص[3]. والصَّندل (الشلندي) عُرف أيضاً لدى الفاطميين[4].

إلى جانب هذه الأنواع تشير المعلومات المصدرية إلى استخدام الأندلسيين لسفن أخرى مختلفة ومتنوعة الأحجام خاصة تلك التي تتكلف بمساعدة الأسطول الحربي إبان المعارك. لقد أعد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأسطول عام 319هـ لإخضاع أرض العدوة ورافقته"(...) الحمالة والفتاشة وقوارب الخدمة" [5]مكرر. وتحدث العذري[6] عن الفتاشة والشواني. وأشار ابن الأبار[7] إلى العشاري بقوله وركب تميم "في عشاري تتبعه أربعة زوارق وأكثر مملوءة فاكهة وطعاما". وإلى ذلك تضاف القراقير[8]مكرر والطرائد[9] والبوارج[10] وغيرها.

---

(1) - سالم، العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 136.
(2) - نفسه: ص. 135.
(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية العربية في الأندلس، المورد، م 12 عدد 4، بغداد، 1983، ص. 71، 72.
(4) - الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر...، ص. 98.
(5) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 313.
(5) مكرر- يبدو أن الفتاشة قطعة حربية تستعمل لنقل الإشارات وحراسة السواحل ومداخل الموانئ، وهي توازي الشيطي أي السفينة التي تجذف بثمانين مجذافا. إنها ذات طبيعة استطلاعية تأتي بالأخبار لرؤساء الغربان.
LIROLA DELGADO (J); El poder naval..., op. cit, pp. 302, 303.
المنوني: ورقات...، ص. 110.
(6) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 81، 82.
(7) - ابن الأبار: الحلة السيراء...، ج 1، ص. 297.
(8) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 92.
(8) مكرر - القرقور من السفن الكبرى التي تتكلف بحمل الزاد للأسطول وأصلها إسباني: كاراكا (CARAQUE).
الرفاعي (أ): النظم الإسلامية، ص. 161؛ حركات (إ): النشاط الاقتصادي، ص. 185؛ الكافي (محمد بشير): قاموس المصطلحات البحرية...، ص. 18.
(9) - الطراند/ طريدة: من السفن الصغرى السريعة تستخدم لنقل الفرسان والخيل، وعادة ما تفتح من الخلف ليسهل النزول منها والصعود.
(10) - البوارج (بارجة): سفينة حربية. قال الطبري: "دخل البصرة عشر سفائن بحرية تسمى البوارج". تاريخ الأمم والملوك، بيروت، دار القلم، د. ت، ج 6، ص. 112.

مركب عربي من القرن التاسع الميلادي



المرجع : EL PODER NAVAL P : 301

انطلاقا من الأسماء والألفاظ المتنوعة الواردة في ثنايا المصادر عن قطع الأسطول الحربي، يمكن تأكيد أهمية هذا الأسطول خاصة خلال القرن الرابع الهجري (X م). لقد كان، بلا شك، الأداة الناجعة والفعالة التي استعملتها الخلافة الأموية بقرطبة، إلى جانب الجند البري (جند الحضرة)، لتوسيع نفوذها وتأكيد هيبتها في الأندلس وخارجها. لقد أمكن، من خلال استعراض المادة المصدرية المرتبطة بالأسطول الحربي الأندلسي، التمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي، وذلك عكس ما ادعته العديد من الأبحاث[1] التي تعتقد بصعوبة التمييز في هذا الميدان قبل العصر الموحدي. لقد وقفت المصادر المعاصرة لفترة الخلافة والطوائف عند إشارات متعددة أمكن من خلالها إبراز خصائص ومميزات الأسطول الحربي. ونتفق مع ملاحظة أحد الدارسين[2] حين يقول إن السفينة الحربية تتميز عادة عن التجارية بالطول والسرعة واستعمال المجاذيف القوية بدلا من الأشرعة.

ب - الأعـــــداد: كم كانت أعداد قطع الأسطول الحربي الأندلسي خلال الخلافة والطوائف؟

تجدر الإشارة إلى أن السلطة السياسية الأندلسية قد اهتمت بأعداد قطع الأسطول الحربي، وذلك بشكل موازي لما وسعته وطوّرته من دور صناعة الأساطيل. لقد كان ذلك إحدى ركائز سياستها في مجال الصناعة البحرية. لكن يصعب الخوض في تحديد أعداد وحدات الأسطول الحربي لاعتبارات كثيرة منها أولا اختلاف المصادر بشأنها، وعادة ما تتحدث عن الأعداد بنوع من التضخيم إن لم نقل الانبهار[3] خاصة في المناسبات كالانتصار في معارك معينة، أو احتلال منطقة من المناطق الستراتيجية. وقد يتم الحديث عن أعداد قطع الأسطول الحربي في دار من دور الصناعة دون أخرى. ناهيك عن الخلط أحيانا ما بين الأسطول الحربي والتجاري. قال ابن حيان[4] في تعداد بعض وحدات

---

(1) - **LEVI-PROVENÇAL**(E); Histoire de l'Espagne..., op. cit, T.3, p.109.
DUFOURCQ (Ch. Em); Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane. 1èr congrés d'Histoire et de la civilisation du maghreb, Tunis, 1979,T.1, p. 161,192.

(2) - **LIROLA DELGADO** (J); El poder naval..., op. cit, p.302.

(3) - لاشك أن بعض المصادر ذات الطابع الأدبي التي واكبت أحداث الخلافة والطوائف، كالذخيرة لابن بسام أو الدواوين الشعرية، قد وصفت الأساطيل الحربية الأندلسية في بعض المعارك، لكن بنوع من المبالغة والمغالاة مما يصعب معه تصديق الأوصاف أو الأعداد التي تعتمدها في مجال الأسطول.

(4) - ابن حيان: المقتبس...، مكي، ص.144؛ ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص.89.

الأسطول الحربي أن الأمير عبد الرحمن أغزى سنة 234 هـ"أسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي ميورقة ومينورقة لنقضهم العهد وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين". وفي عام319 هـ وجه الخليفة عبد الرحمن الناصر أسطولا لغزو المغرب. وكان "أضخم أسطول أجراه ملك... وانتهى عدد قطعه إلى مائة وعشرين قطعة مع الحمالة والفتاشة وقوارب الخدمة" [1]. كما خرج الأسطول لمواجهة الفرنجة سنة 323 هـ، بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة، وكانت مراكبه "أربعين مركبا، عشرين حراقات فيها النفط... وعشرين فيها الرجال.."[2]. وفي إطار حديثه عن كورة إلبيرة لم يفت العذري[3] ذكر أعداد وحدات الأسطول التي قادها محمد بن رماحس وهي عشرة مراكب حربية ومركبين واصلين من ألمرية وأربعة شواني وفتّاشيْن. وغزا ابن رماحس ذاته بالأسطول إلى العدوة عام 333 هـ وعدد وحداته "خمسة عشر مركبا حربية وشينين وفتاش"[4]. وأشار الزهري[5] إلى أن مدينة ألمرية قد "انتهت أجفانها وبلغت المائة، ولم تبلغ مدينة ما بلغتها". وذكر ابن خلدون[6] أن عدد قطع الأسطول على عهد عبد الرحمن الناصر بلغ مائتي مركب أو نحوها، وأسطول إفريقية (الفاطمي) كذلك مثله أو قريبا منه[7]. وذكر ابن الخطيب[8] أسطول ألمرية مشيرا إلى أن الحكم بن عبد الرحمن أشرف على شؤون المدينة واهتم بأسطولها، "وعدته يومئذ ثلاثمائة قطعة". وأشار في مكان آخر إلى "مائة وأربعين جفنا غزويا" [9]. ورفع العدد بشكل مبالغ فيه أو على الأقل فيه خلط بين الأسطول الحربي والتجاري، إلى ستمائة قائلا: "بويع الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله سنة 350 هـ (و) ظهرت المجوس على المسلمين في بحر الجوف، فتحرك إلى ألمرية فأوقع بهم وأنشأ الأسطول لغزوهم فكان عدده ستمائة جفن بين غزوي

---

(1) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 312.
(2) - نفسه: ص. 366.
(3) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 81.
(4) - نفسه: ص. 82.
(5) - الزهري: كتاب الجغرافية...، ص. 101.
(6) - المقدمة...، ج 2، ص. 691.
(7) - نفسه: ص. 691.
(8) - ابن الخطيب: الإحاطة...، م 1، ص. 479.
(9) - نفسه: اللمحة البدرية...، ص. 105.

وغيره"[1]. نلاحظ أن ابن الخطيب تحدث عن عصر الحكم المستنصر الذي تجمع المصادرعلى أنه حافظ على الأسطول الحربي الذي انشأ معظمه أبوه عبد الرحمن الناصر. وقد يبدو رأي إبن ابي دينار[2] مقبولا حين ذكر أن الأسطول الأندلسي بلغ سبعمائة غراب في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر. وأشار ابن الكردبوس[3] إلى العدد نفسه أي سبعمائة غراب لكن في عهد الحكم بن هشام وابنيه عبد الرحمن ومحمد. وبين ابن عذاري[4] أن مجاهد العامري "غزا سردانيا في مائة وعشرين قطعة كبار وصغار". وانطلق هذا الأسطول من دانية والجزائر سنة 406هـ/1015م بقيادة أمير البحر أبو خروب[5].

تبيّن مختلف النصوص المصدرية المرتبطة بأعداد قطع الأسطول الحربي أنه من الصعوبة بمكان الارتكان إلى الأعداد التي تقدمها المصادر. إنها، كما سلف الذكر، لا تعدو أن تكون إحصائيات عامة تخص مرحلة تاريخية بعينها أو تقف عند فترات دون غيرها أو عند أمير أو خليفة دون آخر، أو عند وحدات دار صناعة محددة ومشهورة كما هو الحال بالمرية[6]. كما أن المصادر قد تكتفي بإيراد الأعداد انطلاقاً من غزوات بحرية معينة. ولا يخلو ذلك من مبالغات خاصة إذا تعلق الأمر بتمجيد أسطول والحط من قيمة آخر. ناهيك عن صعوبة التمييز أحياناً في الأعداد ما بين القطع التجارية والحربية. ورغم ذلك يمكن للدارس أن يقف عند مختلف تلك النصوص المصدرية المتنوعة ليستشف منها الخصائص العامة التي تميز فترة تاريخية وسلطة سياسية عن أخرى. إن النصوص التي أمكن الاطلاع عليها تكشف بما لا يدع مجالاً للجدال، قوة ونفوذ الخلافة الأموية خلال القرن

---

(1) - **نفسه**: أعمال الأعلام...، ص. 41.
(2) - **ابن أبي دينار**: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص. 97.
(3) - **ابن الكردبوس**: تاريخ الأندلس...، ص. 57.
(4) - **ابن عذاري**: البيان...، ج 3، ص. 116.
(5) - **عنان** (محمد عبد الله): دول الطوائف...، مرجع سابق، ص. 190.
(6) - تحدثت بعض الأبحاث المعاصرة بمبالغة زائدة عن أعداد وحدات أسطول المرية وحدها بالقول أنها فاقت 60 قطعة. انظر
مثلا: **طويل** (مريم قاسم): مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح 443 هـ/ 484 هـ بيروت، الدار البيضاء، 1994، ص.13؛
أبو الفضل (محمد أحمد): تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1996، ص. 66 وما بعدها.

الرابع الهجري في مجال صناعة الأسطول الحربي وتطوير أعداد وحداته تبعا لتشييد وتطوير البنية التحتية البحرية. (دور الصناعة).

ولاشك أن الوضعية قد اختلفت بل ضعفت، ولو بشكل تدريجي خلال القرن الخامس الهجري، نظراً لعدم قدرة الدول الطائفية (بعضها على الأقل)، على الحفاظ على المكاسب التي تحققت في عصر الخلافة في مجال الأسطول الحربي وغيره.

ج ـ الأوقـات والمسـافـات

إذا سبق القول بصعوبة تحليل طبيعة قطع الأسطول الحربي، فما عسى قولنا في أحجامها وحمولاتها والمسافات التي تقطعها، وفي أي وقت من أوقات السنة أو اليوم أو الليل يختار قواد الأسطول شن الهجمات على الأعداء؟

إن هذا الموضوع، المغامرة، ما يزال يكتنفه الغموض وذلك لأسباب كثيرة منها ما هو مرتبط بجوانبه التقنية والإحصائية، ومنها ما يتعلق به كموضوع عسكري لم ينل حظه من البحث أسوة بالأسطول التجاري.

تجدر الإشارة إلى أن التأليف في علوم الفلك والنجوم والأنواء والطب والجغرافيا والرحلات وغيرها، قد ازدهر ونشط فيه العلماء العرب والمسلمون عبر القدامى، ونقلوا نتائج تلك العلوم عبر الأندلس[1] إلى أوربا المسيحية التي استفادت منها في ميادين متعددة. ودون الدخول في تفاصيل متشعبة نكتفي بالقول إن كتب المسالك والمسالك كالتي وضعها المقدسي والأصخري والبكري وغيرهم، وكتب الأنواء والفلك والنجوم[2]، وكتب الجغرافية والرحلات كالتي ألفها الرازي وابن حوقل والمسعودي وياقوت الحموي والزهري وابن سعيد والإدريسي وغيرهم، قد أفادت كثيرا في الأوقات والمسافات كذكر الفصول (الصوائف

---

(1) ـ كان يُعتقد إلى فترة قريبة أن الاتصالات الحضارية ما بين الإسلام والمسيحية قد تمت في المشرق خلال الحروب الصليبية، أي الاتصال الحضاري عبر الصراعات العسكرية. لكن تمّ تجاوز هذا الاعتقاد من قبل الأوربيين أنفسهم والذين اعترفوا أن الأندلس وصقلية كانتا القناة الأساسية التي انتقلت عبرها العديد من العلوم والتقنيات إلى أوربا. انظر مثلا:
SOURNIA (J. Ch); Medecins arabes anciens..., op. cit, p. 13 et sv.
BONNASSIE (P); Les 50 mots clefs de l'histoire médiévale..., p. 63 et sv.
GUICHARD (P); L'Espagne et la sicile musulmanes aux XI-XIIè siècles, Presses Universitaires de Lyon, 1990.

(2) ـ انظر لائحتها مفصلة في:
FORCADA NOGUÈS (M); Mqât en los Calendarios andalusíes. <u>ALQANTARA</u>, Vol. XI,Fasc.1,1990, p.59, 69.

والشواني)، والرياح والليل والنهار، والمسافات كالمراحل والفراسخ والميل إلخ. لكن كما سبق القول، يلاحظ أن جل معلومات هذه المصادر تهم الأساطيل التجارية والرحلات البرية. ومع ذلك يمكن استغلال وتوظيف بعضها في الأسطول الحربي وإن في سبيل التنبيه إلى الموضوع وأهميته.

1 ـ الأوقـات

تُجمع المصادر[1] على اختلافها بضرورة تجنب السفر والخوض في البحار في فصل الشتاء ووقت هبوب الرياح القوية، لأن من شان ذلك أن يكون كالعدو يحطم السفن. إن الأصل في قتال البحر هو معرفة الرياح واتجاهها وقوتها واعتدالها[2]. ذكر عريب بن سعد[3] بأن الرياح تكون شديدة خلال شهر مارس ولذلك لا يدخل البحر خلاله. وفي شهر أبريل تهب ريح شرقي يخاف منها على المراكب أن تعطب في البحر. أما نونبر ففيه، على مذهب ركاب البحر، يكون نوء حنديس فينغلق البحر وترتفع السفن[4].

نقد بدأنا الحديث في باب الأسطول بإيراد نص بالغ الدلالة من مراسلة جرت بين عمر بن الخطاب وواليه عمرو بن العاص في مصر، يكشف عن انعدام تجربة المسلمين في البحار مع بداية الفتوحات وتخوفهم من أهوال تلك البحار. ويظهر أن ذلك التخوف ظل قائماً مع فتح الأندلس وإلى عهد الإمارة ذاتها كما يتبين من قرائن متعددة منها: خطاب وجهه موسى بن نصير إلى طارق بن زياد يوصيه فيه بعدم السير بالسفن إذا لم يستعن برجل يعرف شهور السريانيين أو شهور العجم."شهر يُقال له بالعجمية مارس فإن كان يوم أحدٍ وعشرين منه فاشحن على بركة الله كما أمرتك" [5].

---

(1) - **محمد بن عمر**: أكرية السُفن والنزاع بين أهلها...، مصدر سابق.. أماكن متعددة؛ **الجزيري**: المقصد المحمود...، مخطوط 95 ب؛ **مجهول**: رسالة في أوقات السنة، تحقيق: نافارو انخيلس، غرناطة، معهد الدراسات العربية، 1990؛ **مجهول**: كتاب الجهاد...، مخطوط 78 ب؛ **عريب بن سعد**: تقويم قرطبة...، ص. 55، 69، 167؛ **ابن قتيبة** (أبو محمد عبد الله بن مسلم): كتاب الإمامة والسياسة، القاهرة، مطبعة الفتوح الأدبية، د. ت، ص. 59؛ **أبو حامد الغرناطي**: المُعرب عن بعض عجائب المغرب، تحقيق وترجمة: **INGRID Bejarno**، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991، ص. 11، 13.

(2) - **محمد بن عمر**: أكرية السفن...، فصل الرياح والشتاء؛ **الجزيري**: المقصد المحمود...، 95 ب؛ **أبو حامد الغرناطي**: المعرب عن بعض عجائب...، ص. 13.

(3) - **عريب بن سعد**: تقويم قرطبة...، ص. 56، 69.

(4) - **نفسه**: ص. 69، 167.

(5) - **ابن قتيبة**: كتاب الإمامة والسياسة...، ص. 59.

وتذكر المعلومات المصدرية[1] أن الأمير محمد أمر سنة 266 هـ بإنشاء المراكب بنهر قرطبة ليدخل بها إلى البحر المحيط ويأتي جليقية من ورائها، ولما تمّ إنشاؤها وجرت في البحر أصابها الرياح وانقطعت. لا شك أن فصل الشتاء ووقت هبوب الرياح الهوجاء والعواصف البحرية قد شكل عائقا كبيرا بل هو بمثابة عدو أساسي للأساطيل التجارية والحربية على حد سواء. ولا غرابة أن تنشغل المصادر بذلك وتعكسه بامتياز. يوصي ابن حيان[2] بانتظار الأوقات المناسبة جدا لركوب البحر أثناء الغزو، يقول بصدد الأسطول الذي جرّده الخليفة عبد الرحمن الناصر لغزو المغرب أنه يجب النظر "في إلحاق الحشود بالجنود لميقات معلوم ووقت محدود، وأن يستكثر من جميع المراكب... لتجهيز الأساطيل المؤيدة في وقت إجازتها، وعند إمكان البحر لها السير"[3].

ويستفاد من كلام ابن بسام[4] ما سبق تأكيده في أوقات الإبحار حين تحدث عن سفينة ضخمة بناها المعتمد بن عباد وأهداها لاحقا لسلطان المرابطين. و"ظهر كأنما بناها على الماء صرحا ممردا وأخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا ووجهها على مدينة طنجة". وتزخر كتب الحسبة[5] والنوازل بفيض من المعلومات المرتبطة بأوقات الشحن والإبحار. ومن مؤلفيها من يشير صراحة إلى ضرورة تدخل القاضي أو المحتسب أو صاحب المدينة قصد حماية المراسي والموانئ ومراقبة النواتية في الإشحان خاصة أوقات الرياح والعواصف. وأكثر من ذلك أمر بعض الفقهاء بالتدخل قصد فسخ عقود ركوب البحر في فصل الشتاء للغزو وخوفا من الغرق والرياح[6]. وقد أوصى ابن سيناء[7] في إطار قانونه الطبي بضرورة مراعاة أوقات الأكل والشراب والنوم والحركة وتدبير الفصول والسفر سواء في البر أو البحر أو في القر والحر. وقال في شؤون البحر على شكل أبيات شعرية

---

(1) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 96؛ ابن خلدون: كتاب العبر...، مصدر سابق، م 4، ص. 286.
(2) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 306.
(3) - نفسه: ص. 306.
(4) - ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة...، ق 2، م2،ص. 262؛ مجهول : مفاخر البربر (نسخة ل. بروفنسال)، ص. 34. (نسخة محمد يعلى)، ص. 198.
(5) - ابن سهل: في شؤون الحسبة...، مصدر سابق، ص.96، 97؛ ابن الإخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة...، مصدر سابق، ج 1، أماكن متعددة؛ الونشريسي: المعيار...، ج 8، ص. 64، 300، 306، 309، 310، 311.
(6) - الجزيري: المقصد المحمود...، مخطوط 95 أ، 95 ب.
(7) - SOURNIA (J. Ch); Médecins arabes..., op. cit, p. 216

دالة:

من كان منهم راكبا في البحر
أو كـــان يوما ذاهبا في البر
إمنعهم الركـــــوب في الشتاء
في البحر والمسير في الأنواء[1].

وفي المعنى نفسه صدرت وثيقة صارمة من أحد خلفاء بني العباس خلال القرن الرابع للهجرة إلى أحد المسؤولين عن الأسطول يأمره بالإشراف المباشر على قطع الأسطول خاصة "ما كان منها في الموانئ ويرفعها من البحر إلى الشاطئ في المشاتي، وهيج الرياح المانعة من الركوب فيها"[2].

يتضح إذن إجماع المصادر حول ضرورة تفادي إبحار الأسطول التجاري والعسكري خلال فصل الشتاء الذي يعتبر بدوره عدوا للأسطول وللعاملين فيه[3]. ولذلك قال بروديل[4] بأن الملاحة كالفلاحة لها فصول تصلح وأخرى لا تصلح والرياح تتحكم إلى حد بعيد في أنشطة الأساطيل.

2 ـ المسافات

إذا اتفقت المصادر، كما سلف القول، على الأوقات والفصول التي تصلح لنشاط وتحرك الأسطول الحربي، فماذا نقول بصدد المسافات التي تقطعها وحدات الأسطول الحربي؟

يمكن القول بشح المادة المصدرية إلى حد السكوت عن موضوع المسافات في الأساطيل الحربية. إن الإشارات المتوفرة لا تعدو أن تكون تقريبية، وتتسم بالطابع العمومي، إن لم نقل بالغموض أحيانا. إن المنطق يقتضي أن تكون وحدات الأسطول

---

(1) - نفسه: ص. 216، 217.
(2) - انظر نص الوثيقة في : أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 105.
(3) - انظر التفاصيل في :
DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne dans les ports..., p.79.
GATEAU (A); Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr pour l'histoire de la navigation en Méditettanée au XIIè s. **Hespéris Tamuda**,T. XXXIII,Rabat,1949, p.289, 312.
(4) - **BRAUDEL** (F); La méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris, A. Colin, 1985, T. 1, p. 227.

الحربي أكثر سرعة من وحدات الأسطول التجاري؛ لكن اختلاف أحجام قطع الأسطول وتنوع أدوار ووظائف كل قطعة يجعل المسافة التي يمكن أن تقطعها كل سفينة تختلف حسب حجمها وحمولتها ومهمتها. فالوحدات التي تتكلف بنقل الخيل والفرسان والمؤونة تكون أبطأ من القطع المتوسطة أو الصغرى المكلفة بمهام المراقبة والاستطلاع أو مساعدة الوحدات الكبرى السالفة الذكر. يقول العذري[1]:"والمسافة بين بر الجزيرة ومدينة سبتة قريبة جداً يرى الناس سورها ودورها، ويرون بياض ثياب القاصرين بها. وتتحرك السفينة من مرسى الجزيرة عند بزوغ الشمس، فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست بمدينة سبتة". وأشار صاحب مفاخر البربر[2] إلى المسافة ذاتها بنوع من التحديد قائلا: "(...) ورد ابن أبي عامر واضحا وليا على المغرب.. وقفل عبد الملك وخلف معظم الجند مع واضح بفاس، فاحتل سبتة مدينة المجاز يوم السبت، وكانت أيام ارتجاج فتلوم على سكون البحر، ثم ركب على توقع وهيبة لأربع ساعات من يوم الثلاثاء... فوصل إلى مدينة الجزيرة في أول الساعة الثامنة منه، فقطع البحر في ثلاث ساعات على أهنأ الحالات، وتلوم على عبوره أصحابه أياما قوي فيه ارتجاج البحر فطال التعجب من يُمن طائره ووصل إلى قصره بالزاهرة وسط النهار من يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من السنة المذكورة" (385 هـ).

لا شك أن النص تحدث بنوع من الدقة في تحديد عدد الساعات التي أمكن استغراقها في قطع المسافة ما بين سبتة والجزيرة الخضراء؛ لكن يصعب تصديق إمكانية عبور المضيق آنذاك، ولو في ظروف مناخية وبحرية ممتازة، في ظرف ثلاث ساعات. وتحدث البكري[3]عن المسافة بين مالقة بجانة ومرسى النكور بشمال المغرب مُبَيِّنا إمكانية اجتيازها في ليلة واحدة. وهو ما فعله أبناء سعيد بن صالح لما"(...) ركبوا البحر من ذلك الموضع في ليلة واحدة ووقت واحد وريح واحد، فوصل أصغرهم... إلى مرسى نكور من ليلته.."[4]. وأشار ابن أبي زرع[5] بشكل غير مباشر إلى المسافة لما عبر

---

(1) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 118.
(2) - مجهول: نسخة يعلى، ص. 169، 170.
(3) - البكري: المغرب في ذكر بلاد إفرقية والمغرب...، مصدر سابق، ص. 96، 97.
(4) - البكري: المغرب...، المصدر السابق، ص. 97.
(5) - ابن أبي زرع: روض القرطاس...، ص. 145.

يوسف بن تاشفين إلى الزلاقة عام (479 هـ ـ 1086 م) قائلا: "فكان جوازه في يوم الخميس عند الزوال في منتصف ربيع الأول سنة 479 هـ، ونزل بالجزيرة الخضراء فصلى بها صلاة الظهر من يومه ذلك". يستفاد من مختلف الإشارات المصدرية السابقة والتي تهم المسافات في الأسطول أن عملية الإبحار كانت تتسم بالبطء، نسبيا، خلال العصر الوسيط. قال بروديل[1] الذي خبر ثقافة البحر المتوسط، متأثرا بأفكار ابن خلدون في هذا المجال أن يوما واحدا من الإبحار يوازي حوالي مائتي كلم(200). وأوضح الباحثSÉNAC[2] أن العبور والإبحار كان بطيئا إلى حدود القرن الخامس الهجري (XIم)، بحيث يلزم ستة أيام من أجل اجتياز المسافة ما بين مدينة دانية وسواحل إفريقيا وأسبوعا كاملا ما بين تلك السواحل والمرية. وكانت المسافة ما بين مياه دانية والجزائر، وسردانية تصل إلى ثمانية أيام[3].

ولاحظ أحد الدارسين[4] أن قياس الزمن والأوقات في المسافات كان يخضع للظروف المحيطة بالرحلات وطبيعة المسافات. فالرحلة مثلا، قد تستغرق عشرين يوما من مدينة مرسيليا الفرنسية إلى مصر، وتدوم أربعين يوما من المدينة نفسها إلى سوريا، ولا تتجاوز ثمانية أيام من مدينة برشلونة إلى صقلية. وتختلف المسافات اليومية لتتراوح بين أربعين ميلا وإثنان وسبعين(72) ميلا[5] وذلك خلافا لما ذهب إليه بروديل. وقد مَدَّد الباحث الطاهري[6] المسافة التجارية من الأندلس نحو المشرق، اعتمادا على الرشاطي، لتصل إلى واحد وتسعين(91) يوما. نضيف أن تلك المسافة تتحكم فيها الحمولات والأحجام والظروف المناخية وغيرها. وخلافا لما سبق قال أحدهم[7] إن سفن البحر المتوسط أكبر من سف المحيط، تحمل بضعة آلاف من الرجال وتقطع البحر من غربه إلى شرقه في ستة وثلاثين يوما. نعتقد أن المسافات المشار إليها وضعت، على العموم، قياسا بالأسطول التجاري. ولاشك أنها خاضعة للتغيير، إن لم نقل إنها تقلص إلى النصف على الأقل حين

---

(1)- BRAUDEL (F); La Méditerranée..., op. cit, T. 1, p. 329.

(2)- SÉNAC (Ph); Musulmans et sarrasins..., op. cit, p. 96.

(3) - عنان (محمد عبد الله): دول الطوائف...، المرجع السابق، ص. 190.

(4) DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne..., p.80.

(5) - نفسه: ص. 80.

(6) - الطاهري (أ): عامة إشبيلية...، مرجع سابق، ج 1، ص. 356.

(7) - الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، مرجع سابق، ص. 160.

الحديث عن المسافات في الأسطول الحربي، نظرا للظروف العسكرية، ومقارنة كذلك بما يجري في المسافات البرية المرتبطة بالجند وبالبريد المستعجل[1] مثلا. فالجندي الذي يقطع 25 كلم يوميا إبان الحملات العسكرية، يقطع ثلاثة أيام في يوم واحد[2]، إذا التجأ إلى ما يُعرف في المصادر "بجادة السير".

---

1)- انظر المسافات والطرق البرية والبريد العسكري في الفصل الرابع من الباب الأول.

(2) - CHALMETA (P); Las campanas califales en el Andalus. dans Guerre, fortification et habitat....Castrum 3..., op. cit, pp. 33, 42

خلاصة

سبق القول بصعوبة دراسة الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف من حيث أنواع وحداته وخصائصها، والأوقات التي تحارب فيها وكذا المسافات التي تقطعها، لأسباب عديدة منها: قلة المادة المصدرية المهتمة بالأسطول الحربي، وكثرة الألفاظ والأسماء التي تطلق على قطع الأسطول عموماً ممّا يصعب معه التمييز ما بين التّجاري منه والحربي. لكن تبيّن من خلال رصد وتتبع الإشارات المختلفة الواردة في الأسطول أنه أمكن إبراز بعض الخصائص التي تميز وحدات الأسطول الحربي. لقد تحدثت المصادر عن القطائع والشواني والبوارج والأجفان والأغربة والحراريق والطرائد وغيرها من الأسماء التي تعكس تنوع وأهمية وحدات الأسطول الحربي الأندلسي. وبيّنا أن كل لفظ من .هذه الألفاظ يعكس خصائص محددة من حيث الحجم والحمولة والمهام إبان الحملات البحرية ولذلك لا نتفق مع ما ذهب إليه الباحث SÉNAC[1] حين لاحظ، انطلاقاً من بعض الاكتشافات المحدودة في مجال الأركيولوجية البحرية، أن أحجام وحدات الأسطول الإسلامي كانت صغيرة. إنه رأي جزئي اعتمد عينات محدودوة، في حين ينبغي الانطلاق أولاً من النصوص المصدرية لإجراء جرد واسع، ما أمكن، لمختلف الإشارات الواردة في الأسطول.

لقد اتضح أن الخلافة الأموية بقرطبة والتي اهتمت طيلة القرن الرابع الهجري بتوسيع بنيات الأسطول التجاري والحربي، أي دور الصناعة والإنشاء[2]، قد اهتمت في الآن نفسه بتنويع وحدات أو قطع الأسطول والزيادة في حجمه وأعداده نظراً لما كانت تفرضه أوضاعها الداخلية والخارجية. وقد نجحت في ذلك لأنها تحكمت في السواحل الشاسعة المحيطة بجزيرة الأندلس، ونجحت في صد المسيحيين شمالاً والشيعة الفاطميين جنوبا. لكن رغم تطوير أعداد قطع الأسطول الحربي لاحظنا صعوبة ضبط تلك الأعداد نظرا لاختلاف المصادر بصددها. فمنها ما تحدث عن الأعداد في عهد خليفة معين أو

---

(3) - SÉNAC (Ph); Musulmans et sarrasins..., op. cit, p. 96.

(1) - انظر دور الصناعة والإنشاء في الفصل السابق.

أمير دون سواه؛ ومنها ما فضل الاكتفاء بإحصاء القطع الحربية في دار صناعة مشهورة كما حدث في ألمرية في مناسبات عديدة، ومنها ما آثر ذكر الأعداد في مناسبات الغزو البحري والحملات التي تنظم من حين لآخر. ناهيك عن الخلط الذي يقع بين الأسطول التجاري والحربي.

أما قضايا الأوقات والمسافات والحمولات في الأسطول الحربي الأندلسي فموضوع نعتناه بالمغامرة لأنه دقيق وغير مطروق فيما نعلم. لقد تمت الاستفادة من مادة مصدرية متناثرة في ثنايا مظان مختلفة ككتب المسالك والممالك، والرحلات التجارية والجغرافية، وكتب الفلك والنجوم والأنواء، وكتب الفقه والنوازل والحسبة وغيرها، وبيّنا الاتفاق الحاصل بين مختلف المصادر في القول بتجنب فصل الشتاء وأوقات هبوب الرياح العاصفية حين الاستعداد لخوض المعارك البحرية. في حين اتضح شح المادة المصدرية المرتبطة بالمسافات التي تقطعها وحدات الأسطول الحربي. ورغم ذلك خلصنا إلى أن الأسطول الحربي يتميز بالسرعة أكثر من نظيره التجاري، كما تميز بخصائص أخرى تمّت الإشارة إليها أمكن من خلالها الحديث عن أسطول حربي في الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري (X م)، وليس بعد ذلك.

الفصل الرابع

حمولة الأسطول المادية والبشرية

أ . الأعـداد والحمـولات

تعترض دارس رجال الأسطول مجموعة من الصعوبات تهم الأعداد والقيادة والألبسة والأسلحة والرواتب وغيرها لأن المصادر لا تتحدث عن رجال الأسطول الحربي إلا في مناسبات محددة لا تتعدى أوقات الاستعداد للحملات والغزو، أو الانتصار في المعارك البحرية واحتلال مواقع معينة. ولا يكاد الدارس يعثر على معلومات تخص الحياة اليومية لرجال البحر في دور الصناعة، حتى في أوقات السلم. مع ذلك يمكن تحليل جوانب من الموضوع انطلاقا من المادة المصدرية التي تهم رجال الأسطول الحربي بشكل عام.

ذكر ابن حيان[1] في أحداث سنة 319 هـ أن الخليفة الناصر أغزى الأسطول إلى العودة برجال كثيرين، إذ كان «(...) عدد من ركبه سبعة آلاف رجل. خمسة آلاف من البحريين وألف من الحشم..»، إضافة (سقطت الألف الأخرى من النص)، إلى « تسعة رجال متطوعين في مراكبهم.. وهم من وجوه أهل بجانة والمرية »[2]. يتضح من كلام ابن حيان أن حمولة السفينة الحربية هو 58 شخصا تقريبا. ويقول في أحداث سنة 323 هـ أن الأسطول الخلافي غزا بلاد الفرنجة بقيادة عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة. و«كان عدد مراكبه أربعين مركبا عشرين حراقات فيها النفط والآلات... وعشرين فيها الرجال المقاتلة... وكان عدد ركابه من الجند ألف رجل والبحريين ألفين..»[3]. وفي السنة الموالية أي 324هـ انتقل الأسطول الأندلسي إلى العدوة لنصرة مُوسى بن أبي العافية و«كانت عدة مراكبه أربعين قطعة، وعدد ركابه ثلاثة آلاف رجل، فيهم من الحشم خمسة مائة »[4]. يلاحظ أن معدل ما حملته السفينة الحربية في الحالتين السابقتين هو75 شخصا. وللمقارنة مع معلومات ابن حيان نورد نصا لا يقل أهمية لابن حوقل[5] يقول فيه «وبمدينة سبتة المحاذية من الأندلس لمدينة جبل طارق، وهي المعروفة بالجزيرة الخضراء، والذي بها من المرجان... وللتجار بها أحوال كثيرة من أقطار

---

(1) - **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص. 312، 313.

(2) - **نفسه**: ص. 313.

(3) - **ابن حيان**: المقتبس...، ج 5، ص. 366.

(4) - **نفسه**: ص. 382.

(5) - **ابن حوقل**: صورة الأرض...، ص. 75.

النواحي... ويعمل بها في أكثر الأوقات في إثارة المرجان الخمسون قاربا، وما زاد على ذلك مما في القارب العشرون رجلا إلى ما زاد ونقص..». أما ابن الخطيب فتحدث عن الأعداد في غزوات مجاهد العامري للروم في جهة سردانية وذكر أنه «غزا إلى سردانية الروم وفيها ملوك أربعة من قبل صاحب الأرض الكبيرة، افتتحها في مائة وعشرين مركبا حمل فيها ألف فارس »[1]، أي بمعدل ثمانية (8) أشخاص لكل مركب. وذكر المقري[2] أن طريف البربري دخل الأندلس في مائة فارس، وأربعمائة راجل، جاز البحر في أربعة مراكب، أي بمعدل 125 شخصا للمركب الواحد. وفي إطار سرد الأحداث الواقعة في ولاية الأمير تميم بن المعز بن باديس، ومحاولته إخضاع صقلية مع آخر القرن الخامس الهجري، تحدث الباجي[3] عن قدوم أسطول من جنوة في ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين ألف مقاتل، أي حوالي مائة (100) فرد لكل مركب. وللمقارنة المفيدة مع المشرق قال الطبري[4] مكرر: « دخل البصرة عشر سفائن بحرية تسمى البوارج، في كل سفينة اشتيام، وثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذافين والمقاتلة، فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلا» . وحتى تكتمل الصورة نورد مقارنة مع أوربا أو مع الأسطول الحربي النورماني الذي هاجم الأندلس عام 355 هـ/ 966م وعام 360 هـ/971م بثمانية وعشرين مركبا وكل مركب يحمل حوالي ثمانين رجلا أي بمجموع المهاجمين البالغ عددهم 2240 فردا[5].

انطلاقا من المعطيات السالفة الذكر، ومن الأرقام الواردة عند ابن حيان ذهب أحد الباحثين[6] إلى القول إن معدل ما تحمله سفينة حربية عادية إبان عصر الخلافة هو حوالي مائة (100) شخص. وحلل باحث آخر[7] النصوص المصدرية المرتبطة بمعركة الزلاقة 497 هـ/ 1086 م وقارب الأعداد المرابطية التي عبرت المضيق، واستنتج أن عملية

(1) - ابن الخطيب: أعمال الأعلام...، ص. 219.
(2) - المقري: النفح...، مصدر سابق، ج 1، ص. 229.
(3) - الباجي (أبو عبد الله محمد المسعودي): الخلاصة النقدية في أمراء إفريقية، تونس، 1323 هـ ص. 49.
(4) - الطبري: تاريخ الأمم والملوك...، مصدر سابق، ج 6، ص. 112.
(4) مكرر- إشتيام: هو رئيس الركاب. لسان العرب، ج 12، ص. 119.
(5) - **LIROLA DELGADO** (J); El poder naval..., op. cit, p. 257.
(6) - نفسه: ص. 288.
(7)- **LAGARDÉRE** (V);Le Vendredi de Zill à qa...op.cit, p.43 et sv. Esquisse de l'organisation militaire ..op cit, p.90 et sv.

العبور كان تتم بمعدل 500 رجل في كل رحلة لكن دون تبيان عدد القطع التي كانت مكلفة بحمل تلك الأعداد.

يبدو أن الرقم المشار إليه سلفا أي مائة شخص كمعدل ما تحمله السفينة، قد يكون صحيحا في بعض الوحدات، وقد لا ينطبق في أخرى؛ مع العلم أننا بيّنا سابقا الاختلافات الحاصلة في أنواع وأحجام السفن الحربية. ولذلك يصعب الحديث عن تقديرات وإحصائيات محددة ودقيقة. ولتأكيد ما نذهب إليه يكفي الاستناد إلى مجموعة من الأمثلة الواردة في أنواع وأحجام بعض وحدات الأسطول الحربي. فالسفينة التي يبلغ طولها عشرين مترا، وعرضها سبعة وعشرون مترا وعمقها ثلاثة أمتار، وطول الصاري الأمامي 24 مترا، والأوسط 22 مترا؛ اتجهت من الإسكندرية إلى الأندلس بحمولة تبلغ حوالي 200 شخصا[1]. إنه نوع استثنائي يلزمه ثلاثين فردا من الربان[2]. يبدو أن ابن جبير شاهد وعاين خلال رحلته سفنا كبرى وقد ركب في إحداها إلى الأندلس ووصف الأسواق والمواد التي تباع فيها نظرا لكبرها[3]. ولاشك أن الأسطول الأوربي كان يتوفر بدوره على وحدات كبرى. فعلى غرار المثال السابق تذكر بعض المعلومات[4] أن سفينة تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادي، بلغ طولها 33,75 مترا وعرضها 9,50 مترا وعلوها5 أمتار، كانت مجهزة بصاريين بعلو بلغ 20 مترا، وبأشرعة مثلثة[5]، وتحمل ما بين 150 إلى 200 طن في الحد الأدنى و500 طن في الحد الأقصى. كما أن هناك سفنا أخرى مزودة بصاري واحد ولا تتعدى حمولتها عشرين طنا[6]. واضح إذن أن الأعداد والحمولات تختلف باختلاف الأحجام، فسفينة شراعية كبيرة تحمل قرابة مائة (100) رجل، والشينة الكبيرة تصل حمولتها إلى ما بين 200 و300 فرد مع العلم أن أكثر من

---

(1) - GATEAU (A): Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr..., op. cit, p298

(2) - نفسه: ص. 298.

(3) - حركات (أ): النشاط الاقتصادي...، مرجع سابق، ص. 185.

(4) - DUFOURCQ (Ch. Em), La vie quotidienne..., p. 57, 58.

(5) - عادة ما تكون الأشرعة مثلثة في السفن، والشراع المثلث أو اللاتيني (Lateen) كان سائدا في المحيط الهندي. وسرعان ما انتشرت السفن ذات الصاريين. ومن المحتمل أن تكون الأشرعة الثلاثية قد انتقلت عبر الرحلات العربية إلى البحر المتوسط. انظر التفصيل في:
LOMBARD (M): Arsenaux et bois de marine..., op. cit, p. 112.
أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، مرجع سابق، ص. 86.

(6) - DUFOURCQ (Ch. Em), op. cit, p. 61.

ثلثي هؤلاء جذافون[1]. ويبدو أن بعض السفن كانت حمولتها ضخمة للغاية بشهادة أحد القساوسة الذي عاينها قبيل آخر القرن التاسع الميلادي، وهي محملة بالعبيد مارة من إيطاليا والأندلس في اتجاه المشرق وذكر أن ستة سفن كانت تحمل 9000 رجل أي 1500 لكل واحدة منها[2] مكرر. وذهب أحد الدارسين[3] إلى القول، بنوع المبالغة، إن الشلندي في الأسطول الحربي الأندلسي يعادل الشونة أو الحراقة، وطوله 195 قدما وعرضه 33 قدما وحمولته 600 شخص.

يتضح من مختلف الأرقام السابقة الذكر أن الحديث بنوع من الدقة والضبط عن أعداد رجال الأسطول الحربي وحمولات وحداته، أمر صعب للغاية. فمن البديهي إذن التسلح بالحذر والحيطة عند التصدي لدراسة الموضوع.

إذا صعب تحديد أعداد رجال الأسطول الحربي وحمولات قطع هذا الأسطول فماذا يمكن قوله بصدد الأعمال اليومية التي يزاولها رجال الأسطول. هل يلازم هؤلاء دور الصناعة والإنشاء في حالة السلم أن يقومون بأشغال أخرى ويُستدعون إبان الاستعداد للغزو والحملات؟

يمكن القول إن المصادر لم تقف عند الجانب التنظيمي لرجال الأسطول الحربي. ونقصد بذلك انعدام المادة المصدرية المهتمة بشكل مباشر بمهام ودور "ديوان الأسطول" أو "ديوان البحر"[4]، وكيف يلحق رجال الأسطول بذلك الديوان على غرار ما تمَّ مع الجند البري[5]، أو مع رجال البحر الفاطميين[6].

---

(1) - نفسه: ص.64.

(2) - GUICHARD (P): L'Europe et le monde musulman..., op. cit, p. 79.

(2) مكرر- يبدو أن الشهادة التي أدلى بها القس برنار Bernard حول الأعداد يطبعها نوع من المبالغة. لكن قد يبدو الأمر طبيعياً إذا علمنا أن العبيد يُنظر إليهم في أوربا الفيودالية على أنهم سلعة من السلع وتقول بعض النصوص بأنهم سلعة ناطقة ليس إلا. فلا غرابة أن تُكدّس هذه "السلعة البشرية" في السفن لأنها موجهة إلى عالم المال والتجارة.

(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية العربية في الأندلس...، ص. 17.

(4) - سبق الحديث عن إحداث ديوان الأسطول في الأندلس. انظر الفصل الثالث، ص. 16.

(5) - انظر ديوان الجند (جند الحضرة) في الفصل الثالث من البال الأول.

(6)- لقد أنشا الفاطميون داراً "للبحر" أو ديوان الجهاد أو العمائر حسب الجوذري. سيرة الأستاذ جوذر...، مصدر سابق، ص. 102، 103.

وقال أحدهم اعتماداً على المقريزي في الخطط إن جريدة قواد الأسطول الفاطمي كانت تزيد على خمسة آلاف مدونة من البحريين.

سالم (ع) العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 129.

ب - القيادة

ما هي التراتبية التي كانت سائدة في صفوف رجال الأسطول الحربي، وما هي المهام التي كانوا يقومون بها على ظهر السفن الحربية؟ إذا كانت الخلافة الأموية قد أرست بنية تحتية هامة تمثلت في إنشاء العديد من دور الصناعة والإنشاء على طول السواحل الأندلسية، فإن الاهتمام انصب كذلك على القيام بشؤون تلك الدور وتعيين قوادا بحريين يديرونها. لقد أوضحنا سلفا أن مدينة ألمرية كانت بمثابة المقر العام لقيادة الأساطيل، وبها كان استقرار أمير البحر على عهد الخلافة. ويعتبر أمير البحر أو قائد الأساطيل من الشخصيات النافذة في الدولة نظرا لاعتماد الخليفة بقرطبة على خدماته، إلى جانب قائد الثغر الأعلى وقاضي القضاة[1]. بل يمكن القول إن قائد الأسطول كان في الواقع يتقاسم السلطة مع الخليفة: واحد في الأرض وآخر في البحر.

يعتبر غالب مولى الناصر من أشهر الموالي الذين أعتقتهم الخلافة وقرّبتهم واعتمدت على خدماتهم، انتقل في مناصب مختلفة وتقلب في خطط الدولة الأموية بقرطبة والأقاليم والثغور. واكتسب بذلك تجربة كبيرة حتى أنه خدم الخلفاء الثلاثة عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني وهشام المؤيد، ونال لقب "صاحب الوزارتين"[2] و "شيخ الموالي". عُيِّن قائدا عاما للأسطول الخلافي بألمرية عام 345 هـ/ 965 م[3]، بعد أن كان مقيما بالثغور. وفي العام 361هـ/972 م[4] اتجه نحو شمال إفريقيا لإخماد ثورات حسن بن قنون الحسني أمير الغرب[5].

ساهمت شخصيات أخرى، إلى جانب غالب مولى الناصر، في قيادة أسطول الخلافة في فترات ومناسبات محددة. من هؤلاء القواد نذكر عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة الذي أغراه السلطان إلى العدوة عام 322 هـ[6]. وفي السنة الموالية 323 هـ غزا

---

(1) - LÉVI-PROVENÇAL (E); L'Espagne musulmane..., op. cit, pp. 85, 86. Histoire de l'Espagne..., op. cit, T. 3, p. 109.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 265.

(3) - نفسه : ص. 265.

(4) - نفسه: ص. 221.

انظر التفاصيل حول وظائف غالب مولى الناصر في:

MEOUAK (M); La Biographie de Gâlib..., op. cit, pp. 95, 112.

(5) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 244.

(6) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 347.

الأسطول إلى بلد الفرنجة وقائده عبد الملك بن سعيد بن أبي حمامة[1]. وذكر ابن حيان[2] في أحداث عام 321 هـ بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر عزل «عبد الملك بن سعيد المعروف بابن أبي حمامة عن مدينة بجانة، وولى مكانه أحمد بن عيسى بن أحمد بن أبي عبدة مضافاً إلى ما كان يتقلده من كورة إلبيرة، وعهد إليه الناصر لدين الله بإصلاح الأسطول المستقر لديه بدار الصناعة بالمرية...». وفي سنة 347 هـ أمر الناصر صاحب الشرطة القائد أحمد بن يعلى بالخروج غازياً في الأسطول إلى بلد الشيعي[3]. وقبل ذلك أي في عام 333 هـ غزا محمد بن رماحس على الأسطول إلى العدوة[4]. وأمر الخليفة الحكم قائده في البحر المتوسط ابن رماحس لجمع الأسطول ضد المجوس[5]. واشتهر عبد الرحمن بن رماحس[6] في عهد الحكم الثاني وهشام الثاني، وجمع ما بين قيادة الأسطول وولاية أقاليم بجانة وإلبيرة لكنه فشل في التعامل مع الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي قتله سما[7] سنة 369 عـ/980 م. ولما لم يعترف حسن بن كنون بسلطة الأمويين عبرت قوات الأسطول المضيق عام 361 هـ/ 972 م بقيادة قائد الحشم محمد بن قاسم بن طملس، لكنه انهزم، وأرسل مكانه قائد الثغر الأعلى غالب مولى الناصر عام 362 هـ/ 973 م[8].

إلى جانب هذه الشخصيات المشهورة في قيادة الأساطيل الحربية الأندلسية، تشير المعلومات المصدرية إلى قواد آخ.ين أقل درجة يساعدون في إعداد الأسطول والعناية به، بل يشرفون على سير العمليات الد.بية. يقول ابن حيان[9] بأن الخليفة عبد الرحمن الناصر جهّز «جملة من المراكب البحرية من مالقة وإشبيلية وغيرها من مدن الطاعة...

---

(1) - نفسه: ص. 366، 368.
(2) - نفسه: ص. 323.
(3) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 221.
(4) - العذري: ترصيع الأخبار...، ص. 82.
(5) - LÉVI-PROVENÇAL (E); Histoire de l'Espagne..., T. 2, p. 170.
(6) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 691؛ المقري: النفح...، ج 1، ص. 384.
(7) - ابن عذاري: نفسه، ص. 262.
(8) LIROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 207.
(9) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 87.

وشحنها بصنوف الأسلحة والعدد... وأدخل فيها ركابها من عرفاء البحريين والنواتية العره سواس البحر». يبدو أن العريف البحري كمثيله في البر[1] يكون مسؤولا عن مجموعة من الغزاة، يستدعيهم ويراقبهم أثناء استعراض الجند أو إبان الحملات العسكرية. أما النواتية أو البحريون فهم يتكلفون بأعمال مختلفة على ظهر وحدات الأسطول. ويظهر من كلام ابن حيان أنه يقصد صنفا من النواتية الذين يعرفون شؤون البحر في القيادة والاتجاهات إلى غير ذلك.

نشير في هذا المجال إلى أن المعلومات المصدرية تذكر أسماء مختلفة من البحارة والنواتية سواء الذين يقودون السفن أو الذين يقاتلون فنجد مثلا رايس[2] (رئيس) السفينة، قائد النواتية اشتيام في المشرق حسب الطبري[3]، الجذاف، إلخ. أورد ابن خلدون[4] نصا بالغ الدلالة لأنه يحدد بدرجة كبيرة مهمات ومهام بعض المكلفين بالأسطول الحربي. يقول: «يرجع نظره (الأسطول) إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه، ومقاتلته، ورئيس يدير أمر جريته بالريح أو بالمجاذيف وأمر إرسائه في مرفئه..». تتضح هنا قضية تنظيم وتوزيع المهام بين مسؤولين أساسيين في سفينة واحدة. فالقائد يتكلف بالجانب العسكري المحض أي بتدبير شؤون السلاح والقتال، والرئيس يدبر شؤون السفينة من ناحية الإبحار وتقنياته فحسب، ولا يهتم بما يجري من الزاوية العسكرية[5]. يظهر أيضا أن وحدات الأسطول الحربي لا تقتصر على ما سبق ذكره من القادة، بل تضم كذلك الجذافين الذين هم، في واقع الأمر محرك ووقود السفينة بتعبير العصر. إنهم يشتغلون دوما بعضلاتهم كي تنجح عمليات الإبحار ولا غرابة إذا أصابتهم أمراض «كالمجل وهو مرض يشاع لدى الجذافين يصيب اليدين والرجل بالعمل بالمجاذيف»[6]. وإلى جانب

(1) - انظر التفاصيل في مهام العريف في الجند البري: الباب الأول الفصل الرابع.
(2) - ابن خلدون: المقدمة...، ج 2، ص. 691.
(3) - اشتيام هو رئيس الركاب. انظر الطبري، تاريخ الأمم والملوك...، ج 6، ص. 112.
(4) - ابن خلدون: نفسه، ص. 691.
(5) - للمقارنة نذكر أن رئيس (قبطان) سفينة قطلاني من القرن الثالث عشر الميلادي، كان يقود شينيين ومركبين بحوالي 330 بحارا!
DUFOURCQ (Ch. Em), La vie quotidienne.., op. cit, p 72
(6) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط ص. 20.

الجذافين تذكر المصادر رجالا آخرين يُحسبون في الأسطول الحربي كالنقاطين والنجارين والخبّازين[1]. يفصح ابن منكلي[2] عن معلومات دقيقة بل جديدة لأنها لم ترد في المصادر المغربية والأندلسية فيما نعلم، يقول: «ينبغي أن يكون في الغراب الغزواني الكامل عشرة مِمّن يسوسونه، منهم رايس وماسك ونقيبان وحكيم وجلفاط، وثلاثون جلاسا من أهل الزعامة والشهامة، وأربعون راميا، وأكبر الغربان تجد به مائة وثمانون جذافا، والزورق من أربعة إلى ثلاثين". يكشف ابن منكلي هنا، بدقة عن أنواع الرجال المقاتلة على ظهر أنواع أخرى محددة من سفن القتال (الغراب الغزواني). ويشرح مهمة كل مسؤول من الرجال المحمولين على ظهر وحدات القتال. ويعتبر هذا النص، من حيث دِقّته وأهميته تكملة لما قاله الطبري[3] حين أشار إلى السفن أو البوارج التي دخلت مدينة البصرة، وفي كل واحدة منها «اشتيام (رئيس)، وثلاثة نفاطين ونجار وخباز وتسعة وثلاثون رجلا من الجذافين والمقاتلة، فذلك في كل سفينة خمسة وأربعون رجلا»».

تقدم هذه النصوص، بما لا يدع مجالا للشك، إمكانية أخرى للفرز والتمييز ما بين الأسطول التجاري والحربي ورجالاته. وهذا التمييز أشار إليه بنباهة الباحث الإسباني LIROLA DELGADO[4] حين بيَّن أن الرجال في الأسطول التجاري ينعتون بالنواتية أو البحريين، ويوصفون بالمقاتلة أو الجند والحشم في الأسطول الحربي. والتمييز يمكن ملاحظته في السفينة نفسها، إذ أن الحربية تضم قسما حربيا معقدا لا يوجد في القطعة التجارية، وقسما نوتيا ضروريا في كل السفن الحربية وغير الحربية. ثم إن السفن الحربية تتميز عن التجارية بالطول والسرعة، وغالبا ما يستعمل رجالها المجاذيف بدلا من الأشرعة السائدة في الوحدات التجارية. رغم أهمية ملاحظات LIROLA Delgado[5] لا نتفق معه خاصة في نعته رجال الأسطول التجاري بالبحريين أو النواتية ورجال الأسطول الحربي بالمقاتلة أو الجند أو الحشم. فلفظ "البحريين" أو"النواتية" يتسم بالعمومية وقد بيّنا

---

(1) - LIROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 283.

(2) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط ص. 20.

(3) - الطبري: تاريخ الأمم والملوك...، ج 6، ص. 112.

(4) - LIROLA DELGADO (J); op.cit..., p. 284.

(5) - نفسه: ص. 284، 302.

سلفا أن النواتية يشكلون أيضا جزءً من رجال الأسطول الحربي. أكثر من ذلك لا يستقيم نعت رجال الأسطول الحربي بالجند أو الحشم لأن هؤلاء وإن استعين بهم في مناسبات عديدة في الأسطول، كانوا يشكلون النواة الأساسية في الجند البري أو جند الحضرة بقرطبة.

أفادتنا معلومات ابن منكلي السالفة الذكر لأنه انفرد بإشارة حول الحكيم أو الطبيب الذي يرافق رجال الأسطول الحربي لعلاج أمراضه خاصة مرض المجل[1] الذي يصيب الجذافين نظراً لكثرة حركات أيديهم وأرجلهم. نشير في هذا الصدد إلى أننا لم نعثر على إشارات في المصادر بما فيها المخطوطة، تتعلق بالأطباء أو القضاة الذين كانوا يرافقون الجند في البحر أو البر، وكيف كانوا يشتغلون أثناء الحملات العسكرية. وللمقارنة مع أوربا نذكر أن القضاة كانوا خلال الحملات العسكرية البحرية يطبقون العقوبات الصارمة منها مثلا أن كل شخص هرب من السفينة وقبض عليه تقطع رجله أو يشنق. وإذا نزل البر دون إذن يجلد بمجرد عودته إلى السفينة ويُقتطع من راتبه[2].

ج - المؤونة والرواتب

تفيد المعلومات المصدرية أن رجال الأسطول الحربي كانوا يحملون معهم المؤونة والذخيرة والأسلحة وأدوات أخرى. ولاشك أن المؤونة في الأسطول الحربي تتشكل بالدرجة الأولى من الضروريات اللازمة للمقاتلة أثناء الحملات أو طيلة مدة الإبحار. وقد سبقت الإشارة إلى دور الخبّازين الذين يتكلفون بإعداد الخبز لرجال الأسطول، والنّجارين الذين يصنعون أدوات مختلفة أو يرممون قطع الأسطول. وإذا لم تسعف الإشارات المصدرية المتوفرة في تكوين صورة واضحة عن الكيفية التي اشتغل بها هؤلاء، فإننا نتصور أن التموين أو المؤونة عادة ما يتم إعدادها في البر قبل الإبحار كما هو الشأن في الحروب البرية أي إبان حملات الصوائف والشواتي[3]. ويُحمل من الزاد ما خف وما يقاوم آثار السفر. ذكر المقري[4] أن المنصور بن أبي عامر كان، خلال حملاته المتكررة

(1) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، ص. 20.

(2) - DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne..., p.67.

(3) - انظر الفصل الرابع من الباب الأول.

(4) - المقري: النفح...، ج 1، ص. 414.

على مدينة شنت ياقوب في غاليسيا، يحمل معه المؤونة والأطعمة والأقـوات والميـرة. وحدد أحد الدارسين[1] طبيعة تلك المؤونة بقوله إن «المراكب تحمـل المـؤن والفواكـه واللحم المجفف والأسماك المجففة ما يكفي مدة الحملة». لكن من يتكلـف بإعـداد تلـك الأقوات قبل الإبحار وكيف توزع؟ ألا تعتبر تلك المؤونة وذلك الزاد جزء من الراتـب أو هو الراتب نفسه لرجل الأسطول مقابل مهمته البحرية العسكرية؟ تجدر الإشارة، في هـذا الصدد، إلى أننا نجهل كل شيء عن رواتب رجال الأسـطول الحربـي نظـرا لصـمت المصادر المطبق بصددها.

أورد ابن منكلي[2] مكـرر إشارات هامة فـي رواتـب رجـال الأسـطول الفـاطمي المعاصرين للخلافة الأموية بالأندلس، نلاحظ من خلالها التدرج في الأهمية والامتيازات. يقول:«(...) وكان منها أيام الفاطميين نحو مائة مركب منها خمسة وسبعون شينيا وعشرة مسطحات وعشرة حمالة، كان جريدة رجالها الذين ليس لهم شغل غيرها أكثر من خمسـة آلاف بحري مدونة جامكية، أعيان عشرة جامكية، كل واحد منهم عشرين دينارا إلـى15 دينارا ثم إلى عشرة دنانير ثم إلى خمسة ثم إلى دينارين، ولهم إقطاعات تعـرف بـأبواب الغزاة». ويُعطى المقدم مائتي دينارا والرايس مائة دينار» [3]. يؤكد المقريزي[4] بعـض تلك الرواتب موضحا أن قواد الأسطول تصل جامكية أكبرهم إلى عشرين دينارا وأقلهـم دينارين؛ ناهيك عن الإقطاعات والامتيازات الكبرى التي يسـتفيد منهـا كبـار رجـال الأسطول. ولتكتمل الصورة نشير إلى أن المصادر المسيحية تبيّن أن البحار يتلقى يوميـا راتبا يضم قطعة من الخبز الصلب وبعض النقود[5]. وقد بلغ راتب بحار عـادي بمدينـة مرسيليا مع بداية القرن الثالث عشر للميلاد حوالي 15 فلسا شهريا، أما راتبه في المرسى أي في مراكز الاتصال بالأرض (البر) فيكون أقل نقدا، ولا يستفيد من الزاد الـذي يـوزع فـي

(1) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.
(2) - ابن منكلي: الأحكام الملوكية...، مخطوط، ص. 41.
(2) مكرر - انظر تعريف الجامكية في الفصل الثالث من الباب الأول (أرزاق الجند).
(3) - ابن منكلي: نفسه، ص. 44.
(4) - انظره في: سالم (عبد العزيز)، العبادي (محمد. المختار): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 129.
(5) - **DUFOURCQ** (Ch. Em); La vie quotidienne..., p. 72.

السفينة[1]. نعتقد أن كبار رجال الأسطول الأندلسي، وإن سكتت المصادر بصدد رواتبهم، كانوا يستفيدون من امتيازات مختلفة كالإقطاعات وغيرها. وقد سلف القول إنهم كانوا في العادة يُعيّنون من قبل الخلفاء على الأقاليم التي تقع فيها دور صناعة الأساطيل، كما هو الشأن في المرية الغنية والتي قال فيها ابن الخطيب[2] « (...) المرية هنية مرية بحرية برية أصيلة سرية، معقل الشموخ والإباية، ومعدن المال وعنصر الجباية، وحبوة الأسطول ». أما صغار رجال الأسطول فنتصور أنهم كانوا يتقاضون ما يسد قوتهم اليومي على غرار صغار الجند في البر. يقول النويري[3] إن رجال الأسطول إذا أطلق لهم كل شهر عشرون درهما مستمرة دائبة جاءوا من كل فج عميق وهم رجال معروفون بالقذف والقتال.

د - الأصول الاجتماعية لرجال الأسطول

هل يمكن الحديث عن الأصول الاجتماعية لرجال الأسطول الحربي؟ إن الموضوع لا يقل صعوبة عن المواضيع السالفة الذكر، إذ يتعذر تتبع ورصد أصول فئات رجال البحر. فباستثناء بعض التفاصيل المرتبطة بحياة بعض القادة، فإن المصادر على تنوعها لا تقدم معلومات شافية في الموضوع. لكن يتبين من خلال ما توفر من النصوص والإشارات أن قواد الأساطيل ليسوا مُكوّنين منذ البداية في مجال البحرية والأساطيل، أو بتعبير آخر ليسوا رجالا محترفين في البحرية، وإنما قائد الأسطول كقائد الجند في البر منصب إداري وسياسي يخضع للتقلبات والظروف التي تجتازها السلطة السياسية في قرطبة. إن قادة الأساطيل الحربية عرفوا عادة في الخطط الإدارية والعسكرية التي اشتغلوا فيها، واكتسبوا تجارب ومهارات جعلت سمعتهم ومناصبهم معروفة عموما قبل قيادة الأساطيل. فالتجربة في ميادين معينة والخدمة والإخلاص للسلطة المركزية هي المحدد والمتحكم الأساسي في تقلد تلك الخطط والمناصب. يلاحظ كذلك أن القواد في الأسطول الحربي الأندلسي اشتهروا، في أغلبهم، كأشخاص وليس كأسر معروفة مرتبطة بالأسطول

(1) - نفسه: ص. 73. اشترى أحد قواد سفينة في قطلونيا ما قيمته 500 نقد من المؤونة أي ما معدله 15 إلى 16 فلسا بعيار برشلونة، لكل رجل وعددهم حوالي 300 بحار. ويمثل المجموع قوة شرائية تبلغ 4,7 غرام من الذهب. نفسه، ص. 73.

(2) - ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار...، ص. 56.

(3) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 107.

كما هو الحال مثلا خلال المرابطين مع أسرة بني ميمون أو بني عائشة. انطلاقا من ذلك ليس بالأمر الهين رصد وتتبع الأصول الاجتماعية لقادة الأساطيل خلال الخلافة والطوائف. وإذا استثنينا غالب مولى الناصر، فلا نكاد نعرف شيئا سوى أن عبد الرحمن بن رماحس مثلا قد ورث أباه محمد في قيادة الأسطول الحربي الأندلسي[1]. أما القائد غالب فقد سبقت الإشارة إلى أصوله المملوكية، وإجماع المصادر على عتقه من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي ارتبط باسمه. وقد تقلد مناصب عدة إلى أن بلغ الأوج لما أسندت إليه "خطة الوزارتين" حسب ابن عذاري[2]. وقد ساعدته تجاربه وثقة السلطة فيه في قيادة الأساطيل الحربية الأندلسية إلى جهات متعددة.

وفيما يتعلق بالأصول الاجتماعية لرجال البحر "العاديين" والذين تقوم على أكتافهم المهمات الصعبة في الأسطول كالجذف والقتال، فيبدو أنهم ينتمون إلى أصول اجتماعية متباينة. لقد اكتسبوا تجارب مهمة ومختلفة في مجال البحار، وارتبطوا بدور صناعة الأساطيل، وعادة ما يلتحقون بديوان الجند، كما هو الشأن في رجال جند الحضرة. ويبدو أن هؤلاء يعززون برجال آخرين ينتمون إلى فئات أخرى من الجند البري كما يفهم من كلام ابن حيان[3] حين أشار إلى أن حملة الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى العدوة سنة 319هـ، بلغ عدد رجالها سبعة آلاف رجل من البحريين والحشم. وبغض النظر عن الأصول الاجتماعية أو العرقية لرجال الأسطول، فعادة ما يستدعى للبحرية رجال يتصفون بالشجاعة والتجربة[4]. ولإدراك هذا الأمر لا داعي للتذكير بدور العنصر البشري الصقلبي أو السوداني أو البربري في الجند الأندلسي عامة، أو دور العنصر الصقلبي نفسه أو المغربي في الأسطول الفاطمي بالمشرق كما تؤكد ذلك المصادر الفاطمية ذاتها[5].

---

(1) - سالم (عبد العزيز)، العبادي (محمد مختار): تاريخ البحرية...، ج 2، ص. 181.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 265.

(3) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 313.

(4) - تصف إحدى الوثائق المسيحية بعض مظاهر حياة البحارة بالقول إن سفينة من مرسيليا كانت تحمل حوالي ثمانين رجلا. ستون منهم عمرهم يفوق العشرين سنة، و 14 منهم تتراوح أعمارهم ما بين 15 و 20 سنة. أما الستة الآخرون فيقل سنهم عن 15 سنة. والأغلبية تبدأ العمل في 16 سنة وتنهيه في 55 سنة. أما في إنجلترا فيتم توظيف رجال الأسطول بطرق مختلفة منها مثلا: أن يُفرض على بعض المدن الساحلية تأدية واجبات معينة، إذ أن كل مجموعة من 300 شخص يلزمها توفير طاقم سفينة تكون حمولتها 60 مقاتلا وجذافا وسلاحا.

DUFOURCQ (Ch. Em); La vie quotidienne..., p. 66 et sv

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., p. 138..

(5) - الجوذري: سيرة الأستاذ جوذر...، المقدمة؛ ديوان ابن هانئ: مصدر سابق...، المقدمة؛ سالم (ع)، العبادي (م): تاريخ البحرية الإسلامية...، ج 1، ص. 130.

ج - ألبسة وأسلحة رجال الأسطول

لا نملك إلا إشارات مصدرية نادرة عن ألبسة وسلاح رجال الأسطول، مقارنة بما توفر من معلومات حول ألبسة وسلاح الجند البري[1]. قال أحد الدارسين[2] بصدد رجال الأسطول الحربي الموحدي: «لا نعرف هل اتخذوا لباساً مميزاً عن لباس الجيش". ولاحظ آخر[3] أن المقاتلة في الأسطول كان لهم زي خاص في وقت الراحة، وزي آخر للقتال، لكن لم يوضح نوعية وطبيعة ذلك اللباس. أما عن السلاح في الأسطول فقد سبق تحليل طبيعة السفن الغزوانية والحراريق أو الحراقات ودورها في حمل المؤونة والسلاح. ويتضح من لفظ الحراقة أن الأمر يتعلق بسفن متخصصة في الضرب بالنفط، إنها كانت تجهز بمرامي نيران للهجوم على الأعداء[4]. ذكر ابن حيان[5] أن وحدات الأسطول الأندلسي كانت تضم «عشرين حراقات فيها النفط والآلات الحربية» . وأشار ابن القوطية قبله إلى مادة النفط[6] لما ذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم «(...) استعد برجال البحر من سواحل الأندلس (و) استعد بالآلات والنفط». من المؤكد إذن أن الأندلس عرفت هذه المادة استعمالا في القتال البحري منذ عهد الإمارة أي القرن الثالث الهجري على الأقل. فما هو هذا النفط وكيف يصنع؟

تتحقق المصادر على أن النفط مادة قديمة تصنع من الأصماغ والقطران والأذهان وعمل الدخان والإحراق واللعب بالنار وطفي النفط وطبخه وتلوينه[7]. خصص الطرسوسي[8]مكرر باباً كاملاً للنفوط وأنواعه والمواد التي تدخل في صناعته كالزيت والنورة. قال في أسرار النفط: « تؤخذ من الأترج الأشباه وهو أترج صغير وطعمه مر... ويترك إلى أن يذبل ويعصر زيته كما يستخرج الزيت، ثم يطبخ على النار إلى أن يغلى غليات عديدة

---

(1) - انظر الفصل الرابع من الباب الأول.

(2) - عمر موسى (عز الدين): الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص. 268.

(3) - أنور (عبدالعليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(4) - الرصافي: الآلة والأداة...، ص. 83؛ أنور (عبد العليم): نفسه، ص. 111.

(5) - ابن حيان: المقتبس...، ج 5، ص. 323.

(6) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص. 82، 83.

(7) - الناصري: كتاب الحيل وفتح المدائن وحفظ الدروب...، مخطوط، باب صناعة النفط.

(8) - الطرسوسي: تبصرة أرباب الألباب...، مصدر سابق، ص. 20 وما بعدها.

(8) مكرر - البلسان: حب البلسان أو تمر البشام حسب نعت أصحاب الأعشاب، وقيل عصيره. انظر: DOZY (R); Supplément..., op. cit, T. 1, p 110.

يضاف إليه... دهن بلسان ويستعمل فإنه من العجائب». وأضاف في نفط يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب:«(...) قطران جزء كبريت معدني وهو النفط... مثله كبريت أصفر جزء تسحق ما يجب سحقه، ويرفع القطران على النار.. فإذا غلى يضاف إليه السندروس ويضرب به إلى أن يختلط ثم يلقى عليه..الكبريت المعدني... تشعل فيه ناراً وترسله على الماء إلى ما أردت من المراكب، فإنه تحرق إحراقاً عظيماً، ويمشي على الماء ولا ينطفئ» [1] مكرر.

هل النفط البحري الذي تحدث عنه الطرسوسي مبيناً المواد والكيفية التي يصنع بها هو ذلك النفط البحري الذي عرف منذ القديم في وادي الفرات أم هو النفط المعروف بالنار الإغريقية[2] (Feu Grégeois) الذي عُرف لدى البزنطيين، وظل مجهولاً لمدة طويلة نظراً لفعاليته القصوى في الحروب البحرية؟ ذكرت بعض الأبحاث[3] أن النفط كان معروفاً عند العرب القدامى (السوريون) في المشرق، وكان يُرَكَّب، كما جاء عند الطرسوسي السابق الذكر، من القطران والكبريت ومواد أخرى شديدة الالتهاب و«يطلق من آلة من النحاس أو الحديد تعرف بالنفاطة، وكثيراً ما يقذف النَّفاطون النفط بالسّهام والنشاب وأحياناً بالمجانيق» [4]. ويعتقد أحد الدارسين[5] أن هذا النّفط يقابله عند البزنطيين النار اليونانية وهي زجاجات أو أنابيب تملأ بالنفط ومواد أخرى ملتهبة تنفجر حالما تسقط على ظهر وحدات الأسطول. وقد يطلق من أسطوانات نحاسية مستطيلة تُشَدُّ في مقدم السفينة على

---

(1) - الطرسوسي: نفسه، ص. 20، 21.

(1) مكرر - السندروس: شجر فيه نوعان: الهندي وهو الأجود، والسبتي إنه من الأشجار الدائمة الخضرة ثمره أسود أو بنفسجي، يستعمل في الطلاء.

DOZY (R); op. cit, T. 1, p. 693.

انظره في الفصل الثالث من الباب الثاني.

(2) – النار الإغريقية تتخذ من مواد شديدة الالتهاب كمسحوق الحرب (poudre de guerre) أو ما يُعرف ب (salpêtre). استعملت خلال القرن السابع الميلادي من قبل البزنطيين في حروبهم البحرية وحققوا بها انتصارات حاسمة على أعدائهم، ولذلك احتفظوا بعناية كبيرة على أسرارها ليضمنوا التفوق البحري. انظر:

Le Grand Dictionnaire de la langue française, Paris, 1989, T. 3, p. 2306.

قيل في مادة مسحوق الحرب (salpêtre) أن أحد علماء النبات الأندلسيين مات بسوريا في منتصف القرن الثالث عشر (1248 م) سمّى تلك المادة "بالثلج الصيني". وكانت تسمى في بزنطة "بالملح الصيني"، ويبدو أن أصل تلك المادة من الصين انظر: Contamine (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, p. 259.

(3) - أنور(عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114، 115؛ الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، ص. 164، 165.

(4) - أنور(عبد العليم): نفسه، ص. 115؛ عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية الإسلامية...، ص. 72.

(5) - أنور(ع): نفسه، ص. 115.

شكل كرات تشتعل أو قطع الكتان الملوث بالنفط[1]. لاشك أن بعض السفن الحربية الأندلسية خاصة الحراقات منها، كانت تستخدم هذا النفط في الحروب، كما كشفت عن ذلك المعلومات المصدرية، نظراً لفعاليته في قتال العدو، وقد عبر أحدهم[2] عن تلك الفعالية حين قارنه ((بالسلاح النووي المعاصر)). ولذلك تعمد السفن المعرضة لهذا النوع من السلاح إلى وسائل مختلفة لصده والدفاع عن نفسها، كأن تُحاط من الخارج «بجلود أو لبود مبلولة بالخل أو الماء أو الشّب والنطرون لدفع أذى النفط » [3].

إلى جانب النفط البحري تستعمل أسلحة أخرى في البحر كما هو الحال في البر، كالأقواس والنشاب والمجانيق والرماح والسيوف وغيرها. ومن السلاح أيضاً ما هو كالنفط خاص بالبحر كالكلاليب واللجام والسلاسل أو الباسليقات والحجارة وغيرها. فالكلاليب من الخطاطيف الحديدية تلقى عند الاقتراب من أسطول العدو لإيقافه أو جذبه[4]. واللجام أدوات تشبه الفؤوس محددة الرأس، أسفلها مجوف، تدخل في خشبة، تُطعن بها المراكب ليغمرها الماء[5].

أما الباسليقات فسلاسل تنتهي في رؤوسها برمانة من الحديد تستخدم للقتال على ظهر المراكب[6] مكرر. ويذهب الباحث عثمان عبد العزيز[7] إلى القول إن الأسطول الحربي الأندلسي كان يقاتل أحياناً "بوابل من الحجارة والأوظاف". لقد اعتمد إشارة واردة عند ابن القوطية[8] تذكر أن الأندلسيين قاتلوا المجوس الذين اكتسحوا سواحلهم بالأوظفة التي هي عظام البعير. يبدو أن هذا الكلام غير ذي معنى لأن البعير حيوان قل في الأندلس. وإن

---

(1) - الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، ص. 164. أضاف أنه من اختراع السوريين القدامى وتعلمه البزنطيون وليس العكس.

(2) LIROLA DELGADO (J); El poder naval..., p. 344.

(3) - الرفاعي: نفسه، ص. 165.

(4) - أنور (ع): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(5) - الرفاعي: نفسه، ص. 164.

(6) - أنور (عبد العليم): الملاحة وعلوم البحار...، ص. 114.

(6) مكرر - كان الأسطول الحربي في إنجلترا يتلقى من المدن الساحلية أنواعاً من السلاح مثل الزرود والخوذ والسيوف والفؤوس وغيرها.

CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age..., op. cit, pp. 138, 139.

(7) - عثمان (ع. العزيز محمد): البحرية الإسلامية في الأندلس...، ص. 66.

(7) - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس...، ص.80، 81.

وجد في بعض المناطق كالهضاب الداخلية فكيف يمكن جمع عظامه لاستعمالها في القتال البحري[1]؟

إلى جانب الأسلحة السالفة الذكر عُرفت أشكال من التّمويه والتكتيك في القتال والمعارك البحرية. يقول ابن عذاري[2] بأن الخليفة الحكم المستنصر أمر عام 355 هـ، بأن يقام الأسطول بنهر قرطبة وتتخذ المراكب «على هيئة مراكب المجوس تأميلا لركوبهم إليها ». ويلتجئ رجال الأسطول الحربي إلى إسدال قلوع زرقاء بلون البحر على سفنهم كي لا تظهر للعدو[3]. وقد يستخدم رئيس الأسطول فانوسا تهتدي به السفن ويقتدي به قواد الأسطول، يقتلعون باقتلاعه ويرسون بارسائه[4]. إضافة إلى عمليات التمويه يعمد رجال الأسطول إلى أشكال أخرى من التكتيك[5] منها مثلا، عند التقاء سفينتين حربيتين تستعمل ألواح خشبية ليمر عليها المقاتلون كي يدور القتال على ظهر السفن. ولإغراق السفن تقذف اللجام السالفة الذكر قصد إحداث ثغرات بها، أو ترمى بالقوارير النفطية حتى تشتعل فيها النيران.

---

(1) - ترد كلمة الأنفاض في بعض المصادر، وتستعمل لقذف البارود، لكنها متأخرة لأنها مرتبطة باختراع البارود نفسه: انظر:

ابن الحاج: فيض العباب...، مصدر سابق...، أماكن متعددة؛ المنوني: ورقات...، مرجع سابق، ص. 80.

(2) - ابن عذاري: البيان...، ج 2، ص. 239.

(3) - عثمان (محمد عبد العزيز): البحرية الإسلامية...، ص. 71، 72.

(4) - سالم (ع)، العبادي (م): تاريخ البحرية...، ج 1، ص. 129؛ الرفاعي (أ): النظم الإسلامية...، ص. 165.

(5) - للمزيد من التفصيل عن التكتيك الحربي في الأساطيل انظر:

جمال محفوظ: فن الحرب عند العرب...، مرجع سابق، ص. 100 وما بعدها؛ الجنابي (خالد جاسم): تنظيمات الجيش العربي...، ص.161 وما بعدها؛ العسلي (بسام): فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، بيروت، دار الفكر، 1974، ص.193 وما بعدها.

خلاصة

حاولنا في هذا الفصل النظر إلى دور رجال الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف من زاوية الأعداد والحمولات والقيادة والأسلحة والرواتب. وتبين أن المعلومات المصدرية المتوفرة، وهي قليلة، لا تكشف النقاب عن أعداد الرجال في الأسطول وأعداد القطع فيه إلا في مناسبات محددة كالانتصار في معركة بحرية أو الاستعداد لها. وبفضل لمّ إشارات متعددة تهم أنواع وحدات الأسطول الحربي أمكن إبراز أهمية أحجام بعضها وتقدير حمولتها في الرجال والأسلحة دون إغفال مقارنة ذلك مع الأنواع والحمولة في الأسطول الفاطمي أو الأوربي.

وبالنسبة للقيادة والأصول الاجتماعية لمكونات رجال الأسطول اتضح أن المعلومات المصدرية المتوفرة لم تتعد الحديث عن كبار رجال الأسطول أي القادة الذين يشرفون على دور الصناعة وتوجيه المعارك البحرية، والاستفادة من امتيازات عديدة على غرار أمثالهم في الجند البري. أما صغار رجال الأسطول الذين يزاولون الأعمال الكبرى والمختلفة في الأسطول كإعداد الأسلحة والجذف وغير ذلك، فلا نكاد نعرف شيئاً عن حياتهم في الأسطول. وتعد المؤونة والألبسة والأسلحة في الأسطول الحربي من المواضيع الهامة التي ما تزال بكراً. ولذلك حاولنا طرح مجموعة من القضايا والتساؤلات بصددها. لقد اتضح أن رجال الأسطول كانوا يعتمدون ما يضمن لهم الصمود والانتصار في اللباس والمؤونة والسلاح. ففي السلاح مثلا تبيّن أن رجال الأسطول كانوا يعتمدون على بعض الأسلحة التي استخدمها رجال البر. لكن كشفت النصوص المصدرية أن رجال الأسطول الحربي الأندلسي استخدموا خلال عصري الخلافة والطوائف سفن "الحراقات" في القتال ولذلك صنعوا سلاح النّفط الذي استعملوه بشكل واسع إلى جانب أسلحة أخرى متعددة. ومن هنا أمكن تجاوز الرأي القائل[1] بعدم التمييز في السلاح ما بين الأسطول والجيش البري.

---

(1) - عمر موسى (عز الدين): الموحدون في الغرب الإسلامي...، مرجع سابق، ص. 268.

خاتمة

استعرضنا في الفصول السابقة المخصصة للرباطات البحرية ودور الصناعة وأنواع السفن والوحدات الحربية ومواد الصناعة فيها، ورجال الأسطول بأعدادهم وأسلحتهم وألبستهم، أهم القضايا التي تهم الأسطول الحربي الأندلسي خلال عصري الخلافة والطوائف. فبفضل ما تم رصده من المادة التاريخية في المظان المختلفة حول القضايا السالفة الذكر، تبيّن إجماع المصادر حول أهمية الرباطات البحرية بالأندلس باعتبارها ثغراً هاماً من ثغور "دار الإسلام". ورغم ما حظي به الرباط البحري من اهتمام في المصنفات القديمة لاحظنا أن البحث المعاصر لم يعره الاهتمام اللازم وبذلك يظل في حاجة إلى البحث والتقصي انطلاقاً من مجموعة من أمهات المصادر التي ما تزال مخطوطة. إن المتمعن في المادة المصدرية المرتبطة بالرباط يلاحظ أن ازدهاره بالأندلس كان له ارتباط واضح بطبيعة السلطة السياسية والعسكرية. فقد نشطت الرباطات البحرية كما هو الشأن بالنسبة لجهاد العلماء والفقهاء والقضاة[1] بالثغور الشمالية، إبان أزمات السلطة، في حين تقلصت الرباطات لما تقوت السلطة السياسية والعسكرية المركزية بقرطبة خلال القرن الرابع الهجري واتجهت أنظارها إلى إرساء بنيات اقتصادية وعسكرية جديدة تمثلت في إقامة دور لصناعة الأساطيل على طول السواحل الأندلسية والعناية بجيش الأسطول. لقد تتبعنا بفضل المادة المصدرية المتوفرة، كيفية بناء سلطة قرطبة للعديد من دور الصناعة كالمرية ومالقة والجزيرة الخضراء وإشبيلية، وشلب وقصر أبي دانس، ولقنت وطرطوشة ودانية والجزائر الشرقية وغيرها. إن إقامة هذه البنية الصناعية الحربية تأتت بفضل الإمكانيات المادية والبشرية التي حظيت بها الأندلس واستغلتها الخلافة بشكل مباشر، إذ استفادت من المواد الطبيعية المتمثلة في الغابات والأخشاب المختلفة وكذا المعادن كالنحاس والزفت والقطران وغيرها. كما استفادت من الأودية وغيرها في مجال النقل. كل ذلك وفر إمكانيات ضخمة مكنت من بناء أسطول تجاري وحربي قوي ضاهت به الخلافة أعداءها داخليا وخارجيا. حاولنا أيضا تتبع أنواع

(1) - انظر الفصل المخصص لنظام الثغور.

الوحدات التي تشكل منها الأسطول الحربي الأندلسي وطريقة اشتغالها والمسافات التي تقطعها وحمولاتها باعتبار تلك القضايا غير مسبوقة، فيما نعلم، في البحث العربي المعاصر. واتضح أن قراءة متأنية في المصادر تسمح بالقول إن وحدات الأسطول الحربي الأندلسي تطلق عليها ألفاظ تكشف عن طابعها العسكري مثل الأغربة والأجفان والشواني والحراقات وغيرها، إلى جانب ذلك فهي تمتاز بالخفة والسرعة في القتال، رغم اختلاف أحجامها وحمولاتها. كل ذلك يدفعنا إلى القول بإمكانية التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري منذ القرن الرابع الهجري على الأقل وليس القرن السادس الهجري (العصر الموحدي) كما ذهب إلى ذلك العديد من الدارسين الذين أشاروا إلى أن أكبر الأساطيل الحربية في الغرب الإسلامي كانت على عهد الموحدين. فإذا، كان بالفعل، الأسطول الموحدي، كما يبدو للوهلة الأولى، أكبر قوة هجومية في الغرب الإسلامي، فما هو في واقع الأمر إلا إرث أندلسي مرابطي[1].

تجدر الإشارة إلى أن أسس وقواعد الأسطول في الغرب الإسلامي، ونقصد بذلك البنية التحتية للأسطول أي دور الصناعة والإنشاء ووحدات الأسطول، والإمكانيات المادية والبشرية المسخرة في ذلك، قد وضعت، بلا جدال، كما تشهد بذلك المصادر، في عصر الخلافة أي طيلة القرن الرابع الهجري (X م)، وبالتحديد خلال عهد الخليفة الناصر300هـ ـ 350 هـ (961) م. أما بعده مباشرة أي خلال عصر خلفه الحكم المستنصر، والمنصور بن أبي عامر، ثم الطوائف، فتكاد تتفق المصادر أن الزعماء وإن حاولوا الزيادة في عدد وحدات الأسطول أو توسيع دور صناعته فإن بعضهم خاصة خلال الطوائف احتفظ بما شُيِّد سابقا. وبخصوص رجال الأسطول الحربي، حاولنا إثارة ما يتعلق بأسلحتهم وألبستهم ورواتبهم باعتبارها قضايا ما تزال في حاجة إلى البحث والعناية.

لاشك إذن أن الخلافة الأموية بقرطبة تمكنت من بناء أسطول حربي قوي سمح بإشعاع نفوذها السياسي والعسكري داخل الأندلس وخارجها. فعلى المستوى الخارجي واجهت سلطة قرطبة المسيحيين شمالا والفاطميين الشيعة جنوبا. ففي الواجهة الأولى أجمعت المصادر على قوة الخلافة عبر مختلف الحملات البحرية التي نظمتها ضد

---

(1) - انظر ملاحظات العروي في هذا الاتجاه: **مجمل تاريخ المغرب...**، مرجع سابق، ج 2، ص. 96.

المسيحيين الذين لم يتمكنوا من الغلبة في البحار قبل القرن الحادي عشر الميلادي. أما في الواجهة الجنوبية فيمكن القول إن الخلافة لم تتوان في استعمال الأسطول الحربي ضد الفاطميين سواء في شمال إفريقيا أو في مصر. لقد احتد الصراع بينهما بعد إعلان الخلافة بقرطبة ومحاولة عبد الرحمن الناصر الدفاع عن هذا اللقب وكما قال أحد الدارسين[1]، إن إضفاء صفة الجهاد على حملات الأسطول هو في الواقع محاولة لإثبات شرعية الحكم واللقب. ولذلك اكتسى الصراع أيضاً طابعاً سياسياً وإيديولوجياً. وقد عكست المصادر الفاطمية والأموية الأندلسية[2] تلك الصراعات بامتياز. يقول أحد الفقهاء هو أبو الحسن الخلاف[3]«إن قتال الفاطميين أفضل من قتال المشركين». و«محاربة الفواطم فرضاً واجباً على كل مسلم». وقد رد الفاطميون بالقساوة نفسها على الأمويين بالأندلس كما يتضح من أمثلة متعددة منها مثلاً: أن العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمي صعد المنبر لأول ولايته فوجد أبياتاً في ورقة تقول:

إنـــما سمعنا نسباً منكــراً

يُتلى على المنبر الجامع

إن كنت فيما تَدَّعي صادقاً

فاذكر أبا بعد الأب السابع

ورد العزيز إلى صاحب الأندلس كتاباً سبَّه فيه وهجاه، لكن الأموي أجابه بالقول: «أما بعد، فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك» [4]. أكثر من ذلك نزلت الخلافة الأموية بكل ثقلها في مجال الأسطول ضد الفاطميين، بل تحالفت مع البزنطيين الأقوياء في البحر ضد الفاطميين. كما أنها استدعت قوادها المشهورين من الثغور، أي من الواجهة المسيحية وكلفتهم بقتال الفاطميين وإخضاع شمال إفريقيا. انطلاقاً مما سبق نعتقد أن مقولة "دار الإسلام"، و "دار الحرب" لم تعد تشغل الأذهان ووجب مراجعتها لأن التحالفات السياسية والاقتصادية والعسكرية أقوى منها.

---

(1) - العروي (ع): مجمل تاريخ المغرب...، ج 2، ص. 96.
(2) - النعمان القاضي: كتاب المجالس والمسايرات...، مصدر سابق، أماكن متعددة؛ ابن العربي (أبو بكر القاضي المالكي): العواصم من القواصم، تحقيق: الخطيب (محي الدين)، القاهرة، دار الكتب السلفية، 1405 هـ ص، 271؛ ابن حيان: المقتبس، ج 5، أماكن متعددة؛ ابن عذاري: البيان، ج 2 و 3، أماكن متعددة.
(3) - أورده فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية...، مرجع سابق، ص. 176.
(4) - ابن العربي: العواصم من القواصم...، ص. 271.

رغم ذلك يمكن القول إن الخلافة بالأندلس شيدت أسطولا حربيا هاما ساهم في تطوير بنياتها في مجالات متعددة. لكن نعتقد أن جوانب من هذا الأسطول ما تزال في حاجة إلى مجهودات الباحثين لإنارتها. وقد يعول على نتائج البحث الأركيولوجي البحري في تعويض النقص الذي يطال المادة المصدرية، قصد تطوير البحث المرتبط بالأسطول عموما.

الخاتمة

ما هي الخلصات أو النتائج الأساسية التي توصل إليها هذا البحث الذي اهتم بتحليل النظام العسكري الأندلسي، باعتباره وجها من أوجه الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي عرفتها الأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف؟

لقد أمكن القيام بجرد واسع لمادة مصدرية غنية ومتنوعة متناثرة في متون المظان المختلفة، أسعفتنا في التدقيق في الكثير من القضايا الأساسية التي تدخل في فهم النظام العسكري الأندلسي خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة. اعتماداً على هذه المادة المتوافرة حاولنا دراسة الكور المجندة عبر رصد وتتبع مكوناتها البشرية والعرقية ومناطق استقرارها بالأندلس منذ البداية باعتبارها النواة الأولى التي تأسس عليها الجند الأندلسي. وأهم نتيجة توصل إليها هذا البحث في هذا الصدد هي أن الكور المجندة لم تنته مع سقوط الإمارة وقيام الخلافة، كما يعتقد العديد من الدارسين، بل استمرت في عهد الخلافة خاصة خلال عصري عبد الرحمن الناصر وخلفه الحكم المستنصر، إلى أن قضى على أسسها الحاجب المنصور بن أبي عامر لما طبق الإصلاح العسكري الذي اعتمد فيه على العناصر البربرية بالدرجة الأولى.

إن إرساء الخلافة الأموية وبناء دولة أو سلطة سياسية مركزية قوية ونافذة، والقضاء على ظاهرة التجزؤ السياسي والعسكري الذي عمّ الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، دفع بهذه السلطة المركزية إلى عدم الاكتفاء بالقوى العسكرية التي تقدمها الكور المجندة بالأقاليم، فأقدمت على إنشاء جند مركزي عرف بجند الحضرة، كان يتخذ من قرطبة قاعدته الأساسية. لقد اعتمدت الخلافة هذا الجند واستخدمته كأداة قوية وفعالة ساهم إلى حد كبير في بسط نفوذها داخليا وخارجيا. وبفضل ما تم الاطلاع عليه من مادة مصدرية متنوعة أمكن تحليل مكونات هذا الجند. وتبيّن أن الخلافة الأموية كانت قاعدتها العسكرية مبنية بالدرجة الأولى على الأرستقراطية العربية من جهة والصقالبة من جهة

أخرى إلى جانب عناصر أخرى لها أهميتها كـ"الحشـم" أو البربـر" وغيـرهم. ومـن الخلاصات الأساسية في هذا الباب أن جند الحضرة الذي اعتمدته الخلافة، وإن تشكل من خليط من العناصر أو من القوى البشرية والاجتماعية، كان مبنياً على نوع مـن التـوازن الذي راهنت عليه الخلافة. ونعني بذلك، التوازن القائم على ثنائية الأرستقراطية العربيـة "والبيروقراطية" الصقلبية النافذة، وإن العناصر الأخرى كانت تساهم أو تتدخل من حـين لآخر قصد الحفاظ على ذلك التوازن ما أمكن. وقد نجحت الخلافة بقرطبة عبـر وسـائل متعددة منها تحديد أرزاق وأعطيات الجند عن طريق "ديوان الجنـد"، فـي ضـبط جنـد الحضرة واستعماله في أغراض متعددة سواء في الداخل أم في الثغور وفي شمال إفريقيـا كذلك. وبصدد الثغور أمكن استغلال مادة مصدرية غنية مما كشف عـن خصوصـياتها المتعددة لأن الخلافة كانت تعتبرها مناطق حربية دائمة. وسلكت تجاهها أيضاً سياسة قائمة على نوع من الازدواجية. لقد شجعت في بداية الأمر الاستقرار البشري والعسكري بهـا، كما عيّنت قواداً عسكريين كباراً يمثلونها هناك. وعمدت في مرحلة أخرى، وتحت ضغط ظروف متعددة، إلى "التسجيل" لعائلات كبرى مشهورة، أي تشجيع استقرار تلك العائلات في أقاليم الثغور بواسطة امتيازات متعددة اقتصادية وعسكرية. وقد تبيَّن من خلال المعلومـات المصدرية المتوافرة أن سياسة الخلافة أدت إلى تجـذر الملكيـات الكبـرى إن لـم نقـل "الإقطاعيات" في الثغور والتي كانت تورث في الأسر السالفة الذكر. وقد أوضحنا أن هـذه السياسة ساهمت في ضعف الثغور وسهلت التغلغل المسيحي بأشكال مختلفـة فـي عمـق الأندلس.

إن إمعان النظر في النصوص المصدرية المختلفة أدى إلى تسـليط الأضـواء علـى التحولات الكبرى التي أحدثها المنصور بن أبي عامر فيما بنته الخلافة من قبل. وقد سمحت النصوص المتعددة بإثبات مجموعة من الملاحظات والخلاصات، إن لم نقل بناء تصور أكثر دقة ووضوحاً فيما يُعرف بالإصلاح العسكري العامري مما يسمح - في اعتقادنا- بمراجعة ما قيل وكتب في هذا الإصلاح من قبل الدراسات العربية والأجنبيـة إلـى الآن. لاشـك أن

المنصور بن أبي عامر قد نجح إلى حد بعيد في إلغاء الكور المجندة وقلب التوازن العسكري الذي أرسته الخلافة قبله في مكونات جند الحضرة. لقد أقدم على فتح باب الأندلس على مصراعيه لاستقبال الجند البربري بمختلف مكوناته، الزناتي والصنهاجي والبرزالي وغيره، من العدوة المغربية أساسا، ومنحه كل الامتيازات الممكنة، بل أخذ تدريجيا مكان الأرستقراطية العربية والصقلبية. وأكثر من ذلك باشر إصلاحا اقتصاديا واكب به التغييرات في أسس جند الحضرة. لقد أعفى الفلاحين من "الجندية" ودفع بهم إلى ملازمة الأرض والإنتاج من أجل توفير ضرائب سنوية تكون بمثابة أعطيات وأرزاق للجند المتخصص الذي بناه. لكن ثَمَّ الكشف عن ثقل وكثرة الضرائب بما فيها غير الشرعية، التي يؤديها المنتجون دون معرفة مقاديرها ولا مقادير ما يتقاضاه الجند من الديوان رغم إجماع المصادر على أن ثلث الإنتاج كان يخصص للجند. أكثر من ذلك بيَّنَّا أن الإصلاح العسكري العامري كان يهم – في المقام الأول – الجند البربري الذي اصطنعه المنصور بن أبي عامر شخصيا، وكذا الفلاحين المنتجين. ولم يمس كثيرا أصحاب الامتيازات الكبرى. انطلاقا من ذلك اعتبرنا أن الإصلاح العسكري العامري الذي أغرى العديد من الدارسين، خاصة في جانبه التنظيمي، قد نجح بالفعل في تغيير أو قلب الدعائم البشرية المكونة للهرم العسكري الذي ساد من قبل. لقد نجح في رفع الجند البربري إلى قمة الهرم وتهميش المكونات الأخرى أي الأرستقراطية العربية والصقلبية. وهكذا حوّل الصراع من صراع ثنائي خطير إلى آخر ثلاثي أقل خطورة قاده المنصور نفسه بزعامة الجند البربري. ومن هذا المنظور تأكد أن الإصلاح العسكري العامري لم يكن البتَّة بنيويا. لقد كان مشروعا ظرفيا أو شخصيا محدود الفعالية السياسية والاقتصادية، بدليل كاشف تجلى في فشله بمجرد موت صاحبه. لقد انهار البناء العسكري غير الصلب الذي بناه المنصور بن أبي عامر مع مطلع القرن الخامس الهجري. وعادت الصراعات العسكرية القاتلة إلى الواجهة وتحكمت فيها الحسابات والنعرات القبلية والعرقية العربية والبربرية والصقلبية وغيرها.

وبفضل ما أمكن الاطلاع عليه من معلومات مصدرية متنوعة، وكذا الاستفادة من نتائج العديد من الأبحاث والدراسات الأثرية والطبونيمية المعاصرة، تمَّ تحليل ما يعرف بالسكن المحصن أو العمارة الحربية في الأرياف والمدن الأندلسية، والمتمثلة في الحصون والقصبات والأبراج والقصور والأسوار وغيرها. وبقراءة متأنية فيما تمَّ جمعه من المادة العلمية بهذا الصدد تجاوزنا النظرية أو التصورات التقليدية التي سادت في أغلب الأبحاث العربية المعاصرة التي تقول بشح المادة المصدرية المتداولة وعموميتها واقتصادها على سرد جوانب متعددة من التاريخ العسكري باعتباره يركز على الأحداث السياسية والبطولية التي تقف في معظمها عند المعارك والأعداد المشاركة فيها والشخصيات النافذة فيها إلخ...

لقد حاول البحث النظر إلى العمارة الحربية من زاويتين أساسيتين تتعلق الأولى بالتوثيق المصدري الذي يهدف إلى القيام بجرد واسع، ما أمكن، وإعداد لوائح بأسماء الحصون والقصبات أو المواقع السكنية المحصنة عبر الأرياف والمدن، وهي كثيرة ومتنوعة، وذلك في أفق ضبطها والمساهمة في توطينها، الشيء الذي يؤدي إلى إبرازها والتقليل من عملية طمسها بفعل عوامل طبيعية وبشرية متعددة.

وفي المحور الثاني قراءة توظيفية للعمارة الحربية، أي محاولة فهم أدوار ووظائف الحصون والقصبات وغيرها من خلال ربطها بمجموعة من المعطيات الاقتصادية والبشرية والسياسية. وبتعبير آخر تمَّ ربط وظائف التحصينات بثالوث السلطة والمجال والإنسان. مما سمح برصد وتتبع أهمية العمارة العسكرية ووظائفها، التي لا تقتصر على الجانب العسكري الصرف، بل تعددت الوظائف لتشمل المساهمة في تأطير المجال اقتصادياً وسياسياً وبشرياً[1]. لقد حاولنا بناء تصور جديد حول العمارة الحربية خلال عصري الخلافة والطوائف يستند إلى مراحل مختلفة تتدخل أو تتحكم فيها العوامل السياسية والاقتصادية والبشرية حسب الظروف.

---

[1] ـ لم نخف التأثير المنهجي الذي مارسه البحث الأوربي المعاصر حول السكن المحصن في الفيودالية الأوربية على هذه الدراسة كما يتضح من خلال عقد مجموعة من المقارنات التي تفرضها قضايا محددة. مع الإشارة إلى الالتزام بالحيطة والحذر لأن المقارنات، رغم أهميتها، لا تصلح في كل القضايا.

ونعتقد أن وظائف التحصين قد خضعت لمرحلة انتقالية تزامنت مع بداية عصر الخلافة التي اتسمت بالصراعات المختلفة. ففي إطار البحث عن الاستقرار السياسي والعسكري بقرطبة عمدت الخلافة في شخص عبد الرحمن الناصر إلى الهدم المنظم والممنهج لأغلب الحصون والقصبات، لكن لم تتردد، في الوقت نفسه، في بناء أخرى بل ومدن أخرى من أجل محاصرة و"إنزال" المعارضين. إن هذه السياسة كان يقودها هاجس الأمن والبحث عن الاستقرار وإخضاع المجال الطبيعي والبشري. وذلك ما تحقق بالفعل في مرحلة ثانية تزامنت مع أوج وقوة الخلافة بقرطبة. تميزت هذه المرحلة بإنشاء جند الحضرة الأداة العسكرية المركزية الهامة، وبالاستقرار واستكمال إخضاع المجال. إن التحكم في الحياة الاقتصادية والبشرية والعسكرية أدى إلى تجاوز نظرة الهاجس الأمني والعسكري التي طبعت المرحلة الأولى الانتقالية، وصارت العمارة الحربية تساهم في تأطير المجال اقتصاديا وبشريا وسياسيا وعمرانيا. ولم تكتف الخلافة الأموية بذلك، أي بإخضاع المجال داخليا، بل تطلعت إلى مراقبة المجال الخارجي سواء في الواجهة المسيحية أم في شمال إفريقيا. ومن هنا أمكن الحديث عن مرحلة أخرى في العمارة العسكرية التي سميناها بالحصون "الثكنات" التي أسستها الخلافة في مناطق استراتيجية على شكل خط طولي يمتد جنوبا من حصن طريفة المقابل للمضيق إلى حصن "غرماج" (عرماج) في إقليم صوريا شمالا، مرورا بحصون جيان وعقبة البقر في الوسط. إنها حصون المراقبة العسكرية التي كانت شاهدة على قوة ونفوذ السلطة السياسية المركزية بقرطبة. أما القصبات والأسوار في المدن فعالجنا أدوارها السكنية والعسكرية الدفاعية.

وبمجرد مطلع القرن الخامس الهجري وسقوط الخلافة، انهارت المراحل السابقة لتفسح المجال لمرحلة أخرى حدثت فيها تحولات عميقة في وظائف العمارة العسكرية، وذلك بشكل يوازي ظاهرة التجزؤ السياسي والإقليمي الذي طال الأندلس كلها. وهكذا عاد هاجس الأمن الذي طبع المرحلة الأولى إلى الواجهة. وصار تأطير المجال اقتصاديا وبشريا يمر عبر عملية الصراع على اكتساب المواقع المحصنة، وبناء الحصون والقصبات أو ترميمها.

وبذلك أصبحت العما رة الحربية إطاراً ضروريا لمختلف الأنشـطة العمرانيـة والبشـرية والاقتصادية. وقد قدمنا نماذج وحججاً لذلك من خلال معلومات المصادر المعاصـرة لتلـك الأحداث.

إن الجمع ما بين المادة المصدرية التوثيقية ونتائج البحث الأثري والطبونيمي المعاصر، أفاد كثيراً في إعادة قراءة وظائف العمارة العسكرية الأندلسية خـلال عصـري الخلافـة والطوائف. كما أفاد أيضاً في الكشف عن طبيعة مواد البناء وطرق البناء والأشكال الهندسية المتبعة في العمارة. ولاشك أن الفائدة الأولى لهذه العملية تكمن في فتح آفاق جديدة للبحـث، وإتاحة إمكانية قراءات جديدة في وظائف العمارة الأندلسية عامة ووظائف السكن المحصن بالدرجة الأولى، وذلك في فترات تاريخية مختلفة.

وفي إطار استكمال التصور عن النظام العسكري الأندلسي عـالج البحـث الأسـطول الحربي. لقد حاولنا استقصاء نصوص دالة تبحث في قضايا دقيقة تهم دور الصناعة ومـواد إنشاء الأساطيل. ناهيك عن ما يهم رجال الأسطول في الأسلحة والعادات الحربية واللبـاس والرواتب وأوقات تحرك الأسطول للقتال، وحمولات السفن إلى غير ذلك من القضايا التـي تساهم في فهم طبيعة الأسطول الحربي. ومن خلال المادة المصدرية المتوافرة أمكن الانتهاء إلى خلاصات أساسية منها على سبيل المثال تجاوز الاعتقاد السائد حول عدم التمييز ما بين الأسطول الحربي والتجاري قبل القرن السادس (VI هـ) الهجري (XII م)، أو أن أكبر وأول أسطول حربي في الغرب الإسلامي عرف على عهد الموحدين. لقد أثبتت الدراسة من خلال استعراض نصوص مصدرية دقيقة، معطيات هامة تقدم إمكانية التمييـز مـا بـين قطـع الأسطول الحربي وسفن الأسطول التجاري منذ عصر الخلافة. لقد كشفت المصـادر عـن خبرة الأندلسيين في ميدان البحار منذ القرن الرابع الهجري مما أكسبهم أسطولاً قوياً أبهروا به الأوربيين، قبل أن ينقلب ميزان القوى لصالحهم في البحار خلال القرن الخامس الهجري (XI م).

إلى جانب هذه القضايا الكبرى تصدى البحث لمجموعة من المواضيع الجزئية التي لا تقل أهمية في فهم جوانب متعددة من النظام العسكري الأندلسي. من ذلك مثلا اعتماد بعض النصوص الجديدة خاصة في المصادر المخطوطة للنظر في قضايا الجند مثل خطط الجند وأساليب القتال وخطط الخيل والمراتب العسكرية، والقيادة، ولغة التواصل، والتموين، والمسافات العسكرية. ناهيك عن مواضيع أخرى جزئية لكنها حاسمة، أغفلها البحث المعاصر، وترتبط بالجانب التقني الذي يُحدث أحيانا ثورة في مجالات محددة كما هو الحال في وظائف بعض الأسلحة والألبسة العسكرية كالسروج ولوازمها والصفائح وغيرها من الأدوات القتالية الهامة.

إن الاطلاع على متون المصادر العربية المتنوعة، والاستفادة من المصادر المسيحية أيضا، دفعنا إلى عقد مجموعة من المقارنات التي لا تخلو من فائدة سواء بالمشرق العربي أم بالمغرب، أم بأوربا الفيودالية؛ مما سهل إعادة النظر في العديد من المقولات والنظريات الجاهزة التي تعتقد بتفوق أوربا عن العالم الإسلامي في الكثير من الميادين. ورغم ذلك نبادر إلى القول إن التاريخ العسكري أو تاريخ الحروب في الغرب الإسلامي وفي الأندلس، باعتباره وجها من وجوه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ورغم ما شاع حوله من أراء وتصورات ما يزال، في اعتقادنا، في حاجة إلى البحث والتقصي. إن من شأن البحث الجزئي العميق في ميادين العمران والسّكن والسكان، والاقتصاد وغير ذلك، أن يفيد في خلق تراكم معرفي هام وضروري، يوفر شروطا أفضل لعقد مقارنات واسعة وبناء الأدوات المنهجية والمصطلحات التي تساهم في إنجاز أبحاث أكثر دقة وإفادة علمية في المجال العسكري أو غيره.

المصادر

لا يدعي البحث الإلمام بكل المصادر والأبحاث المفيدة في الموضوع. لكن نشير إلى أن اللائحة المعتمدة لا تضم إلا ما تمت الاستفادة منه بشكل مباشر.

أولاً: المخطوطات

- إبراهيم (برهان الدين المصري الحنفي)، إجارة الإقطاع. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 216/ 2.
- ابن أبي حجة (يوسف)، رعاية الرعية. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 6795.
- ابن أبي حجلة، منطق الطير. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 1910.
- ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام. ت 399 هـ)، منتخب الأحكام. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1730.
- ابن أبي النور (إبراهيم عبد الواحد بن أبي النور)، سياسة الأمراء ولاة الجند. مخطوط، الاسكوريال (مدريد)، رقم 719.
- ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن الحاج)، النوازل. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم ج55.
- ابن رضوان (أبو عبد الله محمد)، مطلع اليُمن والإقبال في استيفاء ما للخيل من الأحوال. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د3640.
- ابن رضوان (أبو عبد الله محمد)، كتاب في صنعة الأمور الجهادية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1342.
- ابن زكريا (إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي)، كتاب في صنعة الأمور الجهادية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1342.
- ابن زكون (أبو علي حسن)، اعتماد الحكام في مسائل الأحكام. مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ق 413 (مجموع).
- ابن سهل (عيسى بن الأصبغ)، الأحكام الكبرى. مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ق 838.

- **ابن المناصف** (أبو عبد الله محمد بن عيسى)، الانجاد في أحكام الجهاد. مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، رقم 748.

خزانة بن يوسف، مراكش، رقم 216.

- **ابن منكلي** (محمد بن محمود المصري)، الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية. مخطوط، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1950. نسخة ذ. محمد المغراوي.

- **ابن النحاس** (أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن النحاس الدمشقي)، مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق (مثير الغرام إلى دار الإسلام). مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 2366.

- **ابن هذيل** (علي عبد الرحمن الأندلسي. 763 ـ 1361 م)، تحفة الأنفس وشعار سكان الأندلس. مخطوط، الاسكوريال، (مدريد)، رقم 1652.

- **ابن هذيل**، في الرباط والجهاد. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1108، الاسكوريال، 904.

- **أبو الحسن** (محمد بن الحسين الأهوازي)، الفوائد والقلائد، قلائد السلوك فيما يحتاج إليه الملوك. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 6481.

- **أبو عبيد الله** (محمد بن يوسف الأخباري)، كتاب الإيضاح في علم الرمي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 1867، (مجموع).

- **أبو الوليد** (هشام بن عبد الله بن هشام الأزدي)، المفيد للحكام فيما يُعرض لهم من نوازل الأحكام. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 805.

- **البرزلي**، اختصار فتاوي البرزلي (مسائل الجهاد)، جمع ابن أبي زيد الأندلسي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 826.

- **البطريق** (يحيى أبو إسحاق)، كتاب السياسة في تدبير الرئاسة. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 94 (مجموع).

- **التدميري** (أبو العباس أحمد وليد بن محمد)، كتاب السياسة فيما يحتاج إليه الملوك مع فضل الخلافة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم 1033.

- **التميمي** (أبو عبيدة معمر المثنى)، كتاب الخيل وما ورد فيها. مخطوط، الخزانة العامة، د 1312.

- **الجزيري** (أبو الحسن علي بن يحيى بن القاسم الجزيري)، المقصد المحمود في تلخيص العقود. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 592 ق.
- **السخاوي** (شمس الدين)، القول التام في فضل الرمي بالسهام. مخطوط، مكتبة الاسكوريال، (مدريد) 765.
- **السملالي**(علي السوسي)، غاية الاستعانة بحكم التوظيف والمعونة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 480.
- **السيوطي** (جلال الدين)، جر الذيل في علم الخيل. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط د 1775.
- **الصفوري** (عبد الرحمن الإمام)، نزهة المجالس ومنتخب النفائس. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، ج 693.
- **طيبغا** (الأشرفي)، كتاب بغية المرامي وغاية المرام للمعاني في علم الرمي. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1867 (مجموع).
- **عباس بن إبراهيم**،الإمتاع بأحكام الإقطاع.مخطوط،الخزانة العامة، الرباط، رقم د 13.
- **الغزالي** (أبوحامد الإمام)، التبر المسبوك في نصيحة الملوك أو (نصيحة الملوك والوزراء والولاة). مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم د 1193.
- **الكردودي** (محمد بن عبد القادر)، سياسة حربية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 2071 (مجموع).
- **مجهول**، آثار في الرماية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1314.
- **مجهول**، إجارة الإقطاع. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، 216 (مجموع).
- **مجهول**، البدائع والأسرار في حقيقة الرد والانتصار. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ق 32 (مجموع).
- **مجهول**، الجهاد والسلاح. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1184.
- **مجهول**، في علم الرمي وفضل القوس والوتر والنشاب ومعرفة أصول ذلك وسقاية السلاح المهلكة. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم 64.
- **مجهول**، في الوقف والأمور الجهادية. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 2125.
- **مجهول**، كامل الصناعة في الفروسية. مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم،

رقم 666.

- **مجهول**، كتاب الجهاد. الخزانة العامة، الرباط، 2125 (مجموع).

- **مجهول**، كتاب الجهاد. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ك 104.

- **مجهول**، كتاب الخيل. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1312.

- **مجهول**، كتاب علم الرمي وصفاته ومقاديره ومداراته، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، د 1867 (مجموع).

- **مجهول**، كتاب في الفروسية والمعرفة بالدواب وأحوالها. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 6101.

- **مجهول** (المراكشي؟)، سيرة أجواد الأنجاد في مراتب الجهاد. مخطوط، الخزانة الحسنية، الرباط، 5917.

الخزانة العامة، الرباط، ج 94 (مجموع).

- **الناصري**، كتاب الحيل في الحروب. مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، ميكروفلم، 2216.

ثانياً: المصادر المطبوعة

- **ابن الأبار**(أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي. ت 658 هـ/ 1260م)، الحلة السيراء. تحقيق مؤنس (حسين)، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1963.

الجزء الأول ـ الجزء الثاني.

- **ابن الأبار**، ديوان ابن الأبار. تحقيق الهراس عبد السلام، الدار التونسية للنشر، 1985.

- **ابن الأبار**، المقتضب من كتاب تحفة القادم. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983.

- **ابن أبي زرع** (علي الفاسي. ت 726 هـ/ 1325 م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدنية فاس. الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972.

- **ابن أبي الخصال** (أبو عبد الله الغافقي. ت 539 هـ)، الرسائل. (رسائل ابن أبي

الخصال). تحقيق الداية محمد رضوان، دمشق، دار الفكر، 1987.

– ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني. ت 1110هـ/ 1698م)، كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. تونس، 1286هـ.

– ابن أبي زمنين (أبو عبد الله محمد بن عبد الله الإمام. ت 399 هـ)، قدوة الغازي. تحقيق السليماني عائشة، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1989.

– ابن أبي منصور (صفي الدين)، الرسالة. نشر ديني جريل،القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1986.

– ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. ت 630 هـ/ 1233 م)، الكامل في التاريخ. بيروت، 1966،ج8.

– ابن الاخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي. ت 729 هـ)، معالم القربة في أحكام الحسبة. تحقيق فائد عبد الحميد، بيروت، دار الحداثة، 1990.الجزء الأول.ـ الجزء الثاني.

– ابن آدم (يحيى القرشي. ت 203 هـ/ 817 م)، كتاب الخراج. تحقيق شاكر أحمد محمد، القاهرة، مكتبة دار التراث، د. ت.

– ابن الأزرق (أبو عبد الله محمد بن علي الغرناطي الأندلسي. ت 896 هـ/1491م)، بدائع السلك في طبائع الملك. تحقيق النشار علي سامي، بغداد، وزارة الثقافة، 1977. الجزء الأول. الجزء الثاني.

– ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. ت 542 هـ/ 1147 م)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق إحسان عباس، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1975ـ1981.

– ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود الأنصاري القرطبي. ت 578 هـ/ 1182 م)، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم. تحقيق الحسيني عزت العطار، القاهرة، 1955. الجزء الأول. الجزء الثاني.

– ابن بلقين (عبد الله الأمير. خلع سنة 483 هـ)، كتاب التبيان. تحقيق الطيبي أمين التوفيق، الرباط، دار عكاظ، 1995.

– ابن تيمية (أحمد الشيخ. ت 728 هـ/ 1328 م)، الجهاد. تحقيق عميرة عبد

الواحد، بيروت، دار الجيل، 1991. ـ الجزء الأول. ـ الجزء الثاني.

ـ **ابن جزي**(عبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي. ق 8 هـ)، كتاب الخيل: مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال. تحقيق الخطابي محمد العربي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986.

ـ **ابن الحاج النميري** (ابراهيم بن عبد الله بن محمد الغرناطي، كان حياً عام 768هـ/1367 م)، فيض العباب، وإحالة قداح الآداب، في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب، تحقيق ابن شقرون محمد، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

ـ **ابن حزم** (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. ت 456 هـ/ 1064م)، جمهرة أنساب العرب. بيروت، دار الكتب العلمية، 1983.

ـ **ابن حزم**، الرسائل. تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

الجزء الأول. الجزء الثاني.

ـ **ابن حمديس**، ديوان ابن حمديس. تحقيق إحسان عباس، بيروت،1960.

ـ **ابن حوقل** (أبو القاسم النصيبي. ت 367 هـ/ 977 م)، صورة الأرض. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1971.

ـ **ابن حيان** (أو مروان حيان بن خلف بن حسين القرطبي. ت 469 هـ/ 1076م)، المقتبس من أخبار بلد الأندلس. تحقيق الحجي علي عبد الواحد، بيروت، دار الثقافة،1965.

ـ **ابن حيان**، المقتبس في تاريخ رجال الأندلس، القسم الثالث. تحقيق أنطونية ملشور. م، باريس، المكتبة الشرقية، 1937.

ـ **ابن حيان**، المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقيق مكي محمد علي، القاهرة، 1971.

ـ **ابن حيان**، المقتبس. الجزء الخامس، تحقيق شالميطا (ب)، كورينطي (ف)، صبح (م)، مدريد، المعهد الإسباني العربي، 1979.

ـ **ابن خاقان** (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي. ت 529 هـ/ 1134 م)، قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تحقيق ابن عاشور محمد الطاهر، تونس، الدار التونسية للنشر، 1990.

- ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله الفارسي. ت 300هـ/ 912 م)، المسالك والممالك. نشر دي خوية، ليدن، بريل، 1985.

- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد السليماني ابن الخطيب. ت 776 هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عنان محمد عبد الله، القاهرة، دار المعارف، 1956.القاهرة، مكتبة الخانجي، المجلد1، 1973.المجلد 2، 1974. المجلد 3، 1975.المجلد 1974،4.

- ابن الخطيب، الإشارة إلى أدب الوزارة، تليها مقامة في السياسة. تحقيق شبانة محمد كمال، الرباط، 1980.

- ابن الخطيب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. نشر، ل. بروفنسال، دار المكشوف، (الكشوف)، 1956.

- ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول. تحقيق عدنان درويش، دمشق، 1997.

- ابن الخطيب، معيار الاختيار في ذكر المعاهد الديار، دراسة وترجمة إسبانية للنص العربي، شبانة محمد كامل، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1977.

- ابن خلدون(أبو زيد عبد الرحمن بن محمد. ت808هـ/1406م)، المقدمة. تحقيق وافي عبد الواحد، القاهرة، بيروت،1401هـ. الجزءالأول. الجزء الثاني.الجزء الثالث.

- ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1958، القسم الثاني، المجلد الرابع.

- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. ت 681 هـ/ 1281م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان فيما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1971، ج 7.

- ابن دراج القسطلي، ديوان ابن دراج، تحقيق مكي محمود علي، المكتب الإسلامي، 1369هـ.

- ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي. ت 520هـ/ 1126 م)، الفتاوي (فتاوي ابن رشد). تحقيق التليلي المختار بن الطاهر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1987.

الجزء الأول.الجزء الثاني.الجزء الثالث.

ـ **ابن رشد**، كتاب المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات الشرعيات الأمهات مسائلها المشكلات، القاهرة، مطبعة السعادة، د. ت.

ـ **ابن رضوان** (أبو القاسم ابن رضوان المالكي. ت 783 هـ)، الشهب اللامعة في السياسة النافعة. تحقيق النشار علي سامي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1984.

ـ **ابن الزبير**(أبو جعفر أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الجياني. ت 708هـ/ 1309م)، صلة الصلة: نيل للصلة البشكوالية في تراجم أعلام الأندلس. تحقيق ل. بروفنسال، باريس، 1937.

ـ **ابن سعيد**(علي بن موسى بن عبد الملك العنسي الغرناطي. ت637 هـ/1274م)، بسط الأرض في الطول والعرض. تحقيق خنيس فرنيط (خ)، تطوان، معهد مولاي الحسن،1958.

ـ **ابن سعيد**، رايات المبرزين وغايات المميزين. تحقيق الداية محمد رضوان، دمشق، 1987.

ـ **ابن سعيد**، كتاب الجغرافيا. تحقيق العربي إسماعيل، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر، 1970.

ـ **ابن سعيد**، المغرب في حلى المغرب. تحقيق ضيف شوقي،القاهرة، دارالمعارف، ط 3، 1978 ـ 1979. الجزء الأول. الجزء الثاني.

ـ **ابن سلام**(أبو عبيد القاسم الأزدي. ت224هـ/838م)، كتاب الأموال.تحقيق الفقي محمد حامد، القاهرة، د.ت.

ـ **ابن سلام**، كتاب السلاح. تحقيق الضامن حاتم فتحي، المورد، عدد 4، المجلد 12، 1983، ص ص 223 ـ 253.

ـ **ابن سهل** (عيسى بن أصبع عبد الله الأسدي. ت 486 هـ)، في شؤون الحسبة. مستخلصة من مخطوط الأحكام الكبرى، خلف محمد عبد الوهاب، القاهرة، 1985.

ـ **ابن سيدة** (أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي)، المخصص. بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت، عدة أجزاء.

ـ **ابن صاحب الصلاة** (عبد الملك بن صاحب الصلاة. ت 594 هـ/ 1198 م)، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين. تحقيق

التازي عبد الوهاب، بغداد، 1979.

– **ابن عبد الحكم** (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري. ت 257هـ/ 871 م)، فتوح إفريقية والأندلس. تحقيق الطباع أنيس عبد الله، بيروت، 1964.

– **ابن عبد ربه** (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي. ت 328 هـ/ 939 م)، العقد الفريد. تحقيق أمين أحمد، الزين أحمد، الأبياري إبراهيم، القاهرة، 1965.ج 1، ج 4.

– **ابن عبدون** (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي من أهل ق 5 هـ)، كتاب الحسبة، نشر ل. بروفنسال، المجلة الأسيوية، 1934.

– **ابن عذاري** (أحمد بن محمد المراكشي. ت/ ق 7 هـ/ 13 م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق كولان (ج. س)، ل. بروفنسال، بيروت، دار الثقافة. الجزء 1. 2. 3، 1980. الجزء 4، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980.

– **ابن عذاري**، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق الكتاني محمد إبراهيم وآخرون، بيروت، دار الغرب الإسلامي، الدار البيضاء، دار الثقافة، 1985.

– **ابن العربي** (أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري الإشبيلي القاضي. ت 542 هـ/ 1147 م)، العواصم من القواصم، تحقيق الخطيب محيي الدين، القاهرة، دار الكتب السلفية، 1405 هـ.

– **ابن العريف** (أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى ابن عطاء الله الصنهاجي. ت 536 هـ/ 1141 م)، محاسن المجالس. ضبط وتعليق أثين بلاثيوس، باريس، المكتبة الشرقية، 1933.

– **ابن العطار** (محمد بن أحمد الأموي. ت 399 هـ)، كتاب الوثائق والسجلات، تحقيق شالميطا (ب)، كورينطي (ف)، مدريد، المعهد الإسباني للثقافة، 1973.

– **ابن العوام** (أبو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الإشبيلي. من أهل ق 6 هـ/ 12 م)، كتاب الفلاحة. تحقيق وترجمة بنكيري أ. ي)، مدريد، طبعة 1992.

الجزء الأول. الجزءالثاني.

– **ابن العوام**، كتاب الفلاحة، القسم البيطري بعنوان:

Le Livre d'Agriculture d'Ibn ALAWAM: L'Etable, l'écurie, La Basse-cour.

ترجمة وتعليق: Clément-Mullet (J.J) ; Tunis, ed. Bouslama, 1977.

– ابن العماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي. ت1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت، د. ت، 3ج.

– ابن غالب (محمد بن أيوب بن غالب الحافظ الأندلسي)، تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، (قطعة من الكتاب). تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة المخطوطات العربية، الجزءالثاني، المجلد الأول، القاهرة، 1955، ص.281، 310.

– ابن الفرضي (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي القرطبي. ت(403هـ/ 1013 م)، تاريخ علماء الأندلس. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1983.

– ابن الفقيه الهمذاني (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني)، كتاب البلدان. نشر دي خويه، ليدن – بريل،1885.

– ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم. ت(276 هـ/889 م)، كتاب الإمامة والسياسة. القاهرة، مطبعة الفتوح الأدبية، د. ت.

– ابن قتيبة، عيون الأخبار.القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1964، أربعة (4) أجزاء.

– ابن القطان (أبو علي حسن بن محمد بن عبد الملك بن يحيى الكتامي المراكشي. ت(628هـ/ 1230م)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان. تحقيق مكي محمود علي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

– ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر. ت(367 هـ/927 م)، تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، دار الكتاب اللبناني،1982.

– ابن القيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي أيوب. ت752هـ)، الفروسية. تحقيق الحسيني عزت العطار، القاهرة،1994.

– ابن الكردبوس (أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري. من أهل القرن 6 هـ)، تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط. نصان جديدان، تحقيق العبادي محمد مختار، مدريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1971.

– ابن المقفع(عبد الله بن المقفع)، الأدب الصغير والأدب الكبير ورسالة الصحابة.

تحقيق أبو حلقة يوسف، بيروت، مكتبة البيان، 1964.

– ابن المناصف(محمد بن عيسى بن المناصف. ت 620 هـ) تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام. نشر منصور عبد الحفيظ، تونس، دار التركي للنشر،1988.

– ابن منظور(أبو الفضل محمد بن مكرم)، لسان العرب. إعداد خياط يوسف مرعشلي نديم، بيروت، دار لسان العرب،1970، عدة أجزاء.

– ابن منكلي (محمد بن محمود المصري. ت784هـ/1382 م)، التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية. تحقيق صادق الجملي محمود، المورد،عدد4،م12، 1983، ص.319، 378.

– ابن هانئ (الأندلسي)، ديوان ابن هانئ. تحقيق البستاني كرم، بيروت، دار صادر، 1952.

– ابن هذيل (علي عبد الرحمن الأندلسي)، حلية الفرسان وشعار الشجعان. بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 1997.

– ابن هذيل، حلية الفرسان وشعار الشجعان. تحقيق حسن محمد عبد الغني، القاهرة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1951.

– أبو حامد الغرناطي (عبد الرحيم سليمان بن ربيع القيسي الأندلسي الغرناطي)، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تحقيق العربي إسماعيل، بيروت، دار الآفاق الجديدة 1993.

– أبو حامد الغرناطي، المُعرب عن بعض عجائب المغرب. تحقيق وترجمة INGRID Bejarano، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1991.

– أبو الخير الإشبيلي (ت بعد 499 هـ)، عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق محمد العربي الخطابي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، 1990، الجزء الأول.

– أبو الخير الإشبيلي، كتاب الفلاحة. نشر القاضي التهامي الجعفري، فاس، المطبعة الجديدة، 1358.

– أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم القاضي. ت 258 هـ/871 م)، كتاب الخراج. المكتبة السلفية، القاهرة، 1352 هـ.

– الإدريسي (الشريف الإدريسي محمد أبو عبد الله محمد بن إدريس الحسني السبتي.ت560 هـ/1164م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. نابولي، روما،السفر الخامس،1975.

ـ الإصطخري (أبو إسحـــاق إبراهـــيـــم محمد الفارســـي الإصطخري المعروف بالكرخـــي. ت 339 هـــ)، المسالك والممالك. تحقيق الحيني محمد جابر، عبد العال محمد غربال، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1961.

ـ الأصفهاني (العماد الإصفهاني أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الملقب بأبي الوزير. ت597 هـ/1200م)، خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق المرزوقي محمد، العروسي المطوي محمد، الجيلاني بن الحاج يحيى، تونس، الدار التونسية للنشر، 1973.

ـ الباجي (أبو عبد الله محمد السعدي)، الخلاصة النقدية في أمراء إفريقية. تونس، 1323هـ.

ـ الباجي (أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي. ت474هـ)، فصول الأحكام وبيان ما مضى عليه العمل عند الفقهاء والحكام. تحقيق الباتول بن علي، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1990.

ـ البكري(أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي. ت487 هـ/1094م)، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك. تحقيق الحجي علي عبد الرحمن، بيروت، دار الإرشاد، 1968.

ـ البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب. نمشر ذي سلان، باريس، 1965.

ـ البلاذري (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داوود. ت 248 هـ)، فتوح البلدان. تحقيق الطباع أنيس عبد الله، الطباع محمد أنيس، بيروت، مؤسسة المعارف،1987.

ـ التجيبي (القاسم بن يوسف السبتي. ت 730 هـ/1329م)، مستفاد الرحلة والاغتراب. تحقيق منصور عبد الحفيظ، طرابلس، الدار العربية للكتاب،1975.

ـ التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله المعروف بالأعمى. ت 520 هـ/ 1126 م)، ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963.

ـ ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب. تحقيق ونشر ل.بروفنسال، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955.

ـ ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي.

كتاب الأنساب لابن الحليم، القرن 8هـ/14م.

كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول.

كتاب شواهد الجلة لأبي بكر ابن العربي. ت 543 هـ/ 1143 م.

تحقيق يعلى محمد، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1996.

ـ **الجاحظ** (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. ت 255 هـ/ 868 م)، البيان والتبيين. تحقيق هارون محمد عبد السلام، القاهرة، 1964.أربعة أجزاء.

ـ **الجاحظ**، الرسائل، تحقيق هارون محمد عبد السلام، القاهرة، 1964.

ـ **الجاحظ**، الحيوان. تحقيق هارون محمد عبد السلام. بيروت، دار الفكر العربي،1969. ثلاثة أجزاء.

ـ **الجوذري** (أبو علي منصور العزيزي)، سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الأئمة الفاطميين، تحقيق كامل حسين محمد، شعيرة عبد الهادي، القاهرة، دار الفكر العربي، د.ت.

ـ **حاجي خليفة** (مصطفى بن عبد الله التركي الملقب بكاتب شلبي. ت 1067هـ/1657م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.الاستانة،مطبعة العالم،1310 هـ.

ـ **الحموي** (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي. ت 626هـ/ 1228 م)، كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً. د. ت.

ـ **الحموي**، معجم البلدان. بيروت، دار صادر، 1955.

ـ **الحميدي** (أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدري. ت 488هـ/1095 م)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس. القاهرة، الدار المصية للتأليف والترجمة،1966.

ـ **الحميري** (محمد بن عبد المنعم السبتي. ت. أواخر القرن التاسع الهجري)، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1975.

ـ **الخشني** (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني. ت 361 هـ/ 971م)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية. تحقيق الحسيني عزت العطار، القاهرة، بغداد، 1372هـ.

ـ **الداودي** (أبو جعفر أحمد بن نصر الإمام. ت 402 م)، كتاب الأموال. تحقيق شحادة

رضا محمد ، ـالم، الرباط، مركز إحياء التراث المغربي، 1988.

ـ الداودي (شمس الدين محمد بن علي بن أحمد. ت 945 هـ)، طبقات المفسرين. تحقيق عمر علي محمد، القاهرة، 1972.

ـ الرازي (أحمد بن محمد بن موسى الرازي. ت 344 هـ)، وصف الأندلس. تحقيق ل. بروفنسال، مجلة الأندلس، لمجلد XVIII، 1953، ص ص. 51، 108.

ـ الرشاطي (أبو محمد.ت542 هـ، وابن الخراط الإشبيلي.ت581 هـ)، الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار. تحقيق مولينا إيميليو بوش بيلا خاثينتو، مدريدن المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1990.

ـ الزجالي (أبو يحيى عبيد الله بن أحمد الزجاي القرطبي. ت 694 هـ/ 1294 م)، أمثال العوام في الأندلس. تحقيق بن شريفة محمد، منشورات وزارة الثقافة والتعليم الأصيل، فاس، 1971.الجزء الأول والجزء الثاني.

ـ الزردكاش أرنبغا، الأنيق في المجانيق (المناجيق). تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1981.

ـ الزهري (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري الأندلسي. كان حياً عام 546هـ/ 1151 م)، كتاب الجغرافية، تحقيق صادق محمد حاج، القاهرة، مكتبة الثقافة، د. ت.

ـ السقطي (أبو عبد الله محمد بن أبي محمد السقطي المالكي الأندلسي. القرن6هـ)، في آداب الحسبة. تحقيق الزين حسن، بروت، 1987.

ـ السلفي (أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبـــراهيـــم سلفة أبو طاهر صدر الدين. ت 576 هـ/ 1180 م)، أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر. تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1963.

ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين السيوطي. ت911 هـ/ 1505م)، السماح في أخبار الرماح. تحقيق القيسي فوزي حمودي، المورد، عدد 4 المجلد 12، 1983، ص.79ـ90.

ـ الشونجي (الفرحاتي)، فضل القوس العربية. تحقيق الجنابي أحمد نصيف، عبودي فتوحي حبري، المورد عدد 4، م 12، 1983، ص.253، 304.

ـ الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي. ت 599 هـ/1203م)، بغية

الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس. مجريط، 1884.

- **الطبري** (أبو جعفر محمد بن جرير. ت 310 هـ/ 923 م)، تاريخ الأمم والملوك. تحقيق أبو الفضل محمد إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1966،ج 5.

- **الطرسوسي** (مرضى بن علي بن مرضى الطرسوسي)،تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء، ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء. تحقيق كاهن كلود، بيروت،(مجلة الأبحاث الشرقية)، 1948، ص.1ـ24.

- **الطرطوشي** (أبو بكر محمد بن الوليد الفهري. ت 520 هـ/ 1126 م)، سراج الملوك. تحقيق فتحي محمد أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، 1994، الجزء الأول. الجزء الثاني.

- **العذري** (أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي. ت 478 هـ/ 988م)، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك. تحقيق الأهواني عبد العزيز، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، 1965.

- **عريب بن سعد** (أبو الحسن القرطبي ق 4 هـ/ 10 م)، تقويم قرطبة (961 م). نشر دوزي (ر)، ليدن ـ بريل، 1961.

- **العمري** (شهاب الدين أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله القرشي الدمشقي.ت 749 هـ/ 1348 م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. تحقيق فؤاد سيد أيمن، القاهرة، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1985.

- **العمري**، مسالك البصار، إفريقيا ناقص مصر (أقسام إفريقية الشمالية والأندلس). ترجمة فرنسية جود فروديمومبين Gaudefroy-Demonbynes، باريس، المكتبة الشرقية، 1927.

- **العمري**، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، وصف إفريقية والأندلس. تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، تونس، 1920.

- **عياض القاضي** (القاضي عياض أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. ـــالجزء الرابع. الجزء السابع.

- **الغساني** (محمد بن عبد الوهاب)، رحلة الوزير في افتكاك الأسير. نشر البستاني، طنجة، 1940.

ـ **فهارس الخزانة الحسنية**، المجلد الثاني: الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات، تصنيف الخطابي محمد العربي، الرباط، 1982.

ـ **القرآن الكريم**، مصحف المدينة، قراءة ورش عن نافع، 1409 هـ.

ـ **القزويني** (زكريا بن محمد بن محمود. ت 682 هـ/ 1383 م)، آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت، دار صادر، 1969.

ـ **القفطي** (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني القفطي المصري. ت 646 هـ/ 1248 م)، كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة، مطبعة السعادة، 1326 هـ.

ـ **القلقشندي** (أبو العباس أحمد. ت 821 هـ/ 1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء. القاهرة، دار الكتب الخدوية، 1914. الجزء الخامس.

ـ **القيرواني** (ابن أبي زيد)، الرسالة. بيروت، دار الفكر، 1993.

ـ **الكندي** (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي. كان حياً سنة 256 هـ)، فيما يطرح على الحديد والسيوف فلا تتلثم ولا تكل. رسالة الكندي الثالثة، المورد، عدد 4 م 12، 1983، ص. 119 ، 171.

ـ **اللخمي** (ابن هشام)، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان. تحقيق بيريث لافارو خوسي، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، د. ت. ـ الجزءالأول. الجزء الثاني.

ـ **الماوردي** (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي. ت 450 هـ/ 1057 م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية. بيروت، دار الكتب العلمية، 1978.

ـ **الماوردي**، أدب الوزير أو قوانين الوزارة وسياسة المُلك. تحقيق الهادي حسن حسين، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1984.

ـ **الماوردي**، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملكِ وسياسة المُلك. تحقيق السرحان محيي هلال الساعاتي حسن، بيروت، دار النهضة العربية، 1981.

ـ **مجهول**، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم. تحقيق الأبياري إبراهيم، بيروت، 1981.

ـ **مجهول**. ق 8 هـ/ 14 م، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. تحقيق زكار

سهيل، زمامة عبد القادر، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، 1979.

- **مجهول**، ذكر بلاد الأندلس. ترجمة وتحقيق مولينا. ل، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1983.

- **مجهول**، رسالة في أوقات السنة. تحقيق نافارو أنجليس، غرناطة، معهد الدراسات الإسلامية، 1990.

- **مجهول**، مفاخر البربر، ألف حوالي 712 هـ/ 1312 م، نشر ل. بروفنسال، الرباط 1934.

- **محمد بن عمر** (بن يوسف بن عامر، الكتاني الإسكندراني المكنى أبو عبد الله. ت 310 هـ)، كتاب أكرية السفن والنزاع بين أهلها. تحقيق أنور طاهر مصطفى، الكراسات التونسية، مجلد 31، عدد 123، 124، 1983، ص.53،5.

- **المرادي** (أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي. ت489هـ/1095م)، كتاب السياسة أوالإشارة في تدبير الإمارة. تحقيق النشار سامي علي، الدار البيضاء، دار الثقافة،1981.

- **المراكشي ابن عبد الملك** (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري. ت(703هـ/ 1303 م)، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة. السفر الأول، القسم الأول، تحقيق بنشريفة محمد، بيروت، دار الثقافة، د. ت.

- **المراكشي**،الذيل والتكملة. السفر الخامس، القسم الأول، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1965.

- **المراكشي** (محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التجيبي. ت(668 هـ/1270م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تقديم حقي ممدوح، الدار البيضاء، د. ت.

- **المسعودي** (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي.ت(346 هـ/957م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق بيلا شارل، بيروت، 1965،ج1.

- **المقدسي** (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر،البناء الشامي البشاري. كان حيا عام ت(390هـ/1000م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن ـ أبريل، 1906.

- **المقري** (شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني.ت(1041هـ/1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968.عدة أجزاء.

ــ **المقريزي** (تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي. ت 845 هــ/ 1441 م)،

الخطط المقريزية، بيروت، دار إحياء العلوم، د. ت.

ــ **الناصري** (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق الناصري جعفر، الناصري محمد، الدار البيضاء، دار الكتاب،1956،ج9.

ــ **النباهي** (أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الجذامي المالقي الأندلسي. ت(776هــ/ 1374م/'793/1391')، تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1980.

ــ **النعمان** (أبو حنيفة بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي القاضي. ت (363 هــ)، كتاب المجالس والمسايرات، تحققيق الفقي الحبيب وأخرون، تونس، المطبعة الرسمية، 1978.

ــ **النويري** (أحمد بن عبد الوهاب النويري. ت(732هــ/1332م)، نهاية الأرب فنون الأدب (قسم المغرب). تحقيق أبو ضيف أحمد مصطفى، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، 1984.

ــ **الونشريشي** (أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي. ت(914هــ/1508 م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب. تحقيق حجي محمد وآخرون، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981.13 جزء.

ــ **اليعقوبي** (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح. ت(284 هــ/897م)، كتاب البلدان. النجف، المطبعة الحيدرية، 1957.

ثالثا: الدراسات العربية والأجنبية

أ ـ الدراسات العربية

ــ **أبو الفضل**(محمد أحمد)، تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، الإسكندرية، دا المعرفة الجامعية، 1996.

ــ **أرسلان** (الأمير شكيب)، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت،

منشورات دار الحياة، د. ت، ج 1.

ـ **أرشبالد** (لويس)، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط 500ـ1110م، الترجمة العربية، القاهرة، 1951.

ـ **أنور** (عبد العليم)، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، المجلس الوطني للثقافة، يناير، 1979.

ـ **البستاني** (عبد الله البستاني)، فاكهة البستان، معجم لغوي، بيروت، 1990.

ـ **بن عبود** (امحمد)، التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، تطوان، 1983.

ـ **بن عبود**، التصورات التاريخية الأندلسية قديماً وحديثاً، دعوة الحق،عدد34، الرباط، 1984، ص. 33 ـ 58.

ـ **بن عبود**، جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تطوان،1987.

ـ **بوتشيش** (إبراهيم القادري)، أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة. 250 هـ- 316 هـ، الرباط، عكاظ، 1992.

ـ **بوتشيش**، "تطور ملكية أراضي الجيش في الأندلس منذ الفتح العربي حتى مطلع عصر الخلافة"، البحث العلمي، عدد 38، الرباط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1988، ص.143ـ159.

ـ **بوتشيش**، "المشكل القانوني للملكية العقارية" في الأندلس من الفتح حتى مطلع القرن الرابع الهجري، البحث العلمي، عدد 36، الرباط، 1986.

ـ **جمال محفوظ** (لواء)، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، تونس، دار المعارف للطباعة والنشر، 1994.

ـ **الجنابي** (خالد جاسم)، تنظيمات الجيش العربي في العصر الأموي، بغداد، دار الحرية للطباعة، 1986.

ـ **حركات** (إبراهيم)، النظام الاقتصادي الإسلامي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1996.

ـ **حركات**، النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، الدار البيضاء، د. ت.

- حقي (محمد)، البربر في الأندلس: دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية 92 هـ/ 416 هـ (711/ 1031 م)، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب، الرباط، 1996.

- حناوي (محمد)، الأدوات الفلاحية الأندلسية من خلال المصادر: كتب الفلاحة نموذجا، مجلة الاجتهاد، عدد 34، 35 مزدوج، بيروت، 1997، ص. 101 – 117.

- حناوي، "الأرستقراطية والفلاحون في الفيودالية الأوربية" في: جوانب من التاريخ الاجتماعي للبلدان المتوسطية خلال العصر الوسيط، سلسلة ندوات 2، منشورات كلية الآداب، مكناس، 1991، ص.84 – 96.

- حناوي، "جوانب من العلاقات الاقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر للميلاد"، ندوة: الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، منشورات كلية آداب الرباط، 1995، ص. 151– 166.

- ديورانت (ول)، قصة الحضارة، ترجمة بدران (محمد)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1957، ج 2.

- ذنون طه(عبد الواحد)، "تنظيمات الجيش في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس في العصر الأموي"،في:دراسات في التاريخ الأندلسي،بغداد،1987،ص.37- 88.

- الرّاجي(التهامي الهاشمي)، نظم وإدارة بني أمية بالأندلس من خلال المقتبس لابن حيان، المناهل، عدد خاص 29، الرباط، 1984، ص.3 – 64.

- الرصافي (معروف)، الآلة والأداة وما يتبعهما من الملابس والمرافق والهنات، تحقيق الرشودي (عبد الحميد)، بغداد، دار الرشاد،1980.

- الرفاعي (أنور)، النظم الإسلامية، دمشق، دار الفكر،1973.

- سالم (عبد العزيز السيد)، أضواء على مشكلة تاريخ بناء أسوار إشبيلية، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، المجلد 8، مدريد، 1974، 1975، ص.1–25.

- سالم (عبد العزيز السيد)، العبادي (أحمد المختار)، تاريخ البحرية في مصر والشام، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993، ج1.

- سالم، العبادي، تاريخ البحرية الإسلامي في المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1993،ج 2.

ـ سحر (عبد العزيز سالم)، "ملابس الرجال في الأندلس"، ندوة الأندلس: الدرس والتايخ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 1994، ص. 249 ـ 274.

ـ سعدون (عباس نصر الله)، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة العربية، 1985.

ـ الطاهري (أحمد)، الرحلة التجارية الأندلسية من خلال كتب التراجم والطبقات، في: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، الدار البيضاء، المطبعة الجديدة، 1993، ص.55ـ75.

ـ الطاهري (أحمد)، الطب والفلاحة في الأندلس، منشورات كلية الآداب، المحمدية، 1997.

ـ الطاهري،عامة إشبيلية في عصر بني عباد، أطروحة الدولة، كلية الآداب، مكناس، 1995، 2 ج.

ـ الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، عكاظ، 1989.

ـ طويل (مريم قاسم)، مملكة ألمرية في عهد المعتصم بن صمادح 443 هـــ 484هــ، بيروت، الدار البيضاء، 1994.

ـ الطيبي (أمين توفيق)، الأصيل في كتاب الجراحة لأبي القاسم خلف الزهراوي (ت 404 هـ/ 1013 م)، في: دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا ـ تونس، الدار العربية للكتاب، 1997، ج 2، ص. 9 ـ 47.

ـ الطيبي (أ. ت) ، "حمام الزاجل: عرض تاريخي حول استعماله في المراسلات السريعة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى، في" دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس، ليبيا، تونس، 1984، ج 1، ص.106ـ119.

ـ عاشور (سعيد عبد الفتاح)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1972.

ـ عثمان جاد الرب (عبد القادر)، الوضع السياسي والاجتماعي لغرناطة في القرن الخامس الهجري، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، كلية الآداب، الرباط، 1997،2 ج.

ـ عثمان (محمد عبد العزيز)، "البحرية العربية في الأندلس"، المورد، م 12، عدد 4، بغداد، 1983.

ـ العروي (عبد الله)، مُجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، بيروت، 1994، د 2.

ـ العريني (الباز السيد)، تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت، دار النهضة العربية، 1968.

ـ العسلي (بسام)، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، بيروت، دار الفكر، 1974.

ـ العلام (عز الدين)، السلطة والسياسة في الأدب السلطاني، الدار البيضاء، دار إفريقيا والشرق، 1991.

ـ عمر (موسى عز الدين)، الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 19991.

ـ عنان (محمد عبد الله)، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، طبعة 1988.

ـ الفاسي (محمد)، الأعلام الجغرافية الأندلسية، وحي البنية، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1970.

ـ فيكرا (م. خ)، التأثير الحربي العربي في إسبانيا، 1975.

ـ فيلالي عبد العزيز)، العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب العربي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.

ـ القبلي (محمد)، الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعل، دار توبقال للنشر، الرباط، 1997.

ـ الكافي (محمد بشير)، قاموس المصطلحات البحرية، فرنسي ـ عربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981.

ـ محمد علي (نصر الله)، تطور نظام ملكية الأراضي في الإسلام، بيروت، 1982.

ـ مقر (محمد)، اللباس المغربي خلال عهدي المرابطين والموحدين، دبلوم الدراسات العليا، الرباط، 1996.

ـ المنوني(محمد)، ورقات عن حضارة المرينيين، الرباط، 1996.

ـ موريز (إ)، مدخل إلى التاريخ العسكري، تعريب ديري (أكرم)، الأيوبي (الهيثم)، بيروت، 1970.

ـ مورينوجوميث(مانويل)، الفن الإسلامي في إسبانيا من الفتح الإسلامي حتى نهاية

المرابطين، ترجمة لطفي (عبد البديع)، سالم (عبد العزيز السيد)، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1995.

– الموسوعة العسكرية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1979، ج 2.

– مؤنس(حسين)، فجر الأندلس، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، طبعة 1985.

– هوبكنز(ج. ن. ب)، النظم الإسلامية في المغرب في القرون الوسطى، تحقيق الطيبي أمين توفيق، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، 1980.

ب . الدراسات الأجنبية

- **ACIÉN ALMANSA** (M); « La fortificación en al-Andalus », Arqueológia Medieval, XXII, 1985, p.7, 36.

- **ACIÉN ALMANSA** (M); Sobre la función des Husún en el sur de Al-Andalus. La fortificación en el Califato. Coloquio Hispano Italiano de Arqueolǵia medieval, Granada, 1992, p. 263, 273.

- **ANDERSON** (P); Les Passages de l'Antiquité au féodalisme, Paris, Maspero, 1977.

- **ARCAS CAMPOY** (Maria); Teoría jurídica de la guerra Santa: Elkitab « Qidwat Al-Gázi », dans: Al-Andalus-Magreb. Estudios árabes E Islamicos, N°1, Universidad de Cádiz, 1993, p. 51, 65.

- **AZUAR RUIZ** (R); Castellológia medieval alicantina aréa meridional. Alicante, 1981, p. 213, 226.

- **AZUAR RUIZ**(R); Denia Islamica. Arqueología y poblamiento, Alicante, 1989.

- **AZUAR RUIZ** (R); Las técnicas constructivas en al-Andalus. El origen de la Sillería y del Hormigón de Tapial.

- Semana de Estudios medievales. Májera:1-5de Agusto1994. Instituto des Estudios Riojanos,1995, p.125,142.

- **AZUAR RUIZ** (R);«Una interpretación del «Hisn» musulman en el ambito rural». dans: Revista del Instituto de Estudios alicantinos, N°37,1982, p.33,41.

- **BARCELÓ** (C);« Toponymie tribale ou familiale et organisation de l'espace dans l'aire valencienne à l'époque musulmane ». dans : Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée (R.O.M.M.), 1986, p. 29, 38.

- **BASSOLS** (Sergi); Una Línea de Torres vigía musulmanas Lérida-Tortosa. dans: Al-QANTARA, Vol. XIIè, Fasc. 1, Madrid, 1990, p. 127, 154.

- **BAZZANA** (A); Eléments d'archéologie musulmane dans Al-Andalus: Caractères spécifiques de l'architecture militaire arabe de la région valencienne. dans: Al QANTARA, N° 1, 1980, p. 339, 363.

- **BAZZANA**; Problèmes d'architecture militaire au levant espagnól: Le château d'Alcalá de chivert. Château Gaillard. Etude de Castellologie médiévale, N° 8, 1976, pp. 21, 46.

- **BAZZANA**; **GUICHARD** (P); **CRESSIER** (P); Les châteaux ruraux d'al Andalus. Histoire et archéologie des Hùsun du Sud-Est de l'Espagne, Madrid, Casa de Velázquez, 1988.

- **BAZZANA**; **GHICHARD** (L); **SÉNAC** (Ph); « La frontière dans l'Espagne médiévale », dans Frontières et peuplement dans le monde méditerranéen au Moyen Age. Castrum 4, Madrid, Rome, 1992, p. 35, 59.

- **BELÉN SANCHEZ PRIETO** (A); Lineas cristianas y ejes musulmanas de fortificación en la rivera soriana del Duero. Siglos (X-XII). dans: Revista de las Armas y servicios N° 621, Ejercito octubre, 1991, p. 56, 65.

- **BLOCH** (M); La société féodale. Paris, A. Michel, 1968.

- **BOIS** (G); La Mutation de l'an mil : Lournand, village mâconnais de l'Antiquité au féodalisme. Pari, Fayard, 1989.

- **BONNASSIE** (P);« Idéologie tripartite et révolution féodale ».dans : Le Moyen Age, N° 2, 1980, p.251,273.

- **BONNASSIÉ**; La Catalogne du milieu du X^è^ à la fin du XI^e^ siècle: Croissance et mutations d'une société.L'Université de Toulouse-Le MIRAIL,1975,1976,2 vol.

- **BONNASSIE**; Les50 mots clefs de L'Histoire médiévale,Toulouse-Privat, 1981.

- **BONNASSIE**; « Survie et extinction du régime esclavagiste dans l'occident du haut Moyen Age ». (IV- XI^è^ siècles). dans: Cahiers de Civilisation médiévale, N°4 oct, dec, 1985, p. 307, 343.

- BOSCH VILA (J): Algunas consideraciones sobre Al-tágr en al Andalus y la división politico-administrativa. dans: Etudes d'Orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi - Provençal, Paris, Maison - La Rose, 1962, T1, p. 23, 33.

- BOUCHARD (J); Services féodaux, milices et mercenaires dans les Armées en France aux X-XI[è] siècles. dans: Ordinamenti militari in occidente: centro italiano de Stadi Sall'alto medioevo, Settemane de Studio, T. XV, Spolète, 1968, p. 131, 169.

- BOUTRUCHE (R); Seigneurie et féodalité. Paris, Aubier, 1970, 1971, 2 vol.

- BRAUDEL (F); La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris, A. Colin, 1985, 2vol.

- BURGUI ÈRE (A); Dictionnaire des sciences Historiques. Paris, P.U.F, 1986.

- CAZELLES (R); « La Jacquerie fut-elle un mouvement paysan »? dans: Comptes rendus de l'académie des inscriptions et Belles lettres, 1979.

- CHALMETA(P); Al-Andalus: Société féodale? Dans:Etudes d'Ethnographie historique du Proche-Orient. Hommage à M. Rodinson, Paris- Maisonneuve - La Rose, 1982, p.179, 190.

- CHALMETA; Concesiones territoriales en Al-Andalus hasta la llegada de los Almoravídes. dans: Cuadernos de Historia: Anexos de la Revista Hispánica N°6 Madrid, 1975, p. 1, 87.

- CHALMETA; Las Campanás Califales en al-Andalus. Dans : Guerre-fortification et habitat dans le monde Méditerranéen au Moyen Age, Castrum 3 Madrid, 1988, p. 33,42.

- CHAUNU (P); Histoire quantitative, Histoire sérielle, Paris, A. Colin, 1978.

- CIRLOT(victoria);Téchniques guerrières en catalogne féodale, le maniement de la lance. dans: Cahiers de Civilisation médiévale N°1, Janv, Mars, 1985, p.35, 43.

- CLOT(André);L'ESPAGNE musulmane:VIII-XV[è] siècle, Paris, Perrin, 1999.

- CONTAMINE (Ph); La guerre au Moyen Age, Paris, P.U.F, 1980.

- CONTAMINE; «Le combattant dans l'occident médiéval» dans:Le combattant au Moyen Age, Paris- Sorbonne, 1995, p.15, 23.

- CONTAMINE et autres; L'économie médiévale, Paris, A. colin, 1993.

- **CONTAMINE**; L'Histoire militaire et l'Histoire de la guerre dans la France médiévale depuis trente ans. Dans : Tendances, perspectives et méthodes de l'Histoire médiévale actes du 100 congrés des Sociétés Savantes, T1, Paris, 1977, p.71, 93.

- **COWDREY** (J. E); « The peace and the truce of Gad the eleven century ». dans: Past and Present, N° 46, 1970, p.42-67.

- **CRÉSSIER** (P); « Fonction et évolution du réseau castral en Andalousie orientale: Le cas de l'Alpujarra ». dans : Guerre, fortification.. Castrum 3, p.123. 134.

- **CRÉSSIER**; «Le château et la division territoriale de l'Alpujarra médiévale. Du Hisn à la Tá à», dans: Mélanges de la Casa de velàzquez, XX, p.115, 144.

- **DALLIÈRE-BENELHAJ** (V); Le château en al-Andalus: un problème de terminologie. dans: habitats fortifiés et organisation de l'éspace en Mediterranée médiévale », Lyon, Maison de L'orient, 1983, p. 63, 67.

- **DICTIONNAIRE ENCYCLOPÉDIQUE**. Quillet, Paris, 1975, T.10.

- **DOCKÈS** (P); La libération médiévale, Paris, Flammarion, 1979.

- **DOMMANGET** (M); La jacquerie, Paris, Maspero, 1971.

- **DOZY**(R); **ENGELMANN** (W.H); Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'Arabe, Beyrouth, éd. 1974.

- **DOZY**; Supplément aux dictionnaires arabes, Beyrouth, 1968, 2 vol.

- **DUBY** (G); Guerriers et paysans: VII-XII[è] siècle, premier essor de l'économie européenne, Paris, Gallimard, 1973.

- **DUBY**; La société chevaleresque: Hommes et structures du Moyen Age, Paris, Flammarion, 1988.

- **DUBY**; L'Economie rurale et la vie des Campagnes dans l'occident médiéval. Essai de synthèse et perspectives de recherche, Paris, Aubier, 1962, 2 vol.

- **DUBY**; Les Trois ordres ou l'Imaginaire du féodalisme, Paris, Gallimard, 1978.

- **DUFOURCQ** (Ch. Emm); Commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane. 1[er] Congrès d'Histoire et de la Civilisation du Maghreb, Tunis, 1979,T.1, p.161, 192.

- DUFOURCQ; La vie quotidienne dans les ports méditerranéens au Moyen Age, Provence-Lanquedoc- Catalogne, Paris, Hachette, 1979.

- DUMÈZIL(G); Heur et Malheur du Guerrier: Aspects mythique de la fonction guerrière chez les Indo-Européens, Paris, Fayard, 1985.

- EL HAJJI ALI (Abderrahman); The Andalusian diplomatic relations with the vikings during the Umayyad period, (138-366 H.), dans:Hespéris Tamuda, Vol, VIII, Rabat, 1967, p.67, 105.

- EPALZA (M. de); « Funciones ganaderas de las albacares en las fortalezas musulmnas Sharq al-Andalus ». dans: Estudios árabes, 1, 1984, p. 47, 55.

- ESCO (C);GIRALT (J); SENAC (Ph); Arqueológia islámica en la Marca superior de Al-Andalus, Madrid, 1987, p.7,38.

- ESCO (C); SÉNAC (Ph); « Un Hisn de la Marche supérieure d'al-Andalus. Piraces (Huesca), Mélanges de la Casa-de Velázquez, T. XXIII, 1987, p.125,150.

- FLORI (J); « Encore l'usage de la lance: La téchnique du combat chevaleresque vers l'an 1100 ». dans : Cahiers de Civilisation médiévale, N°3, Juillet-Sept, 1988, p.232, 248.

- FLORI; L'idéologie du Glaive. Préhistoire de la chevalerie, Genève, Librairie Droz, 1983.

- FLORI; « Un problème de méthodologie, la valeur des nombres chez les chroniqueurs du Moyen Age. Dans:Le Moyen Age,N°3,4,1993,p.400, 422.

- FOSSIER(R); Enfance de l'Europe. Aspects économiques et sociaux, Paris, P.U.F, 1982, 2vol.

- FOURNIER(G); Le château dans la France médiévale: essai de Sociologie monumentale, Paris, Aubier, 1978.

- FOURQUIN(G); Les soulèvements populaires au Moyen Age, Paris, P.U.F, 1972.

- GAIER(C); « Téchnique des combats singuliers d'après les auteurs bourguignons ». dans: Le Moyen Age, N° 1, 1986, p. 5, 40.

- GRANSHOF (F. L); L'Armée sous les Carolingiens », dans: Ordinamenti militari in Occidente, centro italiano de Stadi Sall'alto medioevo Settemane de Studio, T. XV, Spolète, 1968, p. 109, 130.

- **GARCIA GOMEZ** (Em); AL'HAKAM II y los Beréberes segun un texto inedito de Ibn Hayyan. dans: AL ANDALUS, Vol. XIII, Fasc. 1, Madrid, 1948, p. 209, 226.

- **GATEAU** (A); « Quelques observations sur l'intérêt du voyage d'Ibn Jubayr pour l'histoire de la navigation en Méditerranée au XII è siècle ». Hespéris Tamuda. T. XXXIII, Rabat, 1949, p. 289, 312.

- **GAUTIER-DALCHÉ**(J); « Châteaux et peuplement dans la Péninsule ibérique (X-XIII siècles). Flaran 1: Châteaux et peuplement en Europe occidentale du X e au XVII e siècle, Flaran, Gers, 1979, p.93, 107.

- **GAUTIER-DALCHÉ**; « Islam et chrétienté: Espagne au XII siècle: contribution à l'étude de la notion de frontière ». dans: Hespéris Tamuda, T. XLVII, 1959, p. 183, 217.

- **GLICK** (Thomas F); Cristianos y musulmanes en la España medieval, 711. 1250, Madrid, Alianza, Universidad, 1991.

- **GODELIER** (M); L'Ideal et le Materiel, pensée, économies, sociétés, Paris, Fayard, 1984.

- **GOITEIN**(Shelomo.D), Le commerce méditerranéen avant les croisades: queques faits et problèmes, Diogène, N° 59, Paris, Gallimard, 1967, p.52, 68.

- **GUERREAU**(A); Le féodalisme:un horizon théorique, Paris, le Sycomore, 1990.

- **GUICHARD** (P); Château et communanté rurale dans l'Espagne musulmane du XII e siècle. Les Textes et l'archéologie. dans: L'Espagne et la Sicile... op. cit, p.193, 201.

- **GUICHARD**; Château et pouvoir politique, 1èr congrreso Internacional Fortificaciones en al-Andalus. Algeciras: Noviembre-Diciembre, 1996, Pub, 1998, p. 25, 31.

- **GHICHARD**;«L'Europe et le monde musulman au Moyen Age», dans: Hespéris Tamuda, vol. XXXV, Fasc.2, 1977, p. 67, 102.

- **GUICHARD**; L'Espagne et la sicile musulmanes aux XI-XII e siècles, Presses, Universitaires de Lyon, 1990.

- **GUICHARD**; Les Musulmans de valence et la Reconquête, XI-XIII e siècles, Damas, 1991, 2 T.

- **GUICHARD**(J); Structures sociales « Orientales» et «Occidentales» dans l'Espagne musulmane, Paris, La Haye-Mouton, 1977.

- **HEERS** (J); La ville au Moyen Age en occident: Paysages, pouvoirs et conflits, Paris, 1990.

- **HERNANDEZ CRUZ** (Miguel); El Islam de al-Andalus. Historia y estructura de su realidad social, Madrid, A.E.C.I, 1996.

- **IZQUIERDO BENITO** (R); Las alcazabas en al-Andalus. Sentido y funciones. dans: Fortificaciones en al-Andalus... op. cit, p. 103, 110.

- **JEHEL** (G); **RACINET** (Ph); La ville médiévale de l'occident chrétien à l'orient musulman, V-XV^{è} siècle, Paris, A. Colin, 1996.

- **JOHSUA** (I); La Face cachée du Moyen Age, Paris, La Brêche, 1988.

- **LAGARDÈRE** (V); Campagnes et paysans d'al-Andalus, VIII-XV^{e} siècles, Paris, Maisonneuve-La Rose, 1993.

- **LAGARDÈRE**; Esquisse de l'organisation militaire des Murabitún à l'époque de Yùsùf B. Tásfin, 430 H (1039) à 500 H (1101). dans: Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, N°27,Sep.1979, p.99, 114.

- **LAGARDÈRE**; Histoire et société en occident musulman au Moyen Age. Analyse du Mí'yàr d'al-Wansárisi, Madrid, Casa de velázquez, C.S.I.C, 1995.

- **LAGARDÈRE**; Le Vendredi de Zellaqa 23octobre 1086, Paris, L'Harmattan, 1989.

- **LAGARDÈRE**; Les Almoravides jusqu'au règne de Yùsùf B. Tásfin (1039, 1106), Paris, l'Harmattan, 1989.

- **LAGARDÈRE**; Structures étatiques et communautés rurales:Les Impositions légales et illégales en al-Andalus et au Maghreb:XI-XV^{e} siècles. Dans : Studia Islamica, T. 80, Paris, 1994.

- **LE GOFF** (J); « Note sur société tripartite, idéologie monarchique et renouveau économique dans la chrétienté du IX au XII^{e} siècle », dans: Annales, Economies, Sociétés, Civilisations, A.E.S.C, 1968, p. 80- 90.

- **LE GOFF** (J); **BIRABEN** (J. N); «La peste dans le Haut Moyen Age». Dans : Annales. E.S.C; N° 6, 1969, p.1481, 1510.

- **LE GOFF** (J); **NORA** (P); Faire l'Histoire, Paris, Gallimard, 1974, 3 vol.
- **LEMGELLE** (M); L'Esclavage, Que sais-je, N° 667, Paris, P.U.F, 1992.
- **LE ROBET** : Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Paris, 1980.
- **LETOURNEAU**(R); L'occident musulman du milieu du VII siècle à la fin du XV^{è} siècle ». dans:Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Alger, 1958, p.147, 176.
- **LÉVI-PROVENÇAL**(E); Inscriptions Arabes d'Espagne, Paris, La Rose-Leiden, Brill, 1931.
- **LÉVI-PROVENÇAL**; L'Espagne musulmane au X^{è} siècle, Institutions et vie sociale, Paris, La Rose, 1932.
- **LÉVI-PROVENÇAL**; Histoire de l'Espagne musulmane,
- T. Premier: La conquête et l'Emirat Hispano-Umayade, (710,912).Paris, Leiden, 1950.
- T 2: Le Califat umayade de Cordoue, (912, 1031).
- Paris, Maisonneuve, Leiden (Brill),1950.
- T 3: Paris, Maisonneuve, 1953.
- **LIROLA DELGADO** (J); El poder naval de Al-Andalus en la época del Califato Omeya, Granada, 1993.
- **LOMBARD** (M); Arsenaux et bois de marine dans la Méditerranée musulmane, VII-XI^{è} siècle. dans: Espaces et réseaux du Haut-Moyen Age, Paris, La Haye-Mouton, 1972, p. 107, 153.
- **LOMBARD**; « Le bois dans la Méditerranée musulmane, VII-XII siècles, un problème de cartographie », dans: Espaces et réseaux... op. cit, p.153, 176.
- **LOMBARD**; « Mahomet et Charlemagne. Le problème économique ». dans: Espaces et réseaux... op. cit, p. 31-45.
- **MALPICA CUELLO**(Antonio); « Un Hisn en las Memorias del Rey Abdellah: QABRIRA. dans: Revista del centro de Estudios Historicas de Granada y su Reino. N°1, Granada, 1987, p.53, 67.

- **MANZANO MORENO**(Ed); La Frontera de al-Andalus en la época de los Omeyyas, Madrid, C.S.I.C, 1991.

- **MANZANO MORENO**; El Asentamiento y la organización de los yùnds Serios en al-Andalus.dans :<u>Al-QANTARA.Vol.XIV, Fasc.2</u>, Madrid, 1993, p.327, 359.

- **MAQUEDA JIMENEZ**(D);« Algunas precisiones cronológicas sobre las murallas de Sevilla ». dans: <u>Fortificaciónes en al-Andalus</u>... op. cit, p.333, 339.

- **MARTINEZ-GROS**(Gab); L'idéologie omeyyade: la construction de la légitimité du califat de Cordoue (X-XI[e] siècles), Madrid, Casa de velàzquez, 1992.

- **MAZZOLI-GUINTARD**(Ch); Châteaux et rebelles. L'exemple d'al-Andalus à la fin du IX[e] siècle. dans: <u>châteaux, nobles et aventuriers 3[er] rencontre internationale d'archéologie et d'Histoire en Perigord, Perigueux</u> 27-29 sep, 1996, Bordeaux, 1999, p.19, 49.

- **MAZZOLI-GUINTARD**; Villes d'al-Andalus. L'Espagne et le Portugal à l'époque musulmane, VIII-XV[e] siècles, Presses universitaires de Rennes, (P.U.R), 1996.

- **MEOUAK** (M); La Biographie de Gálib; haut fonctionnaire andalou de l'époque califale: Carrière politique et titres honorifiques. Dans : <u>Al QANTARA, Vol. XI Fasc.1</u>, Madrid, 1990, p. 95, 112.

- **MORABIA** (Al); Le Gihad dans l'Islam médiéval; « Le combat sacré », des origines au XII[e] siècle, Paris, Al Michel, 1993.

- **MOUTON** (D); « L'édification des Mottes castrales de Provence, un phénomène durable, X-XIII[e] siècles ». dans : Château Gaillard... op.cit, p.309,321.

- **PIRENNE** (Henri); Mahomet et Charlemagne, Paris, P.U.F, 1970.

- **POLY** (J. P); **BOURNAZEL** (E); La mutation féodale X-XII[e] siècle, Paris, P.U.F, 1980.

- **Problèmes de Stratification sociale.** Colloque international, Paris, 1966, P.U.F, 1968.

- **PUNAL FERNANDEZ** (Tomas);«Las rutas militares del Henares jarama en la edad Media », dans: <u>Revista de las Armas... Ejercito, N° 621</u>, op. cit..., p.66,73.

- **RADHI BASHIR** (Hassan); El ejercito en la época del califato de Al-Andalus. Tésis Universidad Complutence, Madrid, 1989-1990, 2 T.

- **ROMAN** (Yves); Le Haut-Empire romain, Paris, Ellipses, 1998.

- **ROSS** (D.J.A); L'originalité de « Turoldus », le maniement de la Lance. dans: Cahiers de Civilisation médiévale, N° 2, Avril-Juin 1963, p.127, 138.

- **ROUX** (Simone); Le monde des villes au Moyen Age, XI-XV^{e} siècle, Paris, Hachette, 1994.

- **SÉNAC**(Ph); La Muralla islamica de Huesca. dans:2^{e}congreso de Arqueológía medieval espanóla, Madrid, 1987, p. 590, 601.

- **SÉNAC**; « Les Husùn du Tagr Al aqsa: A la recherche d'une frontière septentrionale d'al-Andalus à l'époque Omeyyade ». dans : Frontière et peuplement Castrum 4, op. cit, pp. 75, 84.

- **SÉNAC**; Musulmans et Sarrasins dans le Sud de la Gaule du VIII à XI^{e} siècle, Paris, Le Sycomore, 1980.

- **SÉNAC**; Note sur les Husùn de Lérida. Dans : Mélanges de la Casa de velàzquez, T. XXIV, Madrid, 1988, p.53, 59.

- **SÉNAC**; **ESCO** (C); une forteresse de la Marche supérieure d'al-Andalus. Le Hisn de SEN et MEN Provence de Huesca. Annales du Midi, T. 100, N° 181, Jan-Mars 1988, Toulouse, Privat, 1988, p.17, 33.

- **SOLER** (Alvaro); **ZOZAYA** (J); « Castillos omeyas de planta cuadrada: Su relación funcional », dans: III Congreso de Arqueología medieval Espanóla, Oviedo 1989, p. 265, 274.

- **SOURNIA** (J. Ch); Médecins arabes anciens X-XI siècles, Paris, Conseil international de la langue française, 1986.

- **SOUTO** (J.A); Sistemas defensivos andalusíes: notas acerca de la defensa militar de la Zaragoza Omeya. III Congreso de Arqueologia medieval espanla, Oviedo, 1989, p. 275, 285.

- **TAHIRI** (A); Problemas de una reconstrucion urbana en al-Andalus: El ejemplo de la Sevilla ábbádí », dans: Genèse de la ville islamique en al-Andalus et au Maghreb-occidental, Madrid, Casa de velazquez, C.S.I.C, 1998, p. 219, 227.

- **TORRES BALBÁS** (L); Ciudades Hispanomusulmanas, Madrid, Segunda ed, 1985.

- **TORRES BALBÁS**;Ciudades Hispanomusulmanas de nueva fundación. dans: Etudes d'Orientalisme dédiées à la Mémorie de Lévi-Provençal (E), Paris, Maisonneuve-La Rose, 1962, p. 781, 803.

- **TORRES BALBÁS**; Rábitas Hispano musulmanas. Dans : Al-Andalus, Vol. XIII, Fasc 2, Madrid-Granada, 1948, p. 445, 491.

- **TOUBERT** (P); Les structures du Latium médiéval, Ecole fr. de Rome, 1973, 2 vol.

- **VALLVÉ** (J. B); La division territorial de la Espaná Musulmana, Madrid, C.S.I.C, 1986.

- **VALLVÉ**; La Industria en al-Andalus. dans: Al-QANTARA, Fasc1-2, Madrid, 1980, p. 209, 238.

- **VALLVÉ**; El Califato de Cordóba, Madrid, MAPFRE, 1992.

- **VALOR-MAGDALENA** (P); La Arquitectura militar y Palatina en la Sevilla musulmana, Sevilla, 1991.

- **VIGUERA** (M.J); **y otros**; Los Reinos de Taïfas: Al-Andalus en el siglo XI, Madrid, Espasa Calpe, 1994, p.193, 225.

- **WHITE** (L); Téchnologie médiévale et transformations sociales, trad. fr, Paris, 1969.

- **ZOZAYA** (J); Evolución de un yacimiento. El Castillo de Gormaz (SORIA), dans: Guerre, fortification... Castrum 3... op. cit, p.173, 178.

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

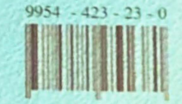
إن البحث في التاريخ العسكري الأندلسي هو، في واقع الأمر، دراسة في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لأن المجتمع والسلطة والاقتصاد مقولات لها وجه عسكري يعكس، بشكل من الأشكال، مستوياتها وأهميتها. لذلك لاتقف دراسة النظام العسكري عند الجوانب «الحدثية» أي المعارك وتعدادها وأعداد الجند والانتصارات والهزائم. إنها دراسة تحاول التعمق في قضايا أساسية مرتبطة بالمقولة الثلاثية التي يتقاطع فيها المُلك (السلطة السياسية)، والجند (أداة السلطة)، والاقتصاد (البنية المادية للسلطة والجند).

المؤلف :



- من مواليد أيت اعتاب، إقليم أزيلال.
- حاصل على دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الوسيط الأوربي من جامعة تولوز (فرنسا) عام 1985.
- حاصل على دكتوراه الدولة في التاريخ الأندلسي من جامعة الحسن الثاني بالمحمدية عام 2000
- شارك في مؤتمرات وندوات وطنية ودولية.
- له أبحاث منشورة في دوريات علمية متخصصة.
- يعمل أستاذا محاضرا بجامعة الحسن الثاني (المحمدية).

9954 - 423 - 23 - 0



الثمن : 50 درهم